واسيني الأعرج

المخطوطة الشرقية

روايات

٦

لوحة الغلاف /الفنان سلام عمر

منذ خمسين سنة! قرابة النصف قرن، والدنيا هي الدنيا، وأنا هو أنا. لم تتغير كثيراً. أنتظر. وأنتظر دائماً. أستيقظ فجراً مثل المريض. أنزل إلى الساحل المنسي، بمائه الرمادي. أضع بعض الخشيبات على السفينة التي تحمل اسم "سفينة الأمير نوح"، التي صممت على بنائها منذ أن وَطِئَتْ قدماي هذه المياه البعيدة، ثم أطليها بقليل من القار الذي تحضره الزنجية قبل أن أغوص في الساحل نهائياً. في يدي اليمنى عصا البامبو التي اقتطعتها من وادي القصب.

من أين يأتي هذا النشيد المهموم؟!



ISBN-2-84305-593-X
9 782843 055935

روايات

روايات

سلسلة كتب تصدر عن
دار المدى للثقافة والنشر
رئيس مجلس الادارة والتحرير
فخري كريم

العنوان

سورية - دمشق صندوق بريد: ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩

روايات
٦

واسيني الأعرج

المخطوطة الشرقية

دار المدى للثقافة والنشر
٢٠٠٢

التَّماثِيل ، عِنْدَمَا تَنْحَني ، تَنْكَسِرُ .

مَثَلٌ صيني قديمٌ

"والحقُّ لا يُقَاوَمُ سُلْطَانُهُ ، والبَاطِلُ
يَقْذِفُ بِشِهَابِ النَّظَرِ ، شَيْطَانَهُ"

عبد الرحمن بن خلدون

القسم الأوّل

انْدِثَارُ نُومِيدَا- أمْدُوكَالْ[1]

١ - هو اسم المدينة في رواية « رمل الماية » - فاجعة الليلة السابعة بعد الألف . و« المخطوطة الشرقية » استمرار لليلة نفسها .

- I -

- ١ -

في البدء كان اللون ، وكانت الزرقة .

في البدء كان البحر ، ثم الفضاء ، فالهواء ، وكان الذهول والدهشة .

في البدء كانت الظلمة والرعشة ، وكان الرجل الوحيد في الدنيا الذي غطى الشمس بالغربال ، ومشى عارياً على واجهة البحر قبل أن يندفن داخل موجة هاربة و هو يصيح في وجه قدره ، ملء فمه :

"يا سيد الدين والدنيا! ؟ يا سيد القلوب والجبال والقصور والحكم والأبجديات المنسية . يا سيد الألوان والغيوم والسماوات السفلى و الأراضي العليا ، اسمع الحكاية ثم احكم بحكمك ، اسمع ما تبقى من الكلمات الضائعة واسمع الأشواق والأنوار وما تبصره العيون وما لا تبصره ، ومَا يَراه القلب والذاكرة ، بعدها عتم الدنيا إذا شئت ، وخذ البحر بين يديك وامح لونه واشرب ماءه واخرج ذاكرة الناس ثم ضعها تحت قدميك ، وضع الشمس بين يديك واعصرها مثل أوراق الخريف والرماد ولا تتوقف . . ." .

يا سيد الدين والدنيا! ؟ هل تسمعني ؟! .

- باسم الله الرحمن الرحيم! ؟ من أين تأتي هذه النداءات الملعونة ؟! هل هو البحر المنسي ؟ أم الرجل الأعمى المنكفئ على ربابته والذي امحت ألوان عينيه و لم يصمت ؟ ما الشأن العظيم الذي قاده إلى هذا المكان وفي هذا الفجر البارد ؟ لا يعقل ؟ ربما كانت رعشة نزول الدهشة هي السبب ؟!

لست في غار حراء أتلذذ بتقليب كلمات ورقة بن نوفل ، وحكم اليونان المنسية ، وتدوين أبجديات الأم البدائية ولكني في واجهة البحر ، أنتظر نزول الدهشة التي تعيدني إلى تربتي القديمة عالي الهمّة ، مرفوع الكتفين ، وعلى رأس لساني حلاوات السلطان .

منذ خمسين سنة! قرابة النصف قرن ، والدنيا هي الدنيا ، وأنا هو أنا . لم نتغير كثيراً . أنتظر . وأنتظر دائماً . أستيقظ فجراً مثل المريض . أنزل إلى الساحل المنسي ، بمائه الرمادي . أضع بعض الخشيبات على السفينة التي تحمل اسمي " سفينة الأمير نوح" ، التي صممت على بنائها منذ أن وَطِئَتْ قدماي هذه المياه البعيدة ، ثم أطليها بقليل من القار الذي تحضره الزنجية قبل أن أغوص في الساحل نهائياً . في يدي اليمنى عصا البامبو التي اقتطعتها من وادي القصب .

من أين يأتي هذا النشيد المهموم ؟!

وهو يعبر الساحل ، التصقت بوجهه مجموعة من الأوراق . كانت زرقة البحر قد بدأت تتضح . فتح الورقة . حاول أن يحك عينيه ويفك حروفها .

"يا سيد الدين والدنيا!! ؟ يا سيد القلوب والجبال والقصور والحكم والأبجديات المنسية" .

- يا لطيف ؟ النشيد الذي سمعته يأتي من البحر! ؟

عاصفة الأوراق تزداد أكثر فأكثر . كانت تلتصق بوجهه كأسراب النحل . نزعها بعنف ، بسمل وحوقل من جديد . لملمها وكورها ثم طوح بها داخل البحر ، بكل قوة باتجاه نورس كان ينقر الماء الأزرق .

هذا نذير شؤم . منذ الفجر الأول وأنا أسمع نعيق البوم . ثم صوت هذا الأعمى المنسي مثلي ، والآن هذا النورس الجائع الذي يقتات بالماء! ثم هذه الأوراق المملوءة برائحة عبد الرحمن . أوراق عمياء تشبه الوطاويط . من أين خرجت داخل هذا الخلاء المقفر ؟ لقد تكاثرت ، وأصبحت تغطي على البيانات التي أملأ بها الساحل منذ الفجر الأول ، وصارت معروفة ، بخطها المغربي الذي يميزها عن بياناتي ، ويدفع بهؤلاء الصيادين المقطعين ، نحوها بشغف . يقرؤونها على مسامع بعضهم البعض ، ثم يضعونها في صدورهم . ماذا فيها من استثناءات وأسرار ؟ نصفهم لا يفهمها ، سوى أنها تذكرهم ، مثلما تذكرني بميثولوجيا موجودة في الأعماق عن رجل سيأتي وعن تدوين مغربي ضخم ، سيقذف به البحر على الحافة المنسية . صرنا جميعاً ننتظره بشغف كبير .

وها ما زلنا ننتظر . الصيادون وأنا .

خمسون سنة وبعض الألم .

خمسون ألفاً وبعض السنوات .

انتظاري الكبير و أملي المرتبك وقراءاتي الكثيرة حولوني إلى شاعر . شاعر يموت في الليل ويستيقظ باكراً . يتأمل البحر ، لعل العلامة تكون قد ظهرت ، ثم ينكسر ليموت ثانية في أقرب مكان معزول .

تأمل الأمير نوح ولد الملياني السماء المجوفة بيأس وهو يعدل من شاشيته الحمراء التي تنسدل من قمتها خيوط سوداء ، يقول عنها خيوط البركة والسلطان .

حتى هي ملت!

هاهي ذي طيور الغاوية تغادر البحر جماعات ، جماعات نحو فضاءات أخرى ثم تغيب في السماوات العليا بأجنحتها البيضاء المتسخة لتتبدد نهائياً ، ويعود الساحل المنسي إلى صمته الأول . وهاهم الصيادون! مثلي! من مات ، مات ، ومن بقي حياً ، لا يزال ينتظر نصه الضائع وأوهامه المذهلة و يكابد العزلة بالصبر . الورقة التي التصقت بوجهي ، هذا الفجر ، لم تورثني إلا مزيداً من اليأس والخوف . أشعر أن في الكلمات ، رائحة عبد الرحمن . أنا قلتها و لم يكن كلامي خواء ، عندما تنقر النوارس الجائعة سطح الماء وينعق البوم ، لا بد أن يكون وراء الأمر علامة شؤم ، ولا بد أن يحدث شيء مخيف . هذه الأوراق تهددني في استرداد حقي الذي سرق مني منذ خمسين سنة . يجب أن أحكم ولو يوماً واحداً ولو على الخراب والرماد ، قبل فوات الأوان وقبل أن تذهب الأوراق نحو رجل يتربص بي الشرور و يسرق مني انتظاري و صباحاتي وأحلامي .

هذا الصوت الآتي من بعيد ، ليس صدفةً .

هذه الورقات المغربية التي تملأ الساحل ، ليست صدفة . كسَرت قلبي هذا الصباح ، وآلمتني وشوهت الحلم الأبيض الذي غرقتُ فيه الليلة الماضية . خطوط أبجدياتها الملتوية ومعانيها ، تذكرني بالبحر وأن الزرقة ستظل أبدا سيدة الدنيا وأن الكلمة التي امتلأ بها فم آدم هي ب . . . ح . . .ر ومنها اشتق "حبّ" و"حب" و"حرب" و"حبر" لكتابة أشواقه وأحزانه . وأن أول أرض وطئها هي الماء . الماء . وإلا لتهرس مثل الفخار القديم وهو يسقط على رأسه بعد أن أخرج بعنف من أروقة الجنَّة ، وحواء غارقة في الضحك ، تتأمله وهو يحاول أن يتراجع إلى الوراء إلى أن سقط . وهي تقهقه ملء شَدقيها ، يغمرها ألق أزرق .

لا بد أن يكون وراء خطوطها المغربية متربص بسلطاني ، يتخبأ بين الحروف والكلمات ويستهدف خطواتي القادمة بوثوق . كلهم

يعرفون ، وأوسكار على رأسهم ، أن لا أحد غيري ، لا أحد أبدا ، يعيد بناء الخرابات ويُقيم الدنيا ويطوع الرعية . يخطئ من يظن غير ذلك . لا أحد يملك طاقتي للصبر ، أضحك أحياناً من أيوب .

- زرقة البحر حالت ، وأنا ما زلت هنا .

هل هناك صبر أكثر من هذا ؟

- ٢ -

في الألف الثالث من الزمن الميت ، كانت أرض و أسواق نُومِيدا- أمدوكال تعد موتاها ومجانينها ، وعصاباتها ، وحنينها بعد الحرب المدمرة التي مسحتها من الخارطة ، قبل أن تنسحب باتجاه أمادرور (حضرموت في رواية أخرى) ، أكبر مدنها ، وتتكون نهائياً على ساحلها الذي يتسرسب عبر امتداد من الرمال لا يحد بالنظر وبالمشي .

كان الزمن الأول قد انسحب ، ليبدأ زمن ثان ، بدون عيون ، ولا ذاكرة ، ولا فرح .

- هاه! نكاية فيكم يا أولاد الحرام . مؤرخون . وراقون ، منجمون . سماسرة . مستعاشون داخل القصور وخارجها . طحانون ، شعراء ، غاوون ، سحرة ، مؤمنون ، و فاجرون . . . نكاية فيكم جميعاً ، ها نحن نتخطى جحيم الليلة السابعة بعد الألف ، بدون خسارات كبيرة . وها الأمير نوح ، حامي الذرية الجديدة يهيئ سفينته لملء الدنيا بذريته الصالحة التي تعيد دم الأجداد إلى منبعه (كلام كبير! يا الله ما عليهش هؤلاء الأوغاد في حاجة إلى من يهدهدهم قليلاً بالكلام الذي يشتهون) ، رغم خيانات المؤرخ ودنيازاد والفاجعات التي صنعاها . .

نكاية فيكم يا أولاد الحرام . . . الليلة السابعة بعد الألف ، أبادتكم قبل أن تبيدنا .

من قال إنها انتهت ؟

تمتم الأمير نوح ولد الملياني وهو يبسمل ويحوقل . ثم فتح قميصه الفضفاض على كل اتساعه وفتح يديه عن آخرهما ، في شكل صليبي مبرزاً صدره الذي بدأت خطوط السنين تملؤه . ثم بدأ يستنشق رائحة البحر الذي غامت زرقته في هذا الفجر الذي نزلت برودته بشكل غير عادي ، في أواخر خريف شرع في الانسحاب مبكّراً .

كانت الرياح قد بدأت تعوي مثل الذئب الجائع ، ومعها ترتفع الرمال الكثيفة والأوراق القادمة من شواطئ أخرى ، وأكياس الحليب الفارغة ، وقصاصات الكراريس المدرسية التي حالت وامحت كتاباتها الأصلية ، وأوراق الصحف التي ضاعت ألوانها وتداخلت خطوطها ، وعلب البيرة الهولندية ، والألمانية والإسبانية والفرنسية وقطع صغيرة من شبابيك الصيادين ، وبقايا بيانات الأمير نوح ولد الملياني التي يوزعها في كل فجر قبل أن يرتاد الصيادون موجاتهم الكثيرة . يبعثرها منذ الفجر الأول في الفضاءات العالية .

منذ خمسين سنة والأمير نوح ولد الملياني يمارس هذه المهنة ، ولا أحد يعلم مصدرها مطلقاً .

"أوف! ؟ كم من السنوات مرت داخل هذا الامتداد الأزرق الفارغ ؟" .

" يَانُوحْ النَّوَاحْ .
آشْ مِنْ طُوفَانْ جَابَكْ وَرْمَاكْ ؟
تَدِّيكْ هَبَّهْ ، وَتْجِيبَكْ رْيَاحْ
كِيفْ خَلِّيتْ أَرْضَكْ وَسْمَاكْ ؟
اللَّهْ يْجِيبْ لِيكْ وَلِينَا سْرَاحْ
يَانُوحْ النَوَاحْ . . ." .

سمع من بعيد صوت عِيسَى الجرموني وهو يملأ الأرجاء أنيناً وحزناً . تخيله كالعادة ، منكفئاً على ربابته ، ينشد أشواقه المقتولة أو ما تبقّى داخل مسامات الذاكرة . لا أحد يعرف من أين جاء عيسى الجرموني ولا الأمير نوح ، سوى أن الجميع ذات صباح وجد نفسه متآلفاً مع الآخر داخل السخرية والشتيمة والحبّ . حتى الصيادون ، هم في الحقيقة من بقايا السلالات المسحوقة التي هربت من نار الحرب والتجأت إلى هذا المكان منذ الهجومات الأولى على سواحل نُومِيدَا-أَمْدُوكَالْ . الكثير منهم لم يكن يلتحف إلاّ الموجَ ورمال الساحل وبعضاً من زرقة البحر ، لكن مع الزمن ، نصبوا الخيام بعد أن اشتروها من الرجال العابرين الذين يتوضؤون بمياه البحر ويقايضون الماء بالأملاح والأشياء الكثيرة الصالحة للبيع والشراء . ثم فكروا عندما اقتحمتهم الشتاءات القاسية في حَفْرِ الغيران و بناء بيوتات بيضاء بالطّمْيِ والحجارة وقصب السبخات . ابتعدوا عن قلعة علماء الآثار ، وهي القصر الذي كان يرتاده شَهْرَيَار بن المقتدر أيام عزّه ، ثم الملياني بعده عندما كانت تنتابه رغبة الغوص في حمام الشمس المعتاد ، داخل حفر الرمال ، ثم العلماء الأنتروبولوجيون ، وأخيراً أنا بعد أن رممته قليلاً مع الزنجية . لم تمنعهم حياتهم القاسية ولا حياة الخطر والروتين ، من إيجاد لحظة لتدخين لفافة تبغ ومسح جسد عابرة على الشاطئ ، من رأسها حتى أخمص قدمها ، أو لعب الكارطا أو التسلّي بالحكايات والمغامرات وتخييط شباك الصيد والاستماع إلى صوت عيسى الجرموني الحزين وهو يبحث عن أدق وأقسى وأرقّ خيط في ربابته القديمة التي لم يهرب إلاّ بها .

يشعر الأمير نوح أنّ في عيون الصيادين شيئاً من الخوف والدهشة .

تساءلوا كثيراً في البداية ، عندما نزل عليهم هذا الرجل فجأة واقتحم عذرية بحرهم وأسرارهم وعاداتهم . مِنْ أينَ خَرَجَ هذا المخْلُوق الغريب في لباسه وكلامه وحركاته ؟! هم عادة لا يتساءلون لكن هذه

المرة ، الأمر لم يكن عادياً . عادة ، الحاكم وحاشيته وأتباعه وأتباع أتباعه ، عندما يخيمون على الساحل ، يطردون كل البحارة ، باتجاه المنحدرات الفارغة والرمال الصخرية . لكن مع نوح ، تأكدوا أن في هذا الرجل نوعاً من الغرابة ، وتأكدوا أنه لا يملك من الآخرين سوى تبعية الاسم المسروق . فقد ظل طوال هذه الفترة بسيطاً ، يقيم صلواته اليومية على الشاطئ في شكل يوغا . قبلته البحر وغُروب الشمس وهي تبتلع من طرف الأمواج العالية . ثم إنه لم يفكر أبداً في طردهم من البحر ، هم الصيادون البسطاء سندهم الوحيد الماء وحاميتهم ، سماء مجوفة ، تتلون مثل الحرباء آلاف المرّات في اليوم الواحد . يصطادون للضرورة ، وينتظرون العلامة المدهشة التي تخرجهم من كآبات الموت الهادئ والبطيء . تساءلوا كثيراً بعيونهم الصغيرة التي تشبه عيون النوارس ، ثم أهملوا الفكرة وتعلقوا أكثر بوجوده . فقد أصبح الأمير نوح ولد الملياني جزءاً من النظام العام لساحل أمَادرور (حضرموت ، في الروايات القديمة) الخالي إلاّ من صيادي المرجان والسمك الأزرق ومقايضي الماء بالملح . لا يعرفون الكثير (خصوصاً الذين وُلدوا بعد الحرب المدمّرة أو الذين نزحوا مبكراً إلى هذا المكان) عن الحرب الهالكة للزرع و الضرع ، ولا عن الحرب الأهلية سوى ما وصلهم من النازحين الذين التحقوا بهم من بعد هرباً من الجحيم القاتل ، استضافوهم مدة من الزمن قبل أن يواصلوا عبورهم باتجاه أماكن مجهولة .

لم يكونوا يعرفون أن اسمه الأمير نوح ولا أنه ابن الحاكم الملياني الذي سرق البلاد والعباد قبل أن يؤكل حيّاً مثل الفأر العاجز . وعندما عرفوا اسمه ، زاد تشبثهم به من بعيد ، لا لشيء سوى لطقوسه اليومية ولاسْمِهِ "نوح" الذي كانت به بعضُ الغرابة وبعضٌ من السحر والدهشة ، والحنين لذلك الرجل الذي جاء بِهِ أصْحَابه من بعيد ، قبل أن يقدموا على محوه وحرقه . كل ذلك لم يمنعهم أبداً من التغامز عليه من حين لآخر ، على أساس أنه يعيش مع زنجية في سن جدته ، قبل أن يهملوا الموضوع نهائيّاً ويعتبروهُ جزءاً من الديكور العام لهذا الفضاء الأزرق ، وهذا

الساحل الممتد على ١٢٠٠ كيلو متر .

كلما مرَّ على البحارة ، ينحنح الأمير نوح ولد الملياني ، ثم يحوقل ويبسمل في أعماقه ، وبعدها تغمره سعادة دفينة ، فيبتسم ثم يواصل هيامه على امتداد الساحل وهو يقتفي آثارَ الموجة التي تغطّي الشمس ليقيم صلوات المغرب .

ـ أوف!! ما أبرد هذا الفجر ، لا أدري من أين يأتي كل هذا القدر من الحزن ؟

لأول مرة ، يشعر بأن أسنانه كانت تصطك .

والله لولا واجب السفينة والألواح ، وواجب توزيع البيانات ، وانتظار النصّ الذي سيقذف به البحر ، ما نزلت في هذا البرد . رقدة مع الزنجية تسوى حقّها .

خمسون سنة انتظار .

خمسون سنة من الزرقة والكابوس وبعض الأحلام .

كيف حال الناس الذين لا ينتظرون ؟ كيف حال الذين بقوا في البلاد البعيدة ؟

ومع ذلك يجب ألاّ أفكر . فلا شيء أجلب للألم مثل التفكير .

استنشق من جديد الهواء الثقيل المحمل بالرذاذ الذي اندفع ببرودة نحو الأعماق ليجرحها بعنف ويدميها ، و يتحول إلى رغوة تسدّ الحلق بقوة . كانت الموجات قد بدأت تبيض ، وتتكسر الواحدة تلو الأخرى عند أقدامه . تكاثرت بفعل الرياح التي كانت تزداد كلما خرجت الشمس من مدفنها .

الأشياء بدأت تتحول في داخلي إلى كتل سوداء . منذ أن واجهتني الأوراق المصورة والمنزوعة من تصنيف مغربي قديم ، مرمية على طول الساحل ، لدرجة الالتصاق بوجهي ، كالوطاويط العمياء ، وأنا أشعر بأن

الأشياء بدأت تسير مقلوبة على رأسها ، مع أنَّ لحظة الفَرَج بدأتْ تقترب ، كما يقول لي دائماً صديقي أوسكار ، عالم الآثار .

لا يعقل .

خمسون سنة بأيَّامها .

مائة سنة بنهاراتها ولياليها وأنا هنا ، مثل النصب المواجه للبحر الذي تتقطع أمواجه عند أقدامه! هذا الزمن الصعب والمجوف ، عليّ أن أجلس وأعدّه ، لحظة لحظة ، ودقيقة ، دقيقة ، وساعة ، ساعة ، ففي كل التفاتة جزء من عمري يسرق بسرعة مذهلة . وأنا ما زلت هنا . دائماً هنا . أنتظر مع المنتظرين . هم متعلقون بخرافة صارت حقيقة وأنا أراقب الموجة الكبيرة التي تغطّي الشمس ليأتي الذي أنتظره ولكن . . . الشمس تغيب وتعود . الموجة تذهب وتأتي . والبحارة يصطادون مرجانهم وأسماكهم وينزلون إلى سبخة القصب ينتظرون رجال العبور ليسلموهم ما تبقّى من بضاعتهم لأنّ الجزء الأكبر منها يأتيني إلى القلعة عن طريق عمّالي الذين تشرف عليهم الزنجية ، لنوجهه بعدها إلى الشاطىء ليلاً ويأتي من الأصدقاء من يأخذه . أوف! تلك قصة أخرى ، معقّدة جداً . أصلاً لولا أصدقائي في هذا الساحل المفجع لتغير كل شيء نحو الجحيم .

"هاهم! ؟ هم وأنا ، ننتظر الذي يأتي ولا يأتي" .

شفاههم يبست من كثرة الجليد . من الفجر حتى آخر الليل . منذ نصف قرن! شيء مهول . ننتظر علامة البحر كما كان يفعل الأجداد في نوميدا-أمدوكال في ذلك الزمن البعيد الذي صار حكاية وهم يقرؤون الطالع وغيوم السماء ، وشقوق الأرض ، وتكسرات الموج على صخور الشاطئ المهجور ، وينتظرون مجيء المُوريسكي (الذي صنعوه على قدّ أحلامهم وبعدها أكلوا رأسه ، بعد أن دفعوا به نحو خرابات التفتت والموت) . حتى السفن التي كانت تأتي إلى هنا ، في ساحل أَمَادرور ، لم تعد معنية كثيراً بهذا الخواء ، خرابها في اسمها . حضرموت ؟ حاضر

ميّت . نوميدا-أمدوكال تمزقت مثل لعبة الأطفال الجميلة .

البلاد صارت بلداناً . وكل واحد يدّعي أنه حاكمها . العصابات هي التي تسيّر يومياتها ، وكل واحد يسحب سلالته نحو نوح المقتول (ليس أنا ولكن الرجل الذي سميت باسمه . أوُتِيَ به من بعيد ، لِيُقْتَلَ من بعد مسموماً) .

يومياً تصلني التقارير الشفوية من صديقي أوسكار ، فأزداد حزناً وفرحاً لاقتراب يوم العودة الكبرى ، وأخط على رمال البحر الأيام التي تمضي إلى غير رجعة .

وسط هذا الفراغ الأزرق لا يسمع إلاّ صوت عيسى الجرموني ، وهو يردد أحزانه القديمة التي اندفنت تحت ركامات الرماد .

بْلاَدِي سَرْقُوكْ وأنْتِ فِي غَفْلَهْ .

بْقَيْتِ فِي الحَلْقْ حَاصْلَهْ دَفْلَهْ

ونْكُمْ يَارْجَالْ البْلاَدْ وَالرْيحيَّه ،

بَابَا عَرْبِي ، مَّي مَاهِي رُومِيهْ

أه ياخويا الجرموني!! أنت لا تعرف من الدنيا إلاّ شكلها ومن الحقيقة إلاّ موجتها التي تتكسر عند رجليك بحزن . الحكم يوصل إلى كل التهلكات ، لكن لذته التي تسري في الدم ، لا يشعر بها إلاّ من ذاقها ، مثل الحلوى الشباكية التي توضع على اللسان وتبدأ في الذوبان من تلقاء نفسها شيئاً فشيئاً ، بدون حتى أن يحرك اللسان والشفتان . لذة لا تضاهيها إلاّ قبلة الدهشة المسروقة التي نفكر في مسحها ، وبعدها نقول ، ليكن! كانت لذيذة وطعمها شيّق وشهيّ .

أنا هنا منذ قرابة النصف قرن . أنتظر أن يأتي دوري وأصرّ على حقّي بأظافري ، وأشواقي وكتبي التي أقرؤها وبحري الذي يملؤني . جئت صغيراً إلى هذا المكان . لا أتجاوز العشر سنوات . الآن عمري يزحف

بشغف نحو الستين . ولولا هذا الاهتمام الزائد من الأصدقاء الأنتروبولوجيين ، لتحولت زرقة هذا البحر إلى مشنقة .

آه يا خويا الجرموني! طيبتك ذكرتني بنوح (الأصلي) الذي جاؤوا به من بعيد ليمسحوا أوساخهم وبعدها قتلوه . كان شاعراً مثلك ، يملأ علينا الدنيا بحنينه داخل قفر كان اسمه الوطن . ولهذا أشعر دائماً بضعف نحوه . فأجد نفسي مضاداً لوالدي ، ولكنها لحظة فقط ثم أمحوها بسرعة حتى لا تتمدّد داخل الجسد لتصير مرضاً وأخسر فرصتي في الحكم . دواوينه كانت ممنوعة ومع ذلك قرأتها كلها ، خصوصاً ديوان "البهجة" الذي حملته معي في رحلتي نحو هذا الموت الأزرق . أتذكر كل تفاصيله . كانت بعض مقاطعه مبرمجة منذ زمن بعيد في الكتب المدرسية . وكانت الزنجية ، خادمة القصر الصغيرة ، التي لم تكن تكبرني إلاّ ببعض السنوات ، تأتيني به وتقرأ عليَّ بعض نصوصه حتى في زمن منعه رسمياً من طرف والدي . ذات مرة خافت من العواقب . قالت . . . يا سيدي! ؟ وقبل أن تنهيها صرخت في وجهها مثل الكبار : أنا سيدك يا بنت الناس . بنت الحرام . ذكية . هي كذلك كانت تحبّه ولكنها لم تكن تصرح لأنها كانت تقرأ أشعار نوح بحنان مفرط وعندما تمتلئ عيناها بالدموع تستأذن ، من أجل غسل وجهها ، لأن نظرها صار ضعيفاً . وأنا كنت مثل الغبي ، بل غبياً . أصدقها وأقول لها ارتاحي ، ولكنها كانت ترفض أن ترتاح ، حتى صرت عاشقاً مثلها . الحق ، الحق ، قصائده تدخل إلى القلب مثل الشهب . عيب نوح أنه كان شاعراً في وضع لم يكن يحفل بالشعر كثيراً . الحكم والشعر لا يتفقان مطلقاً . هذا ما كرره والدي على مسمعي آلاف المرّات ، وبعده أصدقاؤه العلماء الأنتروبولوجيون .

أنت هو أنت يا خويا الجرموني . تنشد نشيدك الحزين ، وعندما تنتهي تنكفئ قليلاً على الصخرة المواجهة للشاطئ وتنام على خيوط ربابتك المصنوعة بيدك . وعندما تستيقظ على تكسر الأمواج ، تزحف نحو البحر ، تغسل وجهك ورجليك ، وتضمّخ قليلاً خيوط ربابتك حتى

تصيّرها ناعمة مثل الموجات الرقيقة الآتية من بعيد ، ثم تغيب باتجاه مكان ما عند أي صياد يُؤويك لليلة أو ليلتين ، أو غار ، أو حائط قائم أو شجرة . أحسد الصيادين في حبهم لك ، ولكنك تستأهل ، فأنت رجل لم يقده إلى هذا المكان إلاّ حبه . مثلي تماماً . أنت هنا من أجل امرأة وأنا من أجل سلطان سرق مني لحظة الغفلة .

عيسى الجرموني جاء إلى أمادرور (حضرموت) منذ زمن بعيد ، يقال إنه من الأوائل الذين استوطنوا هذا الربع المقفر . لم يكن سياسياً . كان محبّاً . عشق امرأة متزوجة ، من رجل كان مجنوناً بها ، ولكنها كانت مأخوذة بصوت عيسى . ظل زمناً يرتادها ، كلما غاب زوجها التاجر داخل شأنه اليومي ، وذات فجر بارد وهو يمرّ عبر زقاقها ، وربابته بين يديه وعيناه في السماء . سمع صوتها الذي اختلط بصوته الشجي . يا عيسى حبيبي . أُسْكُتْ اللهْ يَحْفَظَكْ . اطلع بسرعة!! وصعد أدراج الطابق الرابع بسرعة خارقة . عندما وصل ، كان الباب مفتوحاً ، دخل كالبرق . كانت عند المدخل تتأمّل قامته المديدة ، عانقته بعنف شديد . كان زوجها قد غاب ، في تجارته منذ أكثر من شهرين . قالت . عيسى!! يا عيسى ثم ابتسمت بحزن بعد أن ارتسمت في عينيها دمعة مقلقة . أنا حامل منك ؟! بقي لحظة مثقل اللسانْ . كلماته كانت مبهمة . تمتم ولكن الكلمات استعصت عليه . أرخت رأسها على صدره . مدّ أصابعه داخل شعرها القمحي المحنّى . كان مثل شلاّلات الجنّة . قال . لنهرب . دنيا الله واسعة . أنا زوالي . عاش ما كسب ، مات ما خلّى . نكسب قوتنا اليومي من صوتينا وشجونا في الساحات البعيدة ، وفي المساء ننام بهدوء وراحة . وإذا شِئْتِ أن نتزوج ، سنتزوج . واتفقا . وعادت لها الابتسامة لتملأ قسمات وجهها الحزين . عندما مرّ عليها ، طلّ زوجها برأسه الحليق من الطابق الرابع ، فطلت من وراء ظهره ، وأشّرت لعيسى الجرموني أن أهرب ، القتلة يترصدونه . عرفها من صرختها القوية . أهرب يا عيسى الله يحفظك من عيون القتلة . منذ ذلك الزمن البعيد وهو لا يعرف شيئاً سوى نظرتها التحذيرية وشجاعتها

وقسماتها ، التي أصبحت جزءاً من أناشيده الحزينة . وعندما سمع من أحد العابرين أنها قتلت بفظاعة ، بكاها حتى العمى . فقد أنزلها زوجها داخل حفرة حفرها بيديه ، في الساحة العامة ، وطلب من الحاضرين رجمها . وظل الجميع يرجمونها وهي تقهقه وتقهقه وتصرخ : سيدكم عيسى هرب . عيسى في الجنة وسأتبعه . حتى فلقت حجرة كبيرة رأسها ، فسقطت على فمها ، واندفنت تحت الكتل الصخرية شيئاً فشيئاً . وإلى اليوم يسمى المكان ساحة "خليلة الجرموني" . منذ ذلك الزمن وعيسى الجرموني يبكي حتى امّحى سواد عينيه . قيل له أهرب إلى أبعد مكان ممكن . فأهلها مجانين ، والخليق يشعر بالإهانة . وقد أقسم أن يبيدك ولو اختبأت داخل البحر .

آه يا عيسى ، كلما تذكرت قصتك ، لا أعرف إذا ما كان عليّ أن أحبك ، لأنك كنت عاشقاً كبيراً ، أو ألعنك لأنك نجوت بجلدك وتركتها تموت هناك ؟! الزنجية عشقتك وعشقتني فيك ، مثلما فعلت قديماً مع أشعار نوح الشاعر الحاكم ، ثم مع ألف ليلة وليلة التي قرأتها كاملة على مسمعي في لحظات الخلوة ، في ذلك الزمن البعيد .

وأنا أعبر خرابات هذا الألف الثالث ، عليّ أن ألعنها من أصلها . هي سبب التهلكة . ألف ليلة وليلة! ؟ هي التي شهدت انهيار عروش وقيام أخرى . أحرقت آلاف المرات ، ثم قامت من رمادها مثل طائر الفنيكس . هي التي أكلت أهواءَ السابقين . أسقطتهم في فراغات الموت ، وأغرقتهم في دسائس الحكم التي دفعت شهريار بن المقتدر إلى أن يأتي على كل حريمه ، وعندما أراد أن يستولي على الكتاب ، كانت السكين في صدره ورصاصات الأصدقاء تملأ فمه وظهره ، قبل أن يرمى نحو أنفاق الأسود الجائعة ، والثعابين الإفريقية وتوضع في تابوته ، جثة إحدى محظياته اللواتي مرّر شهريار السكين على رقابهن وبطونهن ، كانت تتفرج على عملية القتل . ألف ليلة وليلة . كتاب الغفلة والنسيان . كتاب الحنين والأشواق والدم . لهذا طالب والدي الملياني وفقيهه ابن كيوان الأندلسي بضرورة تفتيش كل المكتبات الوطنية وغير

الوطنية ، وحرق كل النسخ المتبقية ، ومعها ، كل الكتب والتصانيف التي سرقت عقول الرعية . وأصدر فرماناته بالشنق والحرق والمحق ، ضد كل من وجد في بيته ورقة من كتاب اللعنة . كتاب الغواية الكبرى . الغواية التي سرقت الشعراء والغاوين ، الذين تحولوا إلى وهج داخل الكلمات والحروف ، حتى غابوا وانطفؤوا مثل الأشعة . وجدوا أشواقهم في غوايات عبد الرحمن التي يقول عنها هو بنفسه ، إنها أمَ الحرف والشوق ، وسيدة المقام والحنين . الحرف الذي لا يغوي عاشقه ، موته أفضل من استمراره .

والآن ، لم يبق الشيء الكثير من تلك البلاد ، سوى الرماد وأصداء الذين وقفوا على مشارف المحرقة وهم يهتفون بحياة الملياني وابن كيوان الأندلسي ، بأصوات عالية وغوغائية : الله ينصرك يا حاكم هذا الزمن ويسعدك بابن كيوان . بالروح ، بالدم ، نفديك يا همام ، يا زين الرجال . كان الجميع يتأمّل الشعلة التي هيئت لحرق الكتب ، كانت بعلوها ، تلامس الغيوم ولون السماء الداكن . الناس يقفون صفّاً صفّاً مثل أيام الحشر ، يلبسون ألبسة نارية وهو يتوسطهم . الملياني . يحمل في يده اليمنى مشعلاً مثل مشاعل الألعاب الأولمبية . وابن كيوان يبعد الناس ، ويوسع ما بين الصفوف ، ويتحسس عقده ، وأشواقه الميتة في خلوة . كان طوال عمره ، يتمنّى أن يصير كاتباً كبيراً ومعروفاً ، ولكنه أخفق و لم توصله محاولاته إلا إلى البهدلة .

ذاكرة الناس قصيرة جداً . ينسون بسرعة . لم يعد أحد يسمع بهذه الحكايات ، التي صارت جزءاً من أصداء البحر ، وتكسرات الموج . السلالات الأولى انقطعت ، والدنيا صارت ضيقة مثل عين إبرة .

هل يعقل ؟ من يراني على هذه الحال لن يصدق و لن يقول عنّي إنّي من سلالة الملوك والسلاطين . ليكن . فأنا أعمل ضمن توجهات أصدقائي الأنتروبولوجيين . ونصيحة خويا عيسى الجرموني الذي يصدح

كل يوم داخل هذه الفراغات حتى صارت جملته دليلي الأوحد .

إذا جاءك الزمان بضرّه ،

البس له ثوباً من الرّضى .

واشطح للقرد في ملكه ،

وقل يا حسرة على ما مضى .

ها أنذا قد لبست ثوب الرضا ، وما زلت أشطح للقرد في ملكه منذ خمسين سنة . مستحيل . الصبر صار مستحيلاً يا خويا الجرموني . لا أدري ما الذي يقودني نحو صوتك هذا الصباح . مضطر أن ألبس ثوب الرضى ، وإلاّ أكلني هؤلاء قبل أن يأكلني البحر وقسوته . أرأيت يَا خويا الجرموني ؟! ما أصدق الدنيا!! مساراتنا أحياناً قدرية ، أو على الأقل فيها شيء من ذلك . تخدمني ، تخدم الأمير نوح . نوح ذو القرنين هاه . . . هاه . . . هاه . . . هاهما القرنان يخترقان جلدة الرأس ، ويخرجان مثل الإبرتين الرقيقتين . تلك إمارات العلامة الكبرى . هكذا قال المنجمون لوالدي : في سن متأخر ، ستخرج من رأس أحدكم ، داخل سلالتكم قرون ، وقتها سيكون وراء الأمر علامة! هل هي علامات الخراب أم علامات الحكم ؟ صمتوا و لم يقولوا شيئا .

كان عليَ طوال هذا الزمن ، أن أمثل قدر ما أستطيع عملاً وتنفيذاً لنصائح أصدقائي . أن أتخبأ وراء الشاشية الحمراء ، وعصا البانبو والفوقية البيضاء ، والبلغة الفاسية ، أن أكثر من المخادعات و les fausses pistes ، حتى صرت لا أعرف متى يبتدئ أنا ومتى ينتهي . حتى اسمي ، لم يعرفه الصيادون إلاّ في الآونة الأخيرة .

عندما دكّت المدافع الآتية من بعيد مدننا التي خسرت أسماءها ، كنّا نبحث عن النجاة ، وفجأة وجدت نفسي داخل هذه المدفنة الزرقاء ، تاركاً ورائي صراخات المليان وهي تتقطع بعدما مزّق قطعة قطعة ، والنيران تشتعل عند البوابات .

أوف!! هذا كذلك موضوع طويل ومحزن لا أريد الخوض فيه الآن فهو يقلق راحتي .

وهاأنذا ، أنا السلطان المرشح لحكم الدنيا . أقف مع الأوغاد الذين تعودت مكرهاً على وجوههم وعاداتهم ، وأنتظر العلامة ، التي ينتظرها جميع من سكن هذا البحر . أن يقذف البحر كتاب عبد الرحمن ، الذي ينجي الضرع والزرع . يقال إن الكتاب يكشف ما خفي من حقائق الدنيا . تصنيف نادر يقال إنّ رجلاً صوفياً خطّه ، كان اسمه عبد الرحمن . لا نعرف عن هذا الرجل تفاصيل كثيرة ، سوى أن بعض الكتب والمجلدات التي تخلط بين حياته وحياة أحد أجداده الأندلسيين ، حتى صارت السيرة واحدة ، تقول عنه إنه رجل ارتحل كثيراً ، وهاجر نحو الفلوات عندما دَهَمَتْه مظالم السلطان والحكّام . ألّف كتاباً ضخماً يتضمن مجموعة من الأخبار العامة ، معشّقه بمعلومات تمهيدية ، يستعرض فيها فلسفته في شؤون الدنيا . قال عنه ابن الخطيب : عبد الرحمن خاطب للحظ ، سديد البحث ، كثير الحفظ ، صحيح التصور ، مفخرة من مفاخر التخوم المغربية . ويقال والعهدة على من رووا الكثير من أخباره في الحارات والساحات إن أصله من حضر موت . ويقال إن أحد أجداده كان من صحابة النبي ، ولقي حتفه وهو يقاتل إلى جانب الخليفة علي ، أشياع معاوية . وعندما جرف الطاعون بلاد المغرب ، وأكل أبويه ومشيخته . فقد نزل الطاعون الجارف بالعمران شرقاً وغرباً في منتصف المائة الثامنة فتحيَف الأمم وذهب بأهل الجيل وطوى كثيراً من محاسن العمران ومحاها ، وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها ، فقلص من ظلالها وفلّ من حدها البشري ، فخرجت الأمصار والمصانع ، ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل ، ويقال أكثر من ذلك كله ، بل أجزم أني قرأته ، إن أحد أجداده كان مثله مغامراً . كان علاّمة ، وعلاّمة عصره . طلب من أهله أن يلتحقوا به في القاهرة . لكن أهله وولده كلهم هلكوا حين غرق المركب في عرض بحر ليبيا . ولأول مرة ، يترك الفلسفة ويحكي عن فاجعته بحنان ، وبمأسوية كبيرة ،

قبل أن يدعوه تيمورلنك إلى طاولته استخفافاً به قبل أن يسحره عبد الرحمن ويهرب باتجاه الأغوار البعيدة . يقولون إن عبد الرحمن عاش أكثر من هذا كله وألف همّه و أحزانه في تدوين نادر ، من قرأه عرف سرّ السلطان والعمران .

وهاأنذا ، والصيادون معي ، ننتظر جميعاً علامة البحر ، متى يقذف بهذا التدوين . لا أدري من أين جاءت هذه الفكرة ، لكن منذ أن وطئت قدماي هذا المكان ، والكلام يتكرر ويعلك مثل نبتة الأسنان القروية . حتى أصدقائي الأنتروبولوجيون ، متيقنون من ذلك . في البداية استغربت ، لكن بعدها اقتنعت بما اقتنعوا به ، واقتنع به الجميع . منذ ذلك الزمن البعيد ، ونحن ننتظر بشغف ، وأعمل جاهداً لتلاقي المصائر . . مصير الكتاب ، والسفينة ، والعودة إلى نوميدا-أمدوكال عالي الرأس إلى سلطاني المسروق .

تصنيف عبد الرحمن ، أرقَ الصيادين . عيونهم تَجَحْلَلَتْ . يتداولون سهر الليالي جماعات ، جماعات ، عبر سنين لا تحدّ ، في انتظار الكتاب الذي يقذف به البحر . لقد حالت زرقة البحر ، وهم ينتظرون . قيل لهم في البداية ، بعد خمس سنوات سيصل الكتاب ، ثم بعد عقد . ولم تصل ولا ورقة منه . ثم قال بعض حكمائهم الذين هربوهم معهم عندما اندلعت الحرائق الأولى في نوميدا-أمدوكال ، بعد ربع قرن ، سيشتعل الموج ، وتبرز تحته كُتَلٌ مثل البراكين ، عليها كتلة من الأوراق المتفحّمة ، المقروءة بصعوبة . وانتهى ربع قرن ولم يأت شيء . ثم نصف قرن . وهاهم ينتظرون ولم يأت . لكن الجديد في الأمر هو أن الوريقات المدونة بخط مغربي ، بدأت تملأ الساحل المهجور . زاد يقين الصيادين ، أن النص المنتظر صار قريباً من قلوبهم وعيونهم . كانوا في البداية يتقاتلون للحصول على بياناتي ، لكن الآن تغيّر كل شيء . أصبحوا يستعملونها لمطاردة شؤم النوارس المنفردة عندما تبدأ في نقر المياه ، وينتظرون وريقات التدوين المغربي ، وهم على يقين أنها مأخوذة من كتاب عبد الرحمن . يلتهمونها بقوة وبدون هوادة .

تحولاتهم هذه عقدتني . أحياناً ، قبل أن أوزع بياناتي ، عليّ أن أنقّي الساحل ورقة ورقة من المخطوط المغربي حتى أرمي بأوراقي في رمال خالية وتكون هي السيدة ، لكن مع الزمن تكاثرت أوراق المخطوط حتى أصبح من المستحيل عليّ متابعتها . هؤلاء الصيادون يتشبَّثون بأي شيء يضمن لهم مخرجاً من الخراب . لقد سرق منهم كل شيء بسبب بعض طيبتهم . الحكم عدو الطيبة وسيد الحيلة . الحكم مصلحة فيها الموت ، الخيانة ، القتل ، وبعض من العدالة إن أمكن ، والبقية كلها رومانسيات . (عمّي) نوح الله يرحمه ، كان طيباً ويريد أن يؤسس لقطيعته مع الآخرين ، فظل مقطوعاً طوال أيّام حكمه عن الدنيا . حتى الذين أحبّوه ، تخلّوا عنه . ولكنه فتح تاريخه داخل اللغة وأبجديات الموت . ليكن . أنا كذلك لا أطلب أكثر من هذا . لأحكم يوماً واحداً في حياتي . لأشف غليل نصف قرن من الانتظار ، ولتأت القيامة بعد ذلك ، إذا شاءت . وسأدخل داخل عمق نصوص الأبجديات الحية ، نكاية في الذين أوقفوا الدنيا عند بوابات الليلة السابعة بعد الألف .

يومياً أعبر هذا الساحل الفجّ . لا أتكلّم . أبسمل . أحوقل . أبتسم للصيادين من فوق قلبي ، ثم أمضي في سبيلي أعبر ما تبقى من امتدادات هذا الربع الخالي ، منذ نهايات الربع الأخير من الألف الثاني وبدايات الألف الثالث .

وضع رجله فوق كومة من الرمال . غاصت . أحسّ بنوع من الدفء يتصاعد إلى قلبه . تأمل البحر ، كان رائقاً بين هاته الصخور العالية التي كانت تملؤها طيور الغاوية ، والسيولات البركانية التي تجمدت منذ قرون عديدة ولا أحد يعلم متى تعود البراكين إلى حركاتها القديمة . كل الجبال الخامدة ، انفتحت رؤوسها من جديد .

اتكأ الأمير نوح ، على عصا البامبو الخشنة . تأمل الغيمات التي بدأت تتداخل داخل بعضها البعض بنوع من الخوف ، بحثاً عن دفء ما ، ثم عاد من جديد ، لينزع البلغة الفاسية بسبب كثافة الرمال الدافئة .

هذا المكان خاص تماماً ، لا يشبه بقية الساحل . على الأطراف ، الحقول الواسعة التي كانت تخضر بأمر من والدي في غير موسمها . كنت أزور معه المكان صيفاً ، عندما تشتعل الشمس ، أو ربيعاً ، في النصف الثاني ، الساخن . كان مريضاً بالرُّوماتيزم . يأتي إلى حفرة "حمام الشمس" ، عندما يبدأ دَاءُ المفاصل في نخره . يدخل الحفرة الساخنة على الشاطئ ، قرب قلعته . ثم يُردم في الرمال طوال الصبيحة ، عارياً مثل الفأر . حتى صار المكان ، شبه مقدس ، بنيت بجانبه مع الزمن ، قلعة للراحة والاستحمام ، وحوّطت بسياج كبير ، التهم كل الحقول المجاورة ، وجزءاً من الشاطئ الدافئ . ولكن القلعة اندثرت بفعل الإهمال منذ الحرب المدمرة التي أكلت حيطان البلاد . وفي كل مرة يقوم أصدقائي الأنتروبُولوجيون بترميمها حتى تصبح صالحة للسكن لي وللزنجية التي التصقتُ بسرابينها قبل أن تأكلني الموجات البشرية التي كانت تتدافع داخل قصر والدي . لا يوجد كهرباء ، ولكنها مسيرة بمولدات تصلح لأشياء متعددة ، حتى للمنارة القديمة التي لا تستعمل إلا عند الضرورة ، عندما تكون السلعة التي نقوم بتهريبها من هنا مهمّة جداً ، بعدما اندثر النفط من هذه البلاد ، والزيت المشتعل والغاز ، ولم تعد البلاد تغري كثيراً .

الله يلعنك يا عبد الرحمن . ها نحن نعود رويداً ، رويداً ، نحو خلاء القرون الماضية . حتى زيت الصحراء التهموه . شربوه . وما بقي ، لم يعد مغرياً للشركات الدولية الكبرى . من أنت يا أخي ؟ ابن آدم ؟ فكرة ؟ روحاني ؟ من أين يأتيك كل هذا السحر ؟ نلفظ باسمك ونحن لا نعرفك ، ولا نعرف سرّك ، أنتظرك ، لا عشقاً في وجهك ، ولكن أشعر أن وراءك سِحْراً ، يتعلق بالحكم ، أريد أن أعرفه . أن أقرأ كتابك قبل أنْ أدخل الناس داخل هذا البحر . الوريقات التي تلتصق بوجهي من المخطوط المغربي ، زادت من قلقي . من تكون أيها الرجل المجنون ؟ عبد الرحمن بن خلدون ؟ عبد الرحمن الداخل ؟ عبد الرحمن الكواكبي ؟ عبد الرحمن المجدوب ؟ عبد الرحمن منيف ؟ عبد

الرحـمن . . . ذَكَـرَتْكَ كل الكتب . حـتى الكتب السـمـاوية لَمّحت لوجودك ؟!

أنا كذلك يهمني وجودك ، حتى ولو كنت وهماً ، أو مجرد حكاية مغرية . يقول الرواة والمحنكون ، والحكماء إنك كتبت تصنيفاً ضخماً ، صورت فيه كل الاشتعالات التي مسّت البلاد . كتبت عن سقوط هذه المدن وبشـرت بـانهـيـاراتـهـا . تحـدثت عن الزيت المشـتـعل في بـاطن الأرض ، يقولون إن تصنيفك يشبه في صياغته النصوص الدّينية لمزيد من التأثير والتعظيم ، وإنك دونت رسالة نوح الأخيرة الموجهة للأمة و المفـقـودة ، وزفـرة اليـأس التي خـرجت من عـمـقـه وهو يتـمـزّق سـمّـاً ومسعودة تمسح عرقه . أقول أحياناً في خاطري ، لماذا لا تكون أنت هو سيدي عبد الرحمن المجذوب ، الرجل المـحـون بالمرأة والدواة والقلم ، واللذة ، والمدينة والحرف الوهّاج ، حرف الجنّة والسحر الذي لا يموت ولا يفنى . كـان سيدي عبد الرحمن المجذوب ، في الزمن الفائت ، عندما يخفق في قص حكايته ، تنتابه حالة جنون قصوى ، يضع يده على قلبه ، ثم يتـأوّه ويتعرّى ، ويظـل يغنّي ويصغر ، حتى يصير طفلاً ، ثم يـبدأ في الصـراخـات والحنين ، حـتى مـات ، وفي حلقـه شيء من وجـه مـاريوشـا وذاكـرة المورسكي الحزين ، وثعبانه الأخضر صاحب القبـعـة الذي أكل نفسه قبل أن يأكل رأس سيدي عبد الرحمن المجذوب . وفي أحيان أخـرى أقـول ، لماذا لا تكـون أنت هو عـبـد الرحـمن منيف الذي حـارب قـسـوة الابتـذال ، وقف شـامـخـاً كـالنخلة في هذا الربع الخـالي بالذات ، تَدَشْـدَشَ في لحظة الحـزن والـوحـدة ، وقـال : هاتوا لـي قلمـاً ودواةً . وعندمـا بدأ يـكتب ويحـفظ الحـروف الأولى من النسـيـان ، بدأ يضـحك ويزعق ، ثـم مـزّق كل الأوراق و من يومـهـا وهو يجـوب المدن الميـتـة ، ويبشر مثل القوال بانهياراتها ، قبل أن يجد زاوية مهجورة في صحراء موران . هناك بدأ تدوين الزمن الصعب ووضع الماء الساخن بين حيطان مدن الملح . كان يتأملها وهي تنهار الواحدة وراء الأخرى ، مثل الألعاب الجميلة . أو ربّما كنت عبد الرحمن الداخل ؟! الذي دخل البلاد البعيدة

وعندما أراد أن يخرج منها ، شعر بعمره يغادره . قال والله هنا باقون . لا بلاد الشام كافية لحلمي ، ولا بغداد ، هنا يموت قاسي . وشيّد دنياه على ساحل قوطي لم يكن فيه أيّ صدىً . كان يظنَ أن المدن المفتوحة ، تبايعه أبد الدهر وأنه مالك السواحل والحكايات ، قبل أن ينتعل خوفه ويموت حزيناً مكتئباً . ربما ابن خلدون ؟ عبد الرحمن بن خلدون . لماذا لا تكونه ؟! الرجل المتعب ، الذي جاب الدنيا ، على ظهره لعنات الحرف والتدوين وتحت قدميه العصر الشفهي الميت . يتأبط كتاباً ضخماً صمّم أن يعرّي فيه ندوب العصر الممقوت ويوقظ العيون المنسية . ولماذا لا تكون عبد الرحمن الكواكبي ، الذي لمس الطغيان بشوكة القلم ، فتأوه كل طغاة الدنيا ، وصمموا على أن يجعلوه نعلاً في قصورهم ، لكنهم عندما بحثوا عنه لم يجدوا إلاّ حروفاً قد تسربت نحو البيوتات الواطئة ، ودخلت عيون الناس و قلوب الرعية .

من أين خرجت يا عبد الرحمن ومن تكون يا هذا المنسي داخل التواريخ المدوّنة ؟ يقولون إن كتابك يذكر الصغيرة والكبيرة حول سقوط هذه المدن الرملية . وهاهي ذي تسقط الواحدة تلو الأخرى . لقد انتقلت بين يوم وليلة ، من الكهرباء إلى زيت شحم الإبل ومن النَّاطحة الزجاجية إلى الخيمة ومن ماء الصخر إلى مياه المستنقعات والسبخات . وهاهو ذا الربع الخالي ، يمدّ يديه نحو مزيد من الخلاء ، والحجارة السوداء والرمل والقفر والفراغ بشتّى الألوان . المُلْكُ سقط . القصر ذهب مع الريح . مدن النحاس غرقت وخرجت من الحفر كل العادات القديمة والسكاكين وبقايا الحيوانات المنقرضة .

وأنا ، ما زلت مصراً على حقّي في السلطان ، ولو يوماً واحداً . قد يقال عنّي مجنون بعدما انهار كل شيء ومست المياه الساخنة مدن الملح . مهبول ، لا يزال يحلم بالسلطان حتى ولو كانت عيشته مثل عيشة الكلب الذي يخبئ رأسه خوفاً من موتٍ مُفاجئ ، إذ لا شيء يستحق الذكر في هذا الفراغ الأزرق سوى التهريب . عليَ أن أهرّب لأعيش . هكذا قال لي أوسكار : يا نوح!! اعمل لتعيش . سنساعدك ،

لكننا لن نَحُلَ محلّك . علّمني هو والعلماء الأنتروبُولوجيون وتجولوا بي في دهاليز أمخاخهم ، حتى صرت سيد الشّاردة والواردة داخل هذا القفر المائي . المرجان الذي يجمعه الصيادون يُلَمْلَمُ من أطراف متعددة و يصلني في نهاية المطاف . وأنا ملكُ المقايضة والسعر النهائي ، وتوجيهه عبر الساحل إلى سفن أجهل هويتها . أصلاً لا تهمّني مطلقاً ، وأعمل بثقة . لا أسأل . هكذا قال أوسكار . إذا أردت أن تصل كن طيعاً كعلك وأعرف كيف تلتصق في الوقت المناسب . بدأت بالكوراي (المرجان) ثم هاأنذا أملأ الأكياس بالكنابيس (القنب الهندي) الذي يصل إلى القلعة بانتظام متزايد ، ثم أضَعُ فوقه قطع الكوراي وأنزل أنا والزنجية السلعة ليلاً باتجاه الساحل المسيج . يأتينا زورق صغير . بعد إشارات عديدة ، يأخذ سلعته وينسحب بعد أن يضع الرجل الملثم في كفي أوراقاً زرقاء قادمة من بعيد . ألفلفها ثم أعود بدون سؤال ولا رغبة في معرفة وجه البائع . صديقي أوسكار يعرف الصغيرة والكبيرة ، ولهذا أنا أثق فيه كثيراً . كبرت على وجهه و بين يديه . حتى عندما يغطيه أعرفه . أدين له بتلك اللحظة الأولى التي غيّرت مجرى التفاصيل في داخلي . ركبنا معاً الطائرة المروحية نفسها ، منذ خمسين سنة ، عندما انتزعني من مخالب الموت وغادرت البلاد في ظروف غامضة وعمري عشر سنوات . سحبني من ظهري ، بقوة . لم أصرخ ولكني مددت يدي الصغيرتين و نشبتهما في سربانة الزنجية التي كانت مشدوهة أمام منظر الدخَان والدم و صراخات والدي اليائسة ، والموت الذي كان يقترب بخُطا سريعة . زمن دموي ، صار فيه البحر بلا لون ، والكتاب علامة والرغوة في الحلق صارت خوفاً أبدياً .

* * *

- II -

تقول الصحائف القديمة ، التي اندثر جزء كبير منها في الحرب المدمرة التي أكلتْ نوميدا-أمدوكال ، إني ورثت القرنين عن أحد الأجداد المنقرضين . شهريار بن المقتدر الذي كان يظن نفسه أنه ينام على فراش من حرير ، وأي حرير أيها الرجل الخائب! لقد مات مثلما ماتت مدنه ، لكن لا أحد يعرف كيف حدث ذلك بالتفصيل . الذين رأوا ما حدث صمتوا مع الزمن . لقد كان المنظر مفجعاً . امرأته دنيازاد كانت تخونه عشرات المرّات في اليوم . كلّما سهت عيناه ، تفتح فخذَيها لرجل تكون قد هيأته قبل أن تأكل رأسه . كانت تقول دائماً : هذه هي أنا وهذا كنزي وسأحكم الدنيا ، والعشاق به والسفلة . وتَضَعُ يدها على عانتها العارية . تقول : نكاية في البغل القبرصي . منذ ذلك الزمن الذي انقرض بشكل غامض صَرَّحَ العَارفون ، أنه بعد مائة سنة ، سيأتي رجل بالمرفولوجيا نفسها . وهاأنذا أعود لأبني من الرماد وطناً ، وعلى رأسي تاج من قرنين صغيرين .

عندما لاحظت القابلة الانتفاخين على رأسي ، قالت ، هي علامات الألوهية والخراب والخوف . هي علامات النهاية والسلطان والبلاد .

صرخ الجميع و كادوا أن يرجموها . يا لطيف! ؟ لكنهم عندما تذكروا العادات المروية في الكتب القديمة تراجعوا . هاه!! جده الأول ، لم يكن يجد الراحة لمقتل ضحيته إلا بغرس قرنيه في صدرها . كل الكتب والرواة ورجالات العصر ونساؤه وناس الحلاقي (سمعتهم في القصر وفي جولاتي السرية عندما كانت تخرج بي الزنجية متنكرة نحو المدينة) قالوا مثل هذا الكلام وأكدوه بروايات كثير من الحكماء الذين عاشروا حياة الجدّ الأول . يبدو أنّي سأرثُ منه هذه الصنعة . أحياناً أفكّر باللذة التي كان يشعر بها وهو يستمع إلى عظام المقتولين وهي تتكسر تحت قرنيه و لا يهتز له ذيل و هو يسمع صراخات الألم المكتومة . ذات مرة عندما أزعجني بعض الصيادين ورأيت في وجه بعضهم قهقهات سخرية مفرطة تمنيت لو كان القرنان كبيرين بالشكل الكافي ، وأملك من السلطان ما يعطيني حقاً للتدمير لمحقتهم واحداً واحداً ، ولحولتهم تربة ناشفة ، مثلما كان جدي الأول يفعل .

"أولاد القحبة! هل تسمعونني ؟ هاأنذا! ذو القرنين ، أقف في مواجهتكم مثل الحائط . هللوا لهمامكم الذي أطعمكم من جوع و أمنكم من خوف" .

ذو القرنين . أبو الفراديس الضائعة ، الذي خسر آخرته وجزءاً من دنياه ، لكنه مصرّ بشكل مطلق ألاّ يخسر ما تبقى منها . لو كان سلطاني بين يدي ، لدرّبْتُ قرنيّ الصغيرين ، لكنها الدنيا بنت الكلب ، لا تسعفني دائما . يوم سقط القصر ، تحسست لا شعورياً قرنيَ ، لكن الجلد كان لا يزال يغطيهما . فانتبذْتُ الزّاوية المظلمة ، أو هكذا بدا لي . كان الناس يحملون الفؤوس والمذاري . لم أرَ إلاّ أفواههم ولم أسمع إلاّ صرخاتهم . كنت أتراجع ، وكان أبي يبحث عبثاً عن حائط أخير يتّكئ عليه و هو يصرخ حتى نلتصق بالمروحية . كيف طارت ؟ كيف نزعتني يد أوسكار من مخالب الموت ؟ كيف جرجرت الزنجية من سرابينها ؟ لا أدري . كانت رياح الليلة السابعة بعد الألف تدق على الأبواب مثل الموت ، كل من مددها وسحبها باتجاه غير وقتها الحقيقي ،

أكلته رياحها الساخنة . الدنيا قلابة بدّالة . هاأنذا! الأمير نوح ولد المليانى . . . بدون إمارة ولا مليانى يحمي ظهري . من قصر ملوكي عامر ، إلى ذئب عائش داخل البراري ، إلى مهرب مرجان ومخدّرات ، إلى مختص في البْرُوكْسِنِيزْم والقوادة Le proxenétisme . الذي يعذبني كثيراً ، هو أني كنت على مشارف السلطان ، وفجأة تكسّر كل شيء وبسرعة مقلقة وكأن شيئاً لم يكن . عصفت الدنيا بالبلاد ، واحترق زيت الأرض وذاب النفط نهائياً بعد أن امتصته أعماق الرمال . حاول المليانى (والدي) ، أن يوقف زحف الليالي المقلقة ، خصوصاً تلك الليلة الملعونة . الليلة السابعة بعد الألف . جاء بالكثير من أصدقائه على عادة أجداده . طبق الديمقراطية على الحياة العامّة . أنجز برلماناً يشرف على الرمال وعلى الإبل وعلى سوق الماء والملح . وذات مرة صرخ من أعلى قمة في مكتبه وهو يبرم شاربيه التركيين . هاه يا أولاد الحرام ، متخلفون حتى العظم . كلكم تشتهون النساء و كلكم يكذب على نفسه و على غيره! ؟ من حق المرأة أن تملك حقها ، في إطار الشريعة والضوابط المحلية والسبل المعروفة والسير المتوارثة والعادات والتقاليد . ثم بدأ يفكر في إعطاء الأوامر الصارمة للقوات المسلّحة التي كان يسيطر عليها (كان ينوي تعييني جنرالاً . الجنرال نوح! ؟ الله ما أحلاها . . الكلمة ممتلئة مثل المرأة الريفية) لكي تزحف لابتلاع الجيران ، في إطار تأسيس إمبراطورية غير محدودة ، عليها أن تدخل في سياقنا . بالحق أو بالباطل . بالعقل أو بالعنف . الظواهري شايف حاله ، وحاسب روحه . نورّيه ليماه الزّمباع وين ينباع ؟ كان مولعاً بشخصية هتلر و يرى العالم كله مخطئا في حقها . يقول : ماذا فعل الرجل المغبون ، سوى أنه أحبّ وطنه لدرجة الجنون ؟ وكان يعشق غاريبالدي . وبسمارك . وميشال عفلق . أصِبْتُ بلوثته في الإعجاب . لو فقط أسعفه الحظ لتوليتي جنرالاً ، لكانت أشياء كثيرة قد تغيرت الآن . في الحقيقة ، وهذا أقوله لأوّل مرة ، كنت أفكّر من حين لآخر في دفنه حيّاً ثم بعد ذلك أضع له نصباً تذكارياً يطل على مشارف المدينة التي يحمل بابها الرئيسي

اسمه : الزعيم الهمام . سلطان الدين والدنيا . ومفرق الطرق والأكوان . سيد المؤمنين والمتصوِّفين وأبناء السبيل و أميرهم . سلطان العراقة و سيد نوميدا-أمدوكال ، الملياني ، حفظه الله من كل مكروه ، ونصره على الأعداء قاطبة ، وفي جميع الأرجاء . قبل اندثاره ، فكرت بقتله مسموما و أنا لم أشق بعد تربة الأرض . شيء ما كان يغلي في داخلي ولا يزال . لماذا لم يصدر الفرمان قبل موته ؟ هو الذي أخّر الساعة خوفاً من جحيم الليلة السابعة بعد الألف . لكنه لم يكن يعلم أنه كان يسرق فرصتي الكبيرة لحماية الحدود التي ظل يحلم طوال عمره بتحويلها إلى إمبراطورية ، قبل أن يأكل الحلم رأسه . همس مرة في أذني ، ولست أدري هل كان يمزح أم أنه كان جاداً : أسمع يا أميري الصغير نوح . أنت وليدي وإلاّ ولد رجل آخر ؟ أنت وليدي وإلا ولد الناس ؟ تعرفني . أنا لا يلعب بي أحد (ومع ذلك لعبوا به مثل الدمية المحروقة التي نزعت كل مفاصلها في لحظة من اللحظات) . يا صغيري ، أكبر بسرعة و ستصبح جنرالاً . قائداً أعلى للقوات المسلحة . أحذر مثل حذرك على عينك . اختر ، إما المرأة وإمّا الحكم! ؟ إمّا السلطان وإمّا الشعر والكلمات! ؟ الشعر لا يحكم والعَاشِق فاشل والسلطان هو الدم الذي يجري في العروق وخارج العروق . وهل تتصور أن المسألة بتلك السهولة ؟ ؟ هذا الدم الحار هو الذي جعلني أسترد مجداً مسروقاً ، وأجهضت مشروع العمال والعلماء المجانين ، الذين خططوا لوضع المدينة تحت رحمتهم . جدك الأول وثق في شهرزاد ، فأنجبت له ثلاثة أطفال من رجال ملونين ، من رجال هم أصلاً من المولّدين . كان فرحاً ، يقهقه مثل دابة الغواية . جدك الثاني ، شهريار بن المقتدر كان يظن نفسه ذكياً ، فلعبت به دنيازاد وتركته طعماً للأسود بعدما أنجبت له ابناً سمّته قمر الزمان من مؤرّخه ، مؤرخ المدينة وأحد أهمّ أقربائه . ثم حشت تابوته بمحظية كانت تتفرج على مشهد الغواية . وكان على نوح القادم من بعيد ، أن يموت . فالرجل أراد أن يحكم الدنيا باللغة والشعر والعشق . كان غالطاً ومخطئاً . فأفسد الشجر ، ودم السلالات ،

وعصف بالتقاليد والعروق والشهد والغواية ومياه الجسد المعطر بالحنّاء والمغوى بشهقات الأموات . وعندما نريد أن نقفز على الليلة السابعة التي أرخوا لموتنا بها ، سنصنع نحن ذلك القدر ونقطع اللحمة الموصلة ، كان عليّ أن أقطع الصلة مع شهريار بن المقتدر عملاً بشعر الرجل الأعمى .

إذا جاءك الزمن بضرّة

ألبس له ثوباً من الرضى

واشطح للقرد في ملكه

وقل يا حسرة على ما مضى .

كان عليّ أن أفعل ذلك . أن أمثل قدر ما أستطيع . فالناس كانوا يعشقون ، نوح . أنت تعرف أن الميت دائماً يَطْوَالُو رجليه . كنت في حاجة إلى وقت . عندما خرجت في جنازته بكيت كثيراً ، بكيت لا عليه ، ولا غيرة منه ولكن حسداً له من هؤلاء الناس الذين غمروه بالملايين بحبهم . وبعدها قلت ليكن . يقول الملياني : عليّ أن أسرق قلوبهم ، فانتميت لذريته مؤقتاً ، وسمّيتك باسمه . أنت تعرف أن الذرية في الحقيقة هي وسيلة لا أكثر ، نركب عليها لتذليل الرعية واستمالة قلوبها لقضاء حاجة السلطان . هل تعتقد أن كل الذين ادّعَوْا نَسَبهم للرسول أو لفاطمة ، أو لعليّ بن أبي طالب أو لغيرهما ، هم من السلالة ؟ أعرف أن أكثريتهم منتحلون زناة ، لا يرف لهم جانب في لحظة السهوة والغفلة . الدروس أعرفها وأمارسها عند الحاجة . قلت لوالدي بدهشة ، وكنت صغيراً . يا أبي ، هذه خيانة لدم الأجداد حتى ولو كانوا أنذالاً . قال : يا بني ، أو ابن الناس ، لا يهمّ . عليك أن تعرف أن الحاكم الصحيح هو الذي يتآلف مع كل موقف . لا تكن غرّاً أو بزّاً ، فتذهب ريحك ويلعب بجثّتِك الرعاة والرعاع والزناة و الحفاة . أن تَحْكُمَ أو تُحْكَمَ . ونحن سلالة تعودت على الحكم . ونبتت فيه وانتظرت فرصتها الكبيرة ، بصمت وأناة . ولهذا من أجل السلطان ، نقتل .

نخون . نتواطأ . نمثل . نبجّل . ننزع العيون من محَاجرها . نشتري حتى الذين صارت ضمائرهم من حديد . الدين نلونه كما نشتهي . البريق صعب وقلّ من يقاومه . ننصب الكَمائن ، نخرج في الجنازات . نبكي على الذين ساهمنا في قتلهم ، ونحضن زوجاتهم وأبناءَهُمْ ، حتى يأتمنوا ويصيروا خاتماً طيعاً . نفتك بالطامع في السلطان ولو عن طريق الكلمات ، ونسبق الجميع نحو التعازي . نصنع المتفجرات في القلوب ، ثم نتسابق لجمع الأشلاء والكتابة على التابوت . "لقد كان يرحمه الله من أكبر الأبناء ، الذين ضحوا من أجل هذا الوطن المعطاء . " أو غيرها من الصيغ ثم نبكي أكثر من الباكين . هكذا نحن يا صاحبي . عندما نختار أن نحكم لا نلعب وإلا سيلعبون بنا ويحولون رؤوسنا إلى كرة يضحكون من عيوننا المفتوحة وأسنانِنَا التي تعض الفراغ . هل تريد أكثر ؟! أم نتوقف قبل أن نغوص في تفاصيل الفاجعة ؟

أيقظته النسمة الباردة القادمة من أعماق البحر . عدّل نوح وَلْدْ الملياني شاشيته من جديد ، ثم لوح بعصا البامبو في الفضاء ، نحو طيور النوارس الجائعة التي كانت تقتفي خطاه ، خطوةً ، خطوةً .

يبدو أن حالة الهذيان بدأت تأكلني . تزعجني كثيراً . ولكن لمن أفرغ قلبي داخل هذه الصخرة الزرقاء . البحر ، الرمل ، الظلال ، والجبال الصخرية البركانية ، التي بدأت أدخنتها تتحرك . هذا هو إرثي أمام سلطاني المسروق . الماء . النار . الموت . كان يقول لي : أنت الوحيد الذي ستمتلئ عينَاهُ ، برخاء هذه البلاد وتمتلئ غيمته بالنَعيم . فيك سمة السلالة . قرنان جميلان . القرون دليل الألوهية والعظمة المبكَرة . ومع انكسار الأديان صارت دليلاً على السلطة والحكم . وأنا أصلاً ، لا أريد أن أكون إلهاً . لو يتوفَر لي شرط السلطة والحكم فقط ، بعد انتظار نصف قرن وسط هذا الخلاء المقفر المملوء بألوان الرماد والدكنة والأدخنة والزرقة المفرطة ، سأكون حتماً أسعد إنسان ، بل إله هذه

الدنيا السائبة التي تفخر بهزائمها وأغلالها ، التي تحتاج إلى من يحكمها بقوة وصرامة . الديمقراطية الزائدة تفقد السلطان رهبته ونضارته . بالقرنين ، سأكون الفاطمي ذا القرنين ، ذا الرهبتين . رهبة الأصدقاء والأعداء . لقد تعودت العصور أن تسم نفسها دائماً بمجنون . لماذا لا أكون مجنون هذا العصر الذي سُرِق الحكم من بين يديه . سأكون الفاطمي المنتظر واسم هذا العصر بزرقَةِ اللون الذي يملأ ذاكرتي . كل الشروط متوفرة . الذرية . غرابة الرأس والقرنين . المنفى . ذهول البحر ، وتمزق الموجة مدة نصف قرن . الطقس اليومي الذي يدهش الناظرين وبياناتي التي تَغْزُو كل فجر هذه الرمال الباردة مثل وجوه صيّادي الكورَاي . والخشيبات التي ألصقها بهيكل السفينة . أمدّ يدي داخلها . أتحسّسها . هاهيَ ذي قد بدأت تتجوف ، وبدأ قاعها يظهر بشكل واضح . الهيكل الأصلي والأرضية صممها معي علماء الحفريات من أصدقائي . عندما ضحكت (وكان يبدو لي الأمر مستحيلاً) وقلت لأوسكار : تقوم القيامة ولا تقوم سفينة نوح ، ضحك واعتبر الأمر نكتة ، وتحديا في الوقت نفسه . قال لي : هاه يا نوح! تهيّأ . عندما تقوم سواري السفينة ، أعرف أنّ عالمك يقترب ، وأنك أصبحت على مرمى حجر من ذاكرة أجدادك . من يومها وحماسي في كل مرّة يشتعِل أكثر . لكن يا الله .

ـ "خمسون سنة ، تدبر الحجر ، وتحفي القلب" .

خمسون سنة ولا شيء تغير . لا شيء في الأفق سوى الزرقة الممتدّة التي صارت جزءاً من الفضاء العام لهذا المكان . نصف قرن من الانتظار والخيبة واليأس ، والسفينة العمياء التي لم تتحرك من مكانها داخل عرض البحر وداخِلَ غيمة سوداء مقفرة تغطيها منذ الفجر الأول حتى يطيح الليل ، لم تغير موقعها منذ أن رأيتها لأول مرة وأنا ألعب في عرض الساحل مع الزنجية . تحت الحراسة المشددة لأصدقائي من علماء الحفريات . خمسون ألف تعاسة وحزن وما زلت مصراً على إلصاق كل أخشاب السفينة للرحيل من هذا الفراغ المخيف . وبهذه الجدّية وهذا

الإصرار ، سأسرق مكانة عبد الرحمن . سمعت أن الكثير من الصيادين يتناقشون فيما بينهم ويقسم بعضهم إني أنا عبد الرحمن ، جئت متنكراً لاختبار دواخلهم . ويقهقه البعض الآخر من سذاجة أصدقائهم . وَلِمَ لاَ أكونُهُ ؟ ؟ من يكون ؟ أين الاستحالة ؟ عصر وسمه المهدي . وآخر وسمه الفاطمي المنتظر الذي سمعنا به ولم يأتِ . وآخر وسمه البشير الموريسكي ، المجنون الذي اندثر وصار رماداً ولم تبقَ إلا أصداؤه . لماذا لا أكون الفاطمي المنتظر ؟ ماذا ينقصني ؟ الفاطمي الذي حكى عند عبد الرحمن في مقدمة مصنَفه الكبير . السابقون اتهموا بالتزوير والانتحال ، لأنَ ظهورهم كانت عارية . أما أنا ، فورائي قوة ، أوسكار ، والأسطول السادس الرابض على حافة المتوسط ، داخل السحابة السوداء . ليكن ، سآخذ حتى سمة المغربي الذي جرحت أغانيه أشواق المدينة وقلوب العلماء والعمّال ، قبل أن يعود إلى مغارته حزيناً وحيداً بعد أن تداخلت ألوان قوس قزح في عينيه ، فاندثر نهائيّاً . خرج من مدينته ، ضربته الشمس في راسه (أو غزارة الأمطار) فانتبذ مكاناً في عمق المغارة المجاورة ، ونام بعمق . كان مولعاً بكتب التاريخ والسلالات الأندلسية ، وعندما استيقظ كان محزوناً . أوهموه بأنه قطع مسافة قرون بدون توقف . آه لو عايشت زمنه ، مثلما كان أبي ، لَضَحكت منه طويلاً وأسأله سؤالاً واحداً فقط . آه يا ولد الناس من أوهمك بهذه الأحجية الكبيرة . كذبتك دمرت البلاد والعباد وأكلت الزرع وجففت الضرع . صحيح أني مثلك قليلاً ، أحتاج إلى بعض الجنون والخُرَافة ، لأنسى شقائي ولكني في كامل عقلي ، وذهني صافٍ مثل البلور . مجرد استراتيجية للوصول إلى نهاية أنفاق الخراب . وعبد الرحمن لا يختلف عن سابقه الأندلسي الموهوم . رجل من دم وزعفران . ظل شامخاً كالمجنون قبل أن يدفن في بئر نفط جففها الأمريكيون ، أو هي في طريقها إلى ذلك . حتى الآن المصفاة المهجورة ، مسماة باسمه "مصفاة عبد الرحمن" .

- نكاية فيك يا عبد الرحمن ، يا ولد الرومية! هانحن نعود ، تزعُم

أن سالفكِ تنبّأ بخرابنا . الليلة السابعة بعد الألف ، ما زلنا نمططها كلما دعت الحاجة إلى ذلك ، نكاية فيك وفي الرواة وحفظة التاريخ والأحداث ووقائع المقتولين . إذا كان سالفك الأندلسي قد استطاع بدهائه أن يسرق العلامة ، فأنا سأسرق منك سمة العصر الغائب بين الأتربة المحروقة والشموس التي غابت وراء الموجات الكبيرة ، وبين أكوام التبن الغامل .

هاأنذا يا عبد الرحمن أتجاوزكم جميعاً . أغطّي الشمس بالغربال ، وأضعُ البحر في كفي ، واستعد لشربه دفعة واحدة ، وأركض حافياً باتجاه الضفة الأخرى . عمري كله قضيته في قصر واسع ، أتعلم حِيَل الحكم الذي عندما أصبحت جاهزاً سرقوه مني وكادوا يسرقون منّي روحي .

أنا مصمم أن أذهب وراء المغامرة حتى التهلكة ، حتى ولو ركبت على ظهر هؤلاء المقطّعين من الصيادين . كانوا قليلين عندما نزلت ضيفا على هذا البحر لأول مرة ، لكنهم الآن صار عددهم لا يحصي مثل طيور الغاوية وهم يتناوشون على أطراف الساحل الذي صار آهلاً كذلك بالغربان والنوارس المشؤومة ، التي ضيعت ألوانها البيضاء الأصلية ، وصارت أجنحتها متسخة بالبقع الزيتية التي تأكل جزءاً من هذا البحر ، منذ اندلاع الحرب الكبرى التي أكلت وجه نوميدا-أمدوكال وما تبقى من دهشتها . حماقة البشير الموريسكي ، وحتى الملياني أنه لم يكن يعرف تفاصيل الأحجية التي كان يسخر منها . انتعل الملياني حذاءه العسكري ووضع على عينيه نظارتين سوداوين وجمع كل قواده ، قال إن أطلس الظواهري ولد الحرام يريد أن ينفصل عن نوميدا-أمدوكال ، نهائياً . يجب أن ينذر وإذا لم ينصعْ ، يقتل أو يُباد . وعندما وُجّهتْ له الدعوة ، تأكّد أطلس الظواهري وقتها أنّه صار سيد المدينة وسيد الزيت والماء والبحر الصغير . صرخ الملياني في وجه مجلسه الحربي الميّت المكوّن من أعيان المقاطعات : أيها الأموات! نصف خير نوميدا-أمدوكال سينطفئ . سيأخذه أطلس الظواهري بارداً! صرخوا جميعاً بعيون مدورة مثل الفراغ : نحن معك يا سلطان الدين والدنيا . كان في حاجة إلى من

يكذب عليه . وعندما اندفع نحو الموت ، عرف متأخراً أن جوهر الحكاية لم يكن يعرفه . الموريسكي اختار موته قبل أن يبددوه ، ويأكل أصدقاؤه رأسه . والملياني ، اختاروا له موته ، وشكل موته ، وزمن موته . كان الملياني غبيّاً ومنهكاً ، عندما شنّ حربه ضد مدينة الزيت . قالوا له ، اندفع بقوّة ونحن وراءك . أدمجها في ملكك الكبير ، أسس امبراطورية العطش واملأها بالسحر والخرافة . لكنه فجأة وجد نفسه في مواجهة البواخر الحربية والطائرات القتالية والمروحيات التي طوقت كل مدنه . وعندما حاول أن يعض على ظهر يده ندماً ، كان كل شيء قد انتهى . قال : أوقفوا هذه الحرب المدمرة . قالوا لَهُ : عم بحرّك . أنت البادئ! لا نملك شيئاً من أجلك ولا من أجل مدنك الكثيرة . صرخ بأعلى صوته . وأنا ؟ رأسي ؟ أعطيتكم كل شيء . أعطيتكم البحر والبلاد والرمال . قالوا : لسنا مسؤولين عنك . همومنا تكفينا . قال ، والنفط ، لذتكم الأولى والأخيرة ، خرابنا المشترك ؟! قالوا يا رجل! هل بقي منه شيء ؟ مدينة الزيت أثمن من رأسك . وقتها كانت القبائل تعرك أسنانها وتخرج أحلامها القديمة في الانفصال .

تسلط رؤساء المقاطعات على كل شيء . أحرقوا العلم الوطني ووضعوا مكانه أعلاماً سوداء وخضراء وصفراء وبدأوا يزحفون نحو الملياني ، استعداداً للانتقام منه ومن الإهانات التي كانوا يتلقونها بشكل دائم . قدوتهم في ذلك أطلس الظواهري . كانت الدنيا تزداد سواداً وتتحوّل إلى رماد ، والبلاد تتمزّق إلى مقاطعات صغيرة غير متجانسة ، في كل مرة يتمرّد رئيس جهة من الجهات ، أو رئيس حزب . . . يضع على رأسه بريّطة عسكرية ثم يختبئ وراءها ، ويعلن عن مملكته أو إمارته ، أو قبيلته .

أسمعني أوسكار أكثر من هذه الأخبار . ذاكرته مدهشة . هو وسيلتي داخل هذا المنفى .

كانت البلاد واسعة . مدنها كبيرة ، وهواؤها دافئ لكنها فجأة

أصبحت رماداً و مسوخات تهيمن عليها مَجموعة من قطاع الطرق ، والمرابين ورجالات الأعمال والرعاع . هذه هي بلادكم يقول أوسكار . أورثكم الله كل شيء جميل ، ولكنكم أكلتم رأس كل شيء . حاكم كوفرا أعلنها بلاداً مستقلة . بَريزينا صارت لملكها الهمام الذي كان يهيمن على سوق الغنم والماعز . قطامس حوّطها رئيس قبيلة واستفرد بها بعد أن جمع حوله كومة من قطاع الطرق والمساجين القدماء بسبب تحويل أموال الدولة . كسالة ، وضع على رأسها أمير مهووس بالدم والموت ، وكل الذين دافعوا عن البلاد الواسعة ودقّوا نواقيس الخطر ، علقوا على أعواد المشانق ، بتهمة المس بأمن البلاد . البريدة ، سبق إليها رجل صغير ، قتل أخاه ووالده وأكل رأسيهما ، لكنه غرق في الدشداشة و العقال . سعد برائحة النفط فصنع من مشتقاته كل شيء . أو على الأقل هكذا كان يتصوّر . قال سأشيد بلاداً مستقلة ومعاصرة ، مكتفية ذاتياً غذائياً وصناعياً . لكن عقله لم يتخطِ حوضه . ثم مدينة الزيت التي كانت الأولى التي انسحبت من رحم البلاد وهي التي أنشأت جحيم نوميدا-أمدوكال وجاءت بالحرب المدمّرة . بيرين ، البلدة الصغيرة ، التي لا ساحل لها ، ولا حاكم ، ولا رئيس قبيلة ، سوى أناس يعيشون على الرمل والشعر والشّيح والرَياح الساخنة القادمة من عمق الربع الخالي الذي تتقاطع معه في الكثير من علاماتها . وتعددت أسماء الحكام كما يقول أوسكار ، حتى صار الإنسان لا يعرف من صار حاكم ماذا ؟ الشيخ المكتوم . الأميرالمحزوم . الحاكم المبزول . رومل الأوّل . البخيت الثاني . شادي ، بادي . مولاي الظواهري . السَّالْمي . المخنفر . الكبداني . الموسوي . سيدي بومدين . . .

باستثناء مدينة الزيت التي يسيرها أطلس الظواهري ، فقد حوّطت نفسها بأسلاك شائكة مكهربة ، وبطائرات الأَواكْس التي وفرها لها الحلفاء ، كلهم أصبحوا يحكمون الرمال ومدناً عادت إلى بدائيتها الأولى . بنايات زجاجية عالية ، نصبت تحتها خيام كثيرة ، وتسرح في ظلالها حيوانات تبحث عن أكلها تحت النَاطحات . زيت شحم الجمال هو

وسيلتهم للنّور . الحمير والبغال ، والعربات القديمة هي وسائلهم للنقل والعيش والعمل .

أوسكار عندما يتحدّث عن هذه العوالم ، يقذف بي بعيداً إلى بدائيتي الأولى ، عاري الصدر والجسد ، أغطّي عورتي بورقة التوت ، أو بجلد نمر مرقط ، قتلته وأكلت لحمه نيّئاً ولبست جلده . أيعقل أن يباد كل شيء بهذه السرعة . البلاد لا تحتاج إلى حاكم ولكنها تحتاج إلى رجل يوحّدها بالدم والنّار (صديقي أوسكار لا يحب كلمة وحدة ، ولهذا لا أتحدث أمامه في مثل هذه الموضوعات التي كثيراً ما أفكر فيها داخليّاً . شيء يستعصي عليّ أنا نفسي) . لقد انهار كل شيء ، وأصبح كلام عبد الرحمن الذي كنت أسمعه في الحلاقي وأنا صغير ، يجد طريقه نحو الإيمان والحياة بعد أن كان كلاماً فارغاً في وقته .

"واش حالك من برّا يَا المزوق من الداخل ؟ عندما ينشف زيت الأرض سنتحول إلى رعاة . دولة تسير بعقل قبيله ، وحاكم في مخه راعي إبل و رئيس لم يهضم أن الجمهورية ليست ملكا خاصا ." .

وحتى نوح ، شاعر البهجة ، قال كلاماً مثل هذا في أحد خطابَاتِه . هذا الوطن إذا لم يتحول إلى دولة وطنية ، سيموت ويأتي الرعاع ويفعلون فيه وبه ما يشاؤون . أنا لا أحبّه كثيراً لأنه العدو رقم واحد لوالدي ولكن . . . شيء اسمه الوطن بدأ يتفتت في داخلنا كأحجار الوديان الرخوة ، قبل حتى أن يتفتت حقيقة . بدأنا نخسر كل شيء ورثناه . إنه ينسحب من أيدينا كحبّات الرمل ويلقى به في غياهب الجنة والجحيم . وأيّ جحيم ؟ إنه يأكلني بالتقسيط . قطعة قطعة . ولحظة لحظة . أين مكاني وسط هذا القفر ، أنا نوح ولد الملياني ، الأمير الفاطمي المنتظر . ذو القرنين . ذو الرهبتين . الجسد يشيخ . الوعود تتضخم ، ولبوءة هذا البحر ، سارة ، تزداد ارْتشاقاً في القلْبِ وأوسكار يؤكد أن الدنيا قادمة وأنا أقسم إن الدنيا لن تمرّ هكذا . يوم واحد ، وليرث الله الأرض وما عليها . لا يهمني مطلقاً ما يحدث بعدها .

ـ يا ربي سيدي! يصل الواحد الماء إلى فمه ولا يشرب ؟ لا يعقل .

يوم واحد كان بإمكانه أن يغير التاريخ وشكل الأحلام ، ويبيد الكوابيس وينبت حقولاً صغيرة داخل العيون التي ظلت تحلم بحقها في الخلافة . خلافة أي شيء حتى الشيطان في عرشه . يا حسراه! وهل الشيطان مجنون حتى يسلم عرشه للأشكال الآدمية المتهالكة ؟

الأصوات تقلقني في هذا الفراغ ، الأصداء تملأ ذاكرتي . شيء ينبت في أعماقي ، وينشب أظافره في الحلق ، يشبه الموت . في السنوات الأخيرة أصبحت أخافه . أخاف أن أذهب وفي قلبي شيء من رغوة السلطان . كلما مرضت ، حتى بالبرد أو الحمى ، أشعر بالموت يقترب بخُطا حثيثة منّي . تنتابني كآبة غريبة . هل يعقل أن أموت الآن و أنا على مشارف السلطان ؟ لا أصدّق . فتوليّ للحكم ، صار قدراً من الأقدار أو على الأقلّ هذا ما أفهمه يومياً من أوسكار . ربَيت على هذا المنطق وهذه اللغة ولهذا ، حتى عندما أصاب بصداع خفيف أجدهم عند رأسي . أصدقائي علماء الحفريات (الأنتروبُولوجيون) . فهم يعرفون قيمتي الاستراتيجية في هذا المكان . وأنا ، بالرغم من هذا القدر المحتوم ، أصبحت أخاف من فجائية الموت . مع أن الموت في مثل هذه الحالات لا يُعطى إلاّ للأبطال . لكن هذا القفر الأزرق يُرْعِبُ حتى الحيطان خوفاً من نهايات النّسيان . عندما أسترجع قصري وإمكاناتي المسروقة سأسمّي هذا المكان المنفى الأزرق وأرسل إليه كل أولاد الحرام .

النوارس لم تعد نوارس . أسودّت أجنحتها . البقعة الزيتية أفقدتها جمالها . بعضها صار ينقر الماء من جديد ولم تعد البيانات المضغوطة كافية لتحريكه من مكانه . حتى صوت البوم عاد من جديد . مع أني في الأيام الأولى ، أثناء نزولي في هذا المكان ، اصطدتها واحدة واحدة أنا والزنجية ، ونقيّنا المكان تنقية كاملة ، واقتلعناها من بين الصخور والخرابات التي بدأ الناس يعمّرونها شيئاً فشيئاً ، هرباً من قسوة

الشتاءات القادمة . وهاهي ذي طيور البوم تعود بكثافة . كلّما سَمِعَتْ فجرا ضربات المسمار الأولى على الخشب ، ترتشق قبالتي على قاعدة السفينة ، ثم تبدأ في تدوير رأسها الكبير وعيونها اللامعة ، وتنعق بدون توقف معلنة عن أخبار الإبادة والموت في هذا الشتاء الذي بدأ يزحف بسرعة غير عادية .

هذا كله لن يدفعني مطلقاً إلى التسليم واليأس .

سأحكم ولو يوماً واحداً هذه الرقاب الطويلة . عليها أن تعرفني بأني سلطانها الهمام . وأن ينحني هؤلاء الصيادون المقطّعون الذين لم تبق لهم إلاّ أنوفهم . على أوسكار أن يسرع قبل فوات الأوان . قبل أن أخسر حلمي ويخسرون مشروعهم الكبير الذي شيدوه على الرمل و تواطؤ الرعية و أجدادي السابقين .

* * *

- III -

منذ زمن بعيد ، ووالدي الملياني ولد شهريار بن المقتدر ، نبتة الخلاء والقفر ، وهو يحاول أن يقرأ في عيني رغبة الحكم ، وماء السلطان . ولهذا ظل مصراً على ألاّ يكشف أمامي خصوصياته المبطنة . كنت فاطناً وأحاول أن أكبر داخل المعصية . أحياناً ألعنه ، وألعن اليوم الذي أنجبني فيه ، وفي أحيان أخرى أحاول أن أفهم حالته . حكايته مع التاج صعبة . كان دائماً يتمنّى لو جاء إلى الدنيا وعلى رأسه قرنا الدهشة ، لضَرب كل الحيطان التي كانت تفصل بينه وبين حلمه . تصل به الحالة إلى الصراخ والنحيب ، عندما يجد نفسه مشلولاً ولا يملك قوة التدمير . يتأوّه . يتضوّع . ثم بعد ساعة ، يخرج من دار البكاء وهو يبسمل ويحوقل ، ويحمد الله أنه كان من السلالة التي رزقها المولى عز و جل ابناً بقرنين ، يرثُ بهما تقاليد أجداده الأوائل . بالرغم من أنه يكره شهريار بن المقتدر كرهاً شديداً ، إلاّ أنه كثيراً ما يجد نفسه داخل ضبابة بيضاء يَغْذُر فيها كل الذين يحبهم والذين لا يحبهم . كان يشعر دائماً أنه ليس ابنه الشرعي . لأنّ شهريار كان بغلاً . وكل الناس في نوميدا-أمدوكال يعلمون ذلك بدقّة . يعرفون القصة في دقائقها . المليـاني لا يعرف والده جيداً . أو على الأقل زوج أمه . ذات مرة ،

يسميها شهريار بن المقتدر ، كان في زيارة رسمية لإحدى القرى الصغيرة ، ففتح باباً خشبية لأول منزل صادفه في طريقه تبركا بالبلاد و إيذانا ببدء الجولة . باب بيت قديم . وجد رجلاً ينام على قمر . امرأة مثل الشعاع ، تنزلق من بين الأصابع . طلب من الرجل أن يقوم . كانت الدهشة تملأ عينيه والفرحة الغامرة . عرف أن الرجل الذي طلب منه أن يقوم هو سيد الدنيا و حاكم البلاد . لم يستطع كتم صراخه . الله! ؟ هذا يوم سعدي! ؟ طلب شهريار أن يؤتى له بسيف لامع . عندما أحضروه ، رفعه في الهواء ، فالتمعت شفرته في عيني الرجل المندهش ، وقبل أن يبتلع ريقه الذي سدّ حلقه منذ أن طلب الحاكم السيف ، كانت الشفرة قد شطرته إلى قسمين متساويين . ثم قال لزوجة الرجل (أمّ والدي) . هيت لك يا امرأة المقتول ، هذا يوم سعدك . كانت مرتشقة بين دهشة الدم وحالة الخوف . قال لها رأيتك في الحلم . والله أوصاني بك خيراً . ثم مددها على ظهرها من جديد وبدأ ينهشها على مرأى من خدمه و عسكره ، وعندما انتهى ، وفمه ممتلئ بدم النهد والحلمة التي كان يمضغها ، طلب من الخادم أن يمتّعه فيها . وظلّ يتأمله وهي تتأوه وتصرخ . بينما كان شهريار يقهقه : أولاد الحرام ، الخدم يعرفون كيف يضاجعون . يفعلونها مثل المختصين . هذه وظيفتهم اليومية . ثم انتبه للمرأة عندما لبس الخادم حوائجه . هاه! يا بنتَ الأشراف ، لقد فضّلتك على كل نساء نوميدا-أمدوكال وسأعينك سيدة الجملكية الأولى . لكنه سرعان ما نسيها ، بينما خادمه ، كلما تذكرها ، تسلل بالقوة ، وجاء إليها ، إلى أن أكلت رأسه ذات يوم ودفنته في حديقتها . هذا الخادم الذي ، لا أحد يتذكر اسمه ، ولا وجهه هو والد الملياني . سمّي مدة من الزمن ولد الخادم ، قبل أن يلتحق بالعمّال ، وينتظر دوره . كان يشتعل حقداً على شهريار بن المقتدر .

عندما كبر قليلاً ، حكت له أمّه عن كل شيء ، قبل أن تسلم روحها للفراغ من أعلى قمة في جبل القرية التي كانت تقطنها . عندما ولد الملياني ، خبّأته أمّه مريم في كهف قديم ، عند جارة قريبة لها ،

كانت تسكن المغارة . جارتها كانت مسرورة باستقبال الابن . قالت لها . لا تبك يا سيدة المقام العالي . ابنك سيكون عظيماً . سيسير هذه الدنيا بأصبعه الصغير وتنصاع له قوافل الدنيا وقصورها . هو علامة ، ستضيء عندما يأتي أوانها . اتركيه . سأربيه . وأكبّره . وأرضعه . وعندما بدأ الولد يكبر ، ظلّ يشحن بأكوام الحقد ضد شهريار وقصره وحاشيته ، ووجهوه باتجاه أعداء القصر التقليديين : العمال والعلماء حتى صار من الفيالق الأولى التي دخلت القصر ، ولكنه وجد كل شيء قد انتهى . كان يحترم البشير الموريسكي ويأخذ تهويماته مأخذ الجدّ . وظل يقول في خاطره ، هذا الرجل سَيُدَمِّرُ شهريار . لا يعشق السلطة و يجانب كل ما يؤذي الرعية . سأكون صورته الأخرى . حتى ولو كان البشير الموريسكي مجرد خرافة أو علامة صادقة في غير زمانها ، لا يهم .

وظل والدي مدة من الزمن مشدوهاً في وجه ماريوشا المنوّر ، وهي تحضن يد سيدي عبد الرحمن المجدوب وهو يموت في حِجرها كالطفل . تذكر نفسه عندما كان عاملاً بالحديقة الكبرى ، وكيف كان يساعد المجدوب للحصول على بعض النبيذ والأكل بعد أن يضع فيها محلول الأقراص البرتقالية التي تقتل ببطء وتضيع الذاكرة شيئاً فشيئاً . كان هذا ، حتى قبل أن يلتحق بالعمال بشكل نهائي ، بعد تزكية المجدوب له . ثم رآها وهي تلعن الدنيا والصمت والموت وتعلن بصوتٍ عالٍ أن الموريسكي كان يُقْتَلُ بالتقسيط داخل الأنفاق . ثم سمع أخبارها فيما بعد ، كيف أنها كانت مشغوفةً بالبحر الذي ظلّت تلقي نحوه بكل الأشياء الثَّمينة والتصانيف النادرة بعد أن تضعها في أكياس بلاستيكية خاصة وتسدَ عليها بكل إتقان . قال يومها في أعماقه عندما سمع هذه الأخبار : اذهبي أنّى شئت أيتها النصوص الضائعة ، سيأتي زمن وأسترجع هذه التفاصيل التي سرقت منّي حقّي في توجيه هذه الأرض وهذا الهواء ، وهذه الطواحين القديمة . كتاب اللعنة السابعة بعد الألف ، سيكون ملكي .

وعندما كانت الأعلام ، تملأ المدينة ، وجثة البشير الموريسكي تتحلّل وتغبر داخل الكهف ، والكلب قطمير (على رواية البصري) ينبح على غير عادته ، كان الملياني ، وفي غفلة من الناس ، يرجع عقارب الساعات إلى الوراء الواحدة تلو الأخرى ، بما فيها ، ساعات القصر المحترق ، والبنايات الرسمية والإدارة المحلية ، وساعة وسط المدينة المسماة "الساعات الأربع "Les quatre horloges . لم يلحظ أحد أنه في اللحظة التي كانت فيها طبول النصر تملأ الآذان وتدفع الأدخنة باتجاه عمق البحر ، والأشواق ترتفع إلى السماء والأنوار تنير المحيط ، والزغاريد تصمّ الآذان ، والمبشرون يخرجون الناس من البيوتات باتجاه أفراح وسط المدينة ، كان الملياني ، مجنون الحكم والسلطان ، يمدّ يديه نحو الزمن الضائع ، ويسحبه باتجاهه ويضْبطه وفق مشيئته الخاصة استعدادا لليوم المشهود . قال في ذلك الزمن البعيد وهو يجوب شوارع المدينة ويتأمَل الساعات التي ضبَبت أرقامها ، وضبطت على غير زمنها . لن تكون النهاية هذه الليلة ؟ سَيَبْدَأُ زمن آخر يتجاوز مصاعب الليلة السابعة بعد الألف ، ستصير هذه الليلة حكاية للسحر والغواية لملء فراغات الدراويش وأصحاب الحلاقي ومجانين الشوارع الخلفية ، وأئمّة المساجد الشعبية التي لا تستيقظ على خرافة إلاّ لتنام على أختها . السابقون قالوا : من أراد أن يحكم ، عليه أن يتعلّم أولاً كيف يرهق النّاس ويلهيهم ويدخل أهواءهم ويحولها إلى غوايات للمكوث داخلها أبد الدّهر .

تمتم مرة أخرى بعد أن انتهى من تحويل الزمن عن مجراه ، سأرث كل هذا العالم الذي تأكله النار الآن بقوة منقطعة النظير . سأضعه في جيبي مثل اللعبة ، أحركه متى أشاء وأسكنه عندما أرى في ذلك ضرورة .

كان الملياني شعلةً من الدّهاء والحقد . هكذا كان يقول ، ويقول عنه الذين عرفوه من قرب أو من بعد ، وإنساناً مستميتاً في خوض الحرب المقدّسة ضد الحاكم . تنبّه للعلماء مبكّراً . عرف دفاترهم ،

وبوقالاتهم وقواربهم وحيطان قلعتهم الهرمة التي حوت الشاردة والواردة . لم يتركوا شيئاً للصدفة ، سوى ذلك الخطأ الصغير الذي اسمه الملياني الذي لم يأت بنفسه ، ولم يكن فجأةً ولكن أتى به الذين أرادوا له أن يكون . هو لا يعرف كل هذه التفاصيل ولكنها كانت تنسج في الظلّ . وفجأة عندما ظهرت قضية أطلس الظواهري ، قاموا من وراء الصخور والحيطان وقالوا له ، فرصتك يا الملياني . أسِسْ إمبراطورية العطش . لن نقول لك شيئاً ، سنصمت . اعطنا زيتها فقط و بالثمن الذي نريد ، قبل أن يسبقك إليها غيرك . حتى نوح شاعر البهجة والخطايا ، أخّروه ، حتى وصل متأخراً . أغرقوه في تفاصيل المدينة المحروقة . وظلّ يصر على بقائه مع نواره لهبيله ، ومطحنته ، بينما ظلوا هم يحاولون إقناعه بكل السبل الوطنية على ضرورة النزول نحو حيطان و أزقة نوميدا-أمدوكال لرؤية الخراب و محاولة إنقاذ البلاد من الهلاك المحتوم . وعندما اقتنع نوح بضرورة القبول اشترط مستشارين لتفادي الفتنة ، واحداً من العلماء ، وآخرَ من العمّال لأنّ الشقوق ، كانت قد بدأت تتسع بينهما . ووقع الاختيار على عبد الرحمن من العلماء ، وعلى والدي من العمّال بحكم أنه كان من أكثرهم حماساً لإحداث القطيعة النهائية مع خرابات شهريار بن المقتدر . ومن الأوائل الذين اقتحموا القصر ، تحت وابل الرصاص والنيران المشتعلة في الستائر السمرقندية . عندما أصرّوا على والدي بأن يكون مستشارا قال (كاذباً) هذا كبير عليّ أيّها الناس . شوفوا شخصاً آخر غيري . وانتبذ مكاناً على الساحل وظلّ وحيداً أياماً متتالية ، يتأمل السفن المحروقة مثل عادة الموريسكي . كان يبدو عفيفاً ، عالياً ومتنزهاً عن المنصب . لكنه في العمق ، كان يؤخر الزمن قليلاً للانقضاض عليه بقوة .

لم يكن الملياني يريد أن يسبق الوقائع الأساسية ولا أن يتأخّر عنها . كان يعرف كل التفاصيل ، ولكنه ظل مصمماً على الذهاب وراء المسرحية حتى منتهاها . السلطان مسرحية ، علينا أن نتقن ابتلاع كل رداءاتها حتى نصير مؤهلين للحكم . جاؤوه منكسرين ذات مساء : يا

الملياني ، البلاد تشتعل فهل يرضيك هذا ؟ أقنعنا نوح الذي تصورنا في لحظة من اللحظات أنه من المستحيل إقناعه . لقد عُيِّنْتَ مستشاراً . نرجوك اقبل . ليس من حق وطني نزيه مثلك أن يقول لا . لكنه ظل مشدوهاً في البحر الذي كانت سفنه تشتعل في عمقه . ثم بدأ يندب ويصرخ ويلطم رأسه على الحائط القديم الذي كان الموريسكي يهرب إليه . يا ناس! اتقوا الله في عبد ضعيف مثلي . اتركوا ذوي الشأن لهذه المهمة . الحكم لمن استطاع إليه سبيلاً ، وسبيلي أنا ضعيف . زاد إصرار العمال عليه (كان يعرف نفسياتهم جيداً . لو قَبِلَ منذ البداية ، لشكّوا فيه) . عبد الرحمن اعتبر تعيينه تشريفاً ومسؤوليةً كبرى على عاتقه . ولم يتوقف يوماً واحداً عن تسجيل تاريخ المدينة ، خوفاً عليها من الموت والسقوط في الظلال الميتة . كان يعرف مسبقاً أن الفوضى تقود المدن والناس إلى الانقراض . وهل يعقل أن تترك البلاد لأصداء البوم والغربان والبحر المهجور ؟ عندما سمع نوح بقصة الملياني ، نزل بنفسه إلى البحر . كان مسلحاً بكلام العمال . قيل له إن الملياني رافض ، ويقول إنه لا يستأهل كل هذه الثقة العالية وإنه يخاف من المسؤولية ، ومستعد في سبيل أن تعود مدن البحر إلى حيويتها أن يقدم رقبته ، ولكن شرط ألاّ يُحْرَجَ بهذه المسؤولية الكبيرة .

وجده مع مجموعة من العمال وهم يحاولون إقناعه . قال له نوح : اسمع يا المليباني خويا . أنا جئت من بعيد دفاعاً عن هذا الوطن . يشهد الله أني كنت مرتاحاً في مطحنتي وشعري . وعليك أن تقوم بما قمت به . المسؤولية كبيرة ومرهبة خصوصاً بالنسبة لإنسان نزيه مثلك ، ولكن لاشيء يبرّر نفورك . على ظهري دنيا نوميدا-أمدوكال وأنت أعرف بخبايا هذه البلاد . احترمت شجاعتك وأنت تدخل في أعماق النار ، بحثاً عن شهريار بن المقتدر . أنا كذلك عندما سقطت الدنيا ، عدت إلى حفرتي وشعري ، لكن اليوم ، هذا البحر ، وهذه الحيطان الهرمة و هذه الوجوه العالية ، تنادينا . فهل تقبل أن يضحك علينا الأعداء ويعيدون لنا شهريار في لباس آخر ، أكثر أناقة ؟ أرجوك .

وظل والدي مدة من الزمن يفكر والوفود تتوالى على بيته المتواضع من أجل إقناعه لقبول الاستشارة (في عمقه كان يضحك منهم ، لأنه كان يريد شيئاً أكثر من الاستشارة) . وذات صباح ، حمل حوائجه وحَمَلَنَا معه ، والتحق بالقصر الجملكي الذي أصْدَرَ نوح بشأنه قراراً صارماً بتغيير تسميته بقصر الشعب وإلغاء الجملكية وتعويضها بالنظام الجمهوري . قال وهو يوقع على النصوص الجديدة ، الجمهورية حُلم ، ولكنها ليست أمراً مستحيلا . ليكن حلمنا الكبير الذي نفعل كل شيء لتجسيده ، الذي نحيا ونموت ونحيا من أجله . في ذلك المساء تعشّى معهما ، نوح وعبد الرحمن . قال لهما كمن يفضي بسر خاص . أنا في الحقيقة لم أوضع للسلطة . قال نوح : الدنيا لا تنتظر والزمن ليس في صالحنا مطلقاً . عبد الرحمن إنسان عالي الشأن . فيه شيء من روح الصحابة الأتقياء . ستوكل له شؤون الإدارة والديوان أمّا الملياني ، بخبرته الميدانية والعلمية وجرأته واندفاعاته المتزنة ستوكل له شؤون النظام الداخلي للبلاد لتأسيس قواتها الدفاعية التي تمزقت بفعل الحرب الأهلية . أحنى والدي رأسه ، يقول أوسكار ، فرفعه له نوح بلطف وهو يقول . لا يا الملياني . تواضعك بهذه الطريقة يؤذيني . ارفع رأسك . كلنا أبناء تسعة أشهر . فردَ الملياني ، يا سيدي ، هذه ثقة تتجاوزني ، والأمر كبير ومذهل . قال نوح :

- إصراري كبير ، وثقتي فيك لا تتزحزح . هذا مكانك بالذات .

- لكن يا سيدي أنت علامة هذا العصر ، وهذه مهمتك .

- لست أكثر خبرةً منك . أنا رجل قضيت كل حياتي بين الشعر والرحى و لا أدري إذا كنت فعلا أستحق هذا المنصب .

وانتهى كل شيء في ذلك المساء ، وتيقن الملياني منذ تلك اللحظة أن الأمور أصبحت منتهية ، وأنَ القضية أصبحت الآن متعلقة بجانب زمني لا أكثر . المسألة حسمت نهائياً في تلك العشية التي أكل فيها ملح نوح . والدي كان يعرف جيداً وبدقّة متى يتحرّك ويصيب

طريدته . المرة الوحيدة التي أخطأ فيها عندما حاول أن يدخل بالقوة إلى مدينة الزيت ، أدرك متأخراً أن الساعات الحائطية كانت قد غيرت مواقيتها بسرعة وأن خطأه كان قاتلاً ، وعندما رفع رأسه باتجاه أصدقائه ، وجدهم قد غيروا أقنعتهم وتركوه يموت وحيداً . قالوا له عُمْ بَحْرَكْ .

"أوف . ما أَبْرَدَ هذا الصباح . حتى الرمال الدافئة لم تعد كذلك" .

أنا والفراغ الأزرق ، وجهاً لوجه مثل الإخوة الأعداء . لا أحد يسمعني سوى البحر والزنجية ، وهذه الطيور المتسخة التي بدأت تغادر المكان جماعات جماعات . أقرأ في عيني أوسكار بعض البراءة والرغبة في الحكاية ، لكن أحياناً أخاف منه بقوة ، أخاف منه لدرجة الذعر وأقول في خاطري ، يا ترى ؟! منذ خمسين سنة وهو يحكي ، أيشعر بي حقيقة ؟ أهو مثلهم ؟ ثم أترك نفسي أنساب مثل الماء وأَحْلُمُ . أَحْلُمُ بكل قواي . أرى أشكالاً زرقاء ، وقصراً أزرق ، ووجوهاً زرقاء . وبيوتات صغيرة باللون نفسه . ليكن يا سيدي . "خلّيه يزيد ونسميه سعيد"! أوسكار صديقي ، حتى إشعار آخر . بفضله عرفت ما دار داخل حرائق نوميدا-أمدوكال وأعرف اليوم ما يدور داخل أمادرور الزرقاء (حضرموت) ، هذا الربع الخالي الذي أصبح يأكلني مثل سائل الحامض ، وينهكني شيئاً فشيئاً بدءاً من الداخل ، من العظام المنخورة حتى الجلدة الرقيقة التي تحاول أن تقاوم هذه النسائم المخترقة .

خمسون سنة من الصمت والمقاومة .

خمسون سنة من العيش المتنكّر .

ونصف قرن من الانتظار .

المليـانـي ، عندمـا سـمّم نـوح ، لبس جلده ، بكى على الشـاشـة الصغيرة دموعاً ، كانت تبدو صادقة . فقد تدرب عليها طوال الأيام التي سبقت مصرع نوح . عندما تستعصي عليه الدموع وهو يوجه خطاب الأمـة الجنائزي على الشـاشـة ، هناك رجل كـان مختـبـئاً عن عـدسـات الكاميرات ، ينفخ بانتظام من علبة صغيرة قليلاً من غاز اللاّكريموجين ، حتى لا يضطر المليـاني إلى تعذيب نفسـه من أجل البكاء . أول شيء قام به هو أنه أصـدر بيانـاً صـارمـاً بالحفـاظ على صـورة نوح معلقـة على كل حيطان مؤسسات الدّولة والمؤسسات الخاصة . وفي الصباح ، خرجت الجموع الكبيرة المؤيِّدة للمليـاني وعلى رأسـها عمّال البحر ، بينما بقي العلمـاء في قلعتهم ، بسـبب العلاقات التي كانت قد سـاءت نهائيّاً بين العمـال والعلمـاء بسبب تقارير عبد الرحمن المضادة للمليـاني . ويوم المبـايعـة الذي ألحق بالأعـيـاد الوطنيـة ، كـان المليـانـي قد دخل مـرحلة اللارجوع في مخططه الكبير .

في ذلك اليوم الأبيض ، ألبسـوه لباساً أخضر من رأسه حتى قدميه . وضعـوا على رأسه طـربوشـاً تركـيـاً طويلاً مـزركـشـاً . ثـم أدخلوه داخل فـوقية فضـفـاضـة بنفس اللون مثل الطفل المقدم للختن . وبـدأت عـمليـة ارتكاب المحارم ، كـمـا كـان يفعل القدماء كجزء من الممارسة الطقوسية المرتبطة بـالحكم وديمومـتـه . فـالـعـرش لا يبنى إلا على الـدم والمحـارم والمعصيات الكبيرة . جاؤوه بالأطعمة الغريبة المكونة من عقاقير مركبة من أعضاء تناسلية مسحوقة لأطفال صغار ، وبعض الفضلات الآدمية . كانت الرائحة الكريهة تملأ الأرجاء وكأن الناس في حفل جيفة . ثم رشوا المكان بـالعطور وعـود القـمـاري المحـروق ، وقـشـور الخـشب الهندي و الليمـون و البـرتقـال للتخفيف من حالة الاختناق . انتصب المليـاني من جديد حين أتوه بثور ضخم مربوط الرجلين بإحكام . وأعطيت له مطرقة ثقيلة وطلب منه أن يضرب على رأس الثور . وظلّ يضرب بكل قوة حتى انفلق الرأس . مدّ يده وأخرج مخّ الثور ووضعه في فمه ، وطلَى جزءاً كبيراً على وجهه ، بينما كان الثور لا يزال حيّاً ، يتأوه ويئن بألم . ثم

منح سكيناً بوسعادياً . نزعه من غلافه الحريري ، وأخرج عيني الثور وشرب ماؤهما الأبيض ، تاركاً المحاجر فارغة ، ثم ضرب على ظهر الثور بمطرقته الغليظة والدم يرش وجهه وألبسته ، فجأة اندلعت الزغاريد بقوة . وعندما تكسرت عظام الظهر والصدر ، فتح جلده الخشن بالبوسعادي ، وأدخل يده إلى الأعماق وأخرج كبد الثور وبدأ بمضغها كالعلكة الأمريكية الحارة . وبعدها ترك القابضون الثور يتهاوى كالحائط وهو يزأر ألماً مثل الأسد الجريح . بمجرد ارتطامه على الأرض ، كان الحيوان قد أسلم روحه للفراغ بعدما تأمل كل الحاضرين بمَحَاجِرِ يائسة قبل أن يجر مثل ثيران الكوريدا من المكان . عندما انتهت الطقوس الأولى ، كانت الزغاريد قد ملأت الساحة والقهقهات والفرح في هذا اليوم الاستثنائي . أدخلوه إلى الدّوش وغسلوه بماء الرمان والزهر ، والعنب ، وماء الوديان ثم مياه زمزم التي كانت محجَرة في الأواني الزجاجية . ثم نشّفوه وأدخلوه على أجمل امرأة في المدينة ، فافتضّها بعنف دموي و خرج ، لترمى بعد ذلك مع جثة الثور إذا أغمي عليها وإذا بقيت في يقظتها ، تسترضي السلطان وتطلب عفوه ، فيمسح على رأسها وتظل خادمته طوال عمرها . بعدها استحم من جديد ، ثم أدخل إلى دار التبريج للتشعيع والتأليف والتلبيس ، وفي النهاية وضع على الكرسي السلطاني العالي وتحته الناس يبوسون الأرض التي وطأها . وضعوا في يده قضيباً رقيقاً من الذهب ، بدأ يبارك به وزراءه وناسه المبجَّلين والميامين . ثم وضع يده على المصحف (في الحقيقة لم يكن هناك سوى غلاف المصحف الشريف أمّا في الدّاخل فقد كان ينام كتاب مدرسي قديم باللغة الفرنسية) وأقسم على الكتاب بأن يحترم الإسلام ويبجّله . وأن يكشف الحقيقة عن مقتل نوح وأن يعمّم الخير على البلاد و يصون أعراض العباد .

ثم فتح الطريق للوفود التي جاءت من أماكن مختلفة للمبايعة ، جماعات ، جماعات فوق الجمال ، والحمير ، والبغال ، محمّلين بكنوز الدنيا . وتم تنظيم المبايعين قبائل ، قبائل ، وجماعات ، جماعات .

وكادت السعادة تخرج من عينيه عندما لاَحَظ أن الاستجابة لخُرافاته كانت أكبر مما تصور . شعر بأن إعادة بعث النظام القبلي في الناس صار مسألة وقت فقط . وبدأت الشعارات التي جاء بها نوح ، وألهبت الجماهير ، تذوب مثل الملح شيئاً فشيئاً تحت ضغط التقاليد الجديدة . كان نوح يحلم بمحاربة الحفرة واستئصالها من عمقها . كان يقول دائماً في خطبه الرسمية وغير الرسمية : يجب أن يعود المجد المسروق . لا تزال بلادنا مليئة بالحليب واللوز والزيت والفرح . وما خرب شهريار ابن المقتدر سوى جشعه وثقته العمياء في الآخرين وابتعاده عن ناس البحر والفقر . فيهتف الناس في كل مكان ، في القرى ، في المدن ، في المقاهي ، في الدور ، في الحدائق العامة ، في الحقول ، في المؤسسات ، في الإذاعة ، في التلفزيون . . عاش نوح . يحيا نوح . الحمد لله ، لقد جاء من يحمي البلاد من حرب أهلية محتومة . وعلى الوتيرة نفسها ، يتحدث الملياني ، بنبرات مليئة بالكآبة والحزن المفتعل . أيها الناس . إن أعظم ما جاء به نوح هو أنه أعاد البلاد إلى طريقها ، بعدما كادت أن تغرق في حرب أهلية مؤكدة . و عندما انتهت السلسلة الطويلة من الرجال المبايعين المنظّمين بحسب الاختصاصات ، جاء دور النساء اللواتي وضعن في آخر الصفوف بعيداً عن الرجال . كنّ سافرات الوجوه ، وجميلات جداً . معظمهن من زوجات المحاربين القدماء وعساكر النظام والموظفات في سلك الدولة ، إلاّ زوجة عبد الرحمن ، ماريوشا ، والعلماء ، فقد اكتفوا ببعث رسول بسيط عنهم لينقل لهم صورة عمّا كان يحدث في البلاد . لبس لباس الرعاة ، وتنكّر ، ونزل إلى المدينة . الخيبة كانت بادية على وجوه العلماء المنيرة ، وهم يحضرون المساحيق التي تموه ملامح الرسول . منذ الصبح ، تجللوا بالسواد باكراً ، ورموا الألبسة البيضاء نهائياً . لم يفعلوا ذلك حتى عندما أُحرق النَيْنَوي ورأوْا الألق الذي ظل يملأ عينيه والمرأة التي اخترقتها ابتسامته والنيران تلتهب ليلاً في جسده . لم يخفها شيء . ولا حتى أحصنة سيدنا الخضر التي كانت لا تخرج إلا لمزيد من الإبادة

والقتل وسحق بقايا الأنبياء والفاضلين . ملامحهم ذهبت واندثرت عن آخرها واستقر بين تجاعيدها سواد غريب . شيء ما ظلّ يتمدد بقوة داخل حلوقهم كالغصة . كالشّمتة . شعروا في لحظة من اللحظات ، أنهم فرطوا في نوح وتركوه طعماً للقتلة ، وأنّ جزءاً من دمه في رقابهم . صورته الأخيرة وهو خارج من المطحنة ، مملوءاً بالدقيق ، تملؤهم عن الآخر ، في يده اليمنى قلم الرصاص وكراسة مدرسية ملونة . داخل هذه المطحنة كتب ذات زمن بعيد ديوان البهجة . رأوه وهو يصرخ ضاحكاً ، وكان يظن أنها نكتة من نكات العلماء ، رغم أنه يعرف أن نكتهم قليلة جداً . بربكم هذه هيئة حاكم ؟! قيلوني يرحم والديكم . أنا مجرد إنسان بسيط ، يحبّ وطنه كثيراً ولكنه ، لا يعرف حتى كيف يحكم نفسه ، فكيف يحكم الملايين . مجرد إنسان دون العادي ، عندما تفيض روحه بالشعر والكلمات ، يكتب ويعشق الدنيا . ويَنْسَى فجأة كل مَا يُحيط به . الكارثة كانت كبيرة . والفاجعة لا تحد . فقد عادت عقارب الساعة إلى أبعد من شهريار بن المقتدر . التفتوا نحو عبد الرحمن . قالوا له اذهب إذا شئت . قال لا . فقد عصيت نوح بجلاله وقدره ، فماذا يساوي الملياني أمامه . دم الرجل الطيب لا يزال يملأ عيني وقلبي . وأشعر أن في الأيادي التي سأصافحها شيئاً من الصدأ والموت والسمّ والضّغينة . لم يصرّوا عليه كثيراً ، لأنه بعدما فتح نوافذ القلعة ورمى ببصره باتجاه عمّال البحر ، شعر بقلبه يتقلص وبعينيه تفيضان دموعاً . لم يستطع أن يمنعها من الانهمار . تمتم في خاطره : أهكذا تباد الأشياء الجميلة وتنتهي الدنيا بسرعة ، وتنسى الذاكرة شقاءها ؟! يا الله . أيها الكبير من عظمتنا والعالي من سمونا . صَنَعتنا من صورتك لتتذكرنا . وها أنت تتخلّى عنّا علانية!! أهكذا يباد جمالك وأرضك وناسك و أنت صامت في عليائك لا تحرك ساكنا لإطفاء الحرائق التي فينا و في المدينة ؟!

تحسس الملياني شواربه الكثّة التي أصبحت مثل شوارب قرصان تركي . كانت النساء يتحسسن أجسادهن ، ومؤخراتهن ، ينتظرن

بشغف تقبيل يديه ، ويتدربن على الانحناءات المنكسرة قبل الإقدام عليها . طلب من عسسه أن يأتوه بالمرأة التي في آخر الصفّ . وعندما وقفت في مواجهته ، كانت مستقيمة مثل الرمح ، حتى أنه لم يستطعْ أن ينظر مباشرة إلى عينيها الغجريتين .

سألها وهو يبحث عن كلماته :

ـ كيف حال عبد الرحمن ؟ لم يعد يظهر .

ـ بخير يا سيدي ، بخير ، ولكن حزنه كبير .

ـ لماذا لم يأت للمبايعة ؟ ؟ .

ـ منهمك يا سيدي في تدوين تاريخ البدو وتاريخ المدينة . ثم أنت تعرفه جيداً ، إنه يكره المبايعات وكل ماله صِلة بالمجتمعات المنقرضة .

ـ لكننا في مجتمع له أصوله وتقاليده .

ـ النظام الجمهوري الذي أعاده المرحوم نوح ، لا ينص على هذا . وأنتم خليفته يا سيدي .

شعر بامتعاضٍ يصعد من أمعائه بقوة .

ـ وأنت يا ماريوشا . مثله . لا تنحنين لسيدك ؟ .

ـ يا سيدي! عبد الرحمن يقول استرشادا بالصينيين القدامى ، إن التَّمَاثيل عندما تنحني تنكسر .

كان القلق والغيرة ، والحسد ، قد بدؤوا يحفرون حضور النساء الواقفات . طالبن بضرورة إعطائهن الحق في المبايعة . بدأت الاحتجاجات تتصاعد في وجه العسس المشرف على التنظيم . كيف يمكن تفضيل امرأة عادية عليهنَ ، إضافة إلى أنها تتمادى في غيّها وتناقش المبايعة . المبايعة هي من حب الله ورسوله . (كن يكذبن . يزنين طوال النهار . كل واحدة كانت تريد أن تصل إلى يديه ، وتتبرك بالملياني ، بحثاً عن

ترقية لزوجها) . من يحبّ الله والرسول ، لا يسأل . حتى أن الكثيرات ، ولولا وقوفها في مواجهة الملياني ، فَكَّرْنَ في الهجوم عليها وتمزيقها وأكلها حيّة . إنه تسامح زائد ومبالغ فيه من عظمته ، سيد الدين والدنيا وصاحب السلطان الأعظم . مثل هؤلاء الناس لا يستأهلون إلاّ الحرق . في التقاليد القديمة ، لهذه الأمّة الكبيرة ، كان من يرفض المبايعة ، يؤتى به من بيته ويحاكم علانية . ويُحَلَّقُ رأسه ويخوزق بقضيب حديدي أو خشبي ، وبعدها يحرق حيّاً مثل قطعة خشب ميّتة بجانب مسجد أو معبد ، وتكتحل النساء برماده ، لأن رماد العظام الآدمية والأجساد المحروقة ، يبقى طويلاً ، وهو كحل أصيل وسواده دائم ، يعطي للعيون اتساعاً مُذْهلاً . آه لو يفعلها المياني . هكذا تَنَهَّدْنَ . كان ريق الشوق واللذة يتقاطر من شفاههنّ القرمزية التي زادها برد الصباح استدارة وامتلاء وعمقاً في اللون . وعندما طال صبرهن ، صرخت كبيرتهن ، وكانت منتفخة مثل برميل ، وزوجة أحد الجنرالات المتقاعدين . يا سيدنا العظيم! رجالنا قد بايعوك وإنّا نحبّ أن نبايعك بكل أجسادنا . وقلوبنا وعيوننا .

فكر لحظة قبل أن يردّ عليها . ثم تأمّل يديه . نادى بعدها أحد العسس وطلب منه أن يأتيه بقدح ماء . وعندما جيء به ، أدخل إصبعه فيه ومصّه ثم أدخله ثانية . تركه مدّة من الزمن ثم أخرجه ثانية وأعطاهن الكأس ، وبدأت النساء تمررن عليه الواحدة تلو الأخرى وهنّ ينحنين على الكأس ويضعن أصابعهن ويمصصنها ، فاتحات الطريق أمام غيرهن . فكانت هكذا بيعتهن . ونجا سيادته ، السلطان الأعظم من المعصية الكبرى التي تحرجه حين يضع كفه في كف امرأة دافئة . لكنه طوال مبايعتهن ، وانغماسهن في الكأس ، كان الملياني مشدودا إلى وجه ماريوشا الواقفة باستقامة وصمت .

في المساء عندما ذهب الجميع ، اختلى بها . تمتم وهو يصطنع ابتسامة ناتئة .

ـ هيت لك يا امرأة عبد الرحمن! .

ـ يا سيدي هل تتركني أذهب ، أنا مرهقة ، وعبد الرحمن ينتظرني .

ـ أنا كذلك أنتظر هذا اليوم .

عندما مدّ يده وأراد أن يلمسها ، نزعتها بهدوء ووضعتها على ركبته ، وعيناها مرتشقتان على وجهه الذي كان يحاول أن يخبّئ هياجه وانكساره . قالت :

ـ آه يا سيدي ، الدنيا كم تتغيّر! .

ـ لم أفهمك جيداً ، أنا لك بطولي و عرضي . أشتهيك يا امرأة عبد الرحمن .

ـ كم كنت عظيماً ونبيلاً . أتذكّر حماسك يا سيدي واستماتتك في الهجوم على قصر شهريار بن المقتدر . هل يعطيك خاطرك يا سيدي أن تمسس زوجة رجل لم يأخذ شيئاً من هذا الوطن ، سوى الحرائق والروماتيزم والأحزان ، والموت البطيء ؟ .

ـ لكنّي أعشقك منذ ذلك الزمن البعيد .

ـ من يعشق امرأة يا سيدي لا يذلّها بهذه الطريقة . وهل سألتني عن رأيي ؟ ؟! .

ـ أسألك الآن .

ـ آه يا سيدي! الدنيا تتغير بسرعة . البارحة فقط كنت مناضلاً وفدائياً كبيرا واليوم صرت رجلاً مبهماً . سبحان مغيّر الأحوال . من مقاتل إلى رجل لا يصافح النساء .

ـ لا أصافحهن! ولكني دينياً مطالب بحرثهن .

ـ هذا المعنى ، غير صادق منك يا سيدي .

- الرجل للمرأة والمرأة للرجل . هكذا الدنيا خلقت . قيل لها كوني ، فكانت على هذه الصورة .

- قلت يا سيدي في خطابك إنك إمام الأمّة العادل وأقسمت أن تسير على هدى نوح . ما الذي غيّرك . أرجوك سرحني . عبد الرحمن ينتظرني يا سيدي وحيرته ستكون كبيرة .

- أنا هو إمام قلبك يا سيدة الدنيا . جسدك لي . لست مثل نوح .

- كان عاشقاً يا سيدي ، ولم يكن حاكماً ولهذا قتلوه ببشاعة .

- لكنه تجرّأ وحكم البلاد .

- وحياتك! أنا أعرفه يا سيدي . لم يكن يريد الحكم . في كل مرة كان يريد أن يغادره . لكنهم أصروا عليه كثيراً . لولا العمال والعلماء وحال البلاد لما بقي لحظة واحدة .

- لا تصدقي كلام المؤرخين . المؤرخون مثل المنجمين . كذبوا ولو صدقوا .

- يا سيدي ، عبد الرحمن قال هذا . هو لا يدوّن إلاّ ما يخرج من قلبه ومن ذاكرتهَ .

- عبد الرحمن استثناء ، داخل هذا الخلاء المقفر .

وضعت يدها اليمنى على خدّها . مسحت على وجهها وعلى شعرها . كان العرق ينزل من جبهتها . ثم أعادت يدها مرة أخرى إلى خدها الأيمن . فجأة كمن يكتشف متأخراً كنزاً ثميناً . لاحظ رقّة يديها ، ونعومة أصابعها ، ولون شعرها الأحمر وقدميها المحنّاتين مثل حمامة خلوية . لحس شواربه ثم قال :

- تتخضبين بالحنّاء ؟

- سيدي عبد الرحمن يريدني هكذا . كان دائماً يحلم أن يراني

ضافرة شعري الطويل ، مخضبة ، مغسولة الأسنان بالسواك ، وعود النوار ، ومتعطّرة بالقرنفل .

- أنت تقدسين هذا الرجل ؟ لماذا إذن أنت اليوم مثل الخرقة البالية ؟

- يا سيدي . يا سيدي . عبد الرحمن ليس ملكي . هو ملك هذه الدنيا قاطبة . هو ما تبقّى من ذاكرة نوح التي تباع الآن بأبخس الأثمان . الدنيا تخون عبد الرحمن ، لكنه لا يخونها مطلقاً . لا يخون صرخات الذاكرة وحنينها .

- أوف!! أنتم هكذا دائماً . تسودونها حتى عندما تكون منوّرة . الذاكرة! الذاكرة! حفرة من السواد والقتامة واللزوجة والهلامية ، لا أكثر .

- هي البصيص الوحيد المتبقّي من النور ، وإلا سننتحر جماعات جماعات مثل أسراب الحوت .

- إذا كان عبد الرحمن سيد كل المعابر الصعبة ، فأنا الدين والدنيا . افتحي عينيك يا ماريوشَا ، قبل فوات الأوان . أنت ما زلت لبوءة وهو شيخ . خسرت نصف حياتك مع البشير الموريسكي و سيدي عبد الرحمن المجدوب .

- البشير و المجدوب كانا ما تبقى من نقاء هذه الأرض أما البشير يا سيدي فأنا أريده وما زلت . هل تعرف يا سيدي ما معنى أن تريد امرأة رجلا ؟ لقد شَيَّدَ أملاً كبيراً ، على الزمن الذي ينتعله السراق والمهرّبون والسماسرة والقتلة ، منذ تلك الليلة المشهودة عندما دخل مع العلماء يتفقّد الموريسكي للمرة الأخيرة . الوحيد الذي صدقني بأن الموريسكي كان يتكلم و يقول الحق حتى وهو يتحوّل إلى تراب و رميم .

- هو طيب . ولكنّك تؤلّهينه أكثر من اللاّزم ..

ـ يا سيد الباب العالي . عرفت عبد الرحمن وهو يملك هيدورة ونعلاً قديماً ، ولا يزال كذلك حتى اليوم . الفارق الوحيد ، أن أقلامه زاد عددها ومدواته زاد عمقها . ويستهلك الحبر بالشكل نفسه الذي يستهلك به حياته . نظره بدأ يقلّ ، ونسيانه زاد رغم اتقاد ذاكرته . عندما ينكفئُ على الورقة والقلم ، لا يريد من أحد أن يزعجه . يقول لي دائماً : أنت في قلبي وعيني . وتزدادين أكثر عندما تبتعدين متفهمة انهماكي وأنا أدوّن بدون هوادة أحزان هذه المدينة .

شعر الملياني ، بالإهانة تدخل جسده من نقطة ما لم يستطع تحديدها . فكر أن يحسم الموقف بسرعة . فمن الصعب جداً إقناع امرأة مثل ماريوشا . رأت كل شيء ثم انتهت إلى صدر الموريسكي ، قبل أن تضع يدها على شعر وقلب عبد الرحمن مجهول الهوية .

ـ يا بنت الناس! أنا لا يهمني كثيراً هذا الكلام . أنت في حضرة الباب العالي و خلاص .

ـ عليك أن تعرف يا سيد الباب العالي ، أن عبد الرحمن يكتب تاريخ الحزن . عندما دخلت عليه في ذلك اليوم كان ممتلئاً بالجروح مثلما حدث له وهو يكتب لنوح للمرة الأخيرة ، قبل أن ينتقل هو بنفسه إليه ، لكن الدنيا كانت قد غيرت جلدها .

ـ وماذا كتب يا امرأة ؟ يا أمة الله .

علت محياها ابتسامة فيها الكثير من السخرية . تأملته بعينين مُدَوَرتين ، بشكل اخترق حميميته .

ـ لم يكتب شيئاً مهماً . أنت سيد العارفين . خاطب نوح بقلبه فقط . قال له : يا نوح!! قلبي تسحقه الجروح . يا سيد النور والانهماكات الكبرى . البلاد تفوح . امتلأت بالقروح . لقد بدأت تواجه مصيرك وحيداً مثل كل العظماء . قلبك طيب . لا أشك فيك لحظة واحدة . أحذَر أيها الرجل الأصهب ، ما وراءك مخيف . إنهم يختبئون

في كأس القهوة ، وبين كلماتك الشعرية ، وداخل لباسك . أحذَر . أنت لست لنفسك وحدك . أنت ملك هذه البلاد الطيبة . الدنيا ستصير خراباً و غبارا و جمهوريتنا الفتية ستقتل . هذا هو نصه حرفياً ، يا سيدي .

لم تستطع أن تحبِسَ دموعها التي كانت تنهمر بغزارة . قال الملياني :

- تعرفين أني حرمت البكاء على النساء .

- كان عبد الرحمن يا سيدي لا يرتاح إلاّ إذا مسح عيني بطرف ثوبه الأبيض .

- مع أني كنت كلما رأيتهن يبكين ، أحرش فيهن عبيدي لضربهن بالسياط لأن بكاء المرأة من نعيق الشيطان .

- عبد الرحمن لم يكن مخطئاً . كان يقول ، المرأة هي الدنيا .

- يوه ؟ ركبت الغُدَّة على قلبي يا ماريوشا . أنت تقتلين فرحي . يا بنت الناس ، لا تعرفين من هو الملياني . تزوجت امرأة ، عمرها ستَ سنوات . ولجبتها وعمرها سبع وما كادت تبلغ العشر سنوات حتى مللتها ، وعندما أرادت البكاء والنعيق ، ضربت رأسها ونفضت يدي منها نهائيّاً .

- هذا كثير يا سيدي . لست الرجل الذي دخل إلى القصر في ذلك اليوم المشتعل .

- هو الذئب يخرج من جلده . فأنا أقلّد الصالحين من السابقين و ذوي السنن الحميدة .

- لم أفهمك جيداً يا سيدي . لقد اختلطت عليّ ملامحك .

- الظلمة تستر العيوب . هذا أفضل . اسمعي إذن هذه الرواية و احكمي بنفسك .

ثم صفق بيديه . فجاءه مؤرخه الخاص . قال له افتح كتابك يا رجل . ففتحه في منتصفه . الطبقات الكبرى لابن سعد المجلد الثامن . الصفحة ١٠٢ . ثم بدأ قراءة الجزء المجلد بالحرير و القاطيفة .

(أخبرنا محمد بن عمر قال : حدثنا عبد الله بن عامر الأسلمي عن محمد بن يحيى بن حبان قال : جاء رسول الله (صلعم) بيتَ زيد ابن حارثة يطلبه . وكان زيد يقال له زيد بن محمد . فربما فقده رسول الله (صلعم) الساعة ، فيقول ، أين زيد ؟ فجاء منزله يطلبه ، فلم يجده . فتقوم إليه زينب بنت جحش زوجته فضلاً ، فأعرض رسول الله (صلعم) عنها ، فقالت : هو هاهنا يا رسول الله . فادخل بأبي أنت وأمّي . فأبى رسول الله (صلعم) على الباب . فوثبت عجلى ، فأعجبت رسول الله . فولّى وهو يهمهم بشيء لا يكاد يفهم منه إلاّ ربّما أعلن : سبحان الله العظيم ، سبحان مصرف القلوب . فجاء زيد إلى منزله ، فأخبرته امرأته أن رسول الله أتى منزله ، فقال زيد : ألا قلت له أن يدخل ؟ قالت : قد عرضت ذلك عليه فأبى . قال : سمعت شيئاً ؟ قالت : سمعته حين ولّى ، تكلم بكلام ولا أفهمه . وسمعته يقول : سبحان الله العظيم . سبحان مصرّف القلوب . فجاء زيد ، حتى أتى رسول الله ، فقال : يا رسول الله ، بلغني أنّك جئت منزلي ، فهلاّ دخلت ؟ بأبي أنت وأمّي يا رسول الله ، لعلّ زينب أعجبتك فأفارقها (قالها المؤرخ ، وهو يمطط من حروف هذه الجملة الأخيرة . وأعادها مرتين متتاليتين بالطريقة نفسها ، وهو يتأمّل عيني ماريوشا المشدوهتين الملتصقتين بفم المؤرخ الذي كان يفتح ويغلق بتأنٍّ أحياناً ، وفي أحيان أخرى بسرعة . كانت ماريوشا تبرق سحراً وحزناً) . فيقول رسول الله : امسك عليك زوجك . فما استطاع إليها زيد سبيلاً بعد ذلك اليوم . فيأتي إلى رسول الله ، فيقول رسول الله : احبس عليك زوجتك . ففارقها زيد واعتزلها وحلّت ، يعني انْقَضَت عدّتها . قال : فبينما رسول الله جالس ، يتحدث مع عائشة ، إلى أن أخذت رسول الله غشية فسّري

عنه وهو يبتسم ويقول : من يذهب إلى زينب يبشرها أن الله قد زوجنيها من السماء .

انتفضت ماريوشا من مكانها بعد أن أحست بمقصد الملياني و ما كان ينوي الإقدام عليه .

ـ يا سيدي! لكنه رسول الله!! ؟ .

ـ يا بنت الناس . لقد غَشيت ورأيتك في رؤياي . إنها سنّة السابقين . كلنا رسل الله و كلنا حامل لرسالته .

ـ يا سيدي ، أنت تأمرني بالمعصية .

ـ يا امرأة عبد الرحمن ، يكفي من كلام العجائز . جسدك مصقول وصبري نفدَ . وأنا سيدك .

ـ أعترف لك بالسلطان ، ولكن سيدي هو عبد الرحمن .

ـ لم تبايعيني! حتى الآن .

ـ بايعت نوح بقلبي وعيني و روحي .

قام من مكانه بعنف ثم أمر المؤرّخ أن يدون . أكتب يا ذبابة المزابل : عندما كانت المدينة تموء جوعاً والخراب ينام تحت العمائِم من جراء المجاعة الكبرى التي حلت بالبلاد . أحاط سلطان هذا الزمن وسيده الهمام الحاكم الملياني نفسه بكل علماء العصر ونسائهم ، ومن بينهم امرأة تدعى ماريوشا ، خرجت عن الملّة والدين ، وظلت تداعب سيادته وتخرجه عن الفضيلة . تتعرى وتقول هامسة . هيت لك ، يا سيد الدين والدنيا . لكن ملاك ذات اليمين ، قهرها وردَها عن غيّها إلى صوابها . استحضر سيادته سورة يوسف وقرأها العديد من المرّات ، حتى امتلأ صدره بالنور وبدأت الحوريات تتطاير أمام بصره مثل النّور . مسح على رأسها فزال طيشها وتابت ، وعادت إلى زوجها ، رجل يدعى عبد الرحمن ، ولا يعرف اسمه الثاني ، مصونة ، معززة ،

مكرّمة . سنة الأتقياء ، كانت تتجلّى في عيني جلالته وحكمه . لم يكن شيء يغريه سوى حب الرعية والله والتنزه عن مغريات الدنيا الفانية .

فجأة صرخت ماريوشا بأعلى صوتها .

ـ يا سيدي ، هذه الرؤيا كاذبة ولو صدقت .

ـ أنا أريدك . ولكنّي لا أريد من قمامة التاريخ أن تمسح دمها فيّ .

ـ التاريخ يا سيد الباب العالي ، لا يسجّل في نهاية المطاف إلاّ ما يريده هو .

ـ التاريخ يكتبه الأقوياء . وهاأنذا أخطّه بماء البرتقال والزهر الذي لا يمحى أبدا .

ـ ذاكرة السلطان قصيرة . شهريار كتب عبثاً .

ـ لكنّي محتاط لكلّ الرياح الساخنة . ومن بعد ؟ ماذا أخسر ؟ لا شيء سوى الزيف الذي يملأ قلوب الناس .

كانت مشدوهة ، تتعجب لحالة عصابه وهذياناته . لم تستطع أن تلفظ بكلمة واحدة وهي تتأمله وهو يتعرّى عن آخره . كانت خلقته مشوهة . بدانته مرهقة ، سحبت معها الرقبة حتى صار مثل الضفدعة . دارت بوجهها باتجاه الحائط . كان مستَنْفِراً مثل الدابّة . ارتعشت ثم صرخت وهي تضمّ رأسها بين ركبتيها .

ـ "يا سيدي الملياني أرجوك . أنت مخطئ . لست من تبحث عنها .

ـ هذا عصيان لأولي الأمر . من قال إن الرسل وحدهم يحق لهم مالا يحق لغيرهم ؟

ثم مدّ يده إلى صدرها ، وبحركة واحدة مزّق لباسها الأبيض الرقيق إلى قطع صغيرة و أشلاء . دفن أصابعه أكثر بين نهديها . تركها تتوغل بقوة نحو السرّة . قفزت بسرعة من مكانها .

- لا يا سيدي . هذا عرض عبد الرحمن . أنت تقتلني يا سيدي . أرجوك ، عد إلى رشدك .

- كل شيء لعبد الرحمن . هذا المجنون . المعتوه . المبوقل . الذي لا يعرف شيئاً عن المرأة والحياة . طز في عبد الرحمن . قبله قلتِ هذا للموريسكي . أنت لكل المجاذيب . اعتبريني واحداً منهم .

كان لسانه قد تدلّى . وبرز مثل لسان كلب عطشان . انحدر بالقوة أكثر باتجاه فخذيها . وقفت . وقف معها بدون أن يحرك أصابعه التي كانت تخبش لحمها . كانت نصف عارية . ارتجفت مثل رعشة الموت الفجائي . استجمعت كل قواها . ليكن . الدنيا تُعْطَى مرة واحدة . إما أن نعيشها وإمّا أن نقتلها . ثم رفعت كفها الأيمن وهوت على وجهه بصفعة دوخته وأدارته في مكانه .

"هاه . يد واحدة ما تصفق ولكنها تصفع" .

شعر بأجراس كل الكنائس التي تملأ المدينة ، تدق . تدقّ في أذنيه ، بدون توقف . كانت الدوخة قد أخذته من رأسه مثل إغفاءة الميّت . كانت عيناها حمراوين . لم يرَ الخوف الذي عَهِدَهُ فيها مطلقاً . هياجه وصل إلى الذروة وجنونها فاق الحدود .

- مولاك يضرب يا قحبة العلماء والمجانين . سترين . . .

- منذ أن دافعت عن جَسدي فأنا اعتبر نفسي ميتة . كُلْ جثتي إذا شئت .

لواها مثل الورقة على ظهرها . عرّاها عن آخرها ، ثم تمدد على جسدها الذي لم يفقد غضاضته مطلقاً . وعندما شعرت به يقتحمها . ويندفع بقوة داخل جسدها ، اختلطت الدنيا في عينيها . تأوهت بحسرة وتكسر الدمع في عينيها كقطع الزجاج القديم . تناهى إلى مسمعها صدى الجنائز و دقات نواقيس الكاتدرائيات من بعيد ممزوجا بصوته المكتوم وهو يشهق بتقطع ويشخر كالمذبوح . وعندما تأوهت ألماً . آه

يا سيدي!! لقد قتلتني . غمغم قليلا ، و هل رأيت شيئا ؟ زاد انغماسه في تفاصيل جسدها الذي كساه العرق حتى حمّمه . فجأة غزته بعض الكلمات القديمة . تذكر علي بن أبي طالب عندما جاءه رجل وقال له : إن لي امرأة ، كلما غشيتها ، تقول قتلتني . فقال له علي ، اقتلها وعليَّ إثمها .

ـ تعرفين ؟ هذه الكلمة تقودك مباشرة إلى المدفنة بدون حتى تغسيل . ومع ذلك أعفو عنك . فسيدك غفور رحيم مثل الله ، لأنك جميلة و جسدك يجوع كل من لامسه .

ـ الله في قلبي . الله في كلّي . أعظم وأجلّ . وأنت في عيني أحقر وأنذل .

ـ أفهمك . أنت تتمنّعين وتريدين . فقيهي ابن كيوان يقول ، أربع لا يشبعن من أربعة : عين من نظر وأذن من خبر ، وأرض من مطر وأنثى من ذكر .

وفي تلك الليلة ، يقول مؤرخ القصر الذي كان على اتصال دائم بأوسكار ، يخبره بالصغيرة والكبيرة ، إنه دوّن تدوينات أملاها عليه السلطان وكلها كانت عفّة وتبجيلاً وبسملة وحوقلة وعلوّ نفس . لكن الحقيقة يا سيدي . يقول أوسكار عن رواية المؤرخ ، فالملياني كان يحمل حقداً خاصاً لعبد الرحمن . لم ينسَ في يوم من الأيام أنه هو الذي كان يدفع بنوح الذي كان منهمكاً في الشعر ، إلى أن ينتبه إلى محيطه . فأعداؤه في كأس القهوة التي يشربها . ولم ينسَ أن ماريوشا ، العاشقة الصغيرة ، اختارت فراشه و لا أحد سواه .

الذي حدث في تلك الليلة كان مريعاً . فقد سفدها عشر مرّات بشكل مائع . وفتش جسدها زاوية زاوية . في المرة الأولى قاومت ، وضربت رأسها على الحائط ، ولكنها استسلمت فيما بعد للموت . حتى هو نفسه اندهش من سلبيتها ، وشعر بلذته تتضاءل وانتصابه يصير شبه مستحيل . قالت في خاطرها . مرة ، أو عشر مرّات ، الأمر متشابه .

الذي حدث حدث . نُذْبَحُ مرة واحدة ، أو مرّات ، فالبقية كلّها تنويعات على موت واحد . في المساء نفسه عندما رمتها سيارة الليموزين عند باب القلعة . كانت شبه عارية . ملفوفة في قطنية قهوية اللون . عندما أخرجوها من السيارة ، لفحها الهواء البارد ، شعرت بألم ، ولكنها بدأت تستفيق . اقترب منها عبد الرحمن . أراد أن يحملها قالت بدون تردد وكأنها في كامل لحظة صفائها . أرجوك يا سيدي لا تلمسني . من عينيها عرف كل شيء . تدحرجت باتجاهه وهي تئن . روحك يا عبد الرحمن مُرّغت في التراب . أرجوك لا تلمسني أيّها النبي الضائع . وظلّ يحاول معها ، ولكنها كانت مصرّة على حالتها . مدّة ثلاثة أشهر بلياليها ونهاراتها ظلت منفية وبعيدة عن كل العلماء ، في زاوية مظلمة من زوايا القلعة . تغسل وتقرأ . تغسل وتقرأ . وتغسل وتقرأ . وعندما تيقنت أنها لم تحمل من البغل المشؤوم ، فكرت في الانتحار . أرادت أن تحكي لعبد الرحمن . أوقفها . قال لها في عينيك رأيت كل شيء منذ اليوم الأول . وظل يمسد على شعرها وينوّمها في حجره ، ويكتب ، حتى نست فجيعتها وعادت لتسكن من جديد قلب عبد الرحمن وذاكرته .

* * *

- IV -

الخطأ مثل الرصاصة . عندما تخرج تفعل فعلها وتحدث كوارثها ولا تعود إلى غُمْدها الأول . الحماقة الكبرى ارتكبت منذ تلك اللحظة . أو ليس الحكم كله خطيئات متكررة ؟ عندما احترقت نوميدا-أمدوكال ، كانت الجملكية تعيش آخر أيّامها تحت حرائق البحر والقصور وشوارع المدينة ، وممرات القلعة الضيقة . في القلعة ، مع العلماء ، وعند البحر مع العمّال ، لم يكن الوقت كافياً . كان لابدّ من إيجاد حلّ حتى لا تغرق البلاد في فراغات يصعب سدُّها فيما بعد . العلماء تأففوا كثيراً من الوضع الذي بدأت تؤول إليه البلاد . قالوا نحن ذاكرة المدينة وتدوينها الكبير . العمّال صرحوا منذ البداية . لا نحكم . سواعدنا لحماية البحر وكل الممرات وشوارع المدينة وأسقفها وحيطانها . الخراب كبير ، والمسؤولية أكبر ، يجب حسم الأمور في أقرب الآجال . شهريار قدمته دنيازاد وأصدقاؤها وقمر الزمان والمؤرخ ، طَعْماً للأسود ، ووضعوا في مكانه جثة المحظية التي كانت تتأمل مشهد المقتلة وراء الستائِر السمرقندية . دنيازاد سافرت مع عاشقها المؤرخ . قمر الزمان ، أكله الكرسي الذي لم يجلس عليه إلا قليلا ، تحت القصف المتواتر من العمال والعلماء . العيون التي صارت تتصيد نوميدا-أمدوكال وتراهن على

سقوطها ، كثيرة . وأمضى الجميع أكثر من سبعة أسابيع يخطّون في الرمال وعلى الصخور البركانية وفي الأنفاق بَحْثاً عن حلّ لكن بدون جدوى . وفي الهزيع الأول من الليلة السابعة ، من الأسبوع السابع ، من الشهر السابع ، صرخ أحد العلماء بأعلى صوته : أوريّكا!! أوريّكا!! وجدتها ، وجدتها . وعندما نَطَقَ بالاسم ، انفرجت أعين الحاضرين على كامل اتساعها . كأنّ الجميع كان ينتظر هذا الاسم . لأن كل الأسماء التي اقترحت من قبل رفضت إمّا من طرف العمال وإمّا من طرف العلماء ، حتى وصلت الوضعية إلى درجة المأزق المطلق . الاسم الذي نطق به أحد العلماء ولّد إجماعاً مدهشاً . أين كان مختبئاً ، صرخ أحدهم . لا أحد غيره ينقذ البلاد من التشتت والانهيار . لكن يا ترى هل يقبل ؟ قال آخر سنقنعه بكل الوسائل ولا يمكنه أن يرفض أبداً . وإذا لم يَقْتَنِعْ ؟ لا! لا! لا يعقل أبداً . يجب أن يقتنع . قلب الرجل ممتلئ بوطنه . نوميدا-أمدوكال ذاكرته . نوح! ما أبسط اسمه وأعمق تضحيته . لم يفكر أحد من قبل في نوح . كل الناس نسوه . العمّال تذكروه . العلماء كانوا يحبّونه . كان شعلة في الذكاء والتضحية . يعرفون جيداً أن قلبه مجروح . يعيش مع نَوّارة لهبيلة بنت زينب في قرية بعيدة عن الأنظار . يحكي دائماً لنوارة (أمّه) أنه لا يعرف أباه . هي أمّه وأبوه . كان صدرها ممتلئاً بالأسرار حتى جنّت . وذات مرّة في لحظة من لحظات صفائها القليلة فاجأته بالحكاية التي كانت تنام في قاع القلب والذاكرة . قالت نوارة لهبيلة بنت زينب وهي تستحضر الصور الغائبة بصعوبة كبيرة . اسمع يا ولدي . اسمع جيداً . لأن ما أقوله قد لا أقوله غداً ولا بعد غدٍ . اللي ماشي خير من اللي جاي . كان شهريار بن المقتدر ، لعنة الله والملائكة والشياطين عليه ، يقوم بجولته الاعتيادية مع حاشيته . قالوا لي في البلدة : أنت جميلتنا جميعاً . خذي باقة الورد ، وقدميها لسيد الباب العالي . تقول نوارة : شعرت بامتعاض لأني كنتُ أعرف مسبقاً أنه مثل الحمار ، يأكل الورد الذي يقدّم له . لا يعرف الشمّ أبداً . كان شهريار في أيّام عزّ حكمه وسلطانه وجاهه . عندما

قدّمت له في البداية باقة الورد ، رمَاها في حضن مرافقه أو حارسه . لم يرَ حتى لون الورود ولا شمّها ولا حاول أن يتظاهر بذلك . لم يكن معنياً بأي شيء آخر سوى هواجس السلطان وجنونياته . وعندما قدمت له الحليب والتمر ، اكتشف يدي ، ثم وجهي ، ثم لباسي البربري الملوّن ، ثم قامتي ، ثم عيني . ارتشق كألسنة النار أمامي . مسح على فمه بالمنديل الذي وضع في صحن التمر ، وشوش في أذن حارسه ، سمعت جزءاً من وشوشته ، قال له : بنت الكلب ما أجملها . من أين جاءت ؟ أين كانت ؟ فكرت في لحظة من اللّحظات في الهرب ولكن إلى أين ؟ أخذني من يدي اليمنى وأراد أن يَسْحَبَني باتجاهه . قلت بتمتمة فيها نوع من الارتجال :

ـ يا سيدي أنا مخطوبة ، وفي حياتي رجل .

ـ ومن تحدث عن الخطوبة يا حلال سيدك ؟ نريد أن نكافئك على حسن صنيعك كما فعلت ذلك مع أخريات شق عليهن يوم السعد و إذا كنت ترين في ذلك ضرراً ، فأنا منسحب من الباب . .

شعرت بخجل كبير من سخافاتي ، تقول نوارة لهبيلة بنت زينب . في الحقيقة لم تكن سخافة . في الخيمة التي نُصِبَتْ خصيصاً لزيارته القصيرة ، والتفقدية (التي لا يتفقد فيها إلاّ النساء الجميلات ليلحقهن بالحرملك الذي يعجّ بهن) . اقترب منّي وبدأ يداعب شعري ثم شفتي وجسدي ، ثم حلمة النهد الأيمن ثم الأيسر . وقتها لعنت نفسي وجسدي والله الذي خلقني امرأة . كررت له من جديد . يا سيدي في حياتي رجل . سألني هذه المرة بنوع من الدّهشة . من يا قمر الدنيا والزمان ؟ قلتُ بدون تردد هذه المرة ، كمن حقق نصراً كبيراً ، ابن عمّي . ابن عمّي يا سيدي . أحبه ويحبني . صفق بيديه ، ثم أعطى أوامره التي لا تُردّ . أتوني بابن عمها . خرجت فيالق وجيوش بكاملها تبحث عنه . ثم التفت نحوي وهو يحاول أن يتحكم في ابتساماته الماكرة :

ـ هذا يومي . أنت جئتِ في طريقي في يوم سعدي .

ـ وهل ستزوّجني به يا سيدي .

ـ طبعاً يا ابنتي . طبعاً .

ـ أهله غير راضين بي .

ـ لا عليك . سأجعلهم يرضون .

وعندما تأخر ابن عمّي ولم يأتِ سألته من جديد عنه . قال :

ـ ابن عمك في العيون التي ترعاه . لقد أدخلته في فيلق الخيالة ضمن الحرس الجملكي . وهو هناك في القصر . وسأزوجكما بنفسي .

لا أدري ما الذي أصابني ، ولكن غبطتي لم تكن كبيرة ، ومع ذلك قادني إلى قصره . وعندما مرت الأيام متشابهة وأنا مثل السجينة ، سألته : بل كَرَّهتُهُ في روحه من كثرة أسئلتي : أريد ابن عمي . ذات صباح جاءني هو بنفسه ثم رمى لي رزمة من الأوراق ، قال : هاهو ذا رجلك يبعث لك بأشواقه ، رسائله كثيرة ، ووقته في فيلق الخيّالة ضيق ، بدون تردّد قلتُ : لكن يا سيدي ، هو لا يعرف الكتابة و لا حتى القراءة . لا يفك إلاّ ما في عينيّ عندما أكون حزينة . ابن عمّي كان وقتها طعماً للكواسر ، يتدلّى على أعواد المشانق في خلاء المدينة المقفرة . وعندما نفد صبره ، وشعر بي أني بدأت أكتشف كذبه المتتالي ، تعرّى وعرّاني بالقوة . كنت أبكي بأعلى صوتي ، في حجرة مغلقة . شعرت بعدما جفّ مائي بكل قواي تنهار ، وبفجوة تخرمني مثل الإبرة ، بعنف . وعندما اغتصبني لم أشعر بالألم مطلقاً . كانت وقتها كتب التاريخ تروي عن دنيازاد التي كانت وراء الستائر ومن فراش الحرير ، تتأمّل المشهد وتنزع ثيابها وتمسد بحنان على قضيب المؤرّخ الذي كان منذهلاً ، مشدوهاً فاغراً فمه من جسدها المصقول مثل الزجاج . كانت تروي حقدها وتمارسه علانية وتقول بِشَطَطٍ كبير : هاه!! سَمَّيتُ أختي دابة الغواية وسميتَ نفسك سيد الدين والدنيا . هاأنذي ،

دنيازاد بنت الوزير المجهول أورّثك من غير بطنك أيها البغل الحاوي ، قمر الزمان ، الذي سيرث أرضك وينزع رأسك . ثم عندما ملّ ، تقول نوارة لهبيلة بنت زينب ، نهض الملياني ولبس سرواله بعد أن أكل كل شبقه دفعة واحدة . هاه يا الفرخة . طز في ابن عمّك . لقد أكلتُهُ الكواسر منذ زمن بعيد . كانت الدنيا قد أظلمت عن آخرها . لا أدري ماذا فعلت ولا ماذا قلتُ ، لكن عقوبته لي جعلتني أدرك أن الحماقة التي ارتكبتها كانت كبيرة . فقد شتمته بكل قواي وضربته بكل شيء صادفته في طريقي . نادى أعز أصدقائه وأقربهم إلى قلبه . فخرج المؤرّخ من وراء الستائر وهو يحاول أن يثير انتباه سيده ، ويعدّل من هندامه . صرخ في وجهه . واش يا راجل خرجت من الزريبة ؟ قال المؤرّخ . لا يا سيدي . كنت نائماً على القلم والورق وأنا أدوّن انتصاراتكم . كان لسانه لا يزال متدلياً من كثرة انكفائه على صدر دنيازاد . ثم نادى حَارِسَهُ الخاص الذي لم أعد أتذكر وجهه مطلقاً . قال له : أريدك أن تمتّعني في هذه الأمَةِ . وظلّ يفعلها ويعيدها حتى غابت الأشواق والأنوار من عيني ولم أعد أرى إلاّ الظلام والقبر المفتوح عن آخره . ولم أعد أسمع إلاّ كلمات شهريار وهو يأمر المؤرّخ . أكتب : في تاريخ المجاعة الكبرى ، لامس عظمته بأياديه البيضاء امرأة تدعى نوارة لهبيلة بنت زينب . أنقذَها من موت محتوم . . . ردّها عن غيّها . . .

لا أدري ماذا حدث بعد ذلك سوى أنّي بعد زمن طويل من هذه الحادثة ، عندما أردت أن ألدك ، انتبذت مكانا تحت نخلة بالقرب من الساحل المهجور ، وليس بعيدا عن بقايا سفينة قديمة . من يومها سمّوك نوح ولد النخلة . أبي كان من عمال البحر ، يوم انتابني المخاض . دخل البحر ولم يعد أبداً . الفظاعة كانت أكبر ممّا تصورها الموريسكي .

نوارة لهبيلة بنت زينب . منذ ذلك الزمن وعقلها يضيع شيئاً فشيئاً حتى انتفى . ولم تعد حالات صحوها ، سوى حالات نادرة وقد لا تدوم طويلاً . ولَمّا كبر نوح ، لم يكتب شعراً خارج نوارة لهبيلة . وعندما يَحْدُثُ لَهُ أَنْ يكتب ، لا يعلم إن كانت نوارة أمّه ، أم صديقته أو

عشيقته . ولا يعلم ولا يريد أن يعرف أصلاً إذا كان ابن شهريار أم ابن حارسه الخاص . ظل يكتب ويكتب ويربّي الحقد الكبير ضد شهريار . العلماء عندما اختاروه ، كانوا يعرفون أنه يكره الحكم وكان من الأوائل الذين أحرقوا القصر وبحثوا عن شهريار لأكله نيئاً ولكنهم لم يجدوه .

تساءل العمال والعلماء مرة أخرى ، أين كان مختبئاً هذا الرجل ، كل هذه المدّة . رجل الحلم ، والصدف البحري ورائحة الكرّوش والعرعار والزّنوج ، والحرمل والشيح ، والزعتر ، والفليو والقرنفل . رجل الولع الكبير بقلب نوارة لهبيلة بنت زينب التي سرق فرحها ذات ليلة (الغريب أنه يشترك مع أبي في هذه الحالة . المالياني هو كذلك جاء ثمرة اقتحام لجسد أمّه بالقوة) نوح لَمْ يَكُنْ يعرف جيداً ، كيف وجد نفسه على هذه المنصّة التي اسمها الحكم . كان يظنّها مِنَصّة كبيرة يعتليها معلم ، يحب الكتابة والشعر . عندما كانت البلاد تحترق ، دافع عنها حتى الموت ، وكان من الذين رموا أنفسهم في نار القصر وطالب بعدم حرق البرلمان ، فهو ملك للأمّة . وقبل أن يستجمع المحاربون أنفاسهم ، عاد بسرعة إلى قريته البعيدة والمعزولة . عندما سئل ؟ قال لا أريد شيئاً سوى وطني الذي ظل مدّة من الزمن مسروقاً داخل غلاف بدائي اسمه "الجملكية" . الكثير ممن تساءلوا عن سر هذا الرجل ، انتهوا إلى التسليم بأنه هو الرجل العلامة الذي قضوا زمنا غير محدود ينتظرون ظهوره و تجلّيه .

عندما وصله الوفد المكوّن من بعض الأعيان والعمّال والعلماء والمجتمع المدني الناشئ ، من نساء وجمعيات كانت سرية فأصبحت علنية ، وجدوه غارقاً في دقيق مطحنته . في البداية عاتبوه .

ـ آه يا نوح! هكذا تأتي . تقاتل وتصرّ أن تظل جندياً مجهولاً وأنت كبير .

ـ قاتلت من أجل هذه البلاد فقط . انتهت مهمتي .

ـ لكن البلاد لا تزال في حاجَة ماسّة إليك .

ـ ماذا تحتاجون من رجل مولع بالشعر والكلمات الضائعة ؟

ـ شجاعتك و صبرك و عنفوانك .

ـ نزوة . وحقّ ربّي مجرّد نزوة لكتابة نص صادق عن لهبيلة وعن الثورة . أردت أن أجرب الموت فجربته . هذا كل ما في الأمر .

ـ هذا ما نريده منك .

ـ القصد ؟ ؟!!! .

ـ لأنك تقول كل شيء بصدق و لا طمع لديك ، نريدك أن تكون حاكماً على البلاد . على الأقل تسيير المرحلة الانتقالية .

ـ أنا حاكم ؟ رئيس! كه . . . كه . . . كه . . .يكفي سخرية .

ظلّ يضحك طوال الأمسية التي تلت اقتراح القادمين من نوميدا-أمدوكال ، ويقهقه بأعلى صوته وبكلّ ما أُوتيَ من قوة . كان متأكداً تماماً من أن المسألة لا تغدو أن تكون مجرد مزحة من المزحات الكثيرة التي ظهرت بعد سقوط شهريار بن المقتدر ولكنهم أكدوا له من جديد ، أنهم يريدونه حاكماً بالإجماع ، ويخافون إذا لم يقبل ، أن تسقط البلاد في الفوضى . فيه خصال الأمانة والصدق والتضحية ، إضافة إلى كونه رجلاً ترك الدنيا مقابل الشعر ونوّارة لهبيلة وظل يُغنّي فرحاً مخبأ بين الضلوع ونواراً كان دائماً يراه في عمق عيني نوّارة لهبيلة اللتين لم تذبلا أبدا على الرغم من المصائب المتوالية .

ـ البلاد متعبة . ونخشى أن يتشتّت الجيش ويتمزّق . أنت تعرف ، بقدر ما للجيش من سطوة ، فهو مؤسسة يمكن أن تنهار بسرعة وتسقط عندما تدخلها الحسابات الضيّقة .

ـ لكنّي مجرد رجل للكلمات ، وليس للسلطان . شوفوا غيري الله يرضى عليكم .

ـ نريدك ، لأن الناس يريدونك . لا تقطع خيط التأمّل والرجعة . نرجوك .

وظل يهرب من أسئلتهم ، وينكّت أحياناً ، ويريهم يديه المفلّحتين من كثرة العمل اليدوي ومن التعب ، وكراريسه القديمة المليئة بالخطوط والألوان والشأن الذاتي وألبسته المليئة بدقيق المطحنة ، وعرق جسده الذي لا يتوقف عن الحركة .

ـ بربكم هل هذه سحنة رئيس دولة ؟ أحمل على ظهري ماضياً رديئاً .

ـ نعرف فقط أنك أكبر شاعر في هذه البلاد وكلماتك تتغنّى بها نساؤنا وأطفالنا .

ـ الناس الذين يحبّون الحكم كثيرون! لماذا لا تُعَيِّنُونَ واحداً منكم . أنتم سادة الموقف .

ـ ومع ذلك لا يوجد سواك . إمّا أن تنقذ البلاد وإمّا أن تتركها تغرق في النار و الهلاك .

شعر في الكلام الأخير بالأشياء الغامضة تسقط ثقيلة على قلبه وذاكرته . كانت القيود المرهقة تنزل على مفاصله الواحدة بعد الأخرى ، لتكبّل يديه ورجليه . شعر بالدم يسري في عروقه بسرعة غير اعتيادية والهواء الساخن يتمزّق داخل رئتيه . خرج عند الباب المشرّع . استنشق رائحة العرعار الآتية من بعيد ، والبلوط ، والنوار ، والبحر والأتربة التي ضمختها أمطار خفيفة سقطت في غير فصلها . التفت نحوهم . كانوا مشدوهين في صمته ، ثم رجع بخطا ثقيلة نحوهم وهو يمسح العرق الذي ندّى جبهته .

ـ لا يعقل! الأمر يتجاوزني يا عباد الله . المسألة أكبر منّي . أنا مجرد إنسان عادي لا أكثر .

- و نحن نريد هذا الرجل العادي .

كانت الخيبة تَمْلأُ عيونهم المفتوحة عن آخرها ، والتي انسدلت بعد ذلك بنوع من الانكسار . لم يدر ماذا حدث له فجأة . خفت انزعاجه عندما قال له عبد الرحمن وهو يضرب على كتفيه بحنان كبير .

- نعرف أنك رجل عالٍ . ولكن على الأقل لا توصد الباب . تعال . انظر بعينيك وبعدها اتّخذ موقفاً نهائياً .

وعندما همّ الجميع بالخروج ، قال : انتظِروني . أنا قادم معكم . قادم للتعرّف على الوضع على الأقل . قالوا : لم نكن نطلب أكثر من ذلك . قضى اليوم كله يعبر الأزقة والشوارع ويجوب عمق المدينة أحياناً راجلاً ، وفي أحيان أخرى بالسيارة . لمس بعينيه مشاهد الخراب وأنين البيوت الضيقة الذي كان كل يوم يزداد أكثر . في الصباح ، قبل أن يعلن التلفزيون عن تنصيبه ، أكَّدَ هو للمقربين منه ، أن أوّل شيء يجب القيام به ، هو إعادة الطمأنينة إلى المواطن وتصليح الخراب .

وبدأتْ عملية التجنيد الكُلّي لإعادة تعمير البلاد . ومَا كادت الشهور الأولى تمضي حتّى كان الرخاء قد عَمَّ البلاد وبدأ الأمل يملأ العيون التي أفْرغَتْ من كل نور بسرعة غير اعتيادية ، أُعيدت البناياتُ العالية إلى الظّهور ، ورممت الجسور التي كانت تمزق المدينة وتجعل منها أطرافاً مفصولة عن بعضها البعض . حماس الناس تجاوز الحدّ المعقول . كان مدهشاً ونادراً . عادت المصانع إلى وظائفها . بنيت أسوار المدينة الدفاعية وأعيد تركيبها من البلوكات الحديدية الضخمة . بدأ نشاط الميناء يَكْبُرُ شيئاً فشيئاً ، والسفن التي كانت راسية بعيداً ، محمّلة بالأغذية والآليات ، اقتربت أكثر باتجاه أرصفة الموانىء لتفريغها ، وشحنها ، وأصبحت المصفاة القديمة تشتغل بأكثر من طاقتها الاعتيادية وتَمْلأ السفن الراسية بالنفط الذي كانت تضخه من أعلى القمّة في الجبل حيث انتصبت قواعدها . (هي المصفاة نفسها التي ستأكُلُ بعد زمن ، عظام عبد الرحمن) . بسرعة كبيرة ، تغير وجه المدينة ، ومعه تغيّرت

ملامح الناس . ومع صدور مشروع قرار تأميم النفط ووسائل نقله ، والخطوط الجوية والبحرية ، والبنوك والمناجم ، كان كل شيء قد تأسس في نوميدا-أمدوكال بشكل قوي ونهائي . (هكذا كان يتصور على الأقل) . في زمن قياسي ، أعادت البلاد تأسيس جيشها ودفاعها ، وفي زمن قياسي كذلك ، دخلت النظام الجمهوري ، بواسطة مستشارَيه الكبيرين عبد الرحمن والملياني . وبسرعة أكثر ، زاد تعلّق الناس بنوح ، وزاد تعلّق نوح بمستشاريه وشعبه ، الذين كان يرجع لهم للاستشارة في الصغيرة والكبيرة . الملياني ، قبل أن يصير مقرّباً من نوح ، كان قد رفض الاستشارة . لكن نوح كان دائماً يقول له : أرأيت يا الملياني!! نحن نتشابه في كل شيء . رفضت المنصب مثلي ولكن قلبك الواسع ، وحبك لوطنك وتضحياتك جعلوك تقبل الدخول في عمق النار بدون تردّد . هانحن ندخل جميعاً غمار جهنّم لنخرج من الطرف الآخر بكثير من الشوق والفرح . أنت يا عبد الرحمن . سيد هذا العصر ونبيّه (هذا الكلام غاض الملياني في عمقه) . الكاتب والمؤرّخ ، وابن هذه المدينة الصادق ، لا شيء يملأ قلبك سوى إنقاذك لهذه العيون التي ترمش صباحاً ومساءً وتنتظر متى يأتي الغيث . هانحن جميعاً نعبر خيطاً حارقاً من الشمس القريبة . إمّا أن نخرج بوطن عظيم وإمّا أن نتحول إلى رماد تكتحل به نساء أعدائنا .

لم يخب ظن نوح في اختياراته ولا في الرجلين المقترحين من العمّال والعلماء . بعد شهور بسيطة تأكد أن الملياني كان رجلاً قليل الكلام ولكنه كان شعلة من الحركة والاتقاد وفي سباق محموم مع زمن غامض . أصبح الجيش تحت إمْرتِه مباشرة وأعطى الأوامر الصارمة للتقليل من الأجهزة البيروقراطية ودفع الناس إلى العمل بهدوء وصمت وبدون ضجيج إعلامي . الأمر الذي دفع بنوح إلى التصريح . دعوا الكلام للكلام . بقدر ما تخرج البلاد من الخطر الداهم بسرعة ، نربح رهان الديمقراطية والجمهورية . ننظم انتخابات رئاسية حرة ، وأعود أنا إلى نوّارة لهبيلة بنت زينب و إلى كلمات النور والشعر والعنفوان .

أصبحت المؤسسات المركزية تشتغل بقوة نادرة . وضع الملياني على رأس كل مؤسسة استراتيجية رجلاً يعرفُه بعمق . قال : الرجل المناسب في المكان المناسب . الخطأ البسيط يمكن أن يجر البلاد نحو الكارثة . كانت البلاد تملك قاعدة مَاديّة صلبة تحتاج فقط إلى من يحركها وينزع عن آلياتها الأكسدة والصدأ . بينما عبد الرحمن كان منهمكاً في ترتيب القضايا الجوهرية المتعلقة بقوانين التأميمات المعلنة في خطاب الرئيس وترتيب المسائل السياسية والأيديولوجية في البلاد . قال له نوح وهو يشكره على تضحياته : أريد أن تصبح الديمقراطية حقيقة وليس واجهة إشهارية فقط . الجوع عدوّ الديمقراطية يا عبد الرحمن و يا الملياني . وإلاّ سنعيد ما كان شهريار يريد إشاعته . أعجب نوح بمقترحات عبد الرحمن . العودة إلى النظام الجمهوري وآليات هذه العودة العميقة . نظام التعددية السياسية . تحويل المؤسسة العسكرية إلى مؤسسة وطنية ، تحمي الديمقراطية والنظام الجمهوري الفتي ، ومنع الجيش من الخروج من الثكنات إلاّ في الحالات الخاصة جداً . كان نوح يتابع بجدية وصراحة كل ما كان يقع أمامه ولا يظهر على شاشة التلفزيون إلاّ قليلاً ، لطمأنة الناس الذين كانت أياديهم على قلوبهم ، خوفاً من الفوضى التي كانت تتهدّد البلاد بعنف ، ومن المقاطعة الدولية المضروبة عليها منذ الإعلان عن مشروع التأميمات . الخيارات ضاقت . إمّا النجاح في المهمة أو اندثار البلاد . وعندما بدأ نوح في فتح ملفات العدالة المختومة بالشمع الأحمر ، ضَرَبَ على رأسه بقوة . يا ألله! كل هذا الخراب و البلاد لا تزال واقفة ؟ الجشع وصل بالناس إلى هذه الدرجة ؟ أيعقل ؟ في خزينة البلاد أقل مما كنت أدخله من مطحنتي . شعر بقلبه يعتصر وباليأس يملؤه . وعندما انتهى من ملفات الرشوة والتحويل والنهب ، كان قد ركب رأسه وصمّم على خوض الحرب في السر والعلن . توقف كثيراً في خطابه القصير عند السرقات والتواطؤات الكثيرة . قال . إذا كان الموريسكي الوافد من بعيد هو العلامة التي كشفت فظاعة الخراب ، فلنكن نحن جميعاً العلامة التي تستأصل أسباب

هذا الخراب من العمق و إلا على البلاد والعباد السلام .

مرت الأيّام بشكل متواتر ، لم ينتبه لها نوح إلاّ متأخراً . كان يلحق ليله بنهاره ، ونهاره بليله . حلمه كان كبيراً في إيقاف البلاد على رجلين من حجر وليس من رمل وخشب . وظل ينكّت من حين لآخر مع نوابه ومساعديه من سذاجة النظم المتبعة التي ليست لا جمهورية ولا ملكية ، ولكنها خليط من الهزائم والكذب والنفاق واللعب على مصائر الخلق . جملكيات فيها من الجمهورية ما يخدم المصالح و الأطماع و من الملكية ما يضمن ديمومة الحكم و إطلاقيته . وأعلن قطيعة ظنها نهائية مع كل الأشكال السياسية المتهالكة . وكان تأثير عبد الرحمن في أفكار نوح يبدو واضحاً ، لأن الملياني ، لم يكن رجلاً سياسياً ، يسمّي نفسه دائماً رجل الساحات و الميادين المشتعلة . يقول الملياني مؤكدا على استماتته : بدون مؤسسات استراتيجية قوية ، لا يمكن بناء البلاد والتحكم في خيراتها ووحدتها . يعمل بدون هوادة ، مما اضطر نوح في مرة من المرّات إلى التدخُّل خوفاً عليه .

ـ يا الملياني خويا ، أريدك معي لا في القبر أو في مصحة عقلية! جهدك عظيم . لا يحد . لا أريدك أن تُنْهِك نفسك بسرعة . حاجة البلاد إليك ماسة . إني أرى عينيك قد تهدّلتا بسبب قلة النعاس وكثرة الانهماك . أرجوك أن تعطي لنفسك بعض الحق . الجيش صار قوة وطنية منظمة أو على الأقل هو في طريقه إلى ذلك . أطلب منك أن تعيده إلى الثكنات ، فقد قدم الكثير للبلاد وأرجوك أن تعين ناساً مدنيين على رأس المؤسسات الاستراتيجية وأن يتم تنظيم الميليشيات أكثر و التحكم فيها ، فهي غير مضمونة الجانب . جلّها كبر في أحضان شهريار بن المقتدر . أنت تعرف . كما يقول عبد الرحمن . الجيش إذا بقي داخل الورطة مدّة طويلة ، يتورّط مع الزمن و يأكل نفسه بنفسه . نفس الإنسان واحدة ، طماعة و أمارة بالسوء .

- سيدي نوح . كل هذا مبرمج بدقة . وضمن آجال قطعناها على أنفسنا .

- بارك الله فيك . الله يقدر هذه البلاد على ردّ خيرك . ما زلت مصراً على ضرورة ارتياحك قليلاً .

- لنا كل الموت لننام يا سيدي .

- الوطن لن ينسى تضحياتك الكبيرة .

في الحقيقة لقد بطَّن الملياني أكثر ممّا أظهر . كان يعرف أن الزمن وتسارع الأحداث والوقائع ليسوا في صالحه أبداً . منذ تلك اللحظة بدأ في تنفيذ الجزء الثاني من خطته . شعر بأن المدينة تسرق منه إذا لم يكن دقيقاً في تحليلاته وتصوراته . أي تباطؤ قد يجني ثماره غيره من المتربصين به والذين بَدَأوا يشعرون بخطره . صَاحَبَ ذلك نشوء فتور في علاقات العمال (لأن الملياني أقنعهم بذلك) والعلماء (لأن عبد الرحمن أقنعهم بذلك) . العمّال كانوا مع فكرة بقاء الجيش في المدينة وفي الأماكن الاستراتيجية ، والعلماء كانوا مصرّين على أنّ أي تباطؤ في إدخال الجيش إلى الثكنات قد يوقع البلاد فيما كان البشيرالموريسكي يخافه . عبد الرحمن كان يعرف بدقّة ويحسب بتأنٍّ كل الحركات التي كان الملياني يقوم بها داخل الجيش ، وكلها كانت تسير بحسب التصورات التي وضعها عنه ، منذ أن عُيِّنَ في منصب المستشار المكلف بالدفاع وإعادة تشغيل المؤسسات الكبرى . التبديلات داخل مؤسسة الجيش ، وعلى رأس المحاكم العسكرية والمدنية التي حاكمت إطارات شابة ونزيهة بعد أن اتهمتها بالخيانة الوطنية العظمى ، أو غرقت في التفاصيل الصغيرة على حساب القضايا الأساسية ، كل هذا لم يكن مطمئناً على الإطلاق . كان عبد الرحمن خائفاً من داخله ، من أن يبدأ تاريخ جديد ، يقع خارج التاريخ ويرمي البلاد بكاملها في عمق دهليز مظلم ، لا أحد يعرف عواقبه الوخيمة . نوح ، عندما بدأ يشعر ، بأن البلاد عادت إلى طريقها الصحيح ، تذكر شعره الذي كان يقول عنه :

لست أنانياً . الكتابة هي أَنَانيتي الوحيدة . لم يكن منتبهاً ، أو مستعداً للانتباه لتلميحات عبد الرحمن . لم يعد يقرأ حتى التقارير التي كانت تأتيه منه . يوقعها ويقول : أنت والملياني صلب هذه الأمّة . عينان أرى منهما الصغيرة والكبيرة . ثم ينكفئ على الشعر والكتابة والقراءة . وذات مساء وصل الألم إلى حلق عبد الرحمن ، صمم أن يقول له عن كل ملاحظاته التي كانت تشغله . كان الوضع داخل القصر الرئاسي قد بدأ يتأزّم بدون أن يظهر ذلك بشكل واضح . وجد صعوبة في اقتحام بابه ، الحارس الخاص الذي وضعه الملياني ، كان دائماً يقول بأن السيد الرئيس منشغل في شؤون البلاد و العباد و أعطى أوامره بعدم إزعاجه . وفي اليوم نفسه الذي منع فيه للمرة العاشرة ، تذكر عبد الرحمن كلمة نوح : إذا رأيت الخيوط تعقدت ، أدخل ولا تستأذن أحداً . قال : سأفعلها وليضرب الحارس رأسه على الحائط . دخل بدون حتى أن يدق على الباب . تململ نوح قليلاً في مكانه بنوع من الإحراج . نزع نظارتيه ، وضع القلم على الطاولة . ثم التفت نحو عبد الرحمن الذي بدا عليه نوع من الارتباك .

- هل يأذن لي سيدي بالجلوس قليلاً . فقد تجاوزت حدودي . أعرف أن لحظة الكتابة لديك مقدسة ، لكني أعرف كذلك أن الوطن لديك أكثر قداسةً .

- إلى هذه الدرجة! ؟ لا بد أن يكون الأمر خطيراً جداً و إلا لما امتقع لونك هكذا .

- شَيْءٌ يا سيدي نوح أريد أن أقوله لك ، قبل فوات الأوان . قلبي يؤلمني و لا أنام منذ مدة .

- قل يا عبد الرحمن . قلبي معك .

- التاريخ يا سيدي . إنه يعود إلى الوراء بخُطى حثيثة . خائف عليك و على البلاد . أشعر بانتكاسة يهيأ لها في الخفاء و لا حول لي و لا قوة لإيقافها .

ـ يا رجل!! كتبك الصادقة تقول إن التاريخ لا يعيد نفسه و لا يتكرر مطلقا .

ـ لكن يمكن أن يتقهقر ، عندما يتعفّن الوضع .

ـ صراحة لم أفهمك جيداً ؟! .

ـ العلماء حَيَارَى يا سيدي . العمّال يخطئون في حساباتِهم ، الوحدة بينهما بدأت تذهب مع الريح . حاول أن توحدهم من جديد . هم حماة هذا الوطن . هم قلبه الحي .

ـ الأمور الآن ماشية بشكل طبيعي . ولم أرَ ما يدعو إلى كل هذه الحيرة . هم موحدون و الحمد لله .

ـ هذا ظاهر الأشياء . الشرخ الداخلي بدأ يكبر ووحدة البلاد مهددة .

ـ يا عبد الرحمن ، أخاف أن تكون قلقاً من شيء تتوهمه . البلاد تجاوزت مرحلة الخطر . الحياة الطبيعية عادت إلى الشارع والمؤسسات وأفكر الآن في الاتفاق معك ومع الملياني ، في الكيفيات التي يمكن أن ننظّم بها انتخابات رئاسية ديمقراطية مسبقة ، وننسحب لنترك المجال لغيرنا . هذا أفضل لنا و لغيرنا .

ـ أنا معك يا سيدي ، لكن الأمور لا تزال حساسة في عمقها وأشعر أن البلاد صارت معرضة للخطر أكثر من أي زمن مضى .

ـ لا تكن متشائماً يا عبد الرحمن ، الناس كلهم مطمئنّون لرخاء البلاد وقد لاحظت ذلك بنفسي في زيارات سرية خاصة .

ـ ولكن مخزون البلاد من العملة الصعبة صار ضعيفاً ونحن معرضون لمزيد من الحصار .

ـ وهل نقتل الناس جوعاً يا عبد الرحمن .

ـ هذه فرصة البلاد الأساسية ، لإعادة النظر في كل شيء . لنحسب بدقة ، لأن أي خطأ بسيط سيقودنا إلى المجاعة والحرب الأهلية ونعود إلى عصر أسوأ من عصر شهريار . يجب أن نرشد الاستهلاك ولا نستورد إلا الضروريات . ما معنى أن نستورد البطيخ والبرتقال ، والموز والكاوكو والكِيوي ، وبلادنا تنتج أغلب هذه الخيرات . هناك أشياء تتمّ في السرّ يا سيدي ، يجب الكشف عن خيوطها . حتى حركة الجيش في كل البلاد ، أصبحت مريبة بعض الشيء .

ـ أفهم من كل هذا ، أنك تشكك في نزاهة الملياني .

ـ حاول أن تفهم منه . أرجوك حدثه ، قبل حدوث الكارثة و فوات الأوان .

ـ أنت تبالغ يا عبد الرحمن . الرجل لم ينم منذ أن سلّطت عليه هذه المسؤولية . منهمك حتى الموت في ترتيب الجيش للدفاع عن البلاد وهو مؤمن بضرورة إرجاعه إلى الثكنات شيئاً فشيئاً بدون أن يخلّ ذلك بالنّظام العام للبلاد . أرأيت خطأك يا عبد الرحمن . أنت تفهم في الأيديولوجيا والسياسة ، ولكن المسائل العسكرية تتجاوز نباهتك يا صديقي . أتناهض يا عبد الرحمن أن يكون لنا جيش جمهوري ؟ وموحّد! .

ـ أبداً . لكن والوضع هكذا ، أخشى عودة الجيش الجملكي . فقد استولى الملياني ، في الكثير من الأحيان بالقوة ، على خطط القلعة ونظام العمال والعلماء ، وعدد المليشيات والأماكن التي تتمركز فيها ، ونوعية الأسلحة التي تتملكها .

ـ كل ذلك تمّ بمشورتي ، لإدماج كل هذه القوات في الجيش الجمهوري ، للدفاع الوطني . كيف يمكن أن نبني شيئاً على أسس متينة بدون معرفة عدده وعدّته .

ـ الخطر أكبر من هذا كله . لقد ترددت كثيرا قبل الكلام إليك يا

سيدي ، وأشعر اليوم أني أديت واجبي نحوك و نحو البلاد . أنا بصدد الانتهاء من الجزء الأخير من كتاب المدينة . سأضع نسخة منه بين يديكم للاطلاع على تفاصيل الموضوع .

ثم استأذن عبد الرحمن وخرج . وجد الحارس الخاص ملتصقاً بالباب ، عندما فتحته . كاد هذا الأخير أَنْ يسقط على فمه . و عندما انتهى عبد الرحمن من تَدْوين مخطوطه المدينة ، دفع بنسخة منه إلى نوح و رجاه أن يجد وقتا لقراءته بتمعن . لم يتأخر نوح عن فعل ذلك ، فقد تعود التهام حروف عبد الرحمن . انهمك في قراءة تفاصيل المخطوط . تفاصيل تتعلق باللحظة الأولى التي قبل فيها نوح تولّي مصير البلاد حتى الوضع الرّاهن .

كان الملياني قد عاد من الجبهة الشرقية والغربية ، بعد زيارة تفقدية للوضعية السائدة و للحالة النفسية للفيالق العسكرية المعزولة .

قضى نوح ليالي عديدة وهو يحاول أن يفك تصنيف عبد الرحمن . وعندما دخل عليه الملياني ، كان نوح منهمكاً في تأمّل البحر البعيد ، والغابات التي كانت تنسحب بسرعة كبيرة باتجاه الحرائق والرماد . شعر باليأس يجلل كل شيء بسواد قاتم . لعن الشيطان وجاء يجلس بجانب الملياني ، الذي كان قد انسحب تاركاً وراءه ورقة صغيرة ، كُتِبَ عليها : سيدي الغالي ، اعذرني . فأنا متعب جداً . ولكن هل يمكن الدفاع عن البلاد بدون توحيد مراكز الدفاع المدني والعسكري ؟ أو ليس هذا أمركم الوارد في خطابكم السامي الأول ؟ كنت أتمنّى أن تكون فرصة الاحتفال بالذكرى الأولى لسقوط الجملكية ، هي فرصة بناء الجيش الجمهوري الشعبي . ولكن . . . ولهذا سيدي الرئيس . أضع بين يديكم الكريمتين ، استقالتي وأنتم تعرفون إلى أي درجة كنت رافضاً لهذا المنصب . فالسلطان يا سيدي في الظروف الصعبة يفسد الطباع ويقوّي الضغينة بين الأشقاء . وأقسم الملياني بألاّ يعود أبداً وأن يظل عاملاً بسيطاً (كان متأكداً من خُطّتِه) . ولكن رجاء نوح المتكرر جعله

يتراجع عن استقالته ، خصوصاً عندما قال له نوح ، ثقتي ازدادت فيك أكثر . أرجوك أتمم مهمتك التي بدأتها . أسند الملياني ظهره للعمال وبدأ يعمل بدون هوادة . كان يدرك بدقة أن الزمن في غير صالح مخططه . كانت الشبكة الثقيلة تنزل شيئاً فشيئاً على نوح . عبد الرحمن نفسه لم يستطع ضبطها بقوة في كتابه الأخير رغم الوثائق التي وضعها بعض العمال تحت تصرفه لإتمام تدوينه الضخم .

وما كاد يوم الاحتفال بالذكرى الأولى لسقوط شهريار واستعادة أفراح المدينة وخيراتها ، حتى كان الملياني قد أنهى بشكل كامل الجزء الثاني من خطته . كان الجيش الجمهوري بقيادته ، يمرّ عبر خنادق العمّال والعلماء وداخل شرايين المدينة بعدما جردها من كل إمكانات الدفاع الذاتي . كان نوح بشوشاً عن آخره . بينما عبد الرحمن كان امتعاضه كبيراً .

وفي المساء نفسه عندما عاد عبد الرحمن إلى القلعة وإلى كتاب المدينة دوّن الجملة التالية : البلاد تحتفل بموتها ، وتعيد إلى الواجهة كل التقاليد المنقرضة . لقد بدأنا نزحف نحو الزمن الذي بَدّدَ البشير الموريسكي .

في اليوم الموالي للاحتفال استدعاه نوح على عجل كبير .

- أرأيت يا عبد الرحمن! ؟ شكوكك لم تكن في محلّها مطلقاً . صحيح أني لست سياسياً ولكن مهما يكن فالشاعر ليس بغلاً .

- حاشا يا سيدي . مقامك عالٍ في عينيّ وعيون العلماء وناس هذه البلاد . لساني عاجز . أرجو إعفائي من مهاميّ ، ما زلت عند سوء ظنّي بهذا الرجل . بعد الاحتفال زاد يقيني من نيّاته الخطيرة .

- يا أخي والله لم أفهمك . كنت أتصور أنك ستقدم اعتذارات عن خطأ تحليلك ، وهاأنت تتمادى في شكوكك غير المؤسسة . قلت لكم منذ البداية أعفوني من ربّ هذه المهمّة ، لكن إصراركم ذبحني . و أنت

كنت على رأس من أقنعوني . وهاأنا الآن بدأت أفقد أعز الأصدقاء ، الذين لا أشك لحظة في حبهم لِوَطَنِهِمْ .

ـ يا سيدي نوح ، أنت كبير ، وقلبك واسع سعة هذا البحر الذي يدخل عينيك يومياً . صدقك سيهلكك . واجبي أن أنبهك . قد أُخطِئ في التفاصيل ، لكن لا يمكنني أن أخطئ في كل شيء . علمتنا الدنيا أن نحتاط للكوارث المحدقة في المحيط الذي نعايشه ويعايشنا . أستطيع أن أصمت ولكنّي سأشارك في هلاكك وفي اندثار البلاد . النية الطيبة لا تصنع مجد الأوطان . فعلت ما كان يجب فعله لا كرهاً في الملياني ، ولكن احتياطاً من الكارثة المحدقة بنا . قد اضطر يوماً يا سيدي ، لرمي كتاب المدينة في البحر ، خوفاً من حرقه مثلما فعل الموريسكي (بيَدِ ماريوشا) عندما أظلمت الدنيا في عينيه . الملياني يا سيدي يريد هذا الكتاب ، ويهدد العلماء باقتحام القلعة وأخذه بحجة أن العلماء يريدون المليشيات على حساب الجيش الجمهوري .

ـ الشكوك يا عبد الرحمن لا تبني وطناً عصرياً .

ـ أرجوك يا سيدي ، أن تقبل رغبتي في إعفائي من هذا المنصب . ربما كنت حجر عثرة في طريق تطور البلاد .

ـ ماذا تريدني أن أقول لك . احتراماً لنزاهتك ، أقبل استقالتك على مضض ، على شرط أن تعود عندما تكتشف خطأك .

ـ مؤكد ، ولو أني أعرف البقية ، أتمنّى أن يحمي الله هذه البلاد الطيبة من الخراب وأن يحميك من كل مكروه .

ـ ما هذا الكلام اليائس يا عبد الرحمن . ما عهدتك بهذه الصورة مطلقاً .

ـ آه يا سيدي! الجيش سُرِقَ منك . جزء من قادته النزيهين وبعض العمال والعلماء في السجن .

ـ الملياني خائف عليهم من الاغتيالات التي يمكن أن تستهدفهم . هكذا بَرْهَنَ لي . ولا يمكنُني أن أشك في حُسْنِ نيّاته! ؟ .

ـ إنهم يعذبون يومياً .

ـ هذا غير صحيح . لقد زُرْتُهُمْ في أماكن إقامتهم . كانوا يضحكون ، وبشوشين على غير العادة .

ـ كانوا مخدّرين يا سيدي . اشربوهم القرص البرتقالي الذي يهلك بهدوء ويسرق الذاكرة .

ـ هذه مبالغة غير مقنعة .

ـ هل يأذن لي سيدي بالخروج وبمعانقته لِلْمَرَّة الأخيرة .

ـ لك ذلك ولكن لا تنسَ وعدك .

ـ مؤكد .

ـ إذن لن تكون المرة الأخيرة .

وخرج عبد الرحمن بهدوء ولم يلحظ إلاّ متأخراً ، أن حارس الرئيس كان يقف في الزاوية المظلمة لقاعة الاستقبال ، وراء النوافذ المفتوحة على البحر الساكن .

* * *

- V -

السلطان والجُبنَ متنافران . صَبرٌ كبير في صمت المتصوف والغوص في المغامرة حتى التهلكة وبدون تردد مطلقاً . هكذا يقول القدماء و ذوو الخبرة .

قصة والدي مع السلطان كانت مذهلة . فقبل أن يتخطى مصاعب الليلة السابعة بعد الألف ، وقبل أن يعيد الزمن إلى حالاته الأولى التي بدأت تنقرض ويوقف ساعات المدينة عند حدود اللحظة التي كان يريدها ، كان عليه أن يصبر بقوة على مفاتن اللحظة ومباهج الروح قبل أن يخترقها بعنف شديد . لكن الشيء الفظيع و المقلق له ، كما يقول صديقي أوسكار ، كانَ ينَام بين طيات المصنف الذي صاغه عبد الرحمن في قلعة العلماء . كتاب المدينة ، الذي بذل الملياني مجهوداً مضاعفاً للاستيلاء عليه ولو بالقوة . لكن عبد الرحمن كان قد اتخذ كل احتياطاته مع ماريوشا ، طالبة الاقتصاد التي لو تتم دراستها ومرافقة سيدي عبد الرحمن المجدوب والبشير الموريسكي حتى اندثارهما .

لا أحد يعرف عنها شيئاً مهماً ، وكيف رجعت إلى القلعة ، سوى أنها تزوجت فيما بعد برجل يكبرها بعشرين سنة . عبد الرحمن . قيل إنها كانت ترى في عينيه سماحة الأنبياء وصراخات المقتولين وعشق

الصوفيين الذين لا يدق الموت أبوابهم مطلقاً . كانت ترى فيه حنين الموريسكي ، وأشواقه المبعثرة في كل أسواق المدينة . غادرت الحلاقي منذ وفاة سيدي عبد الرحمن المجدوب واندثار الموريسكي الطيب وعادت إلى القلعة وهي تَحْلُمُ دائماً بتعمير الأسواق بصوتها و بالبانجو الشجي الذي لا يغادرها . قيل عندما حاول عبد الرحمن أن يفاتحها عن أشواقه في الأيام نفسها التي تلت اندثار الموريسكي ، كانت هي تفاتحه عن الأشواق نفسها . لكن في الجوهر ، حقائق العلماء ظلّت دائماً مخبوءة . والسرّ داخل القلعة هو السلطان الأكبر . ومن يسبق إلى كتاب عبد الرحمن يسبق إلى معرفة جوهر هذا السلطان .

في المرة الأخيرة ، (بعد مدة زمنية غير مَحْصية في كتاب المدينة) عندما دخل عبد الرحمن متسللاً ومتنكراً على نوح ، دخل عن طريق البهو السري الموجود تحت الأرض والذي ظلّ يملك مفاتيحه منذ الهجوم الكبير على القصر المشتعل . لم يكن ينوي البقاء أكثر من دقائق ، لأن وحدات الجيش الجمهوري (الجملكي) كانت قد بدأت تحتل أركان المدينة ، والميليشيات المسلحة تقتحم البنايات الحكومية ، لتحتلّ أعاليها . هل كان الأمر إجراءً وقائياً كما كان يقول الملياني دائماً ؟ حتى التلفزيون لم ينج من هذه الحالة الاستثنائية خصوصاً عندما بث في نشرته المسائية أن البلاد تتعرض لعدوان مبيت من طرف بلد مجاور . لم يجد عبد الرحمن ، نوحاً بسهولة . فقد اضطر أن يمرّ عبر المطبخ لعلّه يجده هناك خصوصاً أن الوقت كان قد تجاوز قليلاً منتصف النهار . فوجئ بكلبه نائماً ، حاول أن يوقظه ، كان يعرفه جيداً ويرتاح لرائحته . خاف مِنْ أَنْ يفضحه بنباحه أو بحركة مفاجئة ، لكن الكلب ظلّ طريحاً ، في فمه رغوة صفراء . حركه بقوة . لم يبد الكلب "عَنْتَرْ" أية حركة . عرف بأنه مات (قتل) ميتة غير عادية . لم يأت من أجل هذا . توغل أكثر في البهو المؤدّي إلى مكتب نوح الخاص . دخل بهدوء ، وجده هناك وحَدَه ، واضعاً رأسه بين يديه ، منغرساً على طاولة بيأس كبير . لم ينم الليلة الماضية مطلقاً ، منذ أن أخبره الملياني

بالاعتداء الذي تتعرض له البلاد بحراً ، وجواً وبراً ، اعتداء تدميري .

دق عبد الرحمن على الطاولة الزجاجية بهدوء .

ـ سيدي نوح . . . سيدي نوح . . . سيدي نوح .

ـ هاه! عبد الرحمن . حبيبي أخيراً عدت . كنت عند وعدك . كلّنا نخطئ . لا يهم . . شفت العدوان . الكلاب! الحنوشا ؟ دفّيناهم ، حبوا ياكلونا ؟

ـ يا سيدي! لم آت من أجل هذا . جئت أعرض عليك الذهاب معنا إلى القلعة قبل فوات الأوان . إنهم يريدون رأسك . وحياتك .

ـ القلعة! أتريدني أن أكون جباناً . أنْ أهربَ مثل النَّعجة ؟ الوطن يحترق على الحدود الغربية وأنا أخبّئ رأسي ؟! لا يا عبد الرحمن لست أنت من ينصحني بهذا .

ـ وهذا ما جئت كذلك من أجله مخاطراً بحَيَاتي . لا يوجد أَيُّ اعتداء . تحرّينا كل المناطق . كل ما هنالك ، مناورات عسكرية تجري على الحدود ، ويشرف عليها الملياني نفسه بمعية خبراء أجانب . يبدو أننا نحن الذين سنعتدي على غيرنا .

ـ عدنا إلى الحكايات القديمة . أرجوك يا عبد الرحمن أنا مرهق .

ـ يا سيدي ، أَلَمْ تَفْهَمْ بعد ؟! إنه انقلاب عسكري . يبدو أَنَّهُمْ سَمَّمُوا كَلْبَكَ . سمّموه .

ـ عَنْتَرْ!! لا يعقل ؟ ؟ .

وفجأة شعر بتقلصات في صدره وبطنه ، وشعر بالدم يخترق عينيه وقلبه .

ـ أرجوك يا عبد الرحمن تأكد من ذلك عند طبيب مختص .

ـ سأفعل بسرعة .

نزل إلى قاعة التمريض الاستعجالي وبعد لحظات كانت النتائج تؤكد بوضوح ما ظَنَّهُ عبد الرحمن . الكلب سمّم .

- يا عبد الرحمن الذي وصل إلى "عَنْتَر" ، يمكن أن يكون قد وصل إلى نوح . إني أشعر بذلك منذ هذا الصباح ، لكنني كنت أظن أنها مجرد كآبة بسبب تدهور الأوضاع .

- لنخرج قبل فوات الأوان . بإمكاننا أن نُطَبِّبَكَ . الأمر ليس مستحيلاً .

- الذي وضع السمّ لم يكن يلعب .

- ولهذا أدعوك إلى الذهاب معي إلى القلعة . العلماء وبعض العمّال يطلبونك . بعض الممرات السرية لا تزال سالكة داخل القصر .

- قد أموت في الطريق . إنّي أشعر بالتقطعات في دمي . لن أترك البلاد تواجه قدرها وحدها . هذا قدري . سأستدعي الملياني بسرعة وسَأَتَّصِلُ بكم . قد أوجّه خطاباً لأمتي .

ومنذ تلك اللحظة لم يرَ عبد الرحمن نوح ، ولا نوح واجه عبد الرحمن . فقد انزلق عبر النافذة .

شعر نوح بالوحدة تكبر على غير عادتها . تأمّل مشاهد القيامة التي كانت تنتصب في كل مكان . شرع النافذة على وسعها . رأى القوات البريّة للجيش الجمهوري (الجملكي) وهي تأخذ مواقعها داخل الأزقة والشوارع . فوجئ بكثافتها ، فكر أن ينزل إلى الجبهة . أن يتصل بكل المقربين وأن يستدعي الملياني بسرعة . لكن عندما وصل إلى مخرج القصر الرئاسي ، تقدمت منه كتيبة من الحرس الجمهوري على رأسها ضابط سامٍ . قال له بانحناءة احترام وتقدير .

- هل يريد سيدي الرئيس شيئاً ؟

- أريد الملياني .

ـ الخطوط مقطوعة .

ـ جهزوا لي سيارتي الخاصة أو أية سيارة . أريد زيارة جبهة القتال .

ـ البلاد يا سيدي في حالة استنفار . وحالة حصار قصوى .

ـ أية حالة حصار ؟ من وقّع عليها .

ـ شخصكم الكريم . ولهذا نحن مطالبون بعدم ترككم تغامرون حفاظاً على حياتكم . هذه وصايا كبير مستشاريكم .

ـ أنا لم أوقّع على شيء و لم أخول أي واحد لاتخاذ القرارات الحاسمة في مكاني .

ـ يا سيدي أنت متعب . توقيعك موجود على الوثيقة التي سلمت لنا .

أراد أن يصرخ من الباب ، لكن شيئاً ما سدّ حلقه . عاد من حيث أتى . وقف عند الشرفة من جديد . تذكر خط التليفون الأحمر . الخط السرّي للرئيس . فكر أن يتصل بالتلفزيون ويوجه خطاباً للأمّة بأقصى سرعة ممكنة . كان الزمن مثل البرق ، يمر بسرعة كبيرة . ردّ عليه صوت نسائي دافئ : نحن في الخدمة سيادة الرئيس . طلب إحدى الفرق التقنية لِتسجيل خطابه المباشر . أكّد له مدير القناة نفسه أن الفرقة قادمة بسرعة ، وأن الخطاب سيبث قبل النشرة بقليل حتى يكون عدد المشاهدين كبيراً . لأنه الزمن الذي تعود فيه سكان الجملكية مشاهدة القناة الوطنية ، وبعدها ينقلبون باتجاه القنوات الأجنبية . القناة الوطنية تساوي نشرة الأخبار .

بعد لحظات برقية مرت ثقيلةً على نوح ، كانت الفرقة جاهزة وتنتظر بداية البث . طلب أن يكون البث مباشراً . كانت شاشة التلفزيون أمامه ، ينتظر إعلان المذيعة عن بدء الخطاب الوطني . وفجأة ظهرت مجللة بالسواد وهي تقول : الرئيس نوح يخاطب الأمّة . وبدأ

النشيد الوطني . شعر بقلق . قام من مكانه نحو الشرفة . تأمل شوارع المدينة الخالية . حتى حركات الجيش كانت قليلة . اطمأن . قال في خاطره . الحمد لله . البلاد لا تزال بخير . كل الناس الآن أمام أجهزتهم . سأطالبهم بالنزول إلى الشوارع واحتلال المدينة سلمياً . بعد لحظات ، أعطيت له الإشارة لبدء الخطاب .

لا أحد يعرف بالضبط ماذا قال . قيل إنه تحدّث عن حياته . وحياة أمّته وكيف قبل المسؤولية . وأنه عندما دخل نوميدا-أمدوكال لم يكن يبغي سوى إنقاذ البلاد . ثم ذكر بأن البلاد لم تكن تتعرض لعدوان من الجيران ، ولكنها كانت تتعرض للانقلاب يتزعمه الطاغية الجديد ، الملياني . ثم طالب الشعب بالنزول إلى الشوارع سلمياً والاعتصام بجانب القصر ، وفي المؤسسات الكبرى وحمايتها من أي عمل تخريبي . ووعد بمعاقبة الجناة الذين وضعوا البلاد على كفّ عفريت ويريدون اليوم إعادتها إلى النظام الجملكي البائد . عندما انتهى نوح من خطابه شعر باستراحة كبيرة . حتى المغص لم يعد يحس به مطلقاً .

وقبل أن يقوم رأى المذيعة نفسها وهي تملأ بابتسامتها شاشة تلفزيون القصر الرئاسي وهي تردد : اللهم إحْمِ بلادنا من مخاطر المخربين ، آمين يا رب العالمين . ثم انسحبتْ لِتترك المجال للأناشيد الوطنية . شكر نوح الفرقة ، وظل متأكداً من أن الشوارع ستمتلىء بسرعة بالبشر . الخطاب دام قرابة الساعة من السابعة حتى الثامنة تقريباً . كانت الظلمة قد بدأت تنزل على المدينة . سرح نظره من الشرفة . المدينة تنام داخل صمت جنائزي ، لم يسمع إلا صوت الدبّابَات وهي تحفر بثقلها الطرقات المعبدة ونقرات الأمطار التي كانت تتكسر على الأسطح القرميدية وزجاج النوافذ . أو بعض الكتائب العسكرية التي كانت تتحرك من حين لآخر تحت الأضواء الكاشفة . لم يكن هناك ما يوحي بأن البلاد مقدمة على حدث استثنائي . تساءل . هَلْ يعقل أن يُموت حسّ الناس بهذا الشكل المقلق ؟! مستحيل ؟ لا بد

أن يكون في الأمر خلل ما . هذا الشعب كان دائماً صاحب مواعيد كبرى واستثنائية .

أية مواعيد ؟ هذه ديماغوجية . فقد خُرِّب من الداخل طوال العُشريات الماضية ، وتحوّل إلى قصبة فارغة . الريح اللِّي تْجي تَدِّيهْ . قَدْ يَنْقَلِبُ إلَى وَحْشٍ خُرافي يَأْكُلُ نَفْسَهُ .

انحدر باتجاه المطبخ . واجهته الخادمة وأنفاسه قَدْ بدأت تتقطع من جديد .

- ما بك سيدي الرئيس . أنت متعب جداً .

- قولي لي يا مسعودة بنتي ، كيف جَاكْ الخطابْ . الناس لم يخرجوا حتى الآن و أنا منشغل من صمتهم .

- يا سيدي أنتَ متعب! عن أي خطاب تتحدث ؟ كنت منهمكة في المسلسل .

- خطاب الساعة السابعة . قبل قليل فقط! .

- يا سيدي أنت تعبان! السابعة تَتَبَّعْتُ مسلسل دَالاَسْ الذي يبث قبل النشرة الإخبارية .

- لا يُعْقَل . أنا متعب أَمْ لَعِبُوا بي بهذه البساطة! ؟

وقبل أن يواصل الحديث ، كان جنريك النشرة يملأ شاشة التليفزيون . وقف عند عتبة الباب . رأى نفسه وهو يدشن مجموعة من المشاريع القديمة . المعلق كان يتحدث بصوت مؤثر : على الرغم من حالة الحصار ، والحالة المرضية الكبيرة والخطيرة للرئيس نوح ، إلاّ أنّه أبى إلاّ أن يأتي ويدشن هو بنفسه هذه المشاريع بصحبة مستشاره ورجل ثقته و ذراعه الأيمن : الملياني .

كانت الصورة تُظْهِرُ نوح وهو يضع يده على ظهر الملياني . كاد

رأسه أن ينفجر . حاول أن يسأل مسعودة و لكنها كانت قد ذهبت لشأنها و هي تهز رأسها : الرايس عيان و ما يعرفش يرتاح ؟ . تمتم بحزن ، كانت الوحدة قد زادت اتساعا و بياضا : لا يعقل . الصورة كلها تركيب . أنا في جحيم . أنا أموت مسموماً يا مسعودة . لقد لعبوا بي .

ثم بدأ يتلوى . قفزت مسعودة عند رأسه قادمة من المطبخ .

- هل يريد سيّدي طبيباً . أنت تعبان يا سيدي . تحب نحضر لك كاس تيزانة ؟

- لا يا مسعودة . انتهى كل شيء . أرجوك أعطيني قلماً وورقة .

- خذ يا سيدي . أنت متعب جداً ، يستحسن أن ترتاح .

- لا يا مسعودة أنا الآن في عداد الأموات . لقد سُمِّمْتُ . لقد قتلوني . أنت رجائي الأخير يا مسعودة . خذي هذه الرسالة إلى سكان القلعة . حاذري أن يراك أحد . هذه الوثيقة لا تعطيها إلا لعبد الرحمن .

ثم انكفأ على الورقة وبدأ يكتب الرسالة وهو يتمزّق ألما و يأسا . لا أحد يعرف ماذا ورد في الرسالة بالضبط . يقال إنها ضُمَّتْ إلى مصنّف كتاب المدينة . الجميع يسمع عنه ولكن لا أحَد رآه .

يقال كذلك إن مسعودة قدمت الرسالة إلى علماء القلعة . عندما وصلت ، وجدت رجلا يبكي ، لم ينم منذ أن غادر نوح للمرة الأخيرة عبر الممرات السرية . عندما رأته ارتمت في أحضانه و انهمرت معه .

منذ تلك اللحظة انقطعت أخبارها نهائيّاً وأخبار نوح الرئيس ، لأنه في النشرة الثانية أذيع الخبر المرتقب الذي يقول إن الرئيس دخل في حالة غيبوبة كلية ، وعوضت البرامج اليومية بالأناشيد الوطنية ، ثم بالقرآن ليلا ونهارا . وفي نشرة الثامنة ، لليوم الموالي ظهر الملياني محاطاً ببعض العمّال والعلماء المخدّرين الذين أخْرجَهُمْ من المعتقل ،

وبعض رواد المجتمع المدني ، وضباط الجيش الجمهوري ، وهو يعلن : «باسم الله الرحمن الرحيم ، ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يرزقون . يا أيَّتُها النفس المطمئنة ، عودي إلى ربك راضية مرْضية . أيها الشعب العظيم ، الذي أخذ دائماً الرزايا كاختبار إلهي له . هانحن نُخْتَبَرُ اليوم جميعاً في مصاب جلل ، لقد خسرت البلاد عزيزها الذي حَمَى البلاد من الداء والأعداء في وقت هي في أمس الحاجة إليه . لقد مات نوح ومعه ماتت آمال كثيرة . . . واحتراماً لذكراه ، سأترك اليوم كرسي الاستشارة لمن هو أهلٌ له . تعرفون أني رفضت هذه السلطة ، ولم أقبلها إلاّ من أجل نوح ، و هاأنذا أتركها من أجل هذا الرجل نفسه . وعلى الشعب أن ينتخب أو يعيّن من يراه جديراً بذلك وأهلاً له » .

وما كاد الفجر الأول يطلع على المدينة ، حتى كانت الشوارع تتجشأ بصور نوح و هو يحتضن الملياني وتحتها كتابات تترجاه مواصلة مشروع الإنقاذ الذي بدأه نوح . امتلأت الجامعات ، والمدارس والساحات العامة والمساجد والكنائس ، بمكبرات الأصوات التي تلح على التجنيد . وضرورة مساندة الملياني ، الذي يعتبر من أكبر المقربين للرئيس نوح و أن تفوت الفرصة على أعداء الأمة .

منذ تلك اللحظة بدأ الركض السريع باتجاه تراث شهريار بن المقتدر . كل شيء كان جاهزاً ومرتباً بقوة . وكان الزمن الجديد قد توقف ، ليبدأ زمن آخر ، هو الامتداد الطبيعي لفاجعة الليلة السابعة بعد الألف . زمن آخر ، بدون ملامح ولا وجه ولا قسمات . كانت نوميدا-أمدوكال بلاداً واسعة فصارت ضيقة منذ أن انسحب منها نوح باتجاه الموت الغامض . حتى قلوب الناس صارت أضيق من عين إبرة .

منذ البداية ، شرع الملياني في تطبيق الجزء الثالث من مخططه الكبير ، باستعادة تقاليد أجداده الأوائل شيئاً فشيئاً في غفلة من المحيط والأتباع . حتى أنَّ كثيراً من العمّال الذين كانوا لا يزالون يتصورون أنّه

النموذج الوحيد لخلافة الرئيس الراحل نوح ، كانوا من الأوائل الذين توزعوا إلى فرق ، وبدؤوا في نشر الدعاية لصالح الملياني . فهو المؤهل الوحيد لإنقاذها .

قُسِّمَتْ البلاد إلى مجموعة من المقاطعات وعيّن على رأس كل مقاطعة قَائِدً عسكري من أتباعه الذين يثق فيهم ، ونظموا معه مقتلة الرئيس نوح . وأجرى بسرعة كبيرة تعديلات جديدة في سلك السفارات والوزارات وغيّر بيته الخاصَ الذي رتبه في شكل يضم سبعة بيوت . وكل بيت سمّاه داراً على تقاليد أجداده ، ولون كل واحد بلون خاص . دار الصلاة والعبادات ولونها أخضر . مملوءة بالستائر السمرقندية ، والزرابي الإيرانية ، والقباقيب الأفغانية . دار السلطان ولونها أسود ، وفيها تصدر الأحكام وقرارات الحرب والغزو والإغارة . كان يحلم دائماً بمدّ قوته باتجاه مدينة الزيت التي استفرد بحكمها أطلس الظواهري وهو واحد من قواده العصاة العتاة . دار الجحيم أو دارُ الإمَارة ، ولونها أحمر وهي الدار المحاذية لدار الرقاد ، وفيها يقدم للرعية أحكامه ضد الطغاة وشكل القصاص وآجال التنفيذ . دار الرقاد ، ولونها مزرْكش ، قزحي . يقول الملياني دائماً ، في لحظات الجماع والرَعْشة ، أريد أن أرى الدنيا بكل الألوان وأنا مرتشق في جسد محظية عاشقة من رأسها إلى أخمص القدم . دار النعيم ، ولونها أبيض ، وفيها يغدق على أتباعه وقواده وحراسه من نعيمه ورضاه ويمسح على رؤوسهم بأياديه البيضاء . دار الهوى . وفيها يمارس كل أشكال النكاح ، ويسترشد بكتاب الإمام النفزاوي "الروض العاطر" في نسخته الفرنسية le jardin parfumé لأنه يقول بأن النسخة العربية حزينة ومبتورة ومسروقة اللذّة . التربيع . التكليب . التوقيف والتوفيق . الضبط والصبط والبسط . التهريج ، والتفريج والتقريج ، والتبريج والتبليج والتزليج . التنكيح والتبطيح . التسراح والتطراح . التعناق والتبجَاق والتحزاق والتحراق . التخراق والتلصاق . التحراك والتشراك . (عندما يرجع إلى كتاب النفزاوي ، يجد أنه أضاف إلى أوضاع الشيخ ، نماذج

نكاحية جديدة ، غير موجودة في أي مصنف وهذا جزء من مصدر سعادته وفخره ، كلما دخل إلى هذه الدار بالذات) . دار الحنين وهي الدار التي كان يبكي فيها الأزمنة الضائعة والأشواق الميتة . لسلطانه وعظمته يوم واحد في الأسبوع يدخل فيه إلى دار الحنين ويبدأ في البكاء والندب والتهويل ثم ينهي المدمعة كما يُسمّيها بلعب الكارطة ، والدُومِينُو ، والشطرنج مع إحدى محظياته المستوردات من الفِلبّين ، قبل أن يدخل معها في لحظات السّهْو والمداعبة . يا بنت الناس . السلطان هو السلطان . لم نصل إلى عمقه بسهولة . اختبأنا وسط الناس ثم نزلنا فجأة على أكتاف السّذج منهم . وها نحن اليوم ننعم بنعيم السلطان . لو كنت أعرف ، مسبقاً أنه سيأتي ذات يوم رجل اسمه الموريسكي إلى هذه البلاد ، لدفنته حياً وأرجعته بأقصى سرعة ممكنة إلى كهفه ووضعت عند عظامه حارساً مدججاً بالأسلحة ، كلما استيقظ ، أفرغ في دماغه خرطوشة رصاص وأن ينام أبد الدهر . ولكن الموريسكي تحوّل إلى علامة جئنا على ظهرها . والأمر ليس رديئاً إلى هذه الدرجة . وها قد صرت سلطان هذا الزمن الذي لا تخفاه خافية .

قليلاً من الوقت يا سيدي ، وبعدها سيبدأ عصر استثنائي . وليضرب رفاعة رافع الطهطاوي رأسه على الحائط إذا شاء ، فقد كان قلبه فارغاً وهو يواجه الروميات والبنايات والعمران والحدائق . حتى عندما دوّن شهادته عن مدينة الأنوار كان قليل الفطنة والحيلة . عندما تدخل يا عمّي الطهطاوي بلاد الناس في المرّات القادمة ، حاذر ، أدخلها ممتلئاً ولو بالكذب ، ولكن لا تكن فارغاً كالنحاس وبارداً مثل الرماد .

حدث هذا كله ، حتى قبل أن يصبح الملياني حاكماً رسمياً . كان كل شيء جاهزاً ، عندما رفض أن يُنَصَّبَ مباشرة . فقد طلب المبايعة من كل الناس ليدرك أنه محبوب . وأن تتمَ المبايعة تحت شجرة زيتون ، لا شرقية و لا غربية . خضراء وفقاً للتقاليد المرسومة . حتى أكثر الناس فطنة قالوا وماله . الرجل يريد أن يتأكد من أن شعبه يعشقه ويحبه . ولهذا ، في يوم المبايعة ، انتقلت المدينة بكاملها نحوه . بل البلاد

هاجرت باتجاه القصر الجمهوري ، لتعلن عن تأييدها ما عدا بعض العمّال والعلماء وماريوشا . وبعد أقل من شَهْر من المبايعة التي كانت مهرجاناً عجيباً امتزجت فيه الحداثة بالبدائية الأولى ، ظهر على الشاشة للمرة الأولى كحاكم لهذه البلاد . كان رأسه قد تَبَلْبَل وأصبح مدوّراً كرأس قط حيٍّ غنيّ . كان الرخاء قد بَدَأَ يعمّ البلاد بعد تحرير القروض الأجنبية التي كانت مقيدة .

وفي خطاب الأُمة الأوّل ، أعلن عن تدشين المستشفى الوطني الكبير الذي أطلق عليه اسم مستشفى المليان الأعظم (كان مولعاً بسيرة بطرس الأعظم ويحاول أن يقلده في كل شيء) . الذي يستقبِل يومياً آلاف المرضى من الفقراء والمحرومين . المستشفى يشتغلُ بالورديات ، ٢٤/٢٤ بدون توقف على الإطلاق . كان المليان يكرر بشكل دائم : يجب نقل التكنولوجيا الأجنبية ولهذا ، كل اليد العاملة فيه كانت أجنبية . من الممرضة البسيطة إلى الزبّال إلى المختصّ في أدقّ العمليات الجراحية ، إضافة إلى كل التكنولوجيا المتقدّمة التي أظهرها التليفزيون وأدهش بها كل الرعية ، وأعطاها الانطباع بأن البلاد خرجت من محنة التخلف وأن تَصْنِيعَ البلاد جارٍ على قدم وساق ، فالدعاية كانت كبيرة لِدرجة أن الكثير من الناس تمارضوا فقط ليناموا على أَسِرَّتِهِ أو يلمسوا الحيطان الفُسفُورية أو ليدخلوا دورات المياه المستوردة والأنيقة جداً .

أصبح مستشفى المليان الأعظم ، هو شعرة معاوية للفقراء وأداة نجاتهم . لكن الذي لم تعرفه الرعية هو أن نصف هؤلاء ، كان يدخل معافى ولكنه لا يخرج أبداً . العمليات التي كانت تجرى في المستشفى ، تمس كل الأعمار ، بدون استثناء . أحد التحقيقات الذي قدمته قناة أجنبية مستقلة أثبت أن المستشفى كان على علاقة وثيقة بمستشفيات كبرى في أمريكا ، إيطاليا ، بريطانيا و ألمانيا . ومرتبط معهم بعقود سنوية . فهو المورّد الأساسي لها بالمادة الأوليّة والأساسية لتسييرها . في مستشفى المليان الأكبر ، كانت تنزع الأعضاء من المرضى (؟) وترسل في طائرات خاصة عبر العالم وفق الطلبات المسبقة . الكثير ممن

دخلوه فقدوا نهائياً . عندما يقلق السائل عن أخيه ، أو والده ، أو زوجته أو ولده . . . ويتشجع لاقتحام إدارة المستشفى ، يؤتى له بكراسة كبيرة مسجل عليها تاريخ الدخول والخروج وحتى الساعة ، والدقيقة ، والثانية . لكن منذ سريان خبر سرقة الأعضاء وبيعها في نوميدا-أمدوكال تغيرت أشياء كثيرة ، أصبح الناس يخافون حتى من الاقتراب من البناية البيضاء الضخمة . فتغيرت تعاملات المستشفى . أصبحت سيارات الإسعاف تخرج إلى الأحياء الشعبية وإلى المداشر البعيدة ، تلقح الناس من الأمراض المعدية التي أصبحت مستشْرية داخل المدينة ومحيطها . وفي النهاية يأخذ الممرضون مجموعة من الناس الذين يقتضي إسعافهم في المستشفى لأنّ وضعياتهم خطيرة للغاية . وهناك تمارس على أجسادهم ، بعد تخديرهم ، كل عمليات البتر ، والنزع ، والقطع والقتل في النهاية . كان الملياني يأخذ عمولات كبيرة ولكنها لم تكن مهمة . لأن مداخيل المستشفى قلّت منذ فضيحة سرقة أعضاء المرضى . فسخر سيارات أمنية مرتبطة به مباشرة ، تسرق النساء الجميلات بالقوة ، يتمّ اغتصابهن في القصر وبعدها يقدن إلى المستشفى في حالة نزيف كبير ، وهناك يتم اختيار الأجزاء الصالحة في الجسد ويتم استئصالها ، بينما بقية الجسد كانت تعجن في آليات وتطبخ وتخلط مع لحم الخنزير و الكلاب و القطط و الحمير ، وينجز بها كاشير جديد ، كان الناس يأكلونه بتلذذ على أساس أنه لحم مستورد من أمريكا .

بدأ الإنهاك يثقل كاهل الناس . كثرت الوشوشات في الزوايا الضيقة من المدينة . بعد الرفاه ، صارت الحياة شبه مستحيلة . اللحم صار من الكماليات والخبز المادة الوحيدة الرخيصة التي كانت تستهلك بكثافة هي و الكاشير الأمريكي ، المالح قليلاً ولكنه كان غذاءً كاملاً . حتى نشرة الأخبار التي كان الناس يترقبونها بشغف ، لم تعد تُثيرُ أحداً . الأخبار نفسها . الوجوه نفسها . الرجل نفسه ، الملياني ، وهو يحلق لحيته ، وهو يلعب القولف ، وهو يسبح في مسبحه الخاص ، وهو

يصلّي ، وهو يمسح على رأس الأطفال ، و هو يصيد في غابات الجبل الأخضر ، وهو يتحدث إلى نوح ، وأخبار الاعتداء الوشيك على عاصمة البلاد الذي لم يقع أبدا ، وهو يأكل الكاشير الأمريكي ويحثّ الرعية على تناوله .

بدأت الرعية تشعر أن التقاليد الميتة والطقوسية التي كان يمارسها شهريار بن المقتدر ، تعود من جديد وبقوة . زادت الرشوة حتى صارت قانوناً يتحكم في المدينة ، والأتاوات في الأحياء والاختطافات الكثيرة ، وفي وضح النهار . حين تُقَدَّمَ الشكوى للشرطة ، تقدم ضد مجهول و يظل مجهولاً أبدا . الفلاحون الذين ظلوا صامتين أرهقتهم الضرائب و حتى الوفد الذي استقبله الملياني ، وظهر على الشاشة وهو يقدم له وعداً لِحَل كل مشكلة الفدادين التي أُخذت منهم بالقوة ، لم يعد أبداً . كتبت الجرائد عندما خرجت الدعايات والأخبار إلى شوارع المدينة ، أن الحاكم الأعظم لبلاد نوميدا-أمدوكال بعثهم إلى الخارج للتدرُّبِ على تقنيات الزراعة الحديثة لرفع الإنتاج القومي ، وتحقيق الأمن الغذائي . ومنذ ذلك الزمن أقفل نهائياً ملف الوفد الفلاحي الذي زار القصر الرئاسي .

بدأ القلق يحرّك راحة الملياني . قال في أعماقه وهو يبحث عن راحة مفقودة في دار الحنين : لا بدّ أن يكون وراء هذا العمل التخريبي المنظَم ، عبد الرحمن ، مجنون العلماء والحرف والذاكرة . العمّال لا يزالون يناصرونني . أنا أحتاج لهم . في الحقيقة أنا لا أحتاج لهم ، إلا في المرحلة الانتقالية الصعبة وبعدها إلى الجحيم . الكتاب الضخم ، الذي بهدلنا فيه عبد الرحمن ، عليَ أن أخرجه من الأنفاق السرية .

منذ تلك الليلة بدأ يفكر جدياً في الاستيلاء النهائي على المصنف . حَتّى العيون التي كلفها ، منذ زمن بعيد بمكان الكتاب ، أتته بتقارير مخيِّبة . قالوا له ، يا سيد الدين والدنيا . يا سَيدَ السماوات والأرضين . أيها العظيم الأعظم . لعبد الرحمن امرأة غامضة وحارة مثل

العيون الريفية . دقيقة في كل شيء ، كانت ترافق الموريسكي الذي حرق المدينة القديمة . استقبلتنا ، وشربتنا قهوة عربية ، عرفتنا رَغم تنكرنا إذ قالت لنا : عودوا من حيث أتيتم ، الله يهديكم إلى طريق الصواب . الحيلة لا توصل إلاّ إلى الكشف والبهدلة . وبعدها خرجنا ونسينا كل شيء . نسينا حتى الغرض الذي ذهبنا من أجله .

صرخ الملياني بأعلى صوته ، يا حمير! أولاد القحبة ما أغباكم ، هل ذهبتُمْ كمخبرين أم كمعجبين ؟ أم كعشاق امرأة مجنونة وساحرة ؟ هذا الرجل يعبد الكتابة والحكاية ولا يمكن أن يموت حسه . إنه الآن يصنع تاريخاً سيخرجنا به من أعفن المجاري . وأنا أريد أن أضع التاريخ أمام الإحراج والمأزق . أجاب المُخْبِرونَ دفعة واحدة .

- يا سيدي . طلبنا الاخْتلاء إليه . فشربتنا زوجته قهوة ، ثم وجدنا أنفسنا أمامك . لا نتذكر شيئاً مهماً . فعلنا ما استطعنا فعله . هذه الأفعى تعرف الصغيرة والكبير . الأمر بائن من عينيها .

- هذه هي ماريوشا . سحرت سيدي عبد الرحمن المجدوب ثم أكلت رأسه . وبعدها التصقت بالموريسكي ، ثم دفعته إلى الاندثار والبحث عن مأوى جديد داخل الأَنْفَاق والكهوف . وظلت تعيش في القلعة إلى أن عشقت عبد الرحمن أو سحرته ، وعشقها . فيه شيء من ريحة الموريسكي . العالم الوحيد الذي قبل أن يتزوج وسمح له بذلك .

- "لكن يا سيدي . عبد الرحمن ينام في بؤبؤ عينيها . ونقسم إننا رأينا صورته فيهما .

- حمير . وحق ربي أنتم حمير في صورة بني آدميين . أعرف كل هذا . وهل من الضروري تَذْكِيري بحبها لعبد الرحمن! أنا واحد من العمّال . أعرف الصغيرة والكبيرة عن الحياة التحتية للناس وعن تفاصيل العلماء . لكن هذا الكتاب يؤرّقني! ؟ فكيف السبيل إليه .

وظل يفكر طوال يومين متتاليين . نام في مكانه ثم استيقظ ثم

نام . وعندما فتح عينيه صرخ بأعلى صوته . أوريكا . أوريكا . أوريكا . وجدتها . وجدتها . وجدتها . ثم انتبه إلى المخبرين وقد تدلت عيونهم من اليقظة وقلة النوم . ضعف عبد الرحمن هو ماريوشا . ستأتي على رأسها بلا يماها . أكبر فرصة هي يوم المبايعة . وبدأت الخطة تتضح بشكل ظاهر . هذه النماذج لا تركعها إلاّ الحيلة ، وهاهي ذي الحيلة تعلن عن وجودها في خلاصة رجل مطلق اسمه الملياني الأعظم .

لكن لا شيء كان قادراً على منع الانهيارات المتتالية ، والاكتشافات المتأخرة للخرابات التي كانت تشتعل في عمق البلاد . بدأت الأسرار التي أحاطت بالملياني الأعظم (كما كان يشتهي أن يسمّي نفسه) تتكشف للعيان . والخديعة الكبرى تصير شيئاً واضحاً . الكثير ممن يحلمون ، غرقوا في كوابيس بدون ألوان حتى ولو بقي الكثير منهم منغمساً في ظلال الاستحلامات و الاستمناءات المتكررة . عندما سمعوا كلمة مبايعة ، ورفضه لكل التقاليد السابقة ، قالوا إن الرجل يريد رضا الشعب بكامله . لكن المسألة لم تكن في نهاية المطاف سوى حالة طلسمية مليئة بالدم والتخريب والقساوة والبدائية . بالنسبة للملياني كانت كل شيء . هي البدء وهي المنتهى بعودة التاريخ المخفي . تاريخ الانحناءات والانكسارات والرؤوس المقطوعة . التاريخ الذي لا يسأل . عندما يقول له مت . لا يقف في وجه السائل ولكنه يستسلم للموت . قال الملياني وهو يحسب على رؤوس أصابعه الرؤوس التي يجب أن تطير . واحد . اثنان . عشرة . يَلْعَنْ أبو أصابع اليد ، المفترض أن تتجاوز هذا العدد حتى لا نخطئ . المبايعة لا غيرها . منها أعرف الأصدقاء من الأعداء ، وأحدّد أهداف أطلس الظواهري وأدرك حدود تصريحاته الانفصالية بمدينة الزيت . أنا سيد نوميدا-أمدوكال ، شعلة النور والرخاء . وعلى ماريوشا أن تأتي إلى هنا . مستسلمةً مثل كبش العيد وقد تكون علامة الخراب التي تنهي وجود هؤلاء العلماء الذين لا يزالون بكامل قواتهم وسريتهم بالرغم من الضربات الموجعة الموجّهة لهم . عبد الرحمن رجل للموت وأنا للحياة . وماريوشا لبؤة خلقت

للنور . سأجعلها تحت سلطاني وجبروتي ، وإذا رفضت سأبيدها وأبيد كل من يحميها . أوف . هذه السيدة ، منذ زمن بعيد وهي تَزِنُّ في رأسي مثل الذبابة القاتلة . ومع ذلك عليَّ أن أحذر . ألاّ أتحول إلى رجل للشعر والكلمات . ما قتلتْ نوح إلاّ الأشعار والكلمات . على عبد الرحمن أن يعلم أنَّ ما بيني وبينه الآن هو الإبادة . ماريوشا ستكون سيدة البيعة . ومحظية سيد الأشواق ، الملياني نوح الأعظم .

شعر الملياني برغبة قصوى في ذلك الزمن البعيد الذي بدأ ينقرض ، أن يقوم من مكانه رغم همومه الكثيرة . قام ببعض الحركات الرياضية ، شعر بالحيوية تأتيه من كل أطراف جسده . اتجه نحو المكتبة القديمة أو ما بقي من شعلة الحرائق التي أوقدها شهريار بن المقتدر قبل أن يستسلم للموت . تمتم . ليكن . هاأنذا الآن سيد الدنيا ، وعلى الحروف أن تقف ساجدة عند أقدامي صفوفاً صفوفاً . أباركها وأبيدها . أنا سيد الكلمات والأبجديات . الحرف الذي لا ينفع في الحكم من الأفضل أن يحرق أو يرمى في الفراغ . لا خير الآن في حرف يمجّد الشعر والوضاءة والحياة . ثم أخرج النسخة المتبقية من نص ألف ليلة وليلة وجزءاً من مخطوط كتاب المدينة الذي بعثه عبد الرحمن إلى نوح . لم تهمه كثيراً المعلومات التي فيه . قرأها من قبل ويعرفها جيداً . عيناه انصبتا أكثر على ألف ليلة وليلة ، في نسخة قديمة . كانت عيناه تدمعان من كثرة الغبرة المُنْفلتة من وريقات الكتاب ، الصفراء مثل اليأس والكابوس . كان يحاول أن يفلي التفاصيل المخبوءة بين الكلمات . لا بد أن يكون هناك شيء سرّي حَفِظَ حتى الآن هذا النص من الموت والاندثار والتَّلَف . لقد أُحْرِقَ آلاف المرات و في كل العصور . وهاهو ذا يعود وكأنه لم يمت أبداً . سأنظم حملة قنص له وأخرجه من كل الحفر التي يختبئ فيها وسأكون الملياني الأعظم الوحيد الذي استطاع أن يبيد نصاً لا يباد ، أو على الأقلّ قَاوَمَ الإبادة . ولتكن المحرَقة المقدسة لأخطر كتاب اخترق حرْمة السلطان وحميميته ، بعد تلك المحرقة المذهلة التي أقامها شهريار عندما كان في أوج عظمته . كنت أسخر من شهريار وهزاله وأقول في

خاطري . ماذا يمكن أن يؤثر كتاب في شعب يملك ذاكرة بغل قبرصي ؟! لكن مع الزمن ، عندما وضعت مصيري وحياتي على هذا الكرسي الذي انتظرته عمراً بصبر وأناة ، تحققت بأن الكلمة تكتب التاريخ الشفوي وتشعل النار في الكراسي ، إذا لم تطمس في بيضتها . فالكلمة عندما تفقّس تصير مثل الخلايا السرطانية ويكون كل شيء قد انتهى أو في طريقه إلى ذلك . لن يسقط عرشي عند أقدام امرأة أو كلمة ، ولو كانت ماريوشا الساحرة الكبيرة داخل هذه المدينة . يُحزنني غباء شهريار كثيراً . أنا لم أرتكب حماقته على الأقل . الجد الأول كان بئيساً . ظلّت شهرزاد تحكي لهُ لتنومه على الكذب وفي خفاء ما داخل القصر ، تصنع له أولاداً مع غيره ، ثم فاجأته بثلاثة ذكور ، ليتأكد بعدها أنه صار رجلاً (بغلاً) ولا يقطع رأسها . رأس المحنة والكوارث . الجدّ الثاني ربّى موته بيديه . لم تكفه حماقة سلفه الأول . نكبته دنيازاد في سلطانه عندما وضعت مصيره كله وراء الستائر السمرقندية التي احترقت ووضع هو رهانه تحت وسادة في مخدعها ، كانت تعرفها جيداً مثل جسدها الذي حرثه المؤرخ وفتشه ، بحثاً عن ذكر يرث المجد ، وكانت الثمرة كبولا اسمه قمر الزمان الذي لم يرث إلاّ الفاجعة . وصل المسكين متأخراً . كان اللي حجّ حجّ واللّي عوّق ، عوّق . وعندما كانت الليلة الملعونة ، الليلة السابعة بعد الألف ، تدق على الأبواب الموصدة بإحكام كان قمر الزمان يَكَدُّ يائساً في أن يتجاوز الحرائق التي نشبت في ألبسته وغطاءات أمه ويُحَاول عبثاً أن يوقف الزمن عند حدود اليأس . لكن اليأس كان على الأبواب ، فأكل رأسه وطارت دنيازاد نحو فراغ لا يعلمه أحد .

تململ في الفراش . شعر بالأشواك والمسامير تحتَلُّ ذاكرته وقلبه . اختلطت عليه صورة ماريوشا مع كل مشاهد الخراب والقيامة والنور القليل والضباب الذي كان يملأ كل شيء ، حتى العيون . كانت التباشير الأولى للصباح ، قد بدأت تتسرب من وراء الستائر التي أعيد استيِرَادها بالعملة الصعبة من سمرقند . نظر إلى الساعة . هاه! تكون

المسيرات الوطنية التي تُؤَكِّدُ البيعة قد بدأت . أَشْعَلَ التليفزيون ، فغزته مباشرة الأصوات الكثيرة للجماهير المحتشدة في كل زوايا المدينة وهي تهتف بأعلى أصواتها : يا ملياني يا عظيم ، احنا نرفع عليك الضَّيْمْ . . . بالروح . . بالدم . . نفديك يا نور العين . . . شعر بإحساسات الوحدة تغادره . كثيراً ما كانَتْ ترتشق في حلقه مثل الدفلى .

أَحَسَّ بنوع من الارتخاء . ترك شَوْقَهُ يتمادى في عمق إغفاءة اللّذة ، فرأى نفسه داخل غيمة بنفسجية تتلون و كلما مرتَ فوق بنايات عالية ، كانت تنحني له بكثير من الإعجاب والمبايعة والإجلال . حتى العصافير رآها تفتح له الطرقات المغلقة . ويظل ماضياً داخل الأشواق والعذوبة ، وعندما تلمسه إحدى محظياته ، يدخلها بحركة لاشعورية داخل فراشه يسفدها ثم يتوضأ ويصلّي ويعود بعدها إلى فراشه الذي تكون رائحة عطر الجماع المتكرر قد حولته إلى حمّام نسائي . يغرق داخل رائحة العرق . ويحاول أن يغفو من جديد على أزيز المروحية التي كانت تصور المسيرات الجماهيرية وتقوم بإرسالها لبثها مباشرة على التليفزيون كعلامة من علامات المبايعة الجماهيرية السابقة للحدث الأكبر . يقول الملياني و هو يتكسل على فراشه الوثير بمزيد من الثقة : أبناء الكلب ، من أعدائي ، يلومونني على هذا ، هاأنذا أثبت لهم أن الجماهيرية يبنيها الأكثر ذكاء و حيلة . ما دام الأغبياء و الحثالة يحبذونها ، سأمنحها لهم مثلما يشتهون .

يتمتم . ثم يغمغم .

- ليكن . فغداً سيكون العمل شاقاً ، والبيعة مذهلة وكبيرة .

* * *

- VI -

بدا واضحاً أن الدنيا لم تتبدّل ، ولكنّها زادت تعقدا وفظاعة . بعد أن أعاد المليـاني التـاريخ المنقـرض إلى كـتـاب الأمـة الذي ظل مـؤرّخ شـهريار مـدّة من الزمن يدبجه ويحضنه إلى صدره قـبل أن يهـرب هو ودنيازاد نحو فضاء لا أحد يعرفه مطلقاً . بل لا أحد ، منذ ذلك الزمن الذي بدأ يعود ، يعرف إذا كانا من الأحياء أم من الأموات في مكان ما داخل المدينة . حتى الأبحاث التي أجريت في المناطق بعد احتراق القصر لم تؤكّد على وجود أية قطعة من طائرة مدنية أو عسكرية معروفة . الناس نسوْا وجوههم بسرعة خارقة ، لكن الملياني أعاد إلى القلوب كل الأبجديات المعقوفة المنسية ، بدأ الرخاء الوهمي ينسحب ، مخلفاً رماداً كبيراً وخوفاً تجاوز الخوف الذي ولدته أوهام شهريار بن المقتدر . الأزمة بدأت تتسع خصوصاً بعد انهيار أسعار النفط مرة أخرى . واقتصاد نوميدا-أمدوكال بني في جوهره على ذلك . المال المتبقي في البنوك أصبح ممركزاً بين يديه بعد أن عيّن أحد أتباعه على رأس البنك الوطني . في الأيام الأولى كان يقول إن البلاد فوق الأزمة وإنها لن تعاني من مشكلات الانهيارات الدولية الحاصلة في المجتمع البشري . اقتصاد : نوميدا-أمدوكال متماسك وكبير . وبعد ذلك بأيام معدودات

ظهر على الشاشة ، منسدل الوجه ، غارق التفكير ، منهار الأشواق ، وهو يندب ، يا عباد الله كنتم أوفياء يوم المبايعة تحت الشجرة . وعليكم أن تواصلوا طاعتكم حتى النهاية . يجب أن نتقشف (كان يريد أن يقول لهم اربطوا الأحزمة على العظام) . الحرب لا تزال على أبواب العاصمة ، وتزداد شراسة على الحدود الغربية والشرقية للبلاد . وكل مال البلاد يأكله المجهودُ الحربي . في الحقيقة ، المسرحية التي كانت محبكة في البداية لم تعد الآن مقنعة مطلقاً . بعد سنوات من الإعلان عن هذه الحرب ، لم يحدث شيء ، سوى انهيار حياة الناس ودخولهم في غمرة اليأس وتكاثر السيارات الأمريكية ، والألمانية واليابانية الفارهة ، وظهور مجموعات بشرية أطلق عليها اسم TCHI-TCHI تطلق النار في كل مكان ، وهي سيدة الموقف وصاحبة الحقّ في كل الأحوال ، ومجموعات مسلّحة على أطراف المدن الساحلية سمت نفسها -BOU HIAو التي كانت تحرق كل ما له صلة بالقصر ، ولكنها كثيراً ما كان يتكشف أمرها ، فتباد في مكانها ، في الشوارع العامة ، وأمام المارّة ، بينما كان الملياني ، طوال هذا الزمن منهمكاً في وضع مداخيل البلاد ، والأموال الهائلة القادمة من مستشفى الملياني الأعظم في بنوك عالمية باسمه الخاص . مَنْ يدري ؟! كان دائماً يقول : خبّئ قرشك الأبيض ليومك الأسود . وبدأ في توسيع المستشفى لأنه لم يعد كافياً في صورته تلك ، على استيعاب آلاف الناس الذين كان يؤتى بهم من بعيد ، بشكل إجباري للتلقيح وإجراء التحليلات الضرورية تفادياً لانتشار مرض السيدا SIDA ، كما كانت تؤكد على ذلك البيانات المذاعة في التليفزيون وملصقات الشوارع ، والإدارات المحلية . إضافة إلى ذلك ، تمّ توسيع المساحات الجبلية المزروعة بالمخدرات والمحيطة بكامل نوميدا- أمدوكال ، ولهذا تمّ استحداث طرق جديدة للعبور ، وتوصيلها إلى عمق المدينة ، بالشاحنات . قبل ذلك ، كانت العمليات تتم بواسطة الطائرات المروحية وكانت مسألة مثل هذه تكلف خزينة الدولة الكثير . وهذا المسلك الوحيد صعب جداً لأنه يحتاج إلى رِضَى مسبق من أطلس

الظواهري ، صاحب مدينة الزيت ، الذي لا يسمح بقيام المنافسة بسهولة إلاّ بضوابط مسبقة . وقد تم الاتفاق على هذه الضوابط يوم كان التصميم المشترك على إزالة نوح من الطريق . يقول الملياني . الطرقات كانت محدودة ، ومن يحتلها يصبح سيد الجبال والفلوات والقصور ، والهواء . لهذا بدأ الملياني في الآونة الأخيرة يفكّر جديّاً كيف يركّع أطلس الظواهري الذي كان يضع رجليه على بركة مهولة من زيت الاحتراق (النفط) ، ويحتل بالقوة أو بالحيلة كل الطرق الجبلية المدرّة للذهب الأخضر (المخدرات) . عندما استدعاه الملياني في المرة الأولى عنّفه لكن في المرة الثانية ، كان أطلس الظواهري قد رتب أموره نهائيّاً وجهّز نفسه ليكون حاكماً على شعب تعود على مبايعة أفراد عائلاته كَقُوّاد على المنطقة منذ زمن بعيد . وبعيد جداً . حتى نوح ، قبل بهذه الإمارة على حالها . لا يهم . المهمّ أن تظل داخل الدولة المركزية ولتسيّر من أي شخص يريدونه ويثقون فيه . كانت المواجهة الثانية بينهما عنيفة جداً ، ولم تكن سهلة أبداً ، لأن أطلس الظواهري منذ البداية طرحَ شروطه القاسية . قال :

- هذه المرة لن أكون غبياً . لقد كبرت يا المليانى . أغمضت عيني على الذهب الأخضر ، لكني هذه المرة سَأسد كل الممرات المؤدية للحقول التي تقع في جهتنا . كبِرت كرشك يا الملياني وأردت السلطة والدنيا لك وحدك . العز الذي أنت فيه ، جزء منه ، منّي ، ملكي وليس لك . حساباتنا مستقبلاً ستكون قاسية وصارمة .

عندما كان أطلس الظواهري يتحدث بهذه الثقة ، كان أتباعه وأصدقاؤه الأجانب يسحبونَ مدينة الزيت من نوميدا-أمدوكال ، لتصير بلداً خاصاً ، قائماً بذاته ، ويضعون الأسلاك الشائكة المكهربة وأدوات التصنت المعقدة على طول حدودها . الملياني نفسه فيما بعد فوجئ . كيف تمكن راعي الإبل أطلس الظواهري أن يقوم بذلك كله وَحْدَه ، وبهذه السرعة المفاجئة . وظل الملياني مصراً على رؤيته للحديث معه وحل الإشكال نهائيا ، وظل أطلس الظواهري من جهته يكرر أنه لا يزور

البلاد إلاّ في صيغة رجل رسمي ، تحت النشيد الوطني لمدينة الزيت ، وفي دبابة خاصة مجهزة ، يقطع بها المسافة الرابطة بين المطار ومقر الرئاسة . وأن يتحرك في سيارته الخاصة ، ويتحوّط بعسسه الشخصي . تمتم الملياني يومها وهو يتآكل داخلياً مثل الحائط الهرم : ولد الحرام . راعي الإبل ، يشعر بفخره وانتفاخه لأنه يعرف مسبقاً أني في حاجة ماسة إليه . الطحّان ابن الطحّان ، يريد أن ينفصل ، ويتركني داخل الرماد والفراغ و الرمال الميتة . مدينة الزيت أغنى مقاطعات نوميدا-أمدوكال . ماذا يريد هذا الطحّان منّي ؟ أعطيته ما أراد من الصفقة . قلت له خذ مقاطعة الزيت فقد توارثَها أجدادك إدارياً . ضحك وقال : هذه سآخذها بلا مزيتك . ثم انسحب في ذلك الزمن الذي صار اليوم بعيدا . كان يعرف ماذا يريد . نفط مدينة الزيت ، صار يسوّق مباشرة بعدما كان يسوق عن طريق نوميدا-أمدوكال . كوّن أنابيبه الخاصة بواسطة الشركات الأمريكية و الأوروبية ، ولم يَعُدْ مربوطاً بي مطلقاً .

وافَقَ الملياني في النهاية على مجمل شروط أطلس الظواهري ، لكن هذا الأخير كان ثعلباً . جاء واستقبله الملياني ولكن ليس من الجهة التي كان ينتظره منها . ارتقبوا الموكب الرئاسي شمالاً ، وفد عليهم جنوباً . انتظروه في طائرة خاصة ، جاء في طائرة ركّاب بوينغ .B-747 JETيهوّل الدنيا بشكوكه ، مثل أجداده الأوائل . عاداته لم تتغير إلاّ قليلاً . كان يلبس فوقية واقية من الرصاص بيضاء . استقل الملياني سيارته وراح يستقبله على مضض من الجهة التي وفد منها على غير انتظار . لكن الخيارات لم تكن كثيرة ، ولم تكن كبيرة . كل شيء بدا مرتبكاً ، ومهتزاً مما زاد أطلس الظواهري ثقةً بنفسه على غير العادة . ها قد وَصَلْتُ إلى شعلة رأسك يا الملياني . كما تريد! إما أن تعترفَ بقوتي ، وإمّا أن تتحمّل هزيمتك . المجد خلق للتداول أيها الرجل السعيد .

في المساء عندما جلسا على الطاولة نفسها بعد الأكل (وكان أطلس الظواهري ، قد قام بتنفيذ مسرحية جديدة إذ لم يأكل إلاّ ما طبختْهُ له طباخته الخاصة التي جاءتْ معه في الطائرة المدنية) . بادر

أطلس الظواهري إلى الحديث .

ـ ماذا يريد الملياني منّي ؟

كانت كلماته جافة كهيكل عظمي .

ـ أنا لست المليـاني . هل أكلت معك على المائدة نفسـهـا ؟ أنا الملياني الأعظم ، سيد الدين . . . .

ـ . . . والدنيا ؟! أعرف . كل هذا الكلام للعامة ، وليس لسلالة أطلس الظواهري .

ـ ما الذي تغير! ؟ لسانك صار طويلاً .

ـ يا طويل العمر . أنا وأنت رضعنا من الثدي المجروح نفسه . أنت أخذت ما رأيته من حقك وأنا لي حقّي في بلاد أجدادي . إذا اتفقنا على هذا ، الباقي كله يهون .

ـ هي البلاد لنا جميعاً يا رجل .

ـ يا صاحبي . بلادك سمّها كما تريد ، لكنَ بلادي ، مدينة الزيت ، بعلمها وجيشها ونشيدها ، مستقلة عنك تماما .

ـ كبّرتها يا ظواهري! ؟ هنا بالضبط أنت مخطئ .

ـ شوف . وعلاش نطول في الكلام! ؟ خططنا جميعاً ضد المجنون نوح ، لأنه كان يتهددنا جميعاً ، لكن بعد هذا تضاربت المصالح ؟ لا العيب عيبك أنت أو عيبي أنا . افهم يا الفاهم . لنفترق مثل الإخوة .

ـ أنت تدفعني نحو القيام بما لا تحمد عقباه .

ـ النار التي تأكلني ، ستأكلك . وأظن أنك لست مستعداً للتضحية بكل هذا الفرح ؟ .

ـ أنت تعاملني ، وكأني قاطع طرق وليس حاكم بلاد بكاملها بما فيها مدينة الزيت .

ـ يا طويل العمر . أغلق موضوع مدينة الزيت . لقد تعاهدت مع شعبها أن أحررها ، ولا أترك فرصة التحول إلى بطل قومي تموت هكذا بسهولة . أنت أفضل من يفهمني . مثلما فعلت أنت وأفلحت . أنا لم آخذ منك إلاّ شيئاً صغيراً . تركت لك ملايين الكيلومترات المربعة ، وأكثر من عشرين مليون بني آدم . وأنا لم آخذ من ذلك سوى مدنٍ صغيرة وأقل من مليون نسمة . أتحاسبني حتى على هذه الأشياء المحدودة ؟ ؟ .

ـ شوف يا سيدي الكريم ؟ يا سلام . تركت لي الخراب . ماذا تساوي نوميدا-أمدوكال بدون مدينة الزيت ؟ .

ـ تساوي الملياني .

ـ طيب . خلّنا جادين . أنا أعرض عليك حكماً فديرالياً ضمن إطار الدولة المركزية .

ـ في الحقيقة أنا جئت أطلب حسن الجوار فقط ، لأني صرت دولة مستقلة ، ولا يهمني كثيراً رأيك . فأنت حر ، لتظن ما تشاء . ويمكن أن نتفق على بعض الشكليات التي تحفظُ ماء الوجه . ولإثبات الرؤية الديمقراطية التي تنتهجها ، لنعرض المسألة على سكان مدينة الزيت ، من خلال استشارة انتخابية . هه!! لقد تنازلت ، لأني أفكّر فعلاً في اكتسابك ، لصالحي أو لصالحك .

ـ لا أعترف بك . وقوانينك واستشاراتك زدها في روحك . (كان يفكّر في الطائرة المدنية التي أقلت الظواهري و التي طلب من أعوانه السريين تلغيمها . ولغمت بالفعل .)

ـ أتمنّى ألاّ تندم ذات يوم .

ـ سنرى من يندم على تهوره .

ثم خرج أطلس الظواهري نهائياً للمرة الأخيرة . كان الملياني

يضحك في أعماقه : روح يا ولد الحرام ، ستأكُلُكَ النيران . الله لا يَرُدَّكْ؛ سأحتفل بموتك وأنت تشتعل في السماء . لكن أطلس الظواهري ، بعد أن دار بسيارته الخاصة حول طائرة B-747 JETطلب من طياريه أن ينزلوا . ثم استقلّوا الطائرة الحربية التي رافقته في رحلته . كان مخطط الملياني كله ، قد دُفِعَ نحو الإفلاس . صعدت الطائرة الحربية نحو الفضاء العالي ، بينما الطائرة المدنية التي كتب عليها بالأزرق .B-747 JET الخطوط الجوية لمدينة الزيت ، رابضة بكل ضخامتها على أرضية المطار . وهو في السماء ، تأملها مقهقها ثم لكز الطيارين الذين كانوا بجانبه . انتبهوا . انتبهوا . شوفوا ولد الحرام واش دار ؟ ثم فجأة اشتعلت النيران ووقع الانفجار في الطائرة المدنية . بعث ببرقية جوية للملياني . شوف يا صاحبي ، أنت ناسي أنّ الناس تكبر ، وأنك لست الأذكى دائما ، جمعتنا المصلحة و هي اليوم التي تفرقنا . عيب الحكم أن يتغير ، ويملّ من الوجه الواحد . تعلم فقط أن تحافظ على الأقل على المكاسب التي بين يديك ، ما تكبرش كرشك .

شعر الملياني أن فداحة الخطأ كانت كبيرة ، منذ اليوم الذي سمح فيه لهذه الحيوانات أن تحتلّ المقاطعة وتستقل بها . ولكن! ؟ هذه هي دورة السلطان ، وهذا هو شكله القاسي والأكثر بشاعته . الذي يؤلمني أنه وجد مدينة عائمة في بركة من الزيت المشتعل . وجدها جاهزة وناساً جاهزين . لم يطلق رصاصة واحدة . كان ينفّذ الأوامر فقط مثل البغل الحبشي . في المساء نفسه . طور الملياني خطاب الاعتداء الذي بدأ على الحدود الشرقية والغربية و هو يزحف الآن نحو الوسط . أعلن التعبئة العامّة للدفاع عن الوطن وتكونت لجان المساندة الكثيرة . وظل يُصر على استئصال الداء من عمقه . شعر بسلطانه يكبر ، رغم الهزات العنيفة . لا تزال الشوارع تمتلئ بسهولة ، كلما هُدِّدَ أبناء هذا البلد أو البلد ذاته . استدعى في المساء نفسه أركان الجيش وحكام كل المقاطعات ، بدون استثناء . هو الذي أتى بهم ونَصَّبَهُمْ قبل هذا الزمن . وهاهو ذا يحتاج لخدمتهم الآن . معظم المقاطعات في واقع الأمر كانت

مسيرة من خلال رؤساء قبائل معروفين ، أفصحوا عن ولائهم له . منذ البداية كان يقول لهم ، افعلوا ما تشاؤون ، أنتم سادة بلدانكم ، لكنكم أبناء الدولة المركزية . عندما جاؤوا إلى القصر الرئاسي ، دخلوا واحداً واحداً ، وهم يقبلون باطن وظاهر كفيه وكتفيه لمزيد من التبعية والإذلال . يجب ألاّ يتكرر الظواهري مرة أخرى . جلس الجميع ، حول طاولة مغطّاة بالقاطيفا الخضراء . كان الملياني ، هو أول من تكلم ، بصوت متقطع تعلوه كآبة من الخيبة ، رغم تصميمه المطلق ، على أن تكون لهجته حادة ، وغير مساومة ، أو مستسلمة للرعيان ، كما كان يقول دائماً .

ـ هاه! تعرفون لماذا أنتم هنا ؟ البلاد محاصرة وتتعرض لِنهبٍ واعتداءٍ موصوفين على خيراتها . والله إذا لم نقم ، سنصلي صلاة الجنازة على هذه البلاد . البلاد ، معرضة إلى التمزيق .

ـ إلى التمزيق! ؟ .

صرخ الجميع في حركة مسرحية ، وكأَنَّهُمْ حضَّروا من قبل على هذه الأدوار . نفس هزة الرأس . نفس الحركات . نفس التنهدات . نفس الدمعة التي نزلت من العين اليمنى وظلت معلقة تحت المحجر . نفس الاصفرار الذي علا في البداية وجه الملياني لِيَعُمَّهُمْ جميعاً فيما بعد . المغص نفسه الذي كان يحسّ به .

قال :

ـ تعرفون بأني ديمقراطي حتى الموت ، ومصاب حتى الجنون بوحدة الوطن . هذه أمانة ، والأمانة تُصان .

ـ الأمانة تصان .

ردد الحاضرون في شكل جنائزي .

فجأة ، وبدون سابق إنذار ، بدأ المحيطون بالطاولة يصرخون بأعلى صوتهم .

ـ بالروح . بالدم . نفـــديك يا وطن . . .الظواهري يا غـــراب ، الملياني زين الشباب . . .

كان معظم الحكام الذين عيّنهم الملياني على رأس المقاطعات ، قليلي الثقافة والوعي والإحساس . لم يدرسوا إلاّ قليلاً ، ولهم سمعة قبليّة واسعة . كان يبحث عن رجال ، لم تكن ثقافتهم تهمّه ، بقدر ما كانتْ تهمُّـهُ قدراتهم على جرّ أكبر عدد من الرعية ، وراءهم عند الحاجة . وخطته هذه نجحت في حَلِّ الكثير من المعضلات المؤرقة التي لم يجد لها حلاً سوى أن يجرّ وراءه قبائل بكاملها ، ويفرض الحلول التي كان يريدها . التفت نحو حكّام المقاطعات من جديد . كانت ساعات الصباح الأولى قد بدأت والقناة الوطنية الثانية تستعد لتفتح برامجها . يجب أن نفكر جميعاً في الحلّ الصالح ، لمقاومة طغيان أطلس الظواهري . لقد خان الوطن والأمانة . وفجأة بدأ وجه الظواهري ، يملأ الشاشة شيئاً ، فشيئاً . كان مُحَاطاً بعائلته ولا يبدو عليه أي انزعاج ، أو ارتباك . ممتلئاً بالنجوم والنياشين العسكرية التي تحصّل عليها في حروب وهمية . ابن الكلب ، تمتم الملياني . استقل بالقناة الثانية وصار يفعل ما كنت أفعله ؟ كررها الملياني مرتين وهو يتحسس المغص الذي بدأ يتحرك من قلبه إلى دماغه . بدأ أطلس الظواهري خطابه الأوّل كحاكم لمدينة الزيت :

ـ يا ناس هذه البلاد . لقد خسئ الأعداء ، وزهق الباطل ، وظهر الحق جليّاً . هذه أرض أجدادكم . لا تضيّعوها . أقسمت أن أرجعها ، وهاأنذا أفعل ، أقسمت أن أحوّط حدودها وألغمها ، وهاأنذا قد فعلت . وحاولت أن تكون لديْنَا علاقات طيبة مع جيرانِنَا ، لكن الأطماع تقتلهم . وكل من أراد تجاوز حدودنا ، ستكون هذه البلاد مقبرة له ولأحلامه . هذه أرضكم ، وأرض ذويكم . دافعوا عنها بسلاحكم . وإن لم تستطيعوا فبأسنانِكم . وإن لم تستطيعوا فبأظافركم ، وذلك أضعف الإيمان . . . وفجأة تعالت الصرخات وأصوات التأييد داخل البرلمان . ثم انتقلت الصورة إلى الشارع العام الذي كان مُجَنَّداً عن آخره . ناس مثل النمل ، يحملون في أياديهم المداري ، والأسلحة ، بعضها جديد ، يظهر

للمرة الأولى على أراضي نوميدا-أمدوكال . واصل أطلس الظواهري بكل قوة . وكان صوته يصل إلى كل الشوارع الخلفية . دافعوا عن إمارتكم . إمارة الزيت والخير والذهب . ارفعوا عنها المذلة . ثم انسحب من على الشاشة ، ليترك المكان للأناشيد الوطنية التي أُنجزت للمناسبة و التراتيل القرآنية .

قام الملياني من مكانه وقد ملأ الانفعال قسمات وجهه ، أطفأ التلفزيون بعنف . أولاد الحرام . علمتهم فحرت فيهم .

ـ هاه! شفتوا! ؟ إننا في وضع استثنائي وعلينا أن نتخذ موقفاً صارماً من كل ما يحدث و إلا على الدنيا السلام .

ـ على الدنيا السلام . على الدنيا السلام .

ردّدها الجميع ، وكأنّها الجملة الوحيدة التي بقيت في أذهانهم الضعيفة .

ـ لكن ما العمل ؟ .

قال الضابط الذي كان يجلس على يسار الملياني . ردّ عليه عسكري آخر أكثر رتبة منه .

ـ في الحقيقة ، لم يترك لنا أطلس الظواهري حلولاً كثيرة . ولا أرى رأياً آخر سوى إعلان الحرب . والفرصة مناسبة ، لأن البلاد لا تزال مجندة من حرب الحدود الشرقية والغربية .

ـ لكن هذا الرجل الطمّاع ، مرتبط بتحالفات جهوية ودولية . منطقته التي اقتطعها هي أهم شيء استراتيجي في البلد ، البقية كتلة من الرّمال التي لا قيمة لها .

قال ضابط آخر ، كان يجلس على يمين الملياني . ظلت عيون حكام المقاطعات تدور في محَاجرها ، تنتظر أوامر المليانـي . وعندما طال الصمت ، وشوش الضابطان في أذُنَيْ المليانـي : يا سيدي . هؤلاء

الكاراكوز لن تسمع منهم شيئاً مهمّاً . خذ قرارك ونحن معك . لكنه عاد من جـديد ونبَّـهَـهُم ، إلى ضـرورة وُجـودِ مـثل هؤلاء الحكام عند الضـرورات ، ثم أن الـذي يهـمّـه ، هو انتظار الأصـدقـاء الذين وعـدوه بالمجيء و تأخـروا . وعندمـا وصلوا ، تعـرف عليـهم من أقنعتـهم . استفردوا به في قاعة مجاورة ، هو وكبير الضباط . عندما خرج كانت على وجهه علامات الانتظار والطمأنينة . كان النوم قد بدأ يغالب حكام المقـاطعـات ، الذين تـهدّلـت قسـمـاتهم ، واحـمـرت عـيـونهم ، وزادت الخطوط التي في أوجُهِهِمْ تعمقاً . وقفوا وراءه خطّاً واحداً . ثم أعلن عن خلاصة الاجتماع السرّي مع الأصدقاء .

ـ إذن . سنعلن الحرب . وليدمَّرَ الأعداء .

ـ ليدمر الأعداء . بالروح . . . بالدم . . . نفديك . . .

رددوها ، وهم يحـاولون فتح أعينهم بصعوبة . ثم خرج الجـميع ، بعدما تـوادعوا . وكـان كل واحد من حكام المقاطعات يفكر في سيارة الليموزين التي أهديت له من طرف الملياني بسـائقتها ، ويتلصص اللحظة التي يصل فيها إلى قصره أو يتجاوز فيها أضواء المدينة ، ليبطَحَ سائقته الجميلة في زاوية مظلمة . بطحة السيارة استثنائية ومدهشة ، لها نكهتها الخاصة .

في الاجتماع السرّي ، أوهمه أصدقاؤه يقول أوسكار وهو يحكي لي عن طفولة المليـاني في الحكم ، منذ ذلك الزمن الذي صار بعـيداً جداً ، قالوا له أنت عظيم والبلاد مأزومة ، ومن حقك أن تـتوسع . وأكثر من هذا كله هذه بلادك ومن حقك أن تحارب من أجل وحدتها . افعل مثلما فعل هتلر .

ـ هتلر! ؟ .

الجملة الوحيدة التي بقيت في دماغه ، والتي استقرتْ مثل الرصاصة في رَأْسِهِ نهائيّاً .

- هه! هتلر! من قال بأن هذا الرجل كان سيئاً ؟ أحب وطنه كما اشتهاه ، ربما بجنون و لكن لا أحد يستطيع أن ينكر عليه هذا الحب الاستثنائي .

- و لكن ؟

- ما لكنش .

ووعدوه في ذلك الصباح الباكر بعدم التدخل نهائياً إذا هو فكر في تأديب مدينة الزيت . وأقسموا على المصحف والإنجيل والتوراة . كان سعيداً بهذه الطمأنة . وفجأة دخل في غمرة الغيمة البنفسجية ، وبدأ يغرق في عذوبة مليئة بالفرح ، تخيل نفسه غازياً لمدينة الزيت فاتحاً لها ، مثل نابليون ، يد على صدره ، ويد أخرى على مؤخرته ، ونظر مرميٌ نحو أبعد الآفاق . في البداية شك في كلامهم ، وهم المتحفظون دائماً حول مدينة الزيت ، وهم الذين ألحوا دائماً على وجود نظام المقاطعات للهيمنة أكثر . استغرب من هذا التغير المفاجئ! كل مصالحهم هناك . ثم طمأن نفسه من جديد . ربّما رَأوْا في ذلك فُرصة أكبر للحفاظ على مصالحهم . كلامهم زاد في اطمئنانه وأثلج صدره .

- تعرف يا الملياني ، لا نطلب منك شيئاً مقابل صمتنا ، سوى الحفاظ على حقِّنا في الزيت المشتعل في المدينة . لك الملك والجاه والمدينة . ولنا جزء من زيتها .

- حقكم في عينيّ .

ثم افترق الجميع على أمل شرب شاي أخضر في مدينة الزيت على شرف أطلس الظواهري المهزوم ، المنكسر العينين . وقبل أن ينطفئ الجميع نهائياً ، تذكر الملياني ملاحظة صغيرة ، أبداها لأحد الأصدقاء . لا توجد اتفاقية بيننا حول هذا الموضوع . ولم نوقع جميعاً . ضحكوا ، ربتوا على كتفيه . قال أحدهم يا رجل! نختبر ثقة بعضنا البعض . الظواهري عاجز عن تسيير مدينة الزيت ونحن نريدك هناك . ثم خرج

الجميع ، بينما انفصل الملياني باتجاه إحدى الحجر الضيقة مع ضباطه وهو يفرك يديه بقوة فركة المنتصر .

آه يا طويل العمر ؟ يا راعي الإبل يا ظواهري . كم هي ضَيقة حساباتك يا صاحبي! جاء يومك .

وبدأت الدبابات والطائرات الحربية والحوامات والراجمات ، والمدافع المتحرّكة ، والرادارات المتنقلة والصواريخ المحمولة ، تزحف بقوة باتجاه مدينة الزيت لتأديب أطلس الظواهري . هاه يا ولد الحرام حبّيت تكبر خارج الطاعة! تتزبب قبل ما تتعنب ؟ راح نورّيك . يا سيدي ، ضربة بالفأس خير من عشرة بالقادوم .

أول مكان قصف ، كان قصر أطلس الظواهري الذي تحوّل فجأة إلى أدخنة وخراب . وبدا لأوّل وهلة أن الحرب دائمة ، ولكن طبيعتها كانت خاطفة . المقصود من ورائها حسم الأمور بِأقصى سرعة ممكنة . أول حرب تنقل مباشرة على الشاشات بواسطة المراسلين الذين تدفّقوا لتغطيتها ، وبواسطة الأقمار الصناعية المسلطة على أماكن القصف . وعمقت صورة الاعتداء الموصوف ، الخرائط التي تبين الأطراف الواسعة لنوميدا-أمدوكال ، والصغر المحزن لمدينة الزيت . ضخامة الملياني ، ونتوء قامة الظواهري . الوسائل القتالية التي يمتلكها هذا وضعف الآخر . حتى الملياني نفسه سقط في الغرور نفسه وحالة التضخم التي صنعها له الإعلام الغربي . ولكن فجأة بدأت المسيرات في كل المدن العالمية لتوقيف حالة التقتيل والظلم . فيل يقارع نملة . وفي كل مرة يحاول المليانـي أن يتراجع ، خوفاً من الرأي العام العالمي الذي كان يشغله كثيراً ، كلما حُقن أكثر من أصدقاء كانوا يقفون في الظلّ . ويزداد توغله أكثر في وقت كانت التلفزات الغربية تطلب من قادة الحلف الأطلسي ، ضرورة التدخل لإيقاف المجزرة ، وبدا الأمر كأنه مقتلة مدبرة يديرها إنسان مجنون ، مهووس بالحكم والسلطان . وظهر واضحاً ، أن الطمأنات التي ظلّ يقدمها أطلس الظواهري من داخل أحد

الأنفاق السرّية لشعبه ، لم تكن مجانية مطلقاً . كانت صورته وهو بلباسه العسكري تُعطي الانطباع بالبطل المقاوم الذي لا يستسلم للموت بسهولة . وركزت الكاميرات التي صورته وهو يتكلم على تقاطيع وجهه وقسماته . إنه إنسان صلب مقاوم . يقول نحن بلد صغير ولكننا سنقاوم . مدينة الزيت أو الموت .

وانقلب كل شيء إلى نكتة رديئة . بدأت دبابات الملياني تتحول إلى لعب طفولية تحت قصف طائرات "التحالف" الذي تنظم فجأة لمقاومة الظلم و الغطرسة . بدأت عمليات التدمير المنظم لكلّ المنشآت المدنية والعسكرية ، وتدمير الجيش الجمهوري الذي أسس في الفترات الوجيزة التي حكم فيها نوح . دمّرت الجسور . لم يبق واقفاً في المدينة سوى قصر الملياني ، الذي ظلّ مدة من الزمن مشدوهاً ، فاغراً فمه في السواد الذي بدأ ينزل على عيون المدينة . وعندما أراد أن يعيد حساباته ، وينسحب . كان كل شيء قد انتهى . هذه هي المعضلة . الناس يصنعون حتفهم ومصائرهم ، حتى عندما يريدون تفادي ذلك . لم يعد يطيق رأس لسانه ، بدأ يتحسس المذاق المرّ لِلُعْبَةِ التي كانت محكمة . وفجأة ضرب على الطاولة العريضة هاه . أبناء الكلب . حشوها لي . سأقتلهم عطشاً . لن يأخذوا منّي قطرة واحدة من النفط . سأحرق مدينة الزيت وأخرّبها . ولكن كل الصواريخ التي بعثها من قواعده بدت مضحكة مثل محارق الأطفال . كانت كل الأشياء قد تغيرت و حساباته كانت متأخرة جدا عن الزمن الذي كان يعيشه . يقول أوسْكار . حتى ضباطه خانوه . كانوا متواطئين . هم الذين قادوه نحو التهلكة . مليحْ! العاقل يعيش على ظهر الحمار . هكذا الدنيا وافهم يا الفاهم . حتى أصدقاؤه نفضوا أيديهم لأنهم تأكدوا من ضعفه . فوجئ بموقفهم وهو المحموم بهم . كانوا يقفون عند الباب الحديدية للقصر . بعدما شرعوها على مصراعيها . كانت أمعاء المدينة قد بدأت تأكل بعضها بعضاً و بعنف شديد . قالوا له . صباح الخير أيها السلطان السعيد! لكنه انكفأ برأسه ولم يردّ مطلقاً على كلامهم . شعر بالكلمات تصعد من قلبه بصعوبة .

قبل هذه اللحظة فكر أن ينتحر ، لكن الانتحار بدا له فعلاً متبدلاً . هاه! نكاية في أولاد القحبة سأواصل حياتي . كانت البلاد تشتعل من ورائه والشوارع تحاول بصعوبة أن تكنس الجثث التي بدأت تتحلل بسرعة كبيرة . طوال الأيام التي تلت ردة فعل الحلفاء ، ظل الناس في حالة ذهول قصوى . لم يملكوا القدرة على معرفة ما كان يحدث أمام أعينهم . لم يكن هناك ما يوحي بذلك على الإطلاق ، سوى أن الملياني ظل دائماً يحسس الناس أن البلاد في حالة استنفار لأنها تعيش حرباً مدمرة على أطرافها .

تململ أحد الأصدقاء ، عند باب القصر .

- لا خيار لك أيها الرجل السعيد سوى أن تعلن عن الاستسلام وتستقيل .

- الآن تقولون لي هذا الكلام . . . لولا علاقاتي الطيبة ، بِكُمْ لأَمَرْتُ بحرقكم .

- هذا أمر آخر . جئنا نقترح عليك الاستقالة . ضع مكانك من تراه صالحا و احم شعبك من التهلكة .

- سيأكلني الناس مثل الأرنب . سيحرقني الأعداء و الأصدقاء . وكيف سأبدو أمام التاريخ ؟

- بسيط ، التاريخ سنصنع لك مخرجا مثلما تشتهي .

- وما هي الضمانات الحياتية .

- لا شيء . واجه مصيرك بعنفوان وقوة .

- دمّرتم البلاد وجئتم تخيرونني .

- بلادك ، أنت دمرتها .

عندما كانت البلاد تموت ، والأسوار تسقط ، كان الملياني ،

منهمكاً بمسيرات التأييد ، والدسائس ، وتنصيب الولاة والأمراء وتشييد القصور والنفائس التذكارية المعشقة بالرخام النادر والذهب والمرجان والفضة والبرونز ، ومَلْءِ واجهات المدن بوجهه وصوره المتعددة ، بلاستيكية ، ضوئية ، وورقية وغيرها ، وتسمية الساحات العامة باسمه . كانت زيوت المدينة ويورانيومها ، وذهبها وموادها المشعّة تنقل ليل نهار بشكل محموم ، حتى في فترة الحرب القاسية . وها كل شيء قد انتهى ، وبدأ الظلام ينزل بقوة على وجهه وعلى وجه المدينة . وهو منهمك معهم في الحديث ، سمع خَرير الأمواج الذي بدأ يتضح شيئاً فشيئاً . ليست أمواجاً ولا بحراً أبداً ، لكن ، بشراً هائجين . ضحك في أعماقه كثيراً . هاهم الآن يخرجون من جحورهم ، يرفعون لافتات الحب والولاء والانصياع ، يأتون مثل يوم المبايعة زرافات ووحداناً . اتركهم يأتون ، ليعرف هؤلاء "الأصدقاء" أن قوتي قائمة ولا تتزحزح . وثقة الشعب فيّ كبيرة . فأنا دافعت عنهم ضد الأعداء الذين كانوا يريدون نهب خيراتهم ولا أحد فيهم مستعد ليسلم في مدينة الزيت . قد نضطر للسكوت عنها مؤقتاً ، ولكن بمجرد تغير ميزان القوى الدولي سأزحف عليها مرة أخرى وهذه المرة بدون رحمة أبداً ولا حتى بدون تراجع . كنت على قاب قوسين لوضع كل شيء تحت سلطتي ، لكن الخونة الذين كسوتهم من خوف وأطعمتهم من جوع داروا عليّ . التفت نحو الأصدقاء .

ـ هاه!! ما رأيكم . ها هو الشعب يزحف نحو القصر لمبايعتي من جديد . هل اقتنعتم بأنكم لا تعرفون شيئاً في هذه المجتمعات .

كان صوت الحوامة التي فوق القصر يَصمّ الآذن .

ـ إنهم يزحفون نحو حتفك أيها السلطان السعيد! .

ـ والله أنتم تتمسخرون . لا تعرفون شيئاً أبداً . هذا الشعب يقوده خطاب ويقتله خطاب .

ـ نعم . الآن يقوده خطاب آخر ، مضاد لك . أنج بجلدك .

ضحك ، قهقه ، تكور على السجادات الفارسية الموجودة عند المدخل . لكنه سرعان ما تمالك نفسه وعلت وجهه صفرة غير اعتيادية عندما دخل عليه أحد مستشاريه ليعلن على مسمعه ومسمع الأصدقاء الذين كانوا يتهيّؤون للنزول إلى سياراتهم البيضاء الرابضة عند أبواب القصر والمختومة بعلامة الأمم المتحدة الزرقاء .

- يا سيدي العظيم! كل المقاطعات سقطت . وحكامها أعلنوها مناطق مستقلة وأنّ الكثير منها أصبح مصمماً على الانتقام لشهدائه ، منك .

- أي شهداء يا رجل! ماتوا كما يموت جميع الخلق لا أكثر ولا أقل .

- لكن الزاحفين يا سيدي يريدون رأسك .

- رأسي! ؟ . الرعيان سأطلق عليهم كلاب القصر تلتهمهم كالجراد .

بحركة لا إرادية ، تحسس عنقه ، شعر بالدّم يفيض على أصابعه بكثافة . كان وحيداً مثل المهزوم في حرب مدمّرة . التفت نحو الأصدقاء الذين كانوا عند العتبات . شاهد القيامة المهولة . فؤوس . مداري وتاكسيات صفراء على أسطحها مدافع رشاشة . ضباط عسكريون خطّوا أوجههم بالسواد . بعض الدبابات . رجال ببنادق الصيد . الكثير منهم ، كان يجرجر جثثاً لناس بألبسة الحرس الجملكي الذي أعاده الملياني من جديد إلى الوجود .

التفت نحو الأصدقاء . عندكم حقّ . رؤيتكم لا تخطىء . الاستقالة واجبة . انتظروني قليلاً فقط . سأذهب معكم . أعْلِن عن خبر الاستقالة رسميا في التليفزيون وألحق بكم . ثم اندفن بسرعة داخل إحدى القاعات التي تربطه مباشرة بالشاشة الوطنية . وظل يدعك الأزرار هو وأحد المسؤولين التقنيين عن القاعة ولكن بدون جدوى ثم أقنع نفسه بسرعة . يا سيدي! واش راح يكون ؟ خليني من ربّ هؤلاء الهمج . ونزل بسرعة نحو مدخل القصر للّحاق بالأصدقاء ، ولكن المدخل ،

كانت الحشـود قد بدأت تسده . أولاد الحرام خرجوا! ليكن . ثم بدأ يتراجع شيئاً فشيئاً وهو يهذي . أولاد القحبة! قلت لكم خيرات البلاد كلها لكم ثم حولتموها إلى رمالٍ وصحارِي وخرجتم بسـرعة . هكذا أنتم . تقتلون المَيت وتمشـون في جنازته . وهكذا نحن . نحكم بالناس وبالأناشيد الوطنية ثم نموت وحيدين .

كانت الجموع تزحف بعنف ، منكّسة راياتها السوداء . وتكنس كل شيء تجده في طريقها . فكر أن ينطلق من الأنفاق التحتية لطائرته ، قيل له إن الطائرة فجرت ، والأنفاق سدت بالرمال ، وهي الآن لا تؤدّي إلاّ للموت . وأن كل الموانئ العالمية أغلقت في وجهه وصدرت بحقه وثيقة توقيف دولية Un mandat d'arrêt international ، بتهمة تأسيس كارتيل دولي لتهريب اليورانيوم والمخدّرات والأعضاء البشرية ، وساعدت التلفزات الدولية ، على فضح كل هذه الممارسات ، بالتفصيل وبدقة متناهية ، ونشرت الجرائد العالمية الكبرى وثائق الصفقات بتوقيعاته الخاصة ، وتوقيعات أتباعه .

صوت الحوامة على السطح ، لا يزال يملأ الأرجاء . كانت حالة القصر في الداخل مرتبكة بشكل كبير ، وبدا لي واضحاً أن الأحلام التي تربّت في أعماقي عن السلطان بدأت تذوب ، وأنا أرى والدي المليانـي يتراجع ، ويرتجف . تأكد مرة أخرى ، أن كل شيء قد انتهى . مشاهد القيامة كانت قد بدأت تنتقل إلى داخلي شيئاً فشيئاً ، وأنَا أبحث عن سربانة الزنجية لألتصق بها أكثر . حتى عندما فتح سطح القصر ونزل أوْسكار ومعه مسلحون وسحبوني باتجاههم ، لم أطلق سربانة الزنجية التي سحبتها بكل قوة ورائي . زمن طويل مرّ على تلك الكارثة التي أبعدتني نصف قرن عن سلطان كان مؤكداً .

في تلك اللحظة التي اختصرت في ثانية ، لم أَر وَجْهَ المليانـي ولكني رأيت كتفيه العريضتين وهو يتراجع والقبائل البدائية تزحف نحوه و تصرخ بهيجان كبير .

كانت الهمجية تدق على الأبواب .
وكان هو يدقّ في الفراغ الذي لا يجيب .

* * *

- VII -

هو ذا البحر مرة أخرى . سيد الأكوان والظلمات والزرقة الحائلة .

هي ذي الأشياء التي زَرَّقَتْنِي من داخلي .

خمسون سنة من هذا الفضاء المتكرر يومياً ، مرت قطرة ، قطرة في ذاكرتي و امحت وحالت ، ثم عادت ، وظلت تعود حتى أذبلت حالة انتظاري . يوم آخر ينضاف إلي الخمسين سنة . نصف قرن بالتمام والكمال ٦٠٠ شهر سحقتني . ٢٤٠٠ أسبوع الواحد يأكل الآخر ١٨٢٦٢ يوماً متشابهاً كالموت والخوف الدائم ٤٣٢٠٠٠ ساعة تدق في القلب بشكل مكرور ٢٥٩٢٠٠٠ دقيقة تسيل على الرأس كالقيح المخثر ، و١٥ مليون و٥٥٢٠٠٠ ثانية ، تنزل على الذاكرة مثل قطرات الحامض الذي يأكل كل شيء . وأنا ، ها هنا ، ما زلت أنتظر وأخشى أن تنسحب الأرض من تحتي ، ويحمل البحر حقائبه وأظلّ وحيداً مثل المجنون ، الميؤوس من شفائه .

خُيِّل إليَ في لحظة من اللحظات ، أن كل شيء قد انتهى ولم يبق إلاّ البحر والزّرقة .

الفجر في هذا الصباح تأخّر كثيراً على غير عاداته وتكراراته . تباشير العاصفة لا تزال تعلن عن نفسها في أفق غير مرئي ، ولكنّي

أشعر برياحها الباردة والساخنة في الآن نفسه . حتى زرقة البحر ، بدأت تحول تحت كثافة الرمال لتتحوّل إلى سواد مقلق . أشعر كأن الزمن الذي حركه والدي مدّة وبمشقة ، يعود ثانية إلى التوقف عن الحركة . قيل إنه القبلي الذي يتهيأ الآن ، وبعضهم يذهب إلى أبعد من ذلك مستنداً إلى ثقافة الأجداد الآفلين ، والرجال العابرين الملثمين بالأزرق ، الذين يقايضون الأملاح بالماء ويظلون تحت أشجار "أَرْقَنْ" ويدهنون أجسادهم بزيتها الثقيل ، إنها العلامات التي تأتي مرة واحدة ، كل مائتي سنة ، مصحوبة بالعواصف والزلازل والبراكين . وقيل إنها رياح الربع الخالي المحمّلة برائحة البارود ، واحتراق الجثث . عندما تهبّ ، يتعطّل كل شيء . بل هي في كل الأحوال نذير شؤم . هدير الموج غير عادي ، يتداخل مع أنين زوجات البحارين وهنّ يحاولن أن يترصدن الموجات العالية التي تخفي وراءها زوارق الصيد الصغيرة ، التي لم يدخل أصحابها حتى الآن . كانت أغانيهن الحزينة تأتي من أفق بعيد ، ولكنها تصل بوضوح تامّ رغم أنّها كانت تخرج من أنفاق مظلمة . الصيادون وحيدون بعد أن تخلى عنهم الله ، والبحر والناس ، يقاومون عتمة السواد والخوف ، بحالات تكاد تكون يائسة . يتراصون بصعوبة . يشدّون الحبال الواحد يتكئ على الآخر كالحيطان الهرمة ، القديمة . دامت الحالة مدىً تجاوز الساعتين ، قبل أن تعود الموجات إلى النزول قليلاً عن ضخامتها . لكن نشيد النساء لم يتوقف مطلقاً . فالزوارق ظلت غائبة .

يَا بَحْر لَبْحار .

ياسِيدْ لكْبار .

فيك الجنة ، فيك النارْ .

جيناك خايفين ، طالبين سْتَارْ .

ما تنساناش يا كبير لكبار .

يا بحر لَبْحَارْ .

بعدها ، بدأت الأمطار تتساقط وتكبر قطراتها شيئاً فشيئاً ، على غير عادة أَمَادْرُورْ (حضر موت) . فالأمطار فيها قليلة ، ولا تؤثّر كثيراً في شقوق الأرض الواسعة التي تفغر فَاهَا مثل شيوخ عطّاش . كانت قوية ولكنها لم تدم طويلاً . كان آذان الفجر ، يتصاعد من مكان بعيد مختلطاً مع تكسّر الموجات المتوالية التي كانت تتفتت عند قدمي . أتساءل أحياناً كل هذه الأصوات التي تدفع يومياً الناس إلى الخوف والردع ، ومع ذلك لا شيء تغير سوى السكينة وتكرر الزمن المتوالي . منذ قرون خلت والطقوس ، والعادات هي العادات ، وإنسان هذه البلاد الواسعة ، لم يتغير مطلقاً . يولد مدججاً بالانكسارات والهزائم والخنوع . عيشْ يا التاعِسْ على ظَهْرِ الناعسْ . كان المؤذن لا يزال يمطط جمله المكرورة في استكانة و خنوع .

ضحك نوح ولد الملياني من جديد في أعماقه . كل شيء هو هو! ؟ التمثيلية الرديئة نفسها التي يتقنها الجميع . تذكر والده وفرماناته التي كان يصدرها يومياً ويلعب فيها بِالدِّينِ مثلما يلعب قط بكرة من حرير . لم يعد شيء يهمّه في البلاد سوى مراقبة نواقض الوضوء و شرب الخمر ، وأداء الفرائض والسبغ ، والتيممة ، ووجوب اللحية ، وأخبار الزنى ، حتى أنه أسس جريدة متخصصة في هذا الموضوع سماها "الكبائر" وعيّن على رأسها فقيهه المحبوب ابن كيوان الأندلسي . لا تورد إلاّ أخبار الذين تمّ جلدهم أوْ رجمهم ، أو المشكوك فيهم . في أيام العز هذه ، قال لأحد أصدقائه من الضباط : إن شاء الله ، نوح الصغير . سيتمُّ ما لم أستطع فعله . العمر لا يرحم ، والأعداء كثيرون . يتربصون بمشاريعنا في كل مكان . حتى شباب المدينة ، لا يقرؤون جريدة أخرى سوى جريدة "الكبائر" التي تسحب أكثر من نصف مليون نسخة في اليوم ، يقرؤونها كاملة وهم متكئون على الحائط العتيق المواجه للبحر أو للأزقة الشعبية الضيقة . هو نفسه استعجب من هذا العدد الهائل من القرّاء المخلصين للجريدة . حتى أن بعض الأئمة والقراء ، يكررُونَ في خطب الجمعة ، أو في حلقات الشباب الكلام الذي تخلقه : هو ذا

المهدي . هُمَامُنَا الملياني . رجل ونصف ، وقلبه عامر بالفضيلة والإيمان . مع أن أمادرور (حضرموت) ، كانت شيئاً آخر . تقول كتب الرواة ، والذين عاشروا التاريخ القديم . كانت الشمس لا تغيب عن حقولها وبحرها ورمالها وامتدادات غاباتها الجبلية قبل أن يَصْبَحَ في فراغها الذئب في النهار ، وعلانية . الحرب المدمّرة ، أكلتها ، وحولتها إلى رماد . أتت على الأخضر واليابس والأزرق والأصفر ، والأبيض والأحمر . سكانها ، كانوا طيبين وعقلاء ، يعشقون الحياة والصيد والنقْرة والكلمات والدقة . كانت أمَادْرور (حضرموت) ملونة بالزرقة والحمرة والخضْرة والصفرة واللون النّادر . حتى العواصف الرملية عندما كانت تهب تُحول الأجواء إلى حالة من الزرقة السحرية . كان هذا قبل أن تتأكسد فيها الألوان والبواخر ويجف النفط الذي اكتشف في هذا البلد في وقتٍ مبكّر . بناها الأولون . ضربوا الخيام على أطراف البحر . شيّدوا بيوتات الطين والحجارة والكهوف والأنفاق . ثم بدأت في عصر الرخاء النفطي ، تعلو المدن والناطحات منذ نهايات زمن شهريار ، مروراً بالأزمة التي تلت . لكن الغريب في هذه المدينة ، هو الكثرة المثيرة للمآذن الأندلسية التي أشاعها الملياني بقرارات كانت تصدر مباشرة من ديوانه . تسيرها مولدات ضخمة للكهرباء ، قبل أن تتحول هذه الأخيرة إلى مجرد كتل حديدية لا معنى لها . وانطفأت الأنوار وكأنها لم تكن منذ الحرب الأخيرة التي دمرت كل شيء كان واقفاً . انطفأت الأنوار الملونة التي كانت تزين المراقص والملاهي والمطاعم وصوامع المساجد . وبدأ عصر التوحّش يزحف شيئاً ، فشيئاً ، وبدأت البلاد تدخل حافية عارية إلى عصر الانقراض الأوّل .

عندما كانت الكتل القريبة من البشر تمشي على أربع ، والدي (الملياني) كان يُؤْكَلُ حيّاً . تقاسموه مثل ما يتقاسمون أطراف لعبة لم يتفقوا عليها . نزعوه من كرسيه بعنف في ذلك المساء القائظ . قال لهم وهو يرتجف كالقصبة . لم أرَ إلاّ كتفيه . آه يا أولاد الكلبة الهرمة التي نفرت فجأة صغارها . فَتَحْتُ لكم أسرار هذه البلاد . رفعت رؤوسكم

عالياً وباهيْت بكم الأمم . وكتمت صوت الرجل المهبول الذي جاء يشعر عليكم ، في وقت انتهى فيه الشعر والكتابة والأوهام . بعثرت كل السجون والمساجين . أعدمتُ الثعابين وأشعت العدالة بينكم قدر ما استطعت ، وشيدت المستشفيات منها مستشفى الأمير نوح الأعظم ، وأعطيته سِمَةً عالمية بعد أن جهزته بكل ما أبدعته البشرية في مجال الطب . عمَرت لكم الربع الخالي وحولته إلى ربع عامر . آه يا أولاد الذين لا اسم لهم والذين ينسون بسرعة إذا جاء من ينسيهم . أنا حمورابي يا أبناء الكلبة . أنا من أرْجَعَكُمْ بشراً بعدما كنتم حيوانات ضائعة في العزلة والبريّة . أنا الأمير ، النقي القلب الذي ينظر أداد (إله الطقس) إلى يديه المرفوعتين بالصلاة . أنا الحاكم المستغرق في الحكمة ، المتحمّل لمسؤولية الحكم . أنا من اكتسب الحكمة من منبعها . أنا حامي شعب ملجوم ، من الفناء . أنا من وضع أسس منازِلكُم بكل عزم وقوة وزودكم بطيبات الدنيا الوفيرة . أنا من مدّ في ملكه وقسم الأضاحي الطاهرة . أنا من وحّد شعبه وقت الشدّة ومن لطفه أصل جذورهم . أنا من ينير درب الحقيقة ويرشد الشعب إلى جادة الصواب . أنا مذلّ العصاة . أنا الملك الذي طيّع أركان العالم الأربعة . يا أبناء الكلبة والكلب ، وأبناء الثعلبة والأفعوان ، بهذه السرعة ترمون تاريخي كله في مزبلة الموت . أنا كبيركم العالي . الهمام . ذو القرنين . أبو الرهبتين والمصيرين . وريث السلالة التي لا تنقرض مطلقاً مثلما يريد ذلك أعداؤنَا . ههنا باقون ورب هذه الدنيا! فافعلوا ما تشاؤون . كان يريد أن يذكرهُم بأشياء كثيرة . عن حليب الأمومة ونوار اللوز ، والدم المشترك ، لكن الزمن كان يعبر بسرعة مذهلة لم يمهله كثيرا وهو المليالي الوحيد في مواجهة الموت ، كان يعرف ذلك جيداً ولهذا ، رغم خوفه ، بقي متوازناً في مواجهة الموجات التي كانت تتصاعد نحوه بكثافة وقوة . لم أستطع رؤية البقية . كل شيء كان قد انتهى . فقد أخذني العسكريون الذين دخلوا من أعْلى البناية ، وسحبوني بسرعة باتجاه المروحية التي لم يتوقف محركها مطلقاً . قال لي أوسْكار ، وهو

يسحب يدي من سرابين الزنجية والطائرة تعبر الأجواء المشتعلة ، لا تبكِ يا بني! لو بقيت هناك لأكلك الهمجيون مثل أي حيوان برّي .

أَمَادْرُورْ!! يا أمادرور . يا حضر موت . أيُّها الربع الخالي الذي امتلأ بي مثلما امتلأ الخلاء بحي بن يقظان . ناسه مثله . يعيشون على صيد السمك والمرْجان . لا يعرفون عن تفاصيلي ، سوى ما يصلهم من بياناتي التي كانوا يختطفونها مثل الرغيف ، قبل أن تأتي بيانات المغربي الملعون وتسرقهم مني ، ويستعملون بياناتي التي يكورونها في أعماق أيديهم لضرب النوارس التي تنقر البحر ، مثلما أفعل أنا ببيانات المغربي الموهوم . لا ينزلون إلى شوارع المدينة إلاّ لشراء شباك الصيد وبعض المأكولات والماء ، الذي يقايضونه بالأملاح التي يأتي بها العابرون داخل الفيافي المقفرة . الزمن هو هو . لا شيء تغير منذ تلك الليلة الساخنة التي أنزلتني فيها الطائرة المروحية في هذا الفراغ أنا والزنجية التي ظللت ملتصقاً بِسَرابينِهَا رغم تطمينات أوسكار . عندما أراد العلماء الأنتروبولوجيون أن ينسحبوا من المكان قالوا : أمامك كل شيء . الدنيا والقيامة . عليك أن تبحث عن قوتك حتى لا تموت جوعاً . البحر أمامك والرمال وراءك . اختلط مع القائمين والنّازحين ، فلن ينتبه لك أحد . هنا أمادرور (حضرموت) الربع الخالي ، مكان العابرين والهاربين . وعندما ينفخ في الصّور ، ستجد من يوقظك ويقودك ظافراً إلى طريق السلطان . عش حياتك داخل الماء وخارجه . ابنِ سفينتك التي ستأخذ فيها من كل جنس ، زوجاً من الحيوان والبشر .

في الأيام الموالية لوصولي إلى هذا الفراغ الأزرق أتذكر أني غسلت جسدي أنا والزنجية بماء البحر المُغَلّى . لأول مرة شعرت بخطوط جسدها العالية واستدارتها . كانت كلما حكّت جسدي ، تتوقف عند سرتي وحجري وذكري . كلما مررت الرغوة عليه وحكّته ، أستحي وأحمرّ . ولكن مع الزمن ، ومع تكرار العادة أصبحت الأشياء عادية ودخلت معها عادات جديدة . فقد أصبح الحمّام مكاننا المفضل للممارسات الجنسية . دائماً أقول في خاطري بعد لحظة الشّهقة ، بنت الكلب! عندها كل هذه

المواهب . كنت أقرأ في عينيها العسليتين بعضاً منها كلما خلت بي ، ولكنها لم تكن تتجرأ على فعل ذلك ، قبل أن يفتح أمامنا هذا البحر فضاءاته الزرقاء . وفي كل صباح يأخذني سحر الصعود إلى السطوح وتأمّل البحر وحركة الناس الثقيلة والنادرة ، ورأس البارجة البحرية التي لم تغادر مكانها داخل الضباب الكثيف منذ نصف قرن ، وأصوات المدافع المتقطعة التي كانت تدك جيوب المقاومة المتبقية في المدينة ، وأزيز الطائرات الحربية الذي كان يصل إلى أذني بكثافة وشقاء وجفاف .

لا أدري ما الذي ذكّرني بوالدي وخشخشة السكاكين التي كانت تقف عند الباب . ثم عند المدخل . ثم وهي تنتصب في وجهه . يا أخي هَلْ ألعن رب هذا القدر ؟ أَمْ أقبل بسخفه ؟ ألم يكن ممكناً أن يؤخروا هذه المأساة قليلاً ؟ لِمَ سرق هذا القدر الملعون حقي في السلطان والفرحة ونفاني داخل هذه الفراغات التي لا حَدَّ لها مطلقاً إلا سلطان الله ؟

ليكن! سأقوضُ هذا القدر وسأحرُث مخفيات هذه الزرقة بالصوت الذي استعاره موسى وهو يقف أمام ربه ، و لتسمعني كل الكائنات ، صغيرها وكبيرها ومتوسطها .

شعر الأمير نوح وَلْد الملياني بثقل المسؤولية ، والمهمّة الملقاة عليه ، ولهذا وجبت المحافظة على نباهة الناس متيقظة ، فتح موزيطَهْ المصنوع من جلد الماعز ، كان منتفخاً لدرجة التمزق من الأطراف . البيانات لم تعد مقروءة ولكن عليه زرعها . هذا واجب يومي .

تأمّل البحر جيداً . شعر بالبرودة تدخله وكأنه لأول مرة يوزع البيانات ، التي أصبحت جزءاً حيوياً من يومياته أو فجرياته . كان مصراً على الذهاب إلى أقصى الأشياء ولو قاده ذلك إلى إغراق البحر . فالمسألة تتجاوز الواجب الوطني ، ولو أن ذلك أصبح يتم داخل منافسة قاسية من طرف أوراق المخطوط المغربي المصور . حالة يأس ولكن يجب الإقدام عليها وبكل جرأة . يجب رجم الذين سرقوا السلطان وهو في غفلة الطفولة ، يا لطيف! بَدْوٌ رُحَّلٌ ، لا علاقة لهم بالسياسة . العادات

أصبحت مقلقة ومملّة ، والعمر يزحف بسرعة كبيرة ، لكن يجب القيام باليوميات فهي مثل الصلاة .

رشق قطعة الخشب في السفينة التي بدأت تظهر ثم قام بحركاته الرياضة الاعتيادية ومتابعة الشمس قبل أن تغطيها الموجة العالية القادمة من بعيد ، بَعْدَها بعثرة البيانات في كل اتجاه ، مثل الذي يزرع حقلاً واسعاً . الصيادون تعودوا عليه وأصبح وجوده على هذا الشكل جزءاً مهمّاً من ديكورهم الحياتي . صباح كل يوم ينطلقون على طول الساحل يلملمون البيانات . أحياناً ، يتوقفون عند حروفها ، وفي أحيان كثيرة ، لا يقرؤونها مطلقاً ، يكورونها داخل أَكُفِّهِمْ ، ثم يقصفون بها النوارس التي تنقر الماء ، إبعاداً لحالات الشؤم التي تورثه للناظر بأجنحتها المتسخة و مناقيرها الطويلة . لقد صار الأمير نوح مقتنعاً كل الاقتناع بأن العمر يزحف نحو النهايات ، ولكن السلطان صار كذلك على مرمى حجر . أوسكار لا ينطق عن الهوى مطلقاً . لا تهمّ السنوات . حتى الشوافة أكدت على ذلك وهي تضرب الودع وتقرأ تلوة القهوة المشققة : أنت الأمير نوح الأعظم ، صلاح الدين القادم من أغوار التاريخ المشعُّ ، ستنفخ في السور ، وتعيد الذرية إلى الحياة ، وترفع رايات الإسلام التي جاء زمانها . ووجودك في هذا المكان علامة للقادمين على ظهر الزرقة والموج . أنتَ لم تعد ملكاً لنفسك ولكنك ملك البرية قاطبة . على يديك ستنهار مماليك الطغاة وتتحول بناياتهم العالية و ناطحاتهم إلى رمل ورميم ، وسيموتون كالزبيب .

صديقك أوسكار ينكت عليك من حين لآخر . يا سيدي . نعرف أن ضعفك أمام المرأة هو ضعفك الديني الوحيد . ولكن لا يهم! كلهم مثلوا طوال القرون الماضية . ما الذي يمنعك من أن تفعل الشيء نفسه . الدين هو السلطان ولهذا يتخبَّؤون وراءه . ضع شاشيتك على رأسك وبلغتك الفاسية وتربع على العرش وبسمل وحوقل . ليسوا أفضل منك . بل أنت أكثرهم ثقافة وبالتالي ذكاءً ثم دَهَاءً! . ليكن . ضَعْني هناك واتركني وسترى . سأكون الشيطان الرجيم إذا كان ذلك يحافظ على السلطان .

وسأكون الملاك . خطئي بدأت أصححه . كل البيانات صرت استهلها بالبسملة والحوقلة . آية في الافتتاح وأخرى في النهاية ، أختارهما وأنتقيهما بدقة من المصحف العثماني القديم .

أكتب ، كلما وجدت فسحة صغيرة وسط هذا اليأس وهذا الخراب المعمّم . الكتابة صارت غوايةً . كلما فقد الإنسان سلطانه ، صارت الكتابة مُبْتَغاه ، لأن الفاجعة الكبيرةِ لا يرممها إلاّ الحرف الوهّاج . أحسد أحياناً نوح المقتول! وفي أحيان أُخَر أقول إنه كان علينا أن نختار ، ففعلنا بدون تردد . في البداية ، كانت بَيَانَاتي مقتضبة وحادة ، تدين الذين سرقوا حقّي في العرش والكرسي . كان يمكن أن يكون عرشي على الماء ولكنه لم يكن حتى على الرمال الميتة . مع الزمان ، تكاثرت ضحكات الصيادين وهم يحاولون إشراكي في سخريتهم بدون أن يَعْرِفوا أني صاحب الصياغة والتوزيع . صارت البيانات طويلة ، ومفصّلة ومضادة لكلّ النظم القائمة المبنية على الدم والقتل والضغينة ، ومضادة للقبائل التي سرقت البلاد والعباد . في البداية شعر الصيادون تجاهها بنوع من الحنين . كنت أراقبهم بدقّة وأنا ألصق خشبات سفينة نوح . ولكن مع الزمن صاروا يقرؤونها ويضربون بها طيور النوارس التي تنقر الماء والأمواج العالية ، خصوصاً عندما غزت الأوراق (البيانات) المغربية الساحل المهجور . يولونها اهتماماً استثنائياً . ينامون على الرمال ، عندما يخرجون من مشقة البحر ، ثم يبدؤون في مناقشة ذلك الشيء الغامض الذي يفهمونه بصعوبة أَوْلاَ يفهمونه مطلقاً ولكنهم يحسُّونه .

الزمن تغير كثيراً . أصبح الأمير نوح ولد المليّاني اليوم يكتب بكثير من الرزانة التي تشبه اليأس . يحاول أن يفكر في الكتاب الغامض الذي طال انتظاره ويحلم ذات يوم أن يجمّع تدويناته المختلفة ، وبياناته المعقدة ، ويَرْميها في بحر ميّت ، ليعطيه حياة جديدة ، ويعرف القادمون الذين لم يظهروا بعد ، كم أن للسلطان فواجع لا تُحَدّ . ويعذرون في نهاية المطاف سطوته وقلقه . هو مصر ، داخل هذه الفاجعة ، أن يحكم ، وسيحكم ، وَلَوْ يوماً واحداً ، وسيكون نظامه استثنائياً ، ومطلقاً ومبرراً

بإرادة سماوية . لا توجد شرعية مقنعة في هذا العصر ، سوى الشرعية الإلهية . أشياء كثيرة في الدين ، لا تزال قائمة . هكذا يقول دائماً صديقه أوسكار ، الذي يربت على كتفيه بثقة كبيرة . لا تتعب نفسك يا نوح! نصف قرن ، أمام السلطان ، ليس شيئاً مهماً أبداً .

في البداية الأُولى ، على هذا الساحل المهجور ، تساءل الناس كثيراً! من يملك هذه الطاقة اليومية للكتابة والمتابعة والطباعة والتوزيع ؟ يجب أن يتوفر دافع استثنائي خاص ، لأن كل ما في هذا الفراغ الأزرق يدعو إلى الخيبة واليأس . لمصلحة من يحدث هذا كله ؟ ظنّوا أن وراء العملية حزباً من الأحزاب الممولة من طرف دولة أجنبية . لكن صيغة الأنا المتكررة في البيانات ، أبعدت هذا الاحتمال نهائياً . صاحب البيانات يدافع عن مسألة فردية وليست مسألة حربية أو وطنية عامة . ولكن من يملك كل هذه الطاقة الخلاقة والدائمة للقيام بعمل ممل ومكرور ومقرف أحياناً ويومي ؟ في لَحظة من اللَحظات شكّوا فيه كثيراً ، ولكنهم سرعان ما محوْا هذا الاحتمال من أذهانهم . كيف يمكن لرجل صوفي ، مجنون وغامض ، أن يجد وقتاً كافياً للكتابة والطباعة والتوزيع ؟ وكل يومه يقتله على الساحل المنسي في أمادرور (حضرموت) ومع زنجية بدأت بعض الخطوط تخترق وجهها المُزَيَّت .

هو ، هو ، لم يتغير كثيرا . نوح النواح ولد الملياني الذي لا يجد تعبيرا لأشواقه إلا على حافة الساحل المهجور ، منذ نصف قرن . خمسون سنة وهو يُدَبجُ البيان ، تلو البيان بدون تردد . حقيقة لا يعرفها إلاّ هو أو الزنجية ، التي يعيد قراءة ما يكتبه عليها ، وتضيف أحياناً بعض الملاحظات التي يقبلها على مضض ، والبعض الآخر يرفضه في اللحظة نفسها بدون أدنى تردد ، وهو يكرر : هذه الشؤون صعبة ، لا تدركها الرعية بسهولة ، بها أسرار لا أستطيع أن أفضي بها الآن . لننتظر زمناً آخر ، ربَما تغيَرت أحوال الدنيا ، ويصبح الحديث أكثر سهولة .

ومنذ أن عرف سَارَهْ بجسدها البحري المصقول ، أصبح لا يستشير الزنجية مطْلقاً . حتى رغبته في الحديث معها قلّت كثيراً . زادت شهوته للكتابات الذاتية والبحر ، ولكنه ظل يقمعُ نفسه بكل عنفٍ . من أراد أن يكون شاعراً ، عليه ألاّ يفكر في السلطان مطلقاً . لكن طقوسه اليومية لم تتغير إلاّ قليلاً . يصوغ بياناته . يعيد قراءتها . وعندما يأتي المساء يمرّ عليه أحد عمال أوسكار ، يأخذ منه الغلاف المغلق الذي يضع داخله بيانه . منذ تلك اللحظة تنقطع علاقته بالبيان ، ولا يراه إلاّ في الفجر الأول عندما يجده مكتوباً ، مسحوبا و مكدساً عند باب حجرة نومه . يفك خيوط الرزم . يضعها في موزيطه الكبير ، وينزل باتجاه الساحل لممارسة كل طقوسه المتتالية ، بدءاً من السفينة ، مروراً بالبيان الذي يزرعه على الرمال ، مثل فلاح يزرع حبوب القمح والشعير ، ثم عملية العبور التي لا تنتهي إلاّ بنهاية الحدود التي وضعها في الساحل ، ووضعها له صديقه أوسكار ، يترقب الموجة العالية التي تغطي الشمس التي تزحف نحو الغياب . عندما يصلّي صلاة المغرب على الساحل ، يتذكر حنينه المتقد للسلطان ويومه بدقائقه وثوانيه وأشواقه والكتابة . آه من الكتابة! هي يأسي الكبير . هي الفداحة التي لا تُعوّض مُطْلقاً وهي القدر الاستثنائي . لا أدري إذا كنت أعيشها ، أم هي التي تعيشني بعمق وانكسار وبكمّ لا يُصَدَّقْ من الأحزان والفواجع . يجب أن أجد الأعذار الكافية لي . من حيث لا أدري أجد نفسي داخل أشواق نوح الغائب ، خصوصاً عندما أواجه البحر . لقد أصبت بلعنته الأبدية . كلام نوح مثل الموسى القاطعة ، تدخل اللحم بدون استشارة أو استئذان ، مباشرة إلى عمق القلب . يملؤني كتاب البهجة الذي دونه في نوارة لهبيلة بنت زينب :

هل أوحى لك البحر يوماً بأنك على خطيئة كبيرة ؟

هل أوحى لك العابرون عن الدنيا الميتة ؟

هل أوحتْ لك الرمال عن زهراتها المدفونة ؟

أحسد العاشق إذْ يسرق وردة من قلب امرأة .

أحسد الفم إذْ يصنع قبلته من رحيق نحلة الحدائق البرية .

أحسد اللون الذي يسرقه جسد مَا خِلَسَةً ، من شمس مذهلة .

أحسد الفقير إذ يغمس خبزه في الزيت ويندفن في صدر امرأة قلبها كله له .

أحسد الغني إذ يشتهيك .

أحسد نهارات العشاق التي تمرّ بدون هوادة .

أحسد الراعي إذ يسمع بالملك ولا يراه .

أحسد النسمة إذْ تأتي ، فتأخذك منّي .

أحسد الفرحة التي لا يعرفها إلا من يملك قلبه .

أحسد الدنيا التي ليست سوى لنفسها .

أحسد الغجرية التي اختارت الحياة بدون هوادة

أحسد . . أحسد . . . أحسد . . الذي يأتي فوق الحسد . . .

و أنتظرك على حافة العزلة المقفرة لكي لا يحسدني فيك أحد .

لم يعلم بالضّبط المسافة التي قطعها ، ولكنها حَتْماً كانت طويلة ، وطويلة جداً . كانت الزرقة ، قد بدأت تتكسر ، مع الغيوم السوداء المنخفضة ، ومع الموجات القادمة من بعيد ، لتنتهي عند الصخور ، قبل أن تفشي أسرارها الهائلة ، المحملة بها . لا شيء في الأفق . لا سلطان ولا سفن ولا عمرٌ جديدٌ . الشَيء الوحيد الذي لم يغيّر موقعه ، رأس السفينة العملاقة ، حاملة الطائرات الأمريكية ، التي تراقب كل شيء . كتلة من الحديد الأعمى . لا شيء سوى الصمت والسكينة والهدوء الذي يشبه الموت ووريقات البيانات التي تأخذها الرياح العاصفة باتجاهات السماءات العالية ، وطيور النورس ذات الأجنحة المتسخة ، القادمة من

البقع الزيتية التي أصبحت تملأ البحر منذ الحرب الأخيرة التي دمرت البلاد ومزّقتها . خسرت النوارس بياضها الحليبي وذهبت عنها الدهشة التي كانت تُضْفِيها عليها زرقة البحر الزاحفة نحو بنفسجَة هادئة . بعض الصيادين ، يرشقون عيونهم في ألوانها وفي شكل طيرانها وفي اتجاهاتها المختلفة وهي توقوق بشكل جماعي ومكثّف ، هاربة من الغربان التي عادت من جديد ، منذ أن أكلت الحرب صخور هذه المدن المتلفة . عندما تهجر النوارس ، تملأ هي الأماكن ، فتسود السماء ، قبل أن تنزل على الرمال ، تنقر الأرض قليلاً ، بمناقيرها الطويلة ، وعيونها المدوّرة ، ثم تواصل تحليقها من جديد . لا يعرفون من أين جاءت ، ولا أين تذهب ولا كيف تعود ثانية . ثم ماذا تأكل سوى الرمال أو البيانات التي تثقبها بمناقيرها الصلبة ، والماكنات المحروقة على مرتفعات الشاطىء الصخرية والآليات الحربية التي تصدّأت ولم يعد لها معنى . يقول الذين عاشوا الموت ، في ذلك الزمن الذي صار ذاكرة مهزومة ، إن مشاهد القيامة كانت كبيرة . وإن النيران اشتعلت في الصخر والحديد واللحم البشري وفجأة نزل الظلام بغربانه وبوماته ، وحنينه المطلق للخراب الكلّي . مع أن هذا الساحل ، وقبل زمن قصير ، كان لا يؤمّه إلاّ ناس السلطان الكبار ، وعلى رأسهم الملياني الذي بنى فيه قصره وأسس داخل الرمال حمام الشمس Le bain de Soleil المحاربة داء المفاصل . حتى صار ، كلّما اشتاق إلى البحر واللون الأزرق والبنفسجي ، جاء إلى هذا المكان .

كانت الرياح قد بدأت تهدأ ، رغم أن هدوء البحر كثيراً ما يكون خادعاً . الأمواج نزلت قليلاً ، وتراجعت بكل بياضاتها الحليبية بعدما بدأت زرقتها تضيع وتتمزّق . لا شيء يُسمع وسط هذا الامتداد سوى الصوت الخافت ، الآتي من بعيد ، لحاملة الطائرات الراسية بعيداً كوحش بَرّي بعين واحدة فقط . وحش من حديد وخشب ، يترقب الأنفاس لكتمها قبل أن تقلق سكينته .

آه لو أحكم يوماً وَاحداً فقط! ؟

قالها نوح ولد الملياني ، وهو يحاول أن يُدْخِلَ رأسه بين كتفيه من شدة البرودة التي أصبحت قاسية . يوم واحد فقط! تتطور الدنيا أو لا تتطور! يجوع الجائع أو يشبع الشبعان! أنا مالي! ؟ في ستين داهية!!! ؟ ؟ ؟ ليكن العرش على الماء ساعة فقط ، بعدها لْيُنَادِ صاحب الأراضين والسماوات ، ليحمل بُوقه وينفخ فيه إذا شاء . لن أكون مولعاً بالديمومة والإطلاقية . لماذا أشعر دائماً بِهَاجِسِ ضرورة استباق الأحداث والوقائع ؟ هو هاجس اقتراب يوم الفصل ؟ أَم هو العمر الذي يزحف بدون هوادة . صديقي أوسكار الذي شاخ في هذا المكان وزادت لحيته بياضاً ، يذكرني دائماً بأن اليوم قريب . منذ نصف قرن وأنا أستمع إلى الجملة نفسها ، ومع ذلك لم تهتزّ ثقتي مطلقاً ، رغم أن الساعة الرملية لا تزال إلى يومنا تقطر حبَّاتها بالطريقة نفسها منذ أن لبّسوني بهذا الوعد وقطعوه على أنفسهم .

عندما اخترقت الشمس الصفراء ، كثافة الغيوم السوداء بصعوبة ، استشعر نوح كثيراً من الدفء على غير العادة . مع ذلك ظلت النسمات الباردة قائمة ، تدخل في العظم كالإبر ، تلملم من جديد داخل جلابة الوبر ، ثم طلَّعَها حتى الركبتين . نزع بلغته الفاسية وحاول أن يقترب أكثر من الماء حتى غطت الموجات القادمة من بعيد أقدامه حتى الركبتين . ثم واصل حركته الاعتيادية التي يبدؤها عادة من صخرة الموريسكي الضائع إلى صخور القلعة ، حيث تكون الشمس قد اختفت وراء الموجة العملاقة . كان وهو يعبر الساحل المهجور ، يضرب برجليه ، أحياناً باليمنى ، وأخرى باليسرى . الموجات ، يكسر مياهها ، ثم يبعثرها في الفراغات الكبيرة قطرات ، قطرات ، مصادفاً في طريقه ، كالعادة ، من حين لآخر ، صيادي المرجان ومرقّعي الشباك ، وتجّار الفلين ، وبعض العابرين ، الذين يستبدلون الملح بالماء ، ومصلحي السفن الخشبية العتيقة . عندما يقترب منهم ، يبسمل ويحوقل . يسلم ، ثم يشتم في أعماقه : الله يلعن بوكم وبُو والديكم يا أبناء الكلاب . لا تتعبون من النشاط والحركة كأنكم تحملون الدنيا على

ظهوركم . يا لطيف . قادرون على التأقلم مع الأوضاع . يفرخون مثل الجراد ويباهون الأمم بخيباتهم وخراباتهم . قد تكون بعض هذه العيون المدورة هي التي ارتشقت في صدر والدي . صحيح ، أنا كذلك لم أكن أحبّه كثيراً ، ولكن! ؟ كان عائقاً بيني وبين السلطان . الكرسي الذي كان جالساً عليه ضيق . لا يطيق اثنين مطلقاً . كان عمري قرابة العشر سنوات ، عندما اقترح تعييني على رأس القوات المسلحة . لو فقط استمر الزمن قليلاً . كنت قلبتُ ملكه وسلطانه ووضعته داخل سفينة ورميته في عمق البحر . أوف كان بإمكانهم إعدامه ، ولكن ليس بتلك الطريقة البشعة جداً . همجية يا لطيف ؟ هم لا يعرفون عنّي أي شيء سوى أنّي رجل غامض له شؤونه الخاصة وتفاصيله الصوفية التي لا يدركها إلاّ من بلغ القوس الثاني في بحر التصوّف . فيّ شيء من هُبَال ابن عربي ، هكذا يتصورون وفيّ شيء آخر من أساطير اليمن السعيد . تقول البيانات التي تعبر الساحل من أوله إلى آخره ، إني أنا المؤلف بين القلوب الكاسحة ومجمع الشمال الضائعة . ليكن . ولأكن أنا علامة هذا العصر المنسي الذي يزحف بخطا حثيثة نحو الانقراض . ولو أن التاريخ لا يهمني كثيراً إلاّ في حدود ما يجيب عن أسئلتي المعلقة والمحرجة . فالتاريخ يكتبه دائماً المنتصر ضد المنهزم . وعندما يدور التاريخ دورته الكاملة ، ويصبح المنهزم منتصراً ، يطالب من جديد بإعادة فتح الكتب المنسية ، ويستثير المسلمات المحرجة . ليكن هذا التاريخ الذي أعيشه هو تاريخي أنا . تاريخ نوح ولد الملياني ، ولد شهريار بن المقتدر ، سيد نوميدا-أمدوكال ، وعندما أنتهي ، لن أكون مطلقاً في حاجة كبيرة لمن يكتب عنّي . حتى اسمي لو لم يختره هو ، لست في حاجة كبيرة إليه . عندما قتل نوح وصعد هو (والدي الملياني) إلى العرش ، وغير القوانين ، وفرض البيعة تحت الشجرة ، وأصدر فرماناً وطنياً ، يعلن فيه عن ضرورة تسمية كل المولودات الجديدة الذكورية ، باسم نوح ، كان هو أول من قام بالمبادرة ، وسمّاني نوح . خرج يومها الناس جماعات ، جماعات ، حاملين على رؤوسهم أبناءهم الجدد ، ضمن احتفال وطني

ضخم دام شهراً كاملاً قبل أن يطلقوا اسم نوح جماعياً على كل أبنائهم ومواليدهم الجدد . طافوا بهم الخيمات الملوكية ، والمدينة ، وشوارعها ، ثم قبر الرجل الطيب الذي جيء به من بعيد ، قبل أن يغمس لسانه في السمّ الذي قتلوا به كلبهُ عنترة . نوح لم يكن يحب السلطان ، لكنهم أحبوه وحبّبوه فيه . أغمض عينيه وهو يتذكر نوارة لهبيلة واشتعالات قصر شهريار بن المقتدر ، ثم قال ، بلادي تطلبني ، ليكن . لتنم نوارة لهبيلة بنت زينب قليلاً في قلبي ولأتَفَرَّغْ لشؤون الدنيا . رغم أنه رفض بشكل مطلق في البداية . قال يا عبَاد الله ، أنا شاعر وفي عنقي تاريخ نواره! قالوا له : ليكن . أتمم أشواقك وأنت حاكم . قال من يحكم ، ينسى نوارة ، وكل الدنيا والشعر والحنين والدّهشة . لكن نوارة طَوالَ هذا الزمن كانَتْ تضحك ولم تتوقف مطلقاً . حتى عندما سُمِّمَ ظلَت تشتم ، كل من كان يلبس لباساً عسكرياً ، تصرخ بأعلى صوتها . آه يا أولاد الحرام!! سرقْتو لبلادْ وغسلْتُو يَديكُمْ منها . قتلتُوا وليدي نُوحْ وقُلْتُوا مَش حْنَا! ؟ شكون غيركم يا أولاد الحرام ؟! يرحم والديكم ، انزعوا أقنعتكم مرة واحدة فقط في حياتكم . كْليتُوا رَاسُه . الله ياكُلْ روسْكُمْ . وعندما بدأت الإبادة الشاملة ضد نوميدا–أمدوكال ، صعدت على صخرة عالية ، في المدينة وظلت تشتم الدنيا وخالقها ، وتبحث في ملامح الهاربين عن ابنها . عن نوح . عن أي رجل شجاع قادر على أن يقف على قدميه وليس على ركبتيه . وهي تصرخ حتى اختلط صوتها الجهوري ، بأزيز الطائرات والدبّابات ، التي كانت تزحف نحو وسط المدينة ، أوف!! شعب من النعاج والطحانين! ؟ آه يا آه على قلبي! ؟ ينقصكم رجل كبير ، كبير وجميل مثل أشجار هذه البلاد ، ونسائها .

وفجأة ، مرّ على رأسها سرب من الطائرات الحربية على ارتفاع منخفض جداً ، مخترقاً حاجز الصوت . وضعت رأسها بين يديها ، ثم أحنت رقبتها . اندفع الدم من أذنيها وأنفها . ثم فجأة امتلأ مكانها بالدخان والظلال ولم تعد نوارة لهبيلة بنت زينب موجودة في ذلك المكان ، مطلقاً . لم يعرف أحد بعدها أين ذهبت ، سوى أن الكثير

منهم ، ممن عايش أيام الحرب والشدة الكبرى ، لا يزال حتى اليوم يزور المكان ويؤكد على وجود بقع الدم محفورة على الصخرة ، كالنقش الروماني القديم ، لا تَمّحي مطلقاً .

عندما ابتعد الأمير نوح ولد الملياني عن الصيادين . وقف قليلاً . كانت الموجات العملاقة ، قد بدأت تغطي الشمس شيئاً فشياً . تيمَّن نحو الغرب ، ثم صلّى ركعتين ، ثم ركعة ثالثة . قام . نفض ركبتيه من الرمال ، ثم التفت باتجاه الشاطئ ، يعيد بعينيه عبور كل المسافة المقلقة التي قطعها شيئاً فشيئاً . كان الشاطئ في نهاياته ، التي حوطها العلماء الأنتربُولوجيون أينٍ يتمركزون . فهم موجودون في هذا المكان ، قبل أن يهرب الناس نحو أَمَادْرُورْ الزرقاء (حضر موت) بحثاً عن حياة أخرى وسط هذا الفراغ الأزرق . فُوجِئ عندما مس الصخرة النهائية بغياب العلماء والطائرة المروحية . لم يكن هناك أحد مطلقاً . قال في خاطره ، ربما يكونون في مهمة علمية . لكن الذي أثاره بشكل كبير وأفرحه في أعماقه ، هو بياناته التي وصلت حتى هذا المكان وبكل كثافة . تساءل . من يوزعها يا ترى ؟ افترض أن تكون العاصفة الصباحية قد نقلتها من بعيد ، لكنها كانت مزروعة مثل طيور النورس بشكل مدهش . لا . لا . لا . فكر وهو عائد على طريقه ، أن يتلذذ ، بقراءتها من جديد . كانت كلّها مقلوبة على وَجْهِهَا الثاني ، لكن المفاجأة كانت كبيرة ، عندما قلب الأولى ، الثانية ، الثالثة . المائة ، المائتين . الثلاث مائة . لا يُعْقَل . كلها كتبت بشكل خطّي مغربي . بل هي صورة لأصل قديم .

مسح الأمير نوح عينيه من غبش النوم وبدأ يقرأ بكل انتباه : باسم الله الرحمن الرحيم . كِتَابَ الشرق العالي . . .كتاب الأحزان ومدافن الأفراح . عسر الحامل وضعف الوليد .

يا شرق الدمعة الوهمية ، وبلاهة العاشق المكدود .

يا شرق الفرح المندثر! أنا عبدك . أنا عبد الرحمن .

هل بقي شيء آخر للحكاية ، بعدما سُرقتْ منّا الحكاية ؟

من يملك سرّك يا شرق الأشواق ؟ من يملك وهج كتابك العظيم . كتاب المجاهدة والخوف والرهبة . من يملك قلبك المسروق . من يملك حرفك الوهّاج . من يملك سحرك أيها الوثني المؤمن لدرجة الجنون! ؟ .

هل بقي شيء للحكاية ؟ أيها الممحون بعواطفه . أيها المقتول بين الفاجعة والفجيعة . بين الخوف والتهلكة .

بدايتك كبيرة ونهايتك صغيرة .

أيها الشرق العالي ما أوحدك . ما أوحدك و ما أكثر عزلتك و خوفك! ؟ .

الأوراق المغربية تَسْرِقُ منّي رمال أمادرور الزرقاء (حضرموت) بعنف شديد ، فهل يعقل ؟ ؟ من أين لهم بهذه الورقة المسروقة من مخطوط نادر ؟ هل أنا مخدوع بهذا الشكل الأكثر انحطاطاً وسفالة ؟ كل البيانات ، هي صورة مكررة لصفحة المخطوط ، الشرقي الضائع وسط هذا البحر المخيف . لا يُعْقل!! لا يُعْقَلْ مطلقاً . هناك مقلب يُدَبَّرُ في الخفاء ليسرق مني نصف قرن انتظار . أولاد الحرام . وحقّ ربّي لن تكون .

وفجأة بدأ يجري ، بكل ما أوتي من قوة ، على الساحل المهجور . تذكر والده . شعر بالغموض يملؤه من رأسه حتى أخْمص قدميه . حتى الرمال التي كانت غوايته ، ينغرس فيها بلذة ، كان يقاومها بكل ما أوتِيَ من قوة . النفس تموت هاربة يا بن أمّي والإنسان المخدوع مجنون يا صاحبي . لقد بدأ مُنَاهضي يظهر على هذا الساحل . وعليّ بمعية العلماء الأنثربُولوجيين أن نقضي عليه وهو في البيضة . آه ، لو كانوا فقط موجودين في هذا المكان المعزول كعادتهم . أشياء كثيرة تقف ضدّي .

الساحل كان يزداد طولاً على غير عادته . أَحَسَّ بثقل ما في جسده . نزع جلابية الوبر . رَمَاها في الفضاءات الواسعة ، باتجاه

البحر . إلى الخراب . واش راحْ ندير بك إذا ضاعَ السلطان . ثم طوح بعدها بالشاشية الحمراء ، ثم البلغة الفاسية ، وهو يجري ، بدون توقف ، حتى كادت أنفاسه تنسد داخل حلقه وداخل صدره الذي كان يصعد وينزل مثل النافوخ .

قبل أن يشعر بالوهن يأخذه بدءاً من ركبتيه ، شاهد الطائرة المروحية . عرفها من شكلها أنَّهَا مروحية علماء الآثار . كانت مُحَوَّطة بعدد مذهل من الصَيَّادين . سمع أصواتهم المتداخلة وهم يتهددون ويصرخون . عندما وصل إلى عين المكان . لم ينتظر طويلاً . دخل بينهم . وقبل أن يفتح فمه ، غمزه أوسكار الذي كان قد أخذ الكلمة .

ـ جميعاً نتشابه . وبالألفة صرنا أخوة . أنتم تنتظرون هذا الكتاب ونحن ننتظره . وهذا الرجل الذي أمامكم ، بدوره ينتظره بشغف مثلنا جميعاً .

وأشار بإصبعه نحو الأمير نوح ، الذي شعر بحالة استثنائية من الانتشاء والانتصار . سعد كثيراً أن صديقه أوسكار لا يزال يفكر فيه بمودة كبيرة . لم ينسه مطلقاً . اقترح أوسكار على الجميع أن يكونوا دائرة ويتجمعوا بانتظام .

ـ الكتاب لنا جميعاً . سنفتحه مع بعضنا البعض ونكشف أسراره في اللحظة ذاتها ، وهكذا سيكون كل سكان البحر راضين .

هزّ الجميع رؤوسهم ، وهم يوسعون الدائرة . عندما فتح الكيس البلاستيكي ، كانت الخيبة كبيرة ، فقد ارتسمت علاماتها على وجه الجميع بدون استثناء ، حتى العلماء الانتروبولوجيين . كان عنوان الكتاب مخطوطاً باللغة العربية ، بخط مغربي أندلسي قديم المخطوط الشرقي . قَرَؤوا الصفحات الأولى . كُتبَ عليها . هذا كتاب الأحزان . تفاصيل المخطوط الشرقي . لا يفهمه إلا من تجاوز القوس الثاني ، في تفسير كلام المجانين والمتصوفين . وعندما قلبت الصفحات المتتالية ، كانت كلها عبارة عن إشارات وشِفرات لا معنى لها . أحياناً تشبه

الحروف ، وفي أخرى كأنها حروف هيروغليفية أو تخطيطات مسمارية . وفي نهاية الكتاب وُضعت خطة مفصلة عن دهاليز المصفاة القديمة . أدرك العلماء بقية السرّ . ربما استطاعت هذه الدهاليز كَشْفَ ما خفي من المخطوط الشرقي . لكن الذي ظل يحيرهم ، ويحير الأمير نوح ولد الملياني هو وجود هذا البيان الموزع على طول الركن الشرقي من الساحل ، وهو عبارة عن صورة ، أصلها موجود داخل المخطوط الذي ظل العلماء يقلبونه حتى اكتشفوا الخطة المفصلة لدهاليز المصفاة القديمة ، فأرجعوه إلى كيسه البلاستيكي .

منذ تلك اللحظة بدأت فكرة الذهاب إلى المصفاة البعيدة تتأكد وتتبلور . الشيء الذي تحمس له الجميع بدون استثناء بمن فيهم الأمير نوح . ليس فقط من أجل معرفة تفاصيل هذا المخطوط ، هل هو نفسه المخطوط المنتظر ، ولكن من أَجْل التأكُدِ من أن المخطوط لعبد الرحمن . عبد الرحمن وحده هو الذي دفن حيّاً في المصفاة القديمة .

من البحر إلى المصفاة .

من مخطوط إلى طلسم .

من اللامنتهى إلى عبد الرحمن .

من الشاطئ الأزرق ، إلى المصفاة المهجورة .

ليكن . لا حدود للسلطان . وإذا لم تبق إلاّ الريح ، نتعلق ونَتَشَعْنَق فيها . ليكن .

رددها الأمير نوح ولد الملياني وهو يفرك يديه من البرد ومن اقتراب الانتصار على سنوات القنوط والانتظار و القحط .

* * *

القسم الثاني

تَفَاصِيلُ الكِتَابِ الضَّائِعِ

- I -

لا شيء في الأفق سوى الرمل و الصفرة و احتمالات المشقة و السلطان الذي زاد بعدا بخطوة و ربما بسنوات وإصراري الذي لا يموت في الوصول . اللي يصل للعين و ما يشربش حمار . الله غالب ، الدنيا للقافز .

امتدادات الصحراء الباردة تثير حنيناً داخلياً للأشياء الغامضة وتساؤلات حميمية بدون أجوبة . كلما أسرعت سيارة الطيوطا الكبيرة ، زادت الرمال حرارة وانبساطاً . بدأت أدرك متأخراً أني كنت محاصراً من كل الجهات بالكثبان الرملية والفراغات التي لا حدود لها . كانت السيارة عبارة عن نقطة رمادية داخل هذه الصفرة وهذا الخواء . الحرب التي مرت على هذه البلاد كانت قاسية . منذ خمسين سنة ، والآثار هي هي . لا شيء تغير أبدا . في لحظة من اللحظات قلت في خاطري لا بد أن أكون ذات زمن بائد قد مررت من هذا المكان . والدي عندما كان حيّاً كانت له قصوره داخل هذه الامتدادات التي كان يعشقها لأنها تذكره ببداياته الأولى التي انقرضت بفعل الرجال الغامضين الذين غزوا هذه البلاد ، وعَمَّروا الربع الخالي بالكثير من الحيرة والقلق . لكن الصفرة التي تتشابه منذ أن خَرَجنا قبل قليل من أمادرور الزرقاء

(حضـرمـوت) جـعلتني أبحث عن حنين آخـر ، حنين يـعطيني تـوازناتي الضائعة والمفقودة . الدنيا التي مـررنا عليـها ، كـانت تـبدو مبادة عن آخــرها . فـي لحظة من اللحظات بدا لي كــأني أشم روائح الحــرائق والأجـسـاد المتـحلّلة . منذ خـمـسين سـنة والنار هي الـنار . والفـراغ هو الفراغ . والخوف هو الخوف . ضباب من السـواد و الغبرة الـسوداء التي تلهب الأنوف ، لا يزال يغطي هذه الأمـاكن بكثافة . لا أثر للحياة سوى الغـربـان الناعـقـة التي عـادت بكثـافـة ، وصـارت تـتـبعنا جـمـاعـات ، جمـاعـات . تقف على الآليات المحروقـة وعلى الصخـور الـساحليـة التي تبدو من بعـيد كـأنهـا صخور بركـانية . تقـتربُ منا بعيـونهـا المدورة . تتأملنا جيداً . تدير رؤوسـها في اتجاهات متعددة ، وعندما ننشّها تبتعد قليلاً لتقف من جديد ، على محطات البنزين المهجورة والمخرّبة . كانت تزعجها رياح الربع الخالي التي بدأت تسحب وراءها الرمـال ، والأوراق والخشخاش والنبـاتات البحرية الميتة ، والرمـاد . . . تعلو الغـربان ، ثم تنزل من جـديد على سيارة الطيـوطا الرمادية . تنـقـر سـقـفـهـا وجـزءها الخلفي . هذا هو جوّ الطهّاج الذي تخْرجُ فيه الجمـاعات التي لا حصر لها . تعبر البلاد طولاً وعرضاً . تذهب وتعود برتابة . تبتعد قليلاً تحت قوة المحرّك ، ثم تغيب ، لتلتحق بنا من جديد بشكل أكثر كثافة .

على أطراف الســاحل ، الذي بـرز من جـديد ، بامـتـداده الرمـادي الذي بدأ يتداخل مع زرقة حائلة ، بعض الصيـادين ، أنصافـهم السُفلى مـغطاة بقـمـاشـات هندية قـديمة ، بدون ألـوان ، يحـملون الشـبـاك على ظهـورهم والفلين ويبـحثـون عن أمـاكن خـاصـة داخل هذا السـاحل الذي كـان يبدو شبه مهجور . ماذا حدث ليعمّ كل هذا الخراب ؟ خمـسـون سنة من البياض لم تصنع شيئاً . كـان النوم والهزّ قد بدأ يسـحبني تجاه حالة الغفوة . لذة مريحة للتأمّل .

منذ نصف قـرن ، لأول مـرة أتخطّى حـدود سـاحل أمـادرور الزرقاء (حضـرموت) التـي أبيدت عن آخـرها . لأول مـرة تملأ عـيني ألوان غـيـر الألوان التي زرّقتني من داخلي .

عندما استقامت الأرض ، وبدأ البحر يغيب شيئاً فشيئاً ، كانت الطيوطا قد بدأت تخط طريقها مثل السهم ، بسرعة واستقامة ، بينما كان الناس القليلون الذين نصادفهم في طريقنا ، يهرولون بسرعة كبيرة في كل الاتجاهات . بعضهم على رجليه ، البعض الآخر على دواب . بعضهم لا يحمل شيئاً ، والبعض محمل بصناديق البضاعات الرديئة على ظهور دواب عجزت كثيراً . بعيداً عن هؤلاء الهاربين ، مجموعات قليلة تحفر بئراً ، ويتتبعون بعيونهم الحائرة السيارة وهي تقسم هذا الفضاء الساكن إلى قسمين غير متساويين . البعض الآخر ، ينزل بسرعة باتجاه المنحدرات ، يجرّ وراءه دابة ، أو نعجة ، أو معزاة و يسحب بالكاد نفسه .

قرأ أوسكار الحيرة في أعيننا .

- تَعْرِفُون أن الحرب كانت مؤلمة . هؤلاء الناس ، كلما سمعوا انفجاراً ، تحركت في داخلهم غَرِيزة الخوف . فيهربون في كل الاتجاهات . لا يفكرون إلاّ في البحر . فرصتهم الوحيدة للنجاة . هكذا كانوا يفعلون . كلما بدأ القصف . لا غابة تغطيهم سوى الماء و السماء المجردة من أية رحمة .

- لكن مرّت على ذلك الزمن خمسون سنة!

- السنوات لا تعني شيئاً وسط هذا الامتداد المتكرر . عندهم ، الزمن ، عبارة عن سيولة مائية ما دام الوضع متشابها .

كدت أصرخ في أعماقي ولا أدري ما الذي جعلني أتراجع . من قال لك يا أوسكار هذا الكلام ؟ الزمن ليس سُيُولة . علامات des traces. كل يوم يمرّ ، يسحب وراءه يأساً جديداً ، ويدفن أملاً وفرحة وعمراً . كل ثانية تهرب منّا ، تسرق معها سعة الصدر والكثير من التفاصيل الدقيقة ، والأفراح والأحزان ، وتغلق وراءها أبواباً لا يمكن فتحها مطلقاً . وعندما ندق . ندق . ندق . لا أحد وراء الأبواب الحديدية الخشنة ، لا نسمع إلاّ أصداء أصواتنا . لأن الزمن يكون قد سد كل

شيء وابتعد بشؤونه نهائياً . هو العمر يا صاحبي . مثل اللمحة ، النسمة ، الفرحة الضائعة وسط فراغات لم نُخلق لها ولم تخلق لنا . عندما يعود الفجر الهارب للحظة ، يقف عند رأسك قليلاً . يتلمس آلامك وحرارتك ليوم ، أو لأقل من ذلك ، يتأملك قليلاً ، ثم يعبر مع العابرين . ويكون يوم آخر قد اندفن مثل الرمح داخل الذاكرة . لا شيء يعود ، ولكن علاماته وقساوتها شيء لا يطاق . يندفن كل شيء داخل الذاكرة . الذاكرة . الذاكرة! دائما هذا الأخدود الذي يزداد كل يوم عمقا و انحدارا .

لا شيء ، سوى حياة من الهزائم والانتصارات . حياة من الافتراضات والرموز ، والعلامات ، واللغة . خمسون سنة انتظاراً ماتت . دخلت إلى الداخل . تحولت إلى كومة صغيرة جداً من رماد الكلمات والجمل الضّائعة والمصاغة بطريقة فوضوية . منذ نصف قرن وأحاسيس الانتظار تأكلني . الحنين يشعل رماد الكلمات . من قال إن الزمن سيولة بئيسة . أنت كبير يا أوسكار ، ولكنك لا تفكر أبعد من زمانك الذي تَعيشه وهو زمن له مسافاته وحدوده . لكن زمني ، هو زمن غير اعتيادي . زمن يستيقظ على الانتظار وينام عليه . يجوع به ، ويفطر عليه . . . ربما أنت تتكلم عن رجل وهمي ، لا ينتظر شيئاً مهمّاً من هذه الدنيا . لكنّي أنا الأمير نوح ، آخر السلالات الفاطمية (عن صدق ، أو عن نكتة قيلت ثم صدقها الناس ، لا يهمّ) ، على ظهري مشروع لن يرى الدنيا إلا على يديّ ، وإلا ستتكسر كل الحسابات . ليس حساباتي وحدها ، ولكن حساباتهم هم أيضاً ، علماء الأنتروبولوجيا . مثلما أخاف من الموت الذي قد يفاجئني قبل الأوان ، هم كذلك يخافونه عليّ . أوسكار يملك تفاصيل الحقيقة ، ولهذا كلما مرضت أجدهُ عند رأسي ، هو وطبيب فرقتهم ، بعدته ودوائه . من يخبره ؟! لا أدري و لا أريد أن أعرف ، سوى أن حاسة أوسكار مثل الذئب .

خمسون سنة وبعض الشتات .

هاهو ذات الزمن يتوقف الآن ليملأ قلبي أملاً من جديد ، بعدما بدأت الكآبة تسرقني باتجاه اليأس . عندما تجاوزنا الكثبان العالية ، بدت لنا القافلة الطويلة ، هذه المرة واضحة . رجال مثل النّمل ، في خط مستقيم ، يلبسون الأزرق والأسود ، في أيديهم حبالُ الجمال المحمّلة . هؤلاء هم الرجال الزرق الذين تحدث عنهم أوسكار كثيراً . هم سكان أمادرور الزرقاء (حضرموت) الأصليون الذين سكنوا صخور ورمال هذه السواحل المهجورة . الجمال المحمّلة بالأملاح والشواري ، كانت لا تُحصى . قبالتها ، على المعابر الضيقة ، بين الكثبان ، قوافل أخرى لا تقل عدداً ، محملة بالمياه وبالأواني البلاستيكية وقدور الألمنيوم وغيرها . لقد أصبح العابرون يتقايضون ، الأملاح ، بالماء وبالأواني المختلفة . الرجال الزرق ، العابرون الأوائل داخل هذا الفضاء ، سكان أمادرور (حضرموت) الأصليون ، أصبحوا مع الزمن يربّون سبخات الأملاح ، ليس بعيداً عن الأمواج ، والبحر . ثم يجفّفونها ويضعونها داخل الأكياس التي لا تتحمل ثقلها إلاّ الجمال ، ثم يتجهون صوب الشمال لمقايضتها في فترات معينة من السنة . لقد عادت العادات المنقرضة إلى الوجود منذ انهيار مدن النفط والريح ، والزجاج ، والأملاح . قد يكون تاريخ جديد قد بدأ الآن ، بألم ويأس شديدين ، سأكون أنا نقطته البدئية . هاهم الرجال الزرق و الرجال العابرون يتلاقون عند نقطة ما ، تحت الصخور المليئة بالنقوشات البدائية . يغنّون . يرقصون رقصة التاهمايت التي لا ترقص إلاّ ليلاً مع الأشعار التي تمجّد السلطان أمود الذي أوجد الملح ونكّه الأطعمة به ، والملكة تين هينان . ومع الفجر الأوّل يعود كل واحد بجماله إلى نقطة انطلاقه محملاً بالبضائع المفقودة عنده . بعضهم بالأملاح ، والبعض الآخر ، بالمياه الباردة التي توضح في خراج قديمة مغطّاة بأكياس الخيش و القنب للحفاظ على برودتها ووقايتها من لهيب الصحاري . يبدو أن الحرب التي أكلت الأخضر واليابس ، أعادت أمادرور الزرقاء (حضرموت) إلى عاداتها القديمة التي دفنتها أيام الرخاء النفطي . أصدقاء نوميدا-

أمدوكال ، خرجوا بعد أن أشعلوا كل الفتائل الحارقة . مصوا الظاهر والباطن ، وتاريخ الأمجاد . والمشكل أن سلالتنا لا خيار لها ، سوى الانكفاء على فمها و الحفر دوما داخل الرمال الحارقة أملا في العثور على الكنز الذي يعيد البلاد إلى حنينها الأول أو على الأصدقاء الأوائل و الأخوة الأعداء لبعث الرماد و نفخ الروح فيه .

المساحات تزداد امتداداً كلما تقدمنا و لا شيء يوحي بالنهايات و لا بسلوك الطريق الصحيح . ازدادت الحرارة أكثر مع الريح الساخنة التي كانت تأتي من عمق الصحراء . أنزلت زجاج الطيوطا الرمادية قليلاً . كانت حالة الاختناق بادية علينا جميعاً : صيادون وعلماء وأنا . كانت السيارة قد خفضت كثيراً من سرعتها بسبب الأحجار النّابتة ، والتي كانت تخرج من تحت الرمال كرؤوس حراب مسننة . وممّا عقّد الأمور أكثر ، أن عاصفة رملية أخرى كانت قد بدأت تَتكون في الأفق القريب . الأوراق وبقايا النباتات الميتة ، تصعد إلى الفضاءات مع الحُبَيبات الدقيقة من الرمال . قبل أن أسدّ نهائيّاً زجاج النافذة ، انزلقتْ وُرَيْقَةٌ إلى داخل السيارة لتستقر بسخرية على وجهي مثل الوطواط الأعمى . شممت فيها رائحة النفط و الخيبة وأشياء محروقة بدون ملامح ولا تحديدات و رائحة مداد الورق وهو يخْرُجُ مباشرة من المطابع و رائحة الذئب أو الخلاء . حاولت أن أنزعها ، وأن أتفحّصها جيداً ، وإذا هي عبارة عن أحد بياناتي الأخيرة التي وزعتها على ساحل أمادرور الزرقاء (حضرموت) . استغربت كثيراً من اليد التي أوصلتها إلى هذا المكان المقفر . من أوصلها إلى هذا الخلاء الذي لا يورث سوى الإحساس بالموت المعزول ؟ لا بدّ أن يكون أصدقائي هم من يقوم بهذه الدعاية لأجلي ، لإيصال قضيتي إلى أبعد نقطة داخل هذا الامتداد . لا شيء كان يثير مجموعة الصيادين الذين استقلوا معنا سيارة طيوطا الرمادية . كانوا هادئين مثل الذي لا ينتظر شيئاً مهمّاً . ومع ذلك لا أحد يعرف دواخلهم مطلقاً . بعضهم نام تحت هزّ السيارة . لم ينطقوا بكلمة واحدة . ضحكت في أعماقي . هه! اليوم تجمعنا قضية واحدة .

للضـروروات أحكام . وغـداً ، لا أحــد يعـرف . قــد يكونون من ألدّ أعدائي ، أو ربّما من جنودي الكبار . أو من حاشيتي وحشمي وخدمي المفضّلين . كان القفر مذهلاً ، داخل المدينة التي بدأت السيارة تخترق شارعها المليء بالرمال . يبدو من مظهرها ، أنها كانت جميلة قبل أن تُباد و قبل أن تخلو من سكانها . ألوانها البركانية بدأت تحول شيئاً فشيئاً لتعلوها صفرة رملية خاصة . في لحظة من اللحظات ، قلتُ في خاطري ، لا أبد أني أعرف هذه المدينة ، ولكن المسألة لم تتجاوز كونها مجرد كومة من الأحاسيس المبهمة . اقترح أوسكار وصديقه سقراط المسلح ، أن نرتاح قليـلاً داخل ظلال البنايات العـاليـة ، ثم نواصل العبور .

ـ نأكل و نظلل قليـلا و بعـدها نواصل . الطريق لا يزال طويلا و شاقا .

توقفت السيارة . نزل السائق . أخرج قالونات المازوت الحديدية . ملأ خزان السيارة . توزعت البقية داخل الشوارع أو ما بقي منها واقفا . بعضهم ظلّ يتأمل علو البنايات الزجاجية التي تحولت إلى كتل من حديد لا معنى لها . البعض الآخر استغل فرصة هذه الظلال الممتدة ، ليبول ويرتاح قليلاً ، بينما ظل شيء ما يشدني إلى المبهم . شيء ما بدا لي أليفاً داخل هذه المدينة . لا ضوء في المدينة . لا كهرباء . لا شيء يمتّ إلى الحضارة أو الحياة بصلة سوى شموخ هذه الناطحات الزجاجية والحديدية التي التصقت بها بعض الخيام والبُيوتات الطّينية الصغيرة . عندما اقتربْت من إحداها ، انتفضت أمامي مجموعة من الدجاجات وهي توقوق بأعلى صوتها مما أثار انتباه الأنتروبولوجيين الذين كانوا منهمكين في اللون الأسود الذي كسا إحدى البنايات لِيَخْرِجُوا من إحدى الحفر في الحائط قطعة حديدية مفحّمة . قال أحدهم :

ـ هاه! هذه بقايا قذيفة B.52.

تأملها أوسكار الذي كان غارقاً في ضحكته من الدجاج الذي خاف منّا في البداية ، ثم صار بعدها يقتفي خطانا مثل الكلب المدرب .

ـ هه . . . بالضبط . لا بدّ أن تكون أرواح كثيرة قد ذهبت وضاعت إثر القصف .

ـ الحرب هكذا! حية عمياء . من يوقظها تأكله ، تبيد محيطه وتسمّم ذاكرته .

لم أعلّق كثيراً . ولكني استغربت قليلاً من اهتماماتهم التي بدت لي عسكرية أكثر منها علمية . كنت أنتظر أن يتحدثوا عن كيفيات الترميم و البناء . عن تاريخ المدينة . عن مواد البناء . عن تاريخ إنشائها . لكن شيئاً من هذا لم يحدثْ . كانوا يتحدثون كخبراء عسكريين .

كان الصيادون مشدوهين من ضخامة المدينة ، ومن مشاهد القيامة التي كنّا نعبرها . اقتربت قليلاً من صومعة مسجد أندلسي الطراز ، كان مهماً ، لم تبق منه إلاّ بعض الحيطان والصومعة . فجأة نزلت عليّ حالة برودة تشبه حالات الأنبياء . هاه! الله يحفظ . إحساسي لم يكذبني مطلقاً . هذا المسجد زرته مع والدي . وراءه بالضبط يختفي قصر الشتاء بطوابقه العشرة . جريتُ بسرعة خلف بقايا المسجد وبدأت أعد الطوابق . بعضها أكلته الرمال ، والبعض الآخر كان يبدو بارزاً وواضحاً . حتى زجاجه في أغلبه لم يتكسّر . زرته وأنا صغير . أتذكر حتى حمامه الذي أدخلتني فيه الزنجية وعرتني وحكّت جسدي ، قبل أن تتعرى هي كذلك ، وتضعني بين فخذيها وتبدأ في ملامسة أعضائي بحنان ثم تَشدّني بعنف نحوها حتى التصقُ بها نهائياً ، وأشعر بحرارتها ، بينما تظلُّ هي تئنّ وتشخر وتتحرّك يميناً وشمالاً . زمن صار بعيداً مثل الوهم .

اقتربت من قصر الشتاء بخطا مؤكَدة . لا أتذكر تفاصيل كثيرة محيطة بوالدي ، سوى أنه عندما كان يصاب بخيبة أو بانزعاج من

أتباعه وقواده ، يأتي إلى هذا المكان ويختبئ مدة من الزمن فيه ويرفض استقبال أي واحد ، كائناً من كان . عبرت باتجاه الباب الرئيسية ، وجدتها مغلقة بكتلة حديدية ضخمة تشبه دبابة محروقة . دخلت من الباب الخلفية التي كانت ممتلئةً بالدجاج ، الذي كان ينتفض لكلّ خطوة ، كنت أخطوها . وعندما توغّلت أكثر ، واجهتني ذئبة هرمة بسبعة جَرَاوِين . كشرت عن أنيابها واستعدت للدفاع عن نفسها وعن فضائها الذي احْتلتْه بالقوة . لكنها سرعان ما استغنت عن المواجهة عندما شعرت جدياً بأنّي لم أكن أقصدها . مررت بسلام . الكثير من الصالات والأبهية ، كانت مغلقة بالرمال بعدما تكسرت نوافذها . تكاد الطوابق الأولى أن تردم تحت الرمال التي كانت تجلبها العواصف المتعاقبة . صعدت الأدراج أكثر باتّجاه غير محدد مطلقاً . هاه! تذكرت . في هذا المكان بالذات كنت ألعب ، وهنا كان يرتاح الملياني مع محظياته الجديدات اللواتي يجلبهن من بلاد الغرب ، أو من بلاد السند والهند و السودان . لم أكن أعلم جيداً ماذا كان يفعل مع نسائه سوى أني كنت أشعر أن المسألة في غاية الأهمية ، لأنه كان يأمر بعدم إزعاجه مهما كان السبب . ومع الزمن بدأت أتأكّد أنه كان يفعل مع نسائه ما كانت تفعله معي الزنجية كلما أدخلتني إلى الحمام . شيء واحد كنت أستغربه . كيف تستطيع هذه النساء الجميلات ، الصغيرات ، أن يضعن بين أفخاذِهن هذه الكتل المُتراصة من الشحم لجسد الملياني ؟! يبدو أن المسائل كانت أبسط مما كنت أتصور . بعد لحظات الغفوة ، يخرج الجميع سعداء ، ممتلئين بالحنان والحب تجاهي وتجاه الزنجية التي لم تكن تكبرني كثيراً . حاولت أن أُطل من الثقب الذي تبقّى من النافذة العالية ، نحو امتدادات ملعب القولف . لم يبق فيه شيء يذكر مطلقاً . الكل تصحّر وتصدأ بسرعة وبدأ يتفتت ويندثر . حتى حنفيات الماء التي كانت تسقي آلياً الملعب ، أصبحت كُتَلاً حديدية مشوهة و ميتة . لا أثر للماء ولا للحشائش الخضْراء . عجيب! ؟ أهكذا تنتهي الأشياء بسرعة ؟ مع ذلك ، يجب أن يَظل الإصرار قائماً لإعادة بعث كل هذه

الأمجاد إلى الوجود . ترميمات صغيرة وبعض المليارات ، يمكن أن تعيد دواليب الحياة إلى هذا القفر . بمجرد صعودي إلى الكرسي ، أنا متأكد أن أوسكار سيقوم بالمستحيل لجلب المستثمرين الأجانب إلى هذه الزوايا المهملة من الكرة الأرضية . مسألة زمن . لقد أصبح السلطان على مرمى حجر أو على قاب قوسين أو أدنى . ومن يدري ؟ قد تكون المسألة مسألة أيام فقط! كل شيء خاضع لكتاب جهنّم هذا ، الذي انتظرته أجيال متعاقبة ، الواحد تلو الآخر بدون جدوى حتى الآن . الذي ما زال يوغوشني هو تلك الصفحات المكتوبة بخط مغربي ، والتي تفاجئني في الساحل من حين لآخر ، بدون سابق إنذار . بالتأكيد ، هي صور لنصوص مأخوذة من تصنيف عبد الرحمن الغامض . لا بد أن يكون أحد المجانين أو الطامعين في سلطاني ، قد صور النص الأصلي ، ثم رماه في البحر ، ومصر على ربح السباق نحو الكرسي . أوف . . . لا أحد يستطيع أن ينافسني لأني الأكثر صبراً ورضاس من طرف أوسكار . ومن كان أوسكار وراءه ، يربح حربه ضد العالم بأسره . الآبار الكثيرة التي حفرت في باطن هذه الصحراء ، خصيصاً لريّ ملعب القولف ، ردمها القصف المتواصل وضاعت كل معالمها نهائياً . ونحتاج إلى صدفة مُذهلة واستثنائية لإيجادها . لم يعد أي أثر للمياه . الذي استهدف قصف المدينة ، وآبار النفط ، استهدف كذلك آبار الماء . كان يعرف قيمتها وسط الموت الذي يتواطأ يومياً مع الرمال القاتلة . لولا حماقة الملياني ، لتغير كل شيء ، ولما كنتُ ههنا في هذا القفْر مثل الوحش البري ، وحيداً يعيش ولا يعلم! ؟ و ربما وحيداً سيموت و يظل لا يعلم . وماذا يكون السلطان إذا لم يكن وسيلته العظيمة لمقاومة الوحدة المفروضة عليه . لكن الساعة هي الساعة . والزمن كان قد تبدّل وعادت حكايات الموريسكي المجنون إلى الواجهة . حتى أن هناك من يقول إنه رآه بعينيه اللتين يأكلهما الدود ، وهو يُشَيِّعُ نوح يوم مات (قتل) وهو في مجد السلطان الكبير . الشيء الوحيد ، المؤكد ، هو أن حماقة الملياني كانت كبيرة وأفقدتني حقّي ويومي في الحكم . هل كان

ذلك المجنون في حاجة ليغزو مدينة الزيت ؟ للغواية نهجها وطريقها الذي يتجاوز إرادات الناس . في هذا المكان المليء بالرمال ، فكرت أن أصلّي ركعتين على روح الملياني ، ولكنّي لست أدري السبب الذي جعلني أتراجع . شعرت بشيء من الحقد الداخلي . لقد حرمتني مغامرته من حقٍّ مطلق كان على مرمى العين المجرّدة . وفي أحيان أخرى أشعر بألم نحوه ، فهو لم يكن مخيراً كثيراً . يشفّني ، فأحنّ عليه وأعتَبِرهُ رجلاً خطا خطوته القدرية نحو موته مثل أبطال الأساطير والملاحم . كل شيء كان جاهزاً سلفاً ويتجاوز إرادته . كان مهووساً بالإمبراطوريات القديمة والأشياء المذهلة والكبيرة . كل حاكم مثل المجنون ، يحلم أن يسم عصره بملامسه .

في لحظات التأمل واليأس والزرقة المكرُورَة ، أحقد عليه بكل عنف وبشكل مرضي . لقد سرق منّي فرصة بنيتُ عليها عمراً بكامله ، وفي سنّ جد مبكّرة . ماذا بقي بعد كل هذه الحماقات المتتالية . لا شيء يثير الانتباه . في أحسن الأحوال سأرث خراباً بدون كهرباء ولا حياة ، ووجوهاً محروقة ، مهزومة عن آخرها ، لا تعرف إلاّ النقد والابتلاع . تأكل حماراً وتشعر بشكل دائم بحالة جوع ضامر . ليكن . سأولد الكهرباء لقصري من المولدات العملاقة التي سأستوردها . سأزفت الشوارع من جديد ، وأكنس الرمال وأعيد نشاطات ملعب القُولف ، وسأجبر أبناء القحبة ، هؤلاء المقطعين ، واحداً ، واحداً ، على مبايعتي عند الشجرة ، مثلما فعلوا مع الملياني وهم يطأطئون رؤوسهم باحترام وخوف . أضعهم تحت قدمي . أحرث عليهم مثل الدواب . أجعلهم يبوسون يديّ ويغسلون رجلي بلعابهم ويحملون قلوتي كلما أرهقني الجماع . سيتسابقون عمّن يكون له شرف احتضانهما بين يديه . مثل الكلاب الضالة ، لا يتراجعون أمام أي شيء . يفعلونها حتى بدون أن يُطلب منهم ذلك . عليّ ، في لحظات ممارسة السلطان والجلوس على الكرسي ، أن أخرج عن عالم الشعر وبلية نوح ، والأشعار التي هربتها لي الزنجية ذات زمن ما . كتاباته تورثني بعض الضعف تجاه المرأة والزرقة

والبحر والبنفسج والوجوه التي تسكنها الدهشة والذهول . سأضعهم كلهم تحت قبضتي . لن يلعبوا برأسي هكذا . لن يتعلموا الحسانة في ريسَان اليتامى . أبداً . سأوحد قبائل آخر زمان بالحديد والنار . المعوّقون ؟ أبناء الكلب حاسبين الدنيا سهلة ، كل واحد اختبأ وراء سلالته وأعلن منطقته بلاداً مستقلة ليأكل بعد أقل من سنة نار الحروب الأهلية و الزبل و الفقر و يمد يده لوكالة الغوث الدولية . لقد أعجبتني كتابات هتلر وبسمارك وغاريبالدي ، وميشال عفلق . الفائدة الوحيدة التي جنيتها من هذا المنفى ، هي القراءة والكتابة . قراءة كل النصوص النادرة وكتابة كمٍّ هائل من البيانات . ينقصني كتاب عبد الرحمن الذي يحمل في عمقه أكثر من إغراء . كتاب السلطان وغوايات الشؤون الكبرى . المفيد في هذا الطلسم ، الذي كدنا نيأس من فهمه جميعاً ، هو الزوايا التي حددها الإنسان الذي رمى الكتاب في البحر ، ربما كشفت هذه الخطوط التي تحيل إلى المصفاة القديمة التي فجرت في عهد الملياني ، بعضاً من السر المكنون داخل التخطيطات الهيروغليفية . المؤكد أن الإنسان الذي ردم الكتاب ليس عبد الرحمن لأنه أشار بالتدقيق ومن خلال بعض الرموز التي يمكن تفكيكها بسهولة إلى مكان وجود عبد الرحمن والعصر الذي رُمي فيه واتجاهات أنفاق المصفاة والأيادي التي فعلت ذلك . العلماء احتفظوا بالكثير من الأسرار لهم وحدهم . بعض الإشارات تذكر الملياني وتَلْعَنُهُ إلى يوم القيامة . غمزة أوسكار تطمئنني دائماً حتى في أدق اللحظات إحراجاً . الغد قريب وسيكون جميلاً ومذهلاً . في الطابق الرابع من قصر الشتاء ، وأنا أهمّ بدخول إحدى القاعات المعشقة بالزجاج الملون في دار الاستقبال و الذي ظل محافظاً على نصاعته رغم طول المدة ، واجهني رجُلٌ حكيم ، بلحية بيضاء طويلة . أشر بيده اليمنى أن أقترب ففعلت . ثم أمرني بالجلوس .

ـ اجلس يا بني . من تكون ؟ المكان خطير . قطاع الطرق و القتلة يبيتون هنا في أغلب الأوقات .

ـ أنا كما ترى يا شيخ ، رجل يبحث عن مجد ضائع . وأنتَ ؟

ـ أنا! كما ترى عيناك . ظل داخل الظل . إنسان يعيش مع ذئبة هرمة وبعض الدجاج في وئام كامل . أحياناً يتذكرني العابرون ، فيعطونني بعض الماء والشاي والملح واللباس ، وأحياناً ينسونني فتتذكرني قوافل أخرى لا أعرفها مطلقاً ، تأتي إلى هنا ، بحثاً عن الظلال والأمان . وكثيراً ما تقاسمني الذئبة فريستها أو غزالها الذي تصطاده . تقطعه إلى قسمين متساويين ، قسم لها ولأولادها وقسم تضعه عند قدمي . تتأملني ، تطمئن عليّ حتى أشعل النار ثم تخْرُج باتجاه صغارها . وفي أحيان كثيرة ، وكثيرة جداً ، ننزل جميعاً أنا والدجاج والذئبة وأبناؤها إلى البرية نفتش عن أي شيء صالح للأكل أو نصطاد سمكات بصنارتي القديمة التي تركها لي أحد الصيادين وهو يقول ، عندما تظلم الدنيا عليك ، تَذَكَّرْها ، بها ، لن تموت جوعاً . نتقاسم صيدنا في البحر ثم نَعود إلى هذا القصر الخالي . لكن ما الذي جاء بك إلى هذا المكان المقفر و أنت بين عليك أنك لست رجلا عاديا . لا تشبه العابرين مطلقا .

ـ لا شيء يا سيدي . الصدفة التي لا أعرف إذا كانت ملعونة أم لا . أنا نوح يا شيخي الجليل . نوح ولد الملياني . هل تعرفه ؟ أو ربما . . سمعت به على الأقل .

كان أحد الصيادين قد التحق بنا ، وظل يتأمل الشيخ بكثير من الإعجاب والدهشة . شعرت برعشة ما ترتسم في عينَي الشيخ . حاول أن يفركهما جيداً ويخترقني من جديد بخزرته . أخرج نظارتيه من صدره ثم بدأ يتأملني بنوع من الاستمتاع والتلذذ ، من رأسي حتى أخمص قدمي . وضع يده اليمنى على فمه . كان صوت أوسكار قد بدأ يملأ قاعة الاستقبال وهو يحثنا على الالتحاق بالسيارة . شعرت بأن الشيخ بدأ يعرفني . وضع وجهي بين يديه .

- ما أشبهك بذاك الرجل الذي وجهه من تراب محروق و نباتات برية .

- من! ؟

- حاكم هذه البلاد الذي انتزع البيعة بالدم والموت .

- يبدو يا سيدي أني ابنه .

- المعروف أن العائلة أبيدت عن آخرها . إلى أين تَذْهَبُون الآن ؟

- نحن في بعثة علمية ، للبحث عن رفات عبد الرحمن صاحب التدوين الضخم ، لفك الرموز المبهمة .

- عبد الرحمن . عيد هذه الأمة الذي جاء قبل الأوان ، وعلامتها . لقد حكى عن كل شيء . أوراقه بدأت توصلها الرياح حتى هذا المكان . لَم يترك شيئاً للصدفة . أملك أشياء كثيرة عن هذا الخراب وعن مقتل الرجال الصالحين وحرق قلعة العلماء وإبادة سواحل العمّال . الملياني لم يفعل حسناً . لقد جار على البلاد و العباد و جرّ الهلاك وراءه . منذ أن قام بتسميم نوح الذي جِيءَ به من بعيد لم يستطع إيقاف النزيف . . .

كان يريد أن يتكلّم عن الكثير من التفاصيل لكنه عندما سمع أوامر أوسكار بضرورة الالتحاق بالطيوطا الرمادية تراجع بنوع من الخيبة الداخلية التي اندمجت مع خطوط وجْهِه المضيء . في لحظة من اللحظات ، تمنيت أن أسمع كل ما كان يخبئه هذا الشّيخ الحكيم في داخله لكنّي سرعان ما تراجعت لأني مرتبط برجل سيوصلني حتماً إلى النقطة الكبرى . نقطة الكرسي الذي تقاتلت عليه الأجيال المتعاقبة ولكنّ الشّيخ نفسه قطع تفكيري .

- اذهب يا بني . عندما تعود سأحكي لك عن البقية . أتمنّى أن تجدني حيّاً .

ـ كل البركة فيك يا شيخنا .

قلتها بدون تفكير وأنا أهمّ بالنهوض من مكاني . استغربت قليلاً ، كلماته الأخيرة . قالها بشكل متقطع مليء بيأس ضامر . هذا الرجل ، منذ زمن بعيد وهو يعيش ههنا في هذا المكان . كان يبدو مرتاحاً في البداية ، وها هي ذي عيناه ترتجفان ، يسكنهما رعب يظهر بالرغم من محاولات إخفائه . هل جلبنا له الموت . هل صدفة اكتشافه هي نفسها صدفة موته . عندما عرفني وتأكد ، كان يريد أن يسرَّ لي ببعض الأشياء ، لكن صوت أوسكار الذي ضخمه الخلاء والأصداء أسكته .

ـ أتمنّى أن تجدني حيّاً .

كررها الشيخ للمرة الثانية لكن هذه المرة بصوت لا يكاد يسمع .

هو يعرف أني قد لا أجدهُ مطلقاً . لا أعرف لماذا ، ولكنه الإحساس الذي انتابني في اللحظة بالذات . عاود أوسكار نداءاته بالعربية والإنجليزية والفرنسية . كنت قد بدأت أقطع بهدوء الممر الذي تتربع فيه الذئبة الهرمة وهي ترشق عينيها فيّ ، بعد أن تركت الصياد جالساً بجانب الشيخ ، وهو يكرر :

ـ سأنتظركم هنا مع الشيخ . سأنتظركم هنا .

عندما واجهت أوسكار في الأدراج ، سألني عن الصيّاد بنوع من القلق . قلت له بأنه مصرّ على عدم الذهاب ، وسينتظرنا ههنا . تلفتْ ملامح أوسكار . اصفرت قليلاً ، ولكنه تظاهر بعدم الاهتمام كثيراً .

ـ أوف ليكن . يدبّر راسُهْ . هيا نذهب . أتمنّى أن يشهد أصدقاؤه بأنه بقي بخياراته الخاصة .

ـ أنا أشهد على ذلك . حتى الشيخ لم يصر عليه . هو الذي أراد .

ـ أتمنّى أن تقول هذه التفاصيل لأصدقائه . هؤلاء الناس شكوكهم كثيرة .

قلتُ في خاطري ليكن . أنا كذلك سأضحي بحكاية الشيخ التي قد تشبه كتاب عبد الرحمن ، ولكن لا خيار لي ، قد تتحول هذه الحكاية إلى مدفنة وأرتكبُ أنا نفسي حماقة الضياع داخل جوف الحكاية مثلما حدث مع شهريار وشهريار بن المقتدر وهما يواجهان لبُوءتين من العصور البائدة ، شهرزاد و دنيازاد .

قال أوسكار وهو يربت على كتفي .

- هيا يا نوح . السائق قلق علينا .

ظلت صورة الصياد تملؤني . كيف ظل صامتاً ، ثم كيف اختار البقاء بدون أن يقول الشيخ ولا كلمة واحدة لا إيجاباً ولا سلباً . عندما ركبنا السيارة ، بدأ أوسكار يعدّنا واحداً واحداً ، واحداً مثل الذي يشعر بثقل المسؤولية على كاهله . واحد . اثنان . ثلاثة . أربعة . خمسة . . . كلكم هنا . قالها وهو يبتلع ريقه بصعوبة بسبب الرياح الرملية والحرارة .

- أحد أصدقائنا لم يأتِ .

قالها أحد الصيادين ، الذي كان طوال الرحلة غافياً .

- صديقكم رفض المجيء ، فضل البقاء مع الشيخ .

- لا يا سيدي! لا يمكن أن نذهب بدونه . هذا القَفْر مخيف و لا عدة له لمواجهة الموت الحتمي .

- حاولنا معه . وقتنا ضيق .

- سأقنعه .

قال أحد الصيادين .

- أمامك خمس دقائق .

نزل بسرعة . ولكنه بسرعة عاد لم تَبدُ عليه أية حيرة أبداً مثلما

كان مهتزا في الأول عندما سمع بخبر بقائه .

ـ لقد اختار طريقه . سنأخذه عند العودة .

ـ ليكن .

قال أوسكار وهو ينفض كرسيه من الرمال التي ملأت السيارة حتى من الداخل . اقترب منه سقراط . تمتم في أُذُنِه اليُسرى ببعض الكلمات الغامضة . اعتذر أوسكار منّا قليلاً ، بينما كان سقراط لا يزال يتحسس مسدسه الرشاش الذي لم يغادر ظهره أبداً . ابتعدا قليلاً عن السيارة ثم اندغما داخل قصر الشتاء . انتظرناهما ، لكن مكوثهما دام طويلاً .

قلتُ للسائق ، الذي لم تبد على وجهه أية دهشة خاصة .

ـ زمِّرْ لهما يرحم والديك . الوقت . ربما يكون قد وقع مكروه لأوسْكَار! ؟ .

ـ لا . لا شيء .

قالها السائق . أنا نفسي لم أكن أعلم لماذا ذكرت أوسكار فقط ، وخفت عليه من دون سقراط الذي لم يكن يهمني لا من بعيد ، ولا من قريب . لم أكن أصلاً أستلطفه . وقبل أن أنزل بأسئلتي على السائق ، جاء أوسكار يجري بسرعة . أمر السائق أن يقلع السيارة . ومع بداية حركة محرّك الطيوطا الرمادية ، سمعت طلقتين رصاصتين جافتين وشيئاً يشبه الصرخة الجافة أو العواء المكتوم .

بدأت السيارة تتزحلق بتثاقل . انزلق داخلها سقراط وهو يَضَع سلاحه الرشاش على ركبته . وقبل أن أستفسر عن صوت الرصاصات القادمة من داخل قصر الشتاء ، بدد أوسكار حيرتي بسرعة .

ـ هه!! الذئبة الهرمة كانت تغلق الباب على سقراط ، فقتلها .

تحسّرت في أعماقي على موتها ، فقد كانت حيواناً طيّباً ، لا يعتدي على أحد . ولكن! ليكن . .

ثم انكفأ الجميع على أوجههم وظلّوا يتأمّلون امتدادات الصحراء القاسية ، وقوافل العابرين والرجال الزرق الذين أسسوا أمادرور الزرقاء (حضرموت) وأصبحوا يبادلون الملح بالماء والأواني البلاستيكية . بينما ظلت صورة الصياد تملأ ذاكرتي وتقف على رأس قلبي المتعب ، وطلقات الرصاص والذئبة الهرمة الطيبة التي تتقاسم صيدها مع الشيخ الحكيم الذي كان يريد أن يروي الفاجعة ولم يَرْوِها .

الفاجعة التي كان الوحيد سيد تفاصيلها .

في الطريق ندمت لأني لم أفعل ما فعله الصياد و لكنني سرعان ما تعقلت . ماذا يساوي شيخ ، كائنا من كان ، أمام شهوة السلطان و حرق كتاب الخيبة و اللعنة ؟

ماذا يساوي ؟

* * *

- II -

ـ على اليمين يا سقراط . ثبت الخيط جيداً بجنب الصخرة . جيد .

ـ هكذا ؟!

ـ .Very good على اليمين قليلاً . جيد . إذا كانت الحسابات دقيقة فنحن في النقطة الصحيحة ، وإذا لم تكن سندققها من جديد .

مرةً أخرى بدأت الرياح الرملية الساخنة تهب ، من كل الجهات . العطش . دائماً العطش و خواء الروح . الجسد يجف بسرعة كالخرقة . في لحظة من اللحظات تساءلت عن دوري في هذا المكان . العلماء يبحثون ، يفتشون ، لكن أنا مالي ؟! تذكرت كلمات أوسكار فتراجعت . كثرة الأسئلة أحياناً تولد حالات اليأس والخيبة والقلق .

ـ يا لطيف ، هذه الحرارة الجافة مزعجة . وهذه الرمال تعمي العيون .

تمتم أوسكار وهو يحاول أن يفتح عينيه بصعوبة ويمسح الرمال الملتصقة بعرق وجهه . كان التعب بادياً عليه من كثرة الدوران في مكان واحد ، قبل أن يجد الزاوية التي كان يقصدها . كانت تقع بالضبط بجانب المصفاة ، أو ما تبقّى منها . كل الكتل الحديدية تآكلت وتصدأت

كثيراً قبل أن تتصدع في أماكن كثيرة وتتحول إلى تراب محروق . خمسون سنة مرّت عليها . قُصفت ، ودمِّرت عن آخرها حتى ضاع مكانها . فجرت قبل ذلك بكثير عندما نشفت ورمي إلى دهاليزها الرجل الذي يسمّى عبد الرحمن . في الحقيقة لم تعد للخطط و العلامات التي وضعها عبد الرحمن أو الذي دفن المخطوط الشرقي في عمق البحر ، فائدة كبيرة . فقد اندثر الكثيرُ من المعالم الأساسية التي يحيل إليها التخطيط الذي يتصدر الكتاب . لهذا ، فقد تعب أوسكار وأصدقاؤه من العلماء كثيراً ، حتى كادوا أن ييأسوا ويتركوا الأمر لولا صبرهم وحبهم لعلمهم . هؤلاء الأنتروبولوجيون لا يعرفون اليأس مطلقاً . يعيدون تركيب ما يبدو مستحيل التركيب والتجميع . لأوسكار قلب واسع ، أما سقراط ، فقد بدأ الكلل وحرارة الشمس والرياح الجنوبية ترهقه كثيراً . كان يحاول جاهداً أن يقاوم يأسه وانزعاجاته . لملم أوسكار بعض الخيوط ثم بدأ يبسطها من جديد ، ويقيس برجليه جيئة وذهاباً وهو يحفر حفراً صغيرة . يغرس قطعة حديدية ، ثم يقوم وينحني من جديد ويربط الكلّ بخيوط ملونة . ينزع السامبريرو الذي يغطّي شعره الشائب . ينبَطِح علي الأرض . يقوس عينه اليُمنى . يدقق الخطوط ليقوم من جديد . ثم فجأة وقف في نقطة وبدأ يتأمل المخطط ، والخيوط المتشابكة في الأرض وعيون الحاضرين البليدة التي كانت معلقة بحركاته وشفتيه . حكَّ على رأسه قليلاً .

- المفروض أننا لسنا بعيدين عن تدقيقات المخطط .

ثم طلب من أعضاء الفرقة أن يُسَلِّمُوهُ رفشاً ، ففعل أحدهم بسرعة ، وكأنه كان ينتظر مثل هذا الأمر . نزع أوسكار قَمِيصه الذي صار مُبَلَّلاً بالعرق ، وبدأ يغرس برجله اليمنى ، رأس الرفش ويحركه في أماكن متعددة حتى وصل إلى جسم صلب . نظف المكان جيداً على الرغم من العواصف الرملية ، فبرزتْ قطعة حديدية كبيرة في شكل غطاء قديم وكأنها فم دبابة . حاول أن يفتحها ، لكن الأمر استحال عليه . حزها بصعوبة كبيرة بجهاز التقطيع الناري الذي كان يحمله معه ، ثم

نزع القطع الحديدية الغليظة الواحدة تلو الأخرى . فجأة بدأت تظهر ثقوب مظلمة هنا وهناك . شرع في توسيعها ونزع الصدأ المحيط بجنباتها ، حتى صارت موحدة ، وصار الثقب واسعاً . أول شيء ملأ أنوفنا ، هو رائحة النفط المُرَكَّز ، الكريهة وصعبة التحمل ، مما اضطرنا إلى وضع مناديل على أفواهنا ثم رائحة تشبه الكبريت ، مختلطة ببخار أسود تسرب من بعض جوانب الحفرة . بالرغم من الغطاء الموضوع على أفواهنا ، فقد استقر في الحلق مثل السّم . الكثير منّا لم يستطع السيطرة على سعاله . رفع أوسكار جبهته ، اتجاهنا دون أن يتحرّك ، وهو ينتظر خروج كل الغازات والأبخرة الكريهة .

- يبدو أَنَّ الطريق أصبح الآن سالكاً . يفترض أن نجد الأدراج المعدنية .

- لا يبدو ذلك واضحاً .

قالها سقراط وهو يمسح لعابه الذي سدّ حلقه ، إثر سعلة لم يستطع تحملها .

- إذا كان المخطط صحيحا و دقيقا كما يبدو عليه حتى الآن ، فلسنا بعيدين عن الموضوع .

ثم انكفأ أوسكار برفشه على الثقب المظلم ، وظل ينظف حواشيه ، ويزيل الرمال المحيطة به ، حتى شعر من جديد بوجود جسم صلب . نظفه جيداً بدون صعوبات تذكر . كانت عينا سقراط ترقصان في كل مكان . ثقته لم تكن كبيرة بكل ما كان يحيط به . حذر حتى من النملة . عين علينا وعين على أوسكار والزناد . أدخل أوسكار رأسه في عمق الحفرة الجديدة ولم نسمع إلاّ صوت أصداء الكتل الحديدية وهي تصطدم بالرفش الذي كان يستعمله أوسكار لاختبار قطع الحديد المصدأة ، على المقاومة . ثم أخرج الرفش . رماه عند أرجلنا وحاول أن ينزل وهو يتأكد بأقدامه ويضرب على الدرج المعدني .

ـ أعتقد أنه لم يتأكسد كثيرا ، ما يزال مقاوما . ولكن يجب الحيطة والحذر .

حاول سقراط أن يكون هو أول من ينزل . لكن أوسكار ، رئيس فرقة الأنتروبولوجيين اقترح على الصيادين أن يكونوا هم أوّل من ينزل نظراً لخبرتهم في أعماق البحار . لم أشعر بألفة تجاه الاقتراح ولكنّي تصورت أن أوسكار كان يريد إشراك الجميع في المشروع . وبدأت عملية النزول . الصيادون ، سقراط ، أنا ، ثم أوسكار وبقية العلماء . خفت أن ننزلق وننتهي حتى قبل أن تتحقّق أمنية الانتظار المميت . يمكن أن تَنْهَدَّ الأدراج المعدنية بكل سهولة . مقاومتها ليست عالية . ومع ذلك ، ثقتي في أوسكار كانت كبيرة جداً . لا يمكنه أن يغامر بحياته داخل شيء لا يعرف تفاصيله جيداً . كانت عملية النزول والتدحرج داخل الأنفاق قد بدأت . لا نور داخل هذا الظلام سوى الفوانيس الصغيرة التي كانت تبعث إشعاعات محدودة من خوذات العلماء . شخص واحد بقي في الخارج ، هو السائق الذي كان مسلحاً بدوره . قال أوسكار وهو يحاول جاهداً أن يتبين الوجوه والنفق المظلم .

ـ بحسب المخطط ، يفترض أن يوجد ممر في وسط هذا الانحدار يقود إلى مربّع واسع . كان يرتاح داخله عمال المصفاة القديمة ، هذا إذا لم يكن قد انهار عن آخره بسبب التفجير والقصف .

ثم صمت .

ـ بانت حركتنا طويلة ومستحيلة . لم يكن يسمع إلاّ وقع الخطوات وهي تتكسر على الأدراج المعدنية داخل فراغ أسود كان يضخّمها ويزيد من عددها . الأنفاس تتقطع وتنتظر متى ينفلت أحدنا لينتهي داخل ظلام لا أحد يعرف عمقه أو متى تنتهي مقاومة هذه الأدراج لتتنصل من فوق ونسقط كلنا في القاع كتلة بدون حراك . رائحة المازوت والكبريت والأشياء الغامضة و الخوف . كانت خانقة . بدأت أشعر أن الخمسين سنة انتظاراً ستردم في هذا المكان . الصيّادون

بخبرتهم ، كانوا ينزلون برشاقة أكثر وباستماتة واضحة ، فهم متعوّدون على مثل هذه الحياة المستحيلة داخل المحيطات وخارجها في صيدهم للمرجان في الأعماق المظلمة . كنا نحاول أن نتتبع حركاتهم وخطواتهم ، ونقتفي ملامس أرجلهم وأيديهم من الحذر والعناء . فجأة قطع الصياد الأول صمت الانحدار نحو أنفاق جهنم .

ـ توقفوا قليلاً . إني أرى في الزاوية المقابلة فتحة كبيرة ، وفي نهايتها شيء يشبه النور ، أو الضوء! لا أدري إذا كان يأتي من الخارج أم هو نور قنديل زيتي .

ـ تأكد جيداً أرجوك .

قالها أوسكار وهو يحاول أن يدقق في الخطوط التي كانت بين يديه .

ـ متأكد يا سيدي .

ـ إذن جرّب أن تمدّ رجلك اليمنى نحوه .

وقبل أن تلتصق رجله بالجهة المقابلة ، كان سقراط قد رفع رجله عالياً ونزل ببوطه الخشن على وجه الصياد الذي كان تحته مباشرة ، فتدحرج هذا الأخير ، آخذاً في طريقه بقية الصيادين الذين لم نسمع صوت ارتطامات أجسادهم ، ولكن صرخاتهم المتوالية والمثقلة بالمشقة داخل هذا النفق ، ظلت تتردد مدّة طويلة ، قبل أن تنقطع بهدوء . لا يعقل . ما كان يحدث ، مفجع ؟! أقسم إني رأيت بعيني ضوء خوذة سقراط الذي عكس بوطه بوضوح وهو يضغط على وجه ورأس الصياد . انتابتني حالة من الرعب وكدت بدوري أن أطلق يدي من شدة الخوف و الهلع ، لولا أوسكار الذي قبض عليّ من ظهري بكل قوة . قلت له :

ـ سيدي هل رأيت المنظر ؟

ـ الموت وجد للرجال والشجعان . وهؤلاء من الرجال الشجعان .

لقد ضحوا من أجلك و من أجلنا جميعا .

ـ لكن! ؟

لا . ثم صمت و كأني لم أر شيئا .

يبدو أن أشعار نوح شوهتني من الداخل . كنت أريد أن أقول إن ما حدث كان جريمة . ولكنّي عدلت نهائيّاً عن فكرتي وبدأت أفكر في حياتي الخاصة وكيف أخرج قوياً من هذه التجربة الجديدة . كان سقراط قد مدّ رجله اليمنى باتجاه مدخل النفق وهو يتمتم بغمغمة غير واضحة .

ـ أوف هؤلاء الصيادون مشكلة . ماذا كان بإمكاني أن أفعل ؟ فقد مددت لهم رجلي ليقبضوا عليها ولكنهم مدّوا أيديهم في الفراغ . ما حدث كان يجب أن يحدث . نحن في مهمة ، والمهام الكبرى محفوفة دائماً بالمخاطر .

لأول مرة أسمع صوت سقراط وهو يتكلم وكأنه يهذي . لم تكن الحسرة بادية عليه . عندما مدّ يده نحوي ، رأيت عينيه وهما تبرقان مثل عيني قط . خفت أن يفتح كفّه ويتركني أنتهي في القاع مثل الصيادين .

ـ هه . . هيّا أنت نائم و إلا واش ؟!

ـ لا . لا . أنا أسمعك جيدا .

ثم سحبني باتجاهه بقوة ودفعت بجسمي باتّجاه الفتحة التي كان سقراط يقف عندها . وعندما وصلت سالماً ، تنفست الصُعداء ولم أشعر مطلقاً بروائح المازوت والروائح الكريهة . ثم وقفت بجانبه وبدأنا في مساعدة بقية أعضاء الفرقة . لا خيار لنا فيما كان يحدث أمام أعيننا . مصيرنا أن نموت داخل هذا القلق أو نخرج سالمين لنعيش أبداً . أجلت الأسئلة المعقدة لوقت لاحق . فأوسكار لا يريد الأسئلة المحرجة . صحيح أن ما حدث لم يكن هيّناً . لكن انتظاري أكبر من مثل هذا القلق . لا بد

أن يموت ناس ليحيا آخرون ، ولو أنَّ الذين يموتون دائماً هم نفسهم ، والذين يحكمون هم نفسهم كذلك . على الرغم من كل هذا ، فحالة الخوف التي اعترتني ، ظلت قائمة في حلقي بقوة . لم أستطع تجاوزها على الإطلاق . في لحظة من اللحظات شعرت بنفسي بين أيدي زمرة عسكرية لا قلب لها ولا ذاكرة ولا علاقة لها بالعلم مطلقاً . إذا مات أوسكار ، ستموت معه كل احتمالات السلطان ويحل محلها الوجع و الفناء الحتمي . سيعبثون بالحلم الذي يملؤني . انتظر معي خمسين سنة وأنقذني من الموت الحتمي العديد من المرات . ولا أخاله اليوم يتخلّى عنّي بسهولة حتى ولو انتهينا جميعاً داخل هذا النفق . صورة الصيادين لم تبرحني أبداً . خلتهم وهم يتمزقون إثر ارتطامهم بالحجارة المسننة والكتل الحديدية المنتصبة كالرماح ، أو وهم يغوصون في كتلة من الليونة والزيوت الثقيلة ويحاولون مقاومة هذا الموت الذي باغتهم رغم حذرهم الدائم وصمتهم الكبير . صديقهم كان محظوظاً . يملك حاسة ثعلب . فقد بقي مع الشيخ الحكيم في المدينة المقفرة ، وكأنه كان يعرف أن الموت ينتظره في زاوية ما من زوايا هذه المغارة المظلمة .

كُنَّا داخل مزبلة ، لا يخرج منها أحياء إلا بعض المحظوظين . بعد مشقة كبيرة ، وجدنا أنفسنا نقف عند مدخل النفق . أَوْقَدَ أوسكار بطاريته اليدوية إضافة إلى الأضواء الخافتة المنبعثة من خوذات الفرقة ، ثم بدأنا العبور داخل الممرّ الذي كان يشبه نفقاً طويلاً .

قال أوسكار وهو يتنفس بصعوبة :

- هذه الرائحة الكريهة لا تسهّل مهمة الحركة .

ونحن نتأمل النقطة المضيئة البعيدة ، تساءلت ، هل نصل إلى هناك ؟ عاودتني فجأة صورة سقراط وهو يضع رجله اليمنى على وجه الصياد . بل تماديت بعيداً ، وهو يفرغ رصاصاته القاتلة في جسد الذئْبة الهرمة ؟ لماذا قتلها ؟ ليستْ مؤذية مطلقاً ؟ وهل قتلها أم قتل شيئاً آخر ؟ مَنْ مِنَ الاثنين ؟ الصياد أم الشيخ ؟ كلاهما ؟! وهل لسقراط

قلب ، حتى يحاسب نفسه ؟ يا الله خلّينا من هذه الهواجس المقلقة . مهمّتي محصورة في حدود ما يراه أوسكار لا أكثر . رغم إصراري ، لم أستطع مقاومة الصور المتعاقبة التي هاجمتني دفعة واحدة . فجأة ، لكزني أوسكار .

ـ مالك يا نوح ؟ واش بك ؟ بابور الملح غرقَ ؟

ـ لا . لا . الوضع جديد علينا فقط .

ـ لا تهتم و لا تسأل كثيرا . السلطان صراع يا أميري و ليس هبة من الله . يجب أن تعرف كل هذا .

ـ لكن يا سيدي ، ما يحدث لا يُطَمْئِنُ كثيراً .

ـ أنت تعرف يا نوح أن وجودنا هنا هو من أجلك . نريد إيصالك أنت وسفينتك إلى برّ الأمان . خَلِّ هذا الحلم أثمن هدف بالنسبة لك و إلا ضاع كل شيء .

الغريب في هذا الرجل ، أنه كلما تكلّم أو تحدث ، سحب منّي كل إمكانية للمقاومة . هو رئيس الفرقة ويعرف تفاصيل كل واحد فيها . يدفعني دائماً إلى طرح السؤال المعقد الذي يحلّ المعضلة : ومن بعد ؟ وأنا مالي ؟ ما دخلي في الصراعات الفارغة التي لا تقدم ولا تؤخّر ؟ يَاكْلُوا أرواحهم إذا حَبُّوا . حلمي الأول والأخير أن أتجاوز نصف قرن من الانتظار .

ـ نصف قرن انتظار ، يجب أن يكلّل بالنجاح .

ـ معك حق يا سيدي ، لا شيء أكثر أذى من الانتظار .

ربّت على كتفي بيديه الطيبتين مع ابتسامة هاربة شعرت بها ترتسم في فراغات الظلمة القاسية بزيوتها الثقيلة و روائحها .

التحقنا بسرعة ببقية أعضاء الفرقة الذين كانوا يستعملون رفوشهم كلما انسدّت المعابر في أوجههم . الممر كان مصنُوعاً من الحجر

والبيطون . لكن في الكثير من الأحيان كانت تغلق فجواته بعض الكُتَل المتساقطة من فوق بسبب الانفجارات والقصف وثقل الأجسام الغامضة . قوة الضغط المتولدة عن القصف ، جعلت الكثير من المتكآت تفقد قدرات اتزانها . استبعدت نهائياً أن تكون الفرقة قد جاءت إلى هذا المكان للتخلص منّا جميعاً . ما الفائدة من ذلك ؟ بل استبعدت مرة أخرى أن يكون سقراط قد قصد إلى دحرجة الصيادين من فوق . لقد أصبح أوسكار ملازماً لي ، ويخاف عليّ بشكل دائم من الموت ويمدّ لي يده ، كلما انزلقت ، أو تعثرت في جسم ما . رغم الخمسين سنة انتظاراً ، طاقتي للمقاومة لم تمتْ . أعرف أن البلاد خسرت كل خيراتها و أني سأرث أحجاراً بدون غاز ولا كهرباء ، ولا آليات و سأحكم في أحسن الأحوال رماداً ، ولكن مع ذلك سأكون هنا في الوقت المناسب ، لأعلن سلطاني الكبير ، ولأعيد ترتيب أحجار التاريخ المبعثرة هنا وهناك و هذا كله يكفيني . هم يحتاجون إلى رجل يضمن مصالحهم ، رجل يقاوم الخراب والسقوط السهل ، وأنا ربّيتُ على هذا . يحتاجون إلى رجل ينفّذ و يعرف أصواتهم . وأنا موجود ههنا ، لا وظيفة لي سوى إتقان ذلك كله . موقع البلاد استراتيجي في ظل النظام الدولي الجديد . لا يزال بها الحديد و الخيرات الدفينة الأخرى كاليورانيوم والذهب وغيرهما .

عندما توغلنا أكثر ، رأينا البؤرة الضوئية المنبعثة من فوق ، والتي كانت تظهر ممراً ضيقاً واضح المعالم . قال أوسكار بعد أن توسط البقعة المضاءة بالأشعة المتسربة من فوق و القنديل الزيتي الذي كان لا يزال مشتعلا :

- قد يكون القنديل لمجموعة من العابرين ، يبدو أنهُم يعرفون جهات أخرى للدخول و إلا كيف سبقونا إلى هذا المكان ؟

كانت تحيط بالقنديل مجموعة من الأواني الرخامية . بعض الصحون والكؤوس وقناني من النبيذ الأحمر : Président, Mascara, Médéa, Sidi Brahim

وعلب Pellure d'oignon, والوردي Clairette والنبيذ الأبيض Cuvet du الكوكاكولا وكومة متفرقة من بياناتي ، بعضها قديم ، وبعضها جديد ، وبعضها الآخر مكرفس في شكل كرة ورقية مثل تلك التي كانت تقذف بها النوارس التي تنقر الماء . حاولت أن أفتح إحداها ، التي كانت ملتصقة بها مادة سوداء و جافة جعلتني أرميها بمجرد فتحها بسبب الرائحة الكريهة ، المنبعثة منها .

- تفو أبناء الكلب . أقسى درجات الإهانة . صاروا يمسحون خراءهم ببياناتي . سيعود الزمن الميت ، وسأجلسهم على خوازيق ملتهبة ليعرفوا فظاعة ما قاموا به . أبناء الكلب ، ابن الكلب .

غاظني كثيراً ، الوضع الذي وصلت إليه الثقافة ورجال البلاد . فقد تضاءلت المسافة الفاصلة بيني وبين الكاتب . وزاد إصراري للمقاومة . ما الذي يمنعني من أن أكون كاتباً مرموقاً في هذه البلاد ، ومعروفاً . مخطوطاتي عبرت المسافات المستحيلة . ما الفرق ؟ سوى الانكفاء على طاولة وإخراج مدافن الطفولة ؟ وهذا ما أفعله يومياً بصرامة أكثر لأني أمام مصير أمة وليس أمام مصير فردي .

أولاد الحرام . إنهم يناصبونني العداء . بياناتي ينظفون بها أطيازهم ، بينما بيانات المخطوط الشرقي كانت موجودة ولم تمس أبداً . بل خَطُّها المغربي ظل يستفزّني لدرجة أنّي فكرت في الانزواء والمسح بها ، لكن المحيط لم يكن مناسباً مطلقاً . كانت الحروف ، تركب فوق بعضها البعض مثل الحَشَرات الدقيقة ، حاولت أن أقرأها . كانت الوثيقة جديدة ولست أدري حتى الآن من الذي جاء بها إلى هذا المكان . ربما كانت منتحلة لكن خطّها كان مشابهاً لخطوط المخطوط الشرقي . حتى تراكيبها ، كانت هي نفسها تقريباً . يا سيدنا نوح . أيها الواحد الأوحد . الرجل الكبير ، الأمجد . فيك سحر القادمين وسماحة الراحلين . أيها الواحد الأوحد . القيّم الأجود . العالي في موته ، والمضيء في حياته ، المتواضع في قيامه . الشامخ في نزوله وقعوده .

القائم في انتفائه ، الآفل في خلوده . يا نوح النوّاح . يا سيد الألم والجراح . عمرك في كفك . وقيامتك تحت قدميك . القائل الذي يصمت ، والصامت الذي يقول . قلبك مغبون وعهدك قائم وموجك عائم وكلامك صارم . لغتك أنت وأنت لغتك . حرفك نورك ونورك عينك . لقد صرتَ دماً في العروق ، وكلماتك بهجة للمنسيين على أطراف الحزن والكآبة ، جرحك دم ودمك لغة .

هل تملك بعض الشعر لمواجهة خراب الدنيا ، يا نوح ؟

هل تملك بعض الخراب لمواجهة كتابك الشرقي ؟

هل تملك شرقك الحزين لتواجه غرب الآخرين ؟

إنك الآن وحيد في وحدتك ، وغريب في غربتك ، تصنع فراغك لتصير أوحد . تريد أن تكون مع نفسك لكنك تزداد اتحاداً بوحدتك .

أية فاجعة تنشأ الآن بين العظم واللحم ؟

أية لغة تَنْبُتُ داخل الدم ؟

أي شوق يأتي مع القصيدة ؟

أية موجة يرميها البحر ثم يبحث عن أَشْلاَءٍ ليضمّها إلى زرقته بحزن وكآبة .

أية امرأة تستطيع لمس نزفك وتقول لك هذا جرحي ؟

أي شوق يأتي الآن داخل هذه الريح الساخنة ، وهذه الهزيمة ؟

أي خاتمة تُصْنَع لهذه الغواية ؟ . . .

وحق دين محمّد هي كلماته . أعرفها ، بحروفها المعقوفة وغموضها . عبد الرحمن المجنون . المسكون بالكلمات المبهمة والكتابة الصوفية . لكن من الذي روّج ويروج له داخل هذا القلق وهذا الخوف المظلم ؟

قال أوسكار وهو يحاول أن يقرأ في عيني تفاصيل انهماكاتي .

- هاه يا نوح! ماذا يخرّفون ؟

- يخرفون كلاماً يا سيدي ، كلاماً لا أعلم إذا كان لعبد الرحمن أم لنوح ؟

- هذا الشعر هو الذي أوصلهما للتهلكة . لولا الشعر لما انتهى نوح و لا عبد الرحمن . السلطان براغماتية دائمة التجدد و النفاد .

- هذا المجنون يا سيدي يقرأ ما في الصدور .

- أحذر غوايات الكلمات ، إنها صعبة المقاومة .

بين أيدينا كتابٌ مخرّم ، مرت عليه عصور داخل أعماق البحر . ما فائدته إذا كان أصحاب الحيلة والسفلة ، وسراق السلطان قد سبقونا إليه ؟ هذه الوثيقة مأخوذة منه . أقسم إنها صورة من هذا المصنف . كثرة النسخ المتراكمة هنا وهناك تدل بأن هذا النص لم يوزّع حتى الآن ويَنْتَظر يداً تأخذه وترميه على السواحل المنسية ، لعله يأتي عابر ، سيعرف أن وراء صمت البحار علامةً ، قد تحدث ذات عصر أو ذات غفوة . أتمنّى ألاّ تكون هلوساتي مؤسسة وصحيحة . من أين صُوّرت هذه النسخ إذا لم تكن من أصل آخر ، يوجد بين أيدٍ ستبتزّني في حقّي في التفرّد ؟ أو ربّما صُوِّرَتْ من الأصل المرمّز الموجود بين أيدينا ، ثم أعادت رميه بعد ما أحكمت إغلاقه ؟ ثم ما معنى هذه المصادفات التي تواجهنا كلما عبرنا الأسرار المحيطة بالمكان ؟ في الأمر شيءٌ من السحر والوهم .

كان أوسكار منهمكاً في حساباته وتدقيقاته ، وبقلم الرصاص الذي كان ينتقل بين أصابعه الرقيقة وأذنه التي يضع عليها دائماً أقلامه لتكون قريبة من مخّه ومن يده .

- عبد الرحمن ، رُدِم منذ خمسين سنة هنا . علينا أن نجد علامةً تدلنا عليه .

ثم فتح التخطيطات من جديد . تأمّلها بعمق ، وهو يسطر أو يمحو كل المحطات التي قطعناها ويحاول أن يحدّد ما تبقى من أسرار المسافات . قام بعمليات حسابية ، بعضها بشكل ذهني ، وبعضها الآخر على الورق ، ثم بدأ يقيس خطواته ويدققها . ثم يعاود . أخرج من جيبه قياساً مترياً . مدّه على التربة . ثم سحب من الحقيبة التي كانت على ظهر سقراط خازوقاً خشبياً . دقّهُ حتى غاب إلى منتصفه في عمق الأرض . ثم قاس من جديد مسافات أخرى ، وفي كل مرة يضع خازوقاً في نقطة الوقف . ثم لاقاها بمجموعة من الخيطان الملونة . وضع في نقطة التقائها خازوقاً خشبياً آخر ، ثم نزع كل الخوازيق الأخرى ولم يترك إلاّ الأخير ، الذي تشابكت فيه كل الخيوط والمسافات ، ثم طلب من أحد العلماء أن يحفر في النقطة ذاتها التي حددها بالخازوق . كانت التربة في البداية قاسية ، لكنها سرعان ما أصبحت لزجة ورائحتها الكبريتية كريهة ، لا تتحمّل إلا بصعوبة . أمرنا سقراط بوضع كمامات أو مناديل على أفواهنا وأنوفنا .

ـ ضروري جداً . أرجوكم . بعض هذه الروائح مسموم وقد يؤدّي إلى الموت على الأمد القصير .

في لحظة واحدة صرنا مثل الذين يشرحون جثة مرت على تحللها أيام متتالية . وفي المرة الأخيرة ، عندما غرز رأس الرفش ، شعر بالمقاومة الواضحة . التَفتَ نحو أوسكار وهو يمسح عرق وجهه .

ـ يبدو أن هناك جسماً صلباً ينام تحت الأتربة .

ـ المفروض أن يكون باباً خشبياً بحسب علامات المخطوط الذي بين يدي .

عندما انتهى من تنظيفها من الكتل اللزجة ، كانت القطعة الخشبية قد بدأت تظهر بوضوح كبير . ثم انضمّ الجميع إلى مجهود الحافر ، وبدأنا نرفع الكتلة الخشبية جماعياً . كانت مقاومتها واضحة وثقلها بيّن أنه لم يكن من السهل رفعها . كانت الروائح الكريهة تخترق الخرق

الموضوعة على الأفواه والأنوف . لم يكن لدينا متسع من الوقت للبحث عن مصدرها ، ومصدر هذه اللزوجة . اتضحت من جديد الأدراج الخشبية التي تنحدر نحو الأعماق . بعد لحظات ، كان أوسكار ينزل ونحن نتبعه واحداً ، واحداً ، بدون حذر حتى وجدنا أنفسنا داخل بهو كبير . كان يبدو فارغاً ، ولكن عندما أشعل أوسكار البطارية ، واجهتنا رفوف مكتبة كبيرة ، وضع عليها غلاف أخضر من كتّان "الباشْ" . نزعناه من كل الجهات . كان مغبراً ، وفجأة برزت كتبٌ و وثائق ومصنّفات كبيرة . وفي الوسط ، يتربع مكتب من الخشب الأحمر القديم وضعت عليه مجموعة من المؤلّفات والمخطوطات ، القديم منها والحديث . قلبناها ، ثم حاولت أن أقرأ عناوينها . كانت مرتبة بالشكل التالي الذي يوحي بأن إنساناً ما كان منكباً على مطالعتها :

- المقدّمة لعبد الرحمن بن خلدون .
- طبائع الاستبداد لعبد الرحمن الكواكبي .
- رباعيات المجدوب لعبد الرحمن المجدوب .
- أمجاد الداخل لعبد الرحمن الداخل .
- مدن الملح لعبد الرحمن منيف .
- Demain reste toujours à faire. عبد الرحمن شرقْو .
- السيف المكسور لعبد الرحمن الجيلي .

مصنفات ، وأشعار رجال عديدين ، ولكن عبد الرحمن واحد . كلهم تحكمهم ، صفة الانتفاضة ضد الملك والتخييم بعيداً عن السلطان . هي كتب للذمّ والشتيمة والقذف والقدح . عبد الرحمن اختزلها حتى صارت كلاً واحداً منه تأتي وإليه تعود . كنّسنا المكان جيداً . أصبح الآن بإمكاننا أن نستريح قليلاً بعد كل هذه المجهودات المضنية .

- عبد الرحمن كان مدلعا مثل الأمير . من أتاه بكل هذه المصنفات ؟

ـ الأساسي غير موجود . كتاب المدينة . فيه أسرار تنفعك في المستقبل حتى كتاب الأمّة الذي دونه مؤرخو السلطان شهريار بن المقتدر ذهب مع الريح .

ـ عبقرية هذا الرجل أنه استوعب ثقافة كل العصاة . من هو هذا الرجل الفادح ؟

بدأت كل الأشياء المحيطة بنا ، تتخذ وضعها الطبيعي . بدا واضحاً أن اللزوجة كانت مرتبطة حتماً برجل أو بإنسان أو بِعَابر فتح المكان ، ثم أعاد غلقه من جديد قبل أيّام أو ساعات قليلة . كل هذه الحالات لم تكن مهمة و ضرورية لتحرّك حاسة العلماء الأنتروبولوجيين ، فقد انهمكوا في تفحّص الأشياء الصغيرة الموجودة داخل المكتبة ، والكسورات الموجودة على حيطان البهو والأحجار المحترقة التي كانوا يعثرون عليها من حين لآخر .

عينا سقراط لم تستقرا على مكان واحد . تزغدان باستمرار في كل الاتجاهات مثل اللعب الزجاجية . لم يغفل عن أية حركة من المشهد الكلي للمكان و لا عن إبقاء الإصبع على الزناد . أما أوسكار ، فقد ظل منهمكاً كعادته في تفاصيل الخريطة التي كانت بين يديه ولم تغادره مطلقاً . لم ينطق بأية كلمة .

ولم ينتبه بل لم يأبه مطلقاً بالمحيط المنغمس في التفاصيل الصغيرة و الدقيقة .

* * *

- III -

لم تكن الحركة منتظرة ، ولهذا كان الخوف كبيراً .

سمعنا خشخشة . في البداية ظننا أنّ مصدرها حيوان ضائع داخل هذه الدهاليز ، ولكن من أين يدخل هذا الحيوان وسط هذه المتاهات والأنفاق ؟ قلنا يمكن أن يكونوا سَراقاً ، أو بعض العابرين القاطعين لمسافات الصفرة والرمال . انزوينا في مكان مظلم وأطفأنا كل البطاريات و أضواء القبعات . شعرت بثقل جثة سقراط وهي تغطيني عن آخري . صحيح أن قامتي ناتئة ولكنه هو كذلك ضخم فوق اللزوم . سمعت صوت رشاشه وهو يتهيّأ لقذف حممه لمواجهة أي طارئ . البقية كذلك تأهبوا ، واتضح لي فيما بعد أن كل واحد فيهم كان يملك مسدساً بمن فيهم أوسكار . شعرت بالأمان . فقد غطوني بأجسادهم وأصبحت تحت رحمتهم مثل الطفل الصغير . إن شاء الله ، إذا سارت الدنيا مثلما أشتهي ، سأضعهم من حماتي الخاصين . لهم القدرة الخارقة على التضحية بحيواتهم من أجلي ، وهذا أمر استثنائي في هذا العصر الذي نعيشه . لو فقط يُقلّل سقراط من تهوَره ويفتح قليلاً عينيه الفوسفوريتين لترىا الدنيا وتُشيعا بعض الثقة في الواقف أمامهما . كانت عيون الجميع مرتشقة باتجاه الأدراج الخشبية والثقب الذي نزلنا منه . لكن الذي

حدث هو شيء آخر . حتى المكان الذي تصورناه مصدراً للخطر لم يكن كذلك . من بين الكتب ، فتح باب صغير كنّا نظنه جزءاً من المكتبة ، خرج منه رجل طويل البنية ، تتدلّى من وجهه لحية بيضاء وقور . في جسده بعض الرشاقة . يضع على ظهره برنوساً أبيض مثل البرانيس التي اشتهر بها علماء القلعة . يحمل في يده اليمنى فانوساً زيتياً . وضعه على المكتب بعد أن نظفه من جديد ، حتى أنه لم ينتبه مطلقاً أننا قمنا بتنظيفه . أخرج من بين الرفوف مجلداً كبيراً ، يبدو قدمه من الورق ورائحته التي طغت على القاعة . كان قديماً جداً ، وضخماً . حتى أننا شعرنا بثقله وهو يضعه بكثير من التعب على المكتب . كنّا في زاوية مظلمة نَتأمَّل المشهد ولم نكن نعلم أنه بإمكانه أن يرانا من المكان الذي كان يقف فيه . وضع نظارتيه على عينيه ثم رفع رأسه وبدأ يتأمل كل المخارج السطحية ويسترق السّمع ويحاول أن يفهم سرّ النظافة التي نزلت على القاعة فجأة . كنت أحاول أن أرى ذلك كله من بين أرجل الأنتروبولوجيين الذين تكدسوا أمام وجهي . ولكن لم تكن تبدو عليه أية غرابة أبداً أو دهشة . نَزْعُ الباش . نَظَافَةُ القاعة . انْفِتَاحُ المدخل والأدراج و كنْسُ الأرضية ، كأنه كان ينتظر حدوث شيء آخر . الرجل أمام أعيننا ، كان يبدو عادياً جداً . كل الصفات والحركات تُؤَهِّل هذا الشيخ لأن يكون عالماً كبيراً أو باحثاً منعزلاً ، وليس سارقاً . وضع رأسه بين يديه بعد أن جلس على الكرسي البسيط الملتصق بالمكتب ، ثم صوب نظره باتجاهنا وتمتم بهدوء واضح .

- هيا تفضَّلوا . لماذا تختبئون! ؟ أنتم علماء أنتربولوجيون ، ولستم قطاع طرق ؟ مرحبا بكم . سقراط ، لا داعي لأن تشهر سلاحك و لا أصدقاءك ، أنتم في مكان لا يقتل فيه الناس و لكنهم يحيون فيه و به .

كان كلامه كالصاعقة التي نزلت على صدورنا . ردّ فعل لم نكن نتوقعه مطلقاً . بدأنا ننظر إلى بعضنا البعض . شعرت بالحيرة تتسلّق عيونهم واحداً واحداً . كانوا يظنّون أنهم بصدد سراق ، وهاهم يقفون أمام رَجُلٍ حكيمٍ . يبدو أنهم يعرفون عنه أقلّ مما يعرف عنهم . كلامه

وطقوسه وقعدته أشاعت بيننا حالة من الطمأنينة والعاطفة تجاه هذا الرجل . تململوا في البداية في أماكنهم بنوع من الإحراج وبعدها خرج الجميع ، الواحد تلو الآخر ، وهم يحاولون أن يصطنعوا شجاعة استثنائية أمام وضع لم يكن يدعو إلى شجاعة كبيرة . امتلك أوسكار كل جرأته وحاول أن يبادر ويكون عادياً وأن يخرج من حالة الانكفاء والانزواء والانتظار .

- ما الذي جاء بك إلى هذه الأنفاق أيها الشيخ الطيب ؟

- أتصور أنّي أنا الذي أسأل وليس أنتم . تريدون فك رموز كتاب عبد الرحمن ؟!

- هذا سبيلنا ، إن أمكن .

- وهل كان من الضروري قتل الشيخ الحكيم في الطريق والصياد الذي بقي معه . لقد محوتم ذاكرة بكاملها . آخر سلالات العلماء الذين أبيدت قلعتهم بالدبابات والطائرات الحربية والنّابَالْمْ وكل وسائل الدمار الإشعاعية . كان من الذين شهدوا قيامات الخراب . لقد قتلتم سحر المدينة وشوقها بشكل عبثي ، لن تجنوا الكثير من وراءِ ذلك . وربّما كان كلامه قد أغناكم نهائيّاً عنّي .

- كنّا مجبرين .

قالها سقراط بشكل جاف ، لم يعره الشيخ أيّة قيمة أبداً .

- سأسمعكم ، ما يفرحكم و ما يقرحكم . سأقرأ عليكم رموز الكتاب ، وأفكّها لكم . أنا سعيد ، لأنه بعد نصف قرن يأتي من يريد أن يعرف الحقيقة ، حتى ولو كان ذلك على الكثير من عظام المعطوبين و الأتقياء .

كان الباحثون مندهشين من كلام هذا الرجل ومن صرامته و طيبته . أنا نفسي لم أكن مرتاحاً . لقد حدثني قلبي أن الرصاصتين

استقرتا في دماغي الشيخ والصيّاد ، ولم تكونا موجهتين للذئبة الهرمة مطلقاً . جاؤوا يبحثون عن علامات صوفية لتفسير رموز نص غامضة ، عن عظام رجل أبيد منذ زمن بعيد ، داخل أنفاق المصفاة القديمة ، وهاهم الآن ، يواجهون رجلاً يمشي على قدمين ممتلئاً باللحم والدم . لم يتحوّل بعد إلى رفات . حيرتي لم تكن أقل من حيرة العلماء . الذئبة لم تغلق الطريق على أحد . لكن لماذا فعل سقراط ذلك ، ولماذا خبّأ عليه أوسكار ، وهل كان يعرف الحقيقة كما نطق بها هذا الشيخ الذي يبدو أنَّهُ يلمس الصغيرة والكبيرة ، بعينيه الثاقبتين ؟ ربما لأن أوسكار كان يعرف سلفاً أن شيخ قصر الشتاء ، والصياد ، كانا يهددان ملكي وسلطاني الضائع ؟! وفي هذه الحالة ، لا يهمّ ، في ستين داهية كل الأرواح التي تريد إيقاف التاريخ الزاحف نحو نهايات المطاف . أوسكار ، أنا أقولُهَا دائماً ، ليس رجلاً عادياً . كلامه يسقط على القلب مثل النار الباردة .

- أيها الشيخ ، لم نعرفك جيداً ؟ هل أنت عبد الرحمن الذي حكت عنه كُتبُ الأوّلين ؟

- هل تفترض علومكم أن يبقى الإنسان حيّاً طوال هذا الزمن ؟

- يعني في الحالات الاستثنائية ، يمكن .

- يا الله . أعطُوني مخطوطكم الذي جئتم من أجله لنلمس طلاسمه ورموزه .

جرى أوسكار تجاه الشيخ وهو يكرر كلامه الأوّل .

- حتى الآن لم نعرف من تكون ؟

ثم فتح المخطوط ، وبدأ يقارن علاماته بعلامات النص الكبير الذي كان بين يديه على مكتبه . هزّ رأسه قليلاً . وقبل أن يبدأ القراءة ، سمعنا صوتاً ينزل من على الأدراج . بعد لحظات اتضح أنه أحد الصيادين الذين سقطوا في عمق البئر (أو أُسقطوا ؟) . كان متسخاً عن

آخره . دخل مباشرة من وراء الشيخ ثم خرج بسرعة بعد أن لبس لباساً نظيفاً كأنّه كان يعرف المكان جيّداً . حيّا الشيخ ، ثم جلس وراءه وهو يتحدث بلغة اعتذارية . طمأنتني في عمقي .

ـ عذراً! لقد انزلقنا . استطعت أن التصق بجدار البئر ، البقية خنقتهم اللزوجة ، والروائح الكريهة .

لم يردّ الشيخ بأية كلمة . ولكنه ظلّ منهمكاً بفتح المخطوط الكبير : "المخطوط الشرقي" ، كلمتان دمغتا على غلافه بشكل بارز و مذهّب وبخط أندلسي مغربي قديم . كان الكتاب ضخماً بشكل غير اعتيادي . ثم قال بصوته الهادئ بعدما قابل المخطوطين .

ـ هل نبدأ بفك الرموز المستحيلة .

ـ لنبدأ .

قالها أوسكار بدون تردّد مع شعور خفي بالانتصار على حالة الخوف الباطني و دهشة المفاجأة .

ـ يقول العبد الفقير إلى الله تعالى ، الغني بلطفه ، عبد الرحمن بن محمّد . . . . الحمد الله الذي له العزة والجبروت وبيده الملك والملكوت . له الأسماء الحسنى والنعوت . العالم ، فلا يغرب عنه ما تظهره النجوى أو يخفيه السكوت . القادر فلا يعجزه شيء في السماوات والأرض ولا يفوت . . . والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمّد النبي العربي ، المكتوب في التوراة والإنجيل المنعوت . الذي تمخّض لفصاله الكون ، قبل أن تتعاقب الآحاد والسبوت ويتباين زُحل واليهموت . أما بعد :

أعلم أن البلاد كانت في ذلك الزمن البعيد ، تحتفل بموتها وتعيد إلى الدنيا كل تقاليد البداوة المنقرضة . السبب في ذلك أن البداوة لم تذهب عنهم يوماً لأنهم أبعد مجالاً في الفقر وأغنى عن حاجات التلول لاعتيادهم الشظف وخشونة العيش ، فاستغنوا عن غيرهم ، فصعب

انقياد بعضهم لبعض لإيلافهم ذلك وللتوحش الضارب فيهم .

عندما غضب البحر ، وأكل موجه ، في ذلك الدهر الذي فقد لونه ولحمه وماءه ، كانت دنيا أخرى تصنع في الخفاء . منذ اندثار الموريسكِي في كهفه الذي عاد إليه عندما أظلمت الدنيا في عينيه ، كانت ماريوشا ، مريُوما الحنّونة ، تفاحة المهابيل وسرّ سيرتهم وذاكرة العشاق الخالدين ، تصرخ بأعلى صوتها عندما اشتعلت النيران الجديدة في قلب الناس .

يا ناس!!! الليلة السابعة بعد الألف لم تنقرض . إنها تعود بخطا حثيثة . بفواجع أكثر من الأولى . بدأنا ندخل زمناً انقرض منذ سبعة قرون لنعيش خارج الزمن البشري و ندخل دائرة الفوضى . يصير فيها القاتل بطلا و الشهيد خائنا . يا ناس . . .

الليلة السابعة بعد الألف سَتَأْخُذُ في طريقها الأخضر واليابس ، والأصفر والرمادي ، والأبيض والأسود . البوقالات ستمتلىء بالرماد والنيران من جديد . الخطأ كان فادحاً عندما خرجنا من قصر الحكم وتركنا نوح يتمرّغ في متاهاته الشعرية وأخطائه . لكن ، هل كان بالإمكان إنقاذ الأمّة من فاجعة جديدة . في تلك الليلة ، أشهد أني حينما أخبرته بالانقلاب العسكري ، بدا لي مقتنعاً بقولي ، ولكنه في أعماقه ظل يرفض ويقاوم خطأه وكبرياءهُ . الشاعر نادر في أشواقه . فهو يموت واقفاً مثل النخلة . كان وقتها الملياني يستولي على الجيش ويضع له قيادات جديدة ، بإغراءات خيالية ليصبح مثل العجينة بين يديه و يقتل كل مخالفيه . بعد أن اغتصبوا قداسة مريومة (ماريوشا) . بكت في ذلك المساء كثيراً . ضربت رأسها على حائط القلعة القديم حتى انْفَجَر أنفها دماً وقالت لي لا تقربني أرجوك . واعتزلتها مدة من الزمن ، لا أفعل شيئا سوى تنويمها على ركبتي وفلي شعرها وملامسة قلبها . خطئي الكبير أني غادرت المكان تحت تأثير حماقات نوح الذي قطع نهائياً مع غباء شهريار ليدخل في سذاجات أخرى أوْصَلَتْهُ إلى

سموم الملياني الذي أدخل البلاد والعباد في دوّامة الموت والنفق المظلم الذي لا ينتهي . لم يكن في ذلك الزمن البعيد ، الوقت الكافي لدى العلماء للتفكير والتمحيص . تأملوا كل الوريقات التي ظلت مفصولة عن كتاب المدينة ومخطوط الشرق الحزين طوال أزمنة الاضمحلال والملل والخوف ، عندما فقدت كل ناسها الطيبين ، فطالبوا بتدوينها بأسرع ما يمكن قبل أن يدفن أتقياء المدينة أحياء ويلحقوا بالموريسكي وسيدي عبد الرحمن المجدوب والرجال القادمين من أغوار عصر الأنوار .

ماريوشا ، لم يعرفوا عنها شيئاً مهماً منذ اضمحلال البشير الموريسكي . يقال (والحقيقة أنها كذلك) أنها غادرت بيتها نهائياً ، وتركت الحلاقي والحارات الشعبية بشوق مجروح في الحلق وقطعت علاقتها بأسوارِ المدينة وطبولها وأفراحها . كانت مملوءةً بالدبابات ، والحافلات المحروقة ، والرافعات الصدئة . وانضمت سرياً إلى علماء القلعة وظلت هناك . كانت ، عيناً على الكتاب والقلم والدواة ، والعين الأخرى على قلبها الذي لا يتوقف . حتى عندما تركناها عند بوابة الكهف ، تسترق السمع إلى نحيب البشير الموريسكي وهو يتفتت ، تنتظر المعجزة ، وتتأمل عيني الكلب قطمير (على رواية حسن البصري) لعلّه يوحي لها ببعض الفرح ، لتجاوز المكابدة ، كنا نتقصد تعليمها سحر ما لا تدركه العين . كنت خائفاً عليها من التفتت والموت الفجائعي . أراها وتراني بذاكرتها التي لا تموت . لقد ورثت أصداء كل الحارات التي وطئها الموريسكي ، ووطئها سيدي عبد الرحمن المجدوب . ولهذا سمح العلماء لنا باللقاء استثنائياً . كانوا خائفين عليّ وعليها ، لأننا بدأنا بعد مدة من الزمن نفكر في مغادرة القلعة والتحول إلى ناس عاديين . يتزوجون ويحبون وينجبون أبناء وبنينَ ويصير لنا الحق ، كل الحق ، في العشق والحياة . أوف . . .

تلك الحكايات لها أشواقها وذاكرتها . سيأتي زمنها وستُروى و يكشف سرها المكنون .

عندما بدأنا نقذف خارج الزمن الحيّ ، نزلنا إلى البحر لتدبير الأمر قبل فوات الأوان مع العمال والرجال الصالحين . نوح كان قد صار وحيداً ، وصرنا بعيدين عنه .

حاولنا أن نضرب ضربة اليائس . تخبطنا قليلاً في الفراغات والموت الذي صار حالة مجاهدة ، ثم نزلنا إلى العمّال . لم نعرفهم ولم يعرفونا ، كانوا في النزع الأخير . فقد عزلهم الملياني في أماكن مختلفة بحجّة حراسة البلاد من الأعداء القوميين ليقوموا بالإشراف على مليشيات خاصّة ، وهناك تتمّ تصفية أَغْلَبِهم من الذين يرفضون طغيان الملياني ، وعوض في النهاية ، أغلب العمّال ، بعمال آخرين لم يرثوا من العمّال سوى ألبستهم الزرقاء بينما معظمهم كان يشتغل في الجهاز الأمني الذي يشرف عليه الملياني مباشرة ، والباقون المنفلتون من قبضة الموت ، تنكّروا أو التحقوا بالقلعة أو هاجروا وساحوا في بقية مدن الجمهورية الفتية . العمّال الذين فرضهم الملياني هم من كان يطوّق الأحياء الفقيرة ويخطط لعمليات القَتْل الجماعي لكل المُعارضين الشباب الذين امتلأت قلوبهم بشعلة نوح : علامة العصر المقتول وحنين المهاجر الذي نُزع وطنه من قلبه بسكّينة حادة . لم يرحموا أحداً ، كباراً وصغاراً . صدمة اليأس كانت مرهقة وقوية وفجائية . الناس الذين كانوا دائماً يكررون في لحظات الهزيمة ، أوف . . . الحمد لله . . ما زال باقياً . العمّال والعلماء لم يقولوا كلمتهم الأخيرة بعد . أنقذوا المدينة من أنياب القتلة وسينقذونها من القرون الوسطى . هُمْ عشاقها الكبار . هم صوفيتها الذين يخبّئونها كالجوهرة في عمق الأعماق . لكن حسابات الملياني كانت أدق وكان أكثر فهماً لآليات عصره ، على الأقل في الزمن المحدود الذي كان يعيشه . فقد حوّط المدينة بالقتلة والسماسرة والعساكر التابعين له . بدأ يخطط نهائياً للحصول على تفاصيل المخطوط الشرقي وكتاب المدينة وبوقالات الرماد في الوقت نفسه . كان العمّال يموتون تباعاً ، العلماء يتابعون ، والشباب ينقرضون دفاعاً عن الجمهورية الفتية . الملياني لم يعد بينه وبين المدينة والسكان بعد خراب

البيعة أي قناع . كل شيء صار يمارس علانيةً وبدون تردد . عاد إلى تقاليد شهريار بن المقتدر بشكل أكثر شراسة و إقبالا على الجريمة . هو من أشرف شخصيا على القوات البرية المدعَمة بالطائرات الحربية من نوع الميراج ، والفونطوم ، والميغ ، ويقال حتى الفرتيف (والله أعلم) إضافة إلى طائرات السوير إطَانْدار ، وهيليكوبتر الأباش ، التي كانت تستهدف محو القلعة نهائيا . في ذلك الصباح ، فتح التليفزيون مبكراً . كان الملياني يصرخ بأعلى صوته من خلال بيانات عسكرية متوالية . الجو العام وَحْدَه كان يدل على أنّ البلاد كانت مقدمةً على حرب وسخة ، تبدو في مظهرها مقدّسةً :

أيها الشعب الكبير . إنّ الضلالة لا تصيب إلاّ الطغاة البغاة وما على المؤمن الشريف إلاّ الردّ بصرامة . بلادنا تتعرض الآن لعدوان برّي ، بحري ، جوّي على حدودها وهي تدافع على كلّ الجبهات باستماتة . أخطرها ، الجبهة الداخلية المعادية . لقد باع العلماء ضمائرهم للطغيان . سنقاومهم بكل السبل والوسائل بمساعدة المجتمع المدني و طليعته من العمال . . .

كان الناس وقتها يضعون أيديهم على قلوبهم وقلوبهم في أيديهم لعلّ الله يفك هذه الكربة التي لم ينتظرها أحد . كيف يصبح العلماء أعداء ، والأعداء علماء ؟! لأول مرة يعلن الملياني عداءه رسمياً بعد أن كان مكتفياً بالمداهمات المغزولة والاختطافات . لم يكن أمام كبير العلماء سوى أن يبكي ويمزّق الخطاطات والحروف والوثائق السرية وبعض المراسلات الموجهة لنوح بما فيها الرسالة الأخيرة التي تستجديه ليلتجئَ إلى القلعة قبل أن يفاجئه الملياني الذي كان مصراً على الاستيلاء على كل شيء بالحديد والنار ، وهو يتمتم ويبكي بأعلى صوته :

يا الله!!! أنت كبير ولكننا أصبحنا صغاراً كثيراً ولم نعد نراك بالشكل الكافي . لم نعد نفهمك مطلقاً . من كان يقول إن النار تنجب رماداً ومن الرماد لا يخرج سوى العمى والموت ؟! من كان يقول إن

المليّاني الذي كان من رجالات الموت التي اندفعت نحو القصر المحروق ، سيدمّر العمال والقلعة ورجال البلاد ؟ هذا تاريخنا يا أبناء أمّي وأبي! لا يعقل أن نقتل الذاكرة ولا يمكن أن نقبل بانهياراتها بسهولة وبساطة . إنها نحن ، ونحن هي . ولا نحن بدونها ولا هي بدوننا نحن .

وظل يندب وجهه مثل الثكلى ويسترق السمع إلى صرخات الهاربين . بين عينيه نوح ، علامة الزمن المنسي الذي كان يموت بهدوء في وحدة وخديعة ، ويصرخ بأعلى قلبه وذاكرته ودمه :

يا نوح! قم من غفوتك القاتلة ؟ ألم تسمعني بعد ؟ جئنا بك من بعيد وأنت الطيب الودود ، وتركناك تموت وحيداً داخل الفظاعة . سرقنا منك دقيق المطحنة وشعر نوارة لهبيلة بنت زينب ورعشة الخطّ المسحور ، وقلنا لك أيها الرجل العالي! تعالَ . نحن قلبك وأظافرك . نحن ذراعك اليمنى إذ خانت اليسار وذراعك اليسرى عندما تكل اليمين . وفجأة ، عندما أظلم الدين والدنيا لم تجد لا ذراعك اليمنى ولا ذراعك اليسرى ، سوى الموت داخل فراغ اليأس الذي جئت تقاومه بجرأة وشجاعة و صبر كبير . خدعناك يا صاحبي إذ خدعتنا الدنيا .

قال كبير العلماء وهو يمسح وجهه من دمعات أخرى لم يقاومها مطلقاً : يا هذا التاريخ الانكشاري الدموي ، إننا نذبح تاريخ الأمة على مرأى القاصي والداني . الليلة السابعة بعد الألف عادت لتأكل الأخضر واليابس وتطولنا إلى الرقاب والأعناق . . .

كانت القلعة تشتعل . حتى الأقبية التي أسسوها في الأزمنة الفائتة بعرقهم ودمهم وآلام العمال ، كانت تقصف بالصواريخ الثاقبة لكتل الإسمنت المسلح بدون عناء . أطراف المدينة أبيدتْ عن آخرها والميناء صار رماداً . قتل في الهجومات الأولى ، حتى العمّال (؟) العملاء المتواطئين مع أجهزة المليّاني . قال لقواده الهاربين ، يجب ألاّ نترك أية فجوة للصدفة . الإبادة تلد الإبادة . والهمّة تلد الرجال . أغدق على الجميع بالرتب العسكرية . كانت البلاد تضمحل تحت كثافة الدخان

والموت . اقترح كبير العلماء في غمرة الموت الآتي من كل مكان : أنا أتجه نحو الأنفاق السريّة وأسحب ورائي كل الكتب الضخمة . كتاب المدينة ومخطوط الشرق الحزين . وأندفع نحو التوغلات الأرضية مع مريوما (ماريوشا) لإنقاذ ما يمكن إنقاذه ، لعلّ زمناً سيأتي يحمل في قلبه ذرة للأمل الجديد . يجب أن نحب مدننا بشراسة لنستطيع الدفاع عنها بنفس القوة والاستقامة . قالوا لي (أنا عبد الرحمن) ومعهم العالم الكبير : خذ طريق البحر يا عبد الرحمن . أبحث عن جنّتك وتفادَ القيامة قدر ما تستطيع . الأعمار بيد الله ولكنها كذلك بيد أصحابها أوّلاً . طريق البحر تحت الأرضي سالك . احفظ الكتاب ومريوما (ماريوشا) في عينيك . . .

كانت القذائف الحارقة تنزل على رؤوسنا مثل حمم جهنم التي روتها كتب الأوّلين .

تحزّمت مريوما (ماريوشا) بنسختها . وضعتها على صدرها وأحاطتها بلفافات كثيرة وهي تبحث عن فرحة غائبة . سبقها أحد العلماء . قال أنا أعرف طريق البحر جيداً . كان من الذين هندسوا هذه المتاهة السرية . قالت . ليكن! تلمست بطنها . كان قد بدأ يستدير . قَبَّلْتُها ، هناك وَضَعْتُ رأسي ، عند حدود سرتها . شعرت بِابْني يتحرّك ويريد أن يخرج بسرعة . كنت خائفاً أن يأتي قبل الأوان ، في زمن لم يكن له مطلقاً . كانت الدنيا شبه مظلمة . ثم قبّلتُهَا على جبهتها . كانت مضيئة كشمعة ومحبة كصوفية . قلتُ لها حافظي على روحك ، من أجله على الأقلّ . رمشت عيناها بدمعتين محزونتين ثم انفكأت على صدرها وسارت وراء المهندس . من حين لآخر تتحسّس كتلات الورق الموزعة على صدرها . تفاصيل المخطوط الشرقي (النسخة الأولى من مخطوط الشرق الحزين) . بينما كنت أبحث عن طريق آخر ، يؤدّي إلى البحر . يجب أن نتوزع لإنقاذ ما يمكن إنقاذه . كان النفق طويلاً والناس الذين يتحركون داخله كثيرون . وفجأة انكشف طريق البحر . وعلى الرغم من الأدخنة والحرائق ، لمحته بوضوح . صحت بعد أن كدت

أيأس : ها هو ذا ، سيد الدنيا . سيد السماوات والأراضي . كان الانحدار كبيراً ، والفراغ مهولاً . من أين أصل إليه ؟ بينما كانت طائرة أباش تتجه نحوي بسرعة فائقة . وقت التفكير ، كان منعدما ولا قيمة كبيرة له مطلقاً . ليكن! أمّي يرحمها الله ، كانت دائماً تقول ، أجر قَدْ ما تقدر ، النفس تموت هاربة . وها أنذا نموت أنا ونفسي هاربين . صرخت بأعلى صوتي! الدنيا تعاش مرة واحدة . ثم رميت الكتاب المجلّد الذي كان موضوعاً داخل علبة بلاستيكية خشنة و رميت بنفسي بعده . عندما لامس جسدي الملوحة ، كانت الزرقة غالبة على الماء وثقيلة . حاولت أن أسترجع أنفاسي وأبحث عن الكتاب ، لكن الماء ، كان قد سحبه باتجاه الأعماق . وعندما التفت نحو مخرج النّفق ، بأعالي الجبل ، كانتْ حفرة بحجم القيامة تنشأ داخل المكان الذي كنت أقف فيه إثر صاروخ قذفته حوامة الأباش باتجاه المكان نفسه . لا أدري كيف استرجعت التفاصيل ، ولكنّي عندما قذفت بنفسي من الأعالي ظللت مدّة زمنية غير محسوبة وغير محدودة أتدحرج في الفضاء مثل الذي يعيش كابوساً ويتمنّى ألاّ يلمس جسده الأرض أبداً . قاومت الموج كثيراً ، وأنا أتتبع الكتاب وهو ينسحب باتجاه الأعماق البعيدة . عندما التفت ، كان الساحل بعيداً ، والعودة مستحيلة والقوى قد خرّت نهائياً . قلتُ : لقد جاءك الموت يا عبد الرحمن . مُتْ مالحاً ، مكسواً بالزرقة ، مكفناً بالماء والأعشاب البحرية ، أفضل من أن تتحلل مثل الدودة على قارعة الطريق . كتابك الآن في عرض البحر ، وقد يجده أناس طيبون . قد ينتظر عودته رجال خيرون ، ولكنه الآن بعيد عنهم ، ومن سيعرف أن البحر أكل المخطوط الشرقي غيرك وغير الذين تأكلهم ذاكرة الصوفي الذي قَبِلَ أن يتحلل في كهفه ، بدل أن يذْبُل حرفه وتقهر جملته ، وتباد وتسبى كلماته .

لقد غاب الكتاب ، وبدأت بدوري أغيب داخل طعم الزرقة والملوحة والخوف .

عندما استيقظْتُ . كنت أرتدي الأبيض وأقف متعباً في مواجهة

المللياني بوجهه الناتئ وأحزانه الدائمة وحركة مؤخرته بسبب مرض البواسير المزمن ، ونظارتيه السوداوين اللتين تخبّئان تحتهما فاجعة المدن المقتولة . كنت بدون ذاكرة ، ومع ذلك استطعت أن أتذكر فجأة الأيام البعيدة أيام الشدّة الكبرى التي قذفت بالموريسكي إلى هذه الشطآن ليعود بقوة ويندثر داخل رمال الكهف . تذكرته وهو يقف في المواجهة التلفزيونية أمام شهريار بن المقتدر ولم يكن يملك سوى سماحته وشوقه وحنينهِ وكبريائه الذي لا يضاهي . لم أكن أملك لا شجاعته ولا هدوءه ولا قوته الروحية . ولكنّي تذكرته بقوة . رغما عني شعرت أن الزرقة والكتاب الضائع ومريوما (ماريوشا) قد سرقوا ذاكرتي نهائياً ولم يبقَ بها شيء يستحق الذكر . كان العالم الذي كنت أَهْواهُ قد غاب نهائياً . اضْمَحَلّتْ الأشياء المشعة في عينَيَّ ، ولم يبق سوى الانحدار نحو أنفاق الموت . لم أعد أعلم وضع مريوما (ماريوشا) التي حين تحب ينشب قلبها في الأشياء التي تهوى لدرجة الموت . تركتها في الأنفاق ، وداخل الفراغات المخيفة مع العالم المهنْدَس . كان وجهها بارداً ولم تكن خائفة من شيء سوى من الفاجعة الفجائية . بطنها هو قلبها . كانت حاملاً . وصدرها هو مصدرها . أتذكر الآن قبل أن نفترق ، قلت لها : لا قيمة للدُّنيا بدونك . لن أحلم بمولود في غيابك . عمري يسبقني . في آخر العمر ، يأتيني وَلَدٌ ؟ سن اليأس والسعادة . سيأتي من يأخذ قلبي بين يديه ويندهش من صفاء القلب . لكن مريوما الآن بعيدة ، بعيدة ، لا أحد يعلم مكانها مطلقاً . وأنا أواجه المللياني الذي طالب أولا بتفتيشي . لم يجد في جيبي شيئاً يذكر يهمه أو يكشف بعض سرّه . أخرج أحد أتْباعه الذي كان يرتدي لباساً عسكرياً مزركشاً ورقة صفراء طويلة ، فتحها عن آخرها وبدأ يتلو التهم المنسوبة إليّ :

هي ذي التهم يا سيد المقام العالي والجاه الوفير : المتهم ، عبد الرحمن . بدون لقب معروف .

أولاً : المسّ برجال البلاد الصالحين .

ثانياً : تنظيم عصابة أشرار الهدف من ورائها هو الإحاطة بالأسرار والإطاحة بمقام الهمام العالي ، سيد الدين والدنيا والفلوات الواسعة (ما أشبهَهُ بالرجل الآفل شهريار بن المقتدر) .

ثالثاً : القتل العمدي وانْتِحَالُ صفة العالم التي هي من الاختصاصات المطلقة لسيدنا العظيم .

رابعاً : الإصرار على الكتابات التحريضية ، والإتلاف العمدي لكتاب المدينة والمخطوط الشرقي الذي كان سيفيد الأمّة لمعرفة خطط العصابات التي تصطاد في الماء العكر .

خامساً : الشتم العمدي .

سادساً : إفساد عقلية النشء بالتصريحات والبلاغات الكاذبة و إشاعة الفساد و الضغائن .

سابعاً : تفضيل مريوما (ماريوشا) على سيدنا وهو خير من يرعاها بعطفه وحنانه ولا يوجد من هو أولى منه بها . وتمنّعها المتقصّد عن مبايعته .

لكن الملياني لم يكن يملك صبراً كبيراً لتتبع كل التهم المتوالية مثل سيول جهنم ، كل تهمة كانت كافية للحكْم عليّ بالإعدام الذي يُنَفَّذُ عادة في الحال وعلى مرأى الجميع .

- شُوفْ آ السّي مُوحْ!!!! عبد الرحمن طيزي ؟ اعطني مخطوط الشرق ، ما شفتني ما شفتك .

- رميته في البحر يا سيدي . أجزاؤه كثيرة ، وما استطعت حمله من كتاب المدينة لا يذكر . والمخطوط الشرقي هو جزء صغير منه ، خاص بعصركم يا سيدي .

- هذا الشيء حاجيه لَمْرَاتَكْ وليس لي يا ولد الناس .

- وحياتك يا سيدي ، فقد رميتُ الكلَ باتجاه البحر عندما قصفتني

طائراتكم . المخطوط الشرقي قد لا يفيدكم كثيراً . لم يحْتوِ إلاّ على ما اقترفته أيديكم . مجرد توصيف لمجزرة الموت التي ارتكبت ضد هذا الوطن وناسه .

ـ سأبيده وأبيدك معه .

ـ أنت سيّد الأوامر . ولكنّي لم أقل سوى الحقيقة . الحقيقة وحدها .

ـ حتى حقيقتي مع زوجتك ماريوشا أو مريوما كما تشتهي أن تسميها ؟

ـ آه يا سيدي أنت تؤلمني كثيراً . كتبت كل شيء ، حتى ولو آذيتني في عمقي . عزائي الوحيد هو معرفتي المطلقة لمريوما آخر قديسات هذا الزمن المسبي في تفاصيله الجميلة والمبعد عن حقه في السعادة والفرح . لا ذاكرة لها يا سيدي سوى ذاكرة القلب الذي يحميها ويضعها داخل مكابداته اليومية . لقد انْسحبت بحزن . أنت أمرت بالقتل ، والقلعة كما تعلم دُمِّرتْ عن آخرها . ومريوما ضاعت وسط الأدخنة و الخوف و الفراغات . لم يبق لها إلا الصدفة و الله لحمايتها من حممكم يا سيدي .

ـ ما رأيك إذا قلتُ لك قَتَلتُها ؟!

ـ أعرف يا سيدي أنّه بإمكانك أن تقتلها ولكني أعرف أكثر أنها ستقتل نفسها قبل أن تلمسها هذه المرة .

ـ وهل هناكَ من هو أكثر ائتماناً على النساء مني ؟

ـ هل تريدني أن أكذب يا سيدي ؟ أنتَ تعرفني ، أنا أعرف أنك لم تأتمن حتى الرجل الذي سلّمك قلبه ، فأكلت رأسه .

ـ لكن أين ربَ هذا الكتاب الذي اشتهيت حرقه قبل أن أراه . أحلم باحتفال كرنفالي لتصفية حسابِي معه ومعك نهائيّا . وزيري ابن كيوان لا ينتظر إلا ذلك .

ـ هو كتاب الحقيقة يا سيدي ، ولا شيء آخر . وزعناه على ناس متعددين وعلماء كثيرين لتهريبه وأنا لم أرم في البحر إلاّ جزءاً صغيراً منه . نريد كشف حماقات الليلة السابعة بعد الألف التي تعيدنا حثيثاً إلى فزع التصحر بدون هوادة . آه يا سيدي لو تعلم ، فأنت تغوص في عمق تهلكة الليلة نفسها التي مططتها . سيقتلك حتماً الذي وضعك في هذا المكان مثلما وقع مع سالفيك . الرماد يلد الرماد . حتى النار يا سيدي ، قد تنجب الرماد في النهاية . الشعلة جاءت ثم انسحبت بسرعة . الكتاب يا سيدي ، إذا كنت تريد أن تعرف ، فهو مرصع بالتفاصيل والأبواب ، وكلّمَا وقعت كارثة فتحت لها باباً ولا أسده أبداً إلا إذا فتحت كل مغالقه ووسعت منعرجاته .

ـ افتح لي بابي أيها الرجل السعيد برضاي .

ـ أبوابك يا سيدي كلها موصدة ، لا تفضي إلاّ إلى الظّلمة والسواد والقتامة .

وقبل أن ينزل عليّ العسكري ببقية تهمه المتوالية صرخ أحد العمّال المحجوزين بين أربعة جدران قريبة ، كان صوته يشبه الأنين .

يا عبد الرحمن الرحيم! ها أنت تنزل في وقت غابت فيه الملائكة و الله . كن مثل المجانين الأتقياء . كن صوفياً حتى النزع الأخير . تماد داخل اللغة أيها الرجل العالي . كن مجدوباً ولا تكن طعماً سخياً لأبناء الكلب ، قطاع الطرق والسفلة . لقد سرقوا النار والدار و الجار والبحر والنور والأرض وتربة البلاد . لا تدعهم يسرقون ما أحبت فيك مريوما وما أَحْبَبْناهُ نحن فيك . كن لنفسك ولعلاماتك ولحالات اصطلاماتك الكبيرة .

وقبل أن التفت صوب الجدران القريبة التي انبعث منها صوت العامل ، سمعت رشقات رصاص مكتومة وصرخات جافة وارتطامة جسد ثقيل . عرفت أن الدنيا التي كنت أعيشها ، تصنع الآن نهاياتها الصغيرة بكثير من الألم . بينما كان العسكري ينتظر أوامر الملياني لإعدامي ، لم

أكن خائفا لأني وقتها كنت قد متَ و غرقت في بوقالات الرماد و بدأت أتساءل عمّن يجمع شتات الحرائق التي كانت تنشب في داخلي بقوة .

* * *

- IV -

- هل أواصل فك سحر الكتاب أم أتوقف ؟ الشأن شأنكم .

- نريدك أن تنتهي .

قلتها أنا وأوسكار بدون تفكير و لا أي تردد . سرّني كثيراً أني أتقاطع مع هذا الرجل الكبير الذي يحمل على عاتقه مسؤولية عودتي إلى السلطان المسروق . لم نكن نعرف بدقة هل هذا الرجل هو عبد الرحمن أم أنه إنسان منتحل أو افتراضي كما اقترح هو نفسه . لم يكن الأمر مهمّاً كثيراً لأن ما كان يقوله ويفكه من المخطوط الشرقي ، لم يكن أمراً عادياً أبداً ، رغم المغص الذي كنت أشعر به من حين لآخر . لم أكن عاشقاً للملياني . قصتي به دامية ، ولكن الصورة التي نُسِجَ بها في المخطوط الشرقي كانت مؤذية لكل تاريخي الذي سيأتي بعد مدة . فالسلطان لا يستقيم إلاّ بالقتل ولكن أي سلطان ؟! وأي قتل ؟! هكذا يقول والدي الذي أكلته الأيادي الطويلة حيّاً . كان يجيب : يا بني لا خيار للمالك عندما يصل إلى السدّة . إما يَقْتُلُ وإمّا يُقْتَل . نضطر إلى الاختيار بين شيئين ، أحلاهما قيامة .

عدل الرجل (عبد الرحمن ؟) نظارتيه جيداً ثم واصل حديثه الأوّل بعد أن تجاوز العديد من الأوراق التي كانت تملأ المخطوط . شعرت به

يكرر الطلاسم و لا يفكّها :

ألف . لام . ميم . نون ، وهذا الكون . سباق محون . جنون وسكون . صدر ومتون . أفخاذ وبطون ، أشواق وشجون .

ـ هذه ألغاز أيها الشيخ!

ـ من قال إن الدنيا تعطي سرها ، خارج الحرف المسبوك والدم المسفوك . والحقّ المشكوك ؟ من قال . الكتاب يقول ما لا يقول . ولا يقول ما يقول . أعلم يرحمك الله في دنياه وفي قيامته ، أن السيف والقلم كلاهما آلة لصاحب الدّولة ويستعين بها على أمره ، إلاّ أن الحاجة في أوّل الدولة إلى السيف ما دام أهلها في تمهيد أمرهم أشد من الحاجة إلى القلم . لأن القلم في تلك الحال خادم فقط ، منفّذ للحكم السلطاني ، والسيف شريك في المعونة وكذلك آخر الدولة حيث تضعف عصبيتها . . . ديوان الكتابة ضروري ولو أن هذه الوظيفة غير ضرورية في بعض الملك ، لاستغناء كثير من الدول عنها رأساً ، كما في الدول العربية ، في البداوة التي لم يأخذها تهذيب الحضارة ولا استحكام الصنائع . في هذه الخطوط كفاية الحال وتضحية القلم . هو المخطوط الذي لا يدرك إلاّ بالختم الذي يصنع من طين مذاب في الماء ويسمّى طين الختم ويطبع به على السجلات عند طيّها أو الكتب الكبرى .

واصل الشيخ قراءته وهو يمسد على لحيته البيضاء بعدما أخرج يده من كمّ برنوسه الفضفاض . كانت بيضاء كالشمعة : كانت البلاد حزينة بعد أن نُهبتْ من أشواقها وأفراحها . لقد احمرّ الشاطئ الأزرق ، وازرورقت الوجوه الرائعة . كانت تراجيديا الموت والدم تملأ العيون والأيادي والشفاه . لم يَبْقَ حيٌّ واقفاً على قدميه . كل شيء دمّر عن آخره . حتى العمّال الذين بقوا على قيد الحياة ، وجدوا أنفسهم مزربعين هنا وهناك كاليتامى . الأغلبية الغالبة أبيدت عن آخرها ، وعوّضت برجالات المخابرات المدربة على القتل والضّغينة . تخبّووا وراء ألبسة العمال الزرقاء . في النهار ، يتجولون على الساحل وينْتَقدُون النظام ،

وفي الليل يصطادون كل الأعداء القوميين(؟) .

حتى الأناشيد المتبقية لم تعد قادرةً على مواجهة الموت الفجائعي الفجائي . جمعهم الملياني داخل البوكس الحديدي وتركهم ينشدون الأممية حتى جفتْ حلوقهم وتَعبتْ أعينهم وأصابهم العطش القاتل . هل يعقل يا الله ، أن تباد الدنيا عن آخرها بهذه السهولة وأن تسقط أسوار الشاطئ العالي وضخامة القلعة وأنفاقها في رمشة عين ؟ هل بقي شيء يصلح للحياة في هذه البلاد ؟ حتى شهريار المنقرض لم يقم بهذا مطلقاً . ما عجز عنه ، تمّمَهُ الملياني الذي لم يحفظ من السلطان شيئاً سوى القتل والموت . لا أعلم ـ يقول عبد الرحمن عن مخطوط الشرق الحزين ـ إذا كان ما يحدث أمامي حقيقة أم مجرد كابوس مقلق مثل تلك الكوابيس التي جاء بها الموريسكي من غيبوبته الأندلسية التي رمت به إلى أنفاق الأتراك وكهوف البلاد التي خسرت نفسها وأنفاسها ونَفَسَهَا ونفيسَهَا . كانت الدنيا قد دفنت كل أنجمها ونزل الظلام على كل المحيط . كنت بدوري موضوعاً في بوكس معزول ، بعيداً عن بوكس ما تبقى من العمّال الطيبين الذين جفت حلوقهم عطشاً ولم تعد أصواتهم قادرة على النشيد . كان التليفزيون الوطني بقناته الوحيدة والمطلقة بعد انفصال القناة الثانية التي أصبح يملكها أطلس الظواهري ، يبثّ مباشرة ما كان يحدث لنا ، مركزاً أحياناً على وجهي وفي أحيان أخرى على ما تبقى من العمّال والعلماء ، من الذين تم القبض عليهم وهم يقاومون عند مداخل البحر أو على أطراف الأنفاق أوفي أعالي الجبل ، تلك الإبادة و المقتلة التي لم يكن لها مثيل أبداً . جُرَّتِ البوكسات كلها في الساحة العامة مثل شبابيك سيرك تحتوي على حيوانات خطيرة . كانت الرؤوس كلها محلوقة عن آخرها ، وكنا جميعاً مسلسلين بقيود خشنة . في لحظة من اللحظات انتابني الإحساس بأني سارق من السراق الهاربين من العصر الروماني الآفل . ثم بدأت الجرارات والآليات الميكانيكية تحفر حفراً عمقها لا يقل عن الثلاثة أمتار ، وبأطوال تتجاوز العشرة أمتار ، ثم أنزلوا البوكس الأوّل بالرافعات وبه العديد من العمّال والعلماء . كانت

الأحلام والأشواق تهبط دفعة واحدة نحو غيران الموت وتحاول مثل العصافير المطاردة أن تنتهيَ وهي تحلّق في العلوّ الشاهق . بينما الملياني لم يحرّك ساكناً مطلقاً . فقد ظلّ على المنصة الشرفية يتفرج هو ومجموعة من ضباطه الأوفياء مثلما يفعل عادة في المناورات العسكرية أو الأعياد الوطنية ، ويقهقه بأعلى صوته . ثُم فجأة رفع عصاه الصغيرة إلى السماء و على إثر ذلك ، رُفع علم أحمر في الزاوية الأخرى . فبدأ شخير الآليات يصمّ الآذان ، وشرَعَتْ إحدَى الآليات في صب الإسمنت المسلح على البوكس الذي وضع في الحفرة العميقة . لم أسمع مطلقاً أية صرخة من الصرخات . أغمضت عيني متمنياً أن يكون كل ما كان يحدث أمامي هو مجرّد كابوس مؤلم ولكن الذي حدث كان مفجعاً وآلة الموت كانت تأكل وباستمرار تطلب المزيد . عندما فتحت عيني ، كانت الآلية الثقيلة ذات العجلات الحديدية تمرّ على الإسمنت المسلح وتسوّيه مع المستوى العام للأرضية والطرق المجاورة . الناس الذين كانوا يقفون على الأطراف ، كانوا يصفقون على المشهد ويفتحون أفواههم عن آخرها : ليسقط الأعداء القوميون للأمة . ليسقط الحَرْكَةْ الجدد . ليسقط علماء وعمال الحقد والضغينة . لا يعقل أن يُبادَ العقل بهذه السهولة . أقسمت في أعماقي ، إن كل الذين كانوا يملؤون حاشية الطريق ، كانوا من جهاز الملياني ، الأمني . شعب نَسِيَ ذاكرته ، وتحول كلياً إلى دابة . يحتاج الأمر إلى زمن كافٍ ليعرف أشواقَه العميقة . زمن يقاس بالعشريات و القرون والإبادات المتوالية . التليفزيون الذي كان موضوعاً في الساحة العامة بشاشته العملاقة التي استوردت من اليابان خصيصاً لبثّ عملية الإعدام مباشرة ، كان يضخّم المشاهد أكثر فأكثر . أحياناً كان يعطي مفعولاً عكسياً . فقد قرأت تعاطفاً عاماً في الكثير من العيون التي سُحِبَتْ بالقوة نحو مشاهد هذا الموت المباشر . بينما المعلق يرفع عقيرته مثل المغنّي الذي بح من كثرة ترديد الأغنية نفسها :

أيها القوم! اسمعوا وعوا . إن الله لا يغير ما بقوم حتى يُغيروا ما

بأنفسهم . إن أكرمكم عند الله أتقاكم . الأعداء الآن في قبضة المولى العالي ، سيد العالمين وأمير المشرقين والمغربين سيدنا الملياني نصره الله ، على كل الأعداء السابقين واللاحقين . هاهم يصفُّون في الأماكن التي يستحقونها . حُفر الموت لا أكثر . لقد غيروا الدين والدنيا . وهاهو ذا أمير المؤمنين الضالع في الحاضر والغيب ، يرفع يديه البيضاوين . يبتسم . يتمنّى لو يعفو عنهم ، لكن الجماهير التي تصيح ملء حناجرها بالقصاص تدفع به إلى إغماض عينيه وإرضاء الجماهير الواسعة التي لا يرضى إلا برضاها . فقد أقسم يوم تولّى السلطان في كتاب الدين أن يكون وفيّاً لها . وها هو ذا يجسد وفاءه بدون تردد حتى ولو كان ذلك على حساب سماحته وأشواقه وطيبته .

أمّا البوكس الثاني ، فقد أفرغ من بقية العمّال والعلماء وهم مسلسلون مكتّفون بالقيود الثقيلة . كانوا نحافاً متسخين كمن سجن في حرب ضروس . ثم قام الحراس الذين كانت عيونهم تتقاطر موتاً بصفّهم واحداً ، واحداً وربطهم من جديد من أعناقهم الواحد بجانب الآخر قلبوهم على أفواههم . كانت ألبستهم الزرقاء المملوءَة دماً تعطي الانطباع بحالة خراب معمّم قادم في الطريق . عددهم كان كبيراً . وبالتلويحة نفسها من الملياني ، رَفْع العلم الأحمر ، أُعْطِيَ الأمر للآلية الثقيلة الخاصة بدك الإسمنت المسلح وتبليط الطرقات بالسير على الأجساد ثم أُتْبِعَتْ بدبابة ضخمة من نوع .T.4سوفياتية الصنع . كان نوح قد استورد عدداً منها عندما حاصرته كل الدول . ولم أعد أسمع إلاّ الحشرجات والعظام التي كانت تتكسر بقوة ، وبشدة ، وكتل اللحم الآدمي وهي تتطاير أو تلتصق بالعجلات الحديدية . الأجساد امّحتْ مثلما تّمحي الرسومات الجميلة . تكوّرت واسودّت حتى ضاعت ملامحها نهائياً وتحوّلت إلى كتل مخلوطة متداخلة . كان التعليق التلفزيوني يزداد حماساً ، مملوءاً بالرهبة والخوف و انفلات اللسان . الله أكبر!! الله أكبر!! لقد ظهر الحق وزهق الباطل . إن الباطل كان زهوقاً . هاهم أعداء الأمة القوميون يبادون عن آخرهم . وهاهي ذي البلاد الحزينة

تستعيد أشواقها . وهاهي ذي الأيادي البيضاء تطلب للمجرمين المغفرة والرحمة منه ومن الرحمن وتقول إذا كان عليّ ، فقد سامحتها على جرمها في حقي وفي حق بلادها ، ولكن إذا كان على الله ، فهو سيد الدنيا ، والآمر لنا بأمره وبمنعه ننجزر . التصفيق على حاشية الطريق يزداد قوة وحدة ، والعيون البرّاقة المهملة داخل هذه الصفوف المتكدسة لا يتوقف لمعانها ودهشتها ودمعاتها السرية أحياناً . لست أدري في تلك اللحظة بالذات ، ما الذي جعلني أتذكر شيخي النينوي وجسده يلتصق بنار الصلب في ذلك الفجر البعيد ، والمرأة ذات اللباس الأبيض التي قيل عنها فيما بعد إنها كانت ماريوشا والتي حكى عنها البشير الموريسكي كل حنينه وأشواقه واندفاعاته الصوفية . لا يمكنني أن أصدق ما كان يحدث . كل شيء كان يبدو مثل اللعبة السخيفة التي يُرادُ بها عادة تخويف الأطفال . لكنّي بعد لحظات ، وأنا أستبين الأمر أمام عيني وذاكرتي ، انتابتني حالة من الخوف . تذكرت أنه لم تبق في الساحة بُوكسات سوى البوكس الذي كنت مسجوناً ومربوطاً داخله . إذن لقد اقتربت قيامتي . لم تكن لديّ أية وسيلة لمقاومة الموت سوى الصبر والصبر والإصرار على تحمّل المأساة التي يصنعها أناس أشرار ويدفع ثمنها الطيبون والأخيار . تحملتُ الثمن بجرأة اليائس . كان الملياني يتأمل مشاهد الموت والمقتلة ويفكر حتماً في الشكل النموذجي لقتلي . فهو يحمل ضدي أكثر من حقد . ولهذا فالإبادة السهلة لهذا الجسد لم تكن أمراً مجدياً . فقد كنت مضاداً له عندما كان نوح حيّاً ، ثم كدتُ أُفسد خططه بسبب حماقاتي وحماقات نوح الطيب . وحتى ينتهي منّي ، طالب برأسي حيّاً وبرأس المخطوط الشرقي يوضع بين يديه . الجزء الثمين من "كتاب المدينة" كما كان يقول دائماً : لا يهمّني ما دوّن عن الأسلاف . يعومون بحرهم ، ويتحملون سذاجة حماقاتهم لكن تاريخي أريده مثل شمعة الأولياء ، وكل من يقربه ، رأسه يطير ولسانه ينزع وعينه تسمل . لم يكن كافياً أن ينتقم منّي من خلال مريوما (ماريوشا) . كان يريد شيئاً آخر ، يشفي ساديته . أقسم أن يعلقني

على مشهد من مريوما وها الزمن يكذبه . إني أقف وحيداً بكل يأسي العظيم لمواجهة المقتلة . ومريوما اندثرت في فراغات الشوارع والأنفاق والجبال وقلوب الرعاة والناس الطيبين . قاسٍ أن يموت المرء وحيداً ، لكنني متأكِّدٌ أني في النزع الأخير لن أرى إلاَّ هذه المدينة ، ووجهها الصبوح ، ونعومة أظافر ابني الذي لم يكتب له أن يرى النور ، وإنْ رَآهُ ، كم سيكون ذلك محزناً جداً لأن الزمن الطيب توارى ، وهاذي دنيا ميتة يُعَاد بعثها بكل قوة . مزقوا لحمي الذي لا يزال يحرقني لمعرفة مكانها ومكان المخطوط . وعندما قلت المخطوط أكله البحر . ومريوما غابت في الدخان ، ظلوا يضحكون ويستعملون كلالِيبهم لنزع لحمي وقلبي . لم أعد أتذكر شيئاًمهماً سوى أنّ مريوما غادرتني في الأنفاق بيأس . كانت حاملاً عندما غطت صدرها بالنسخة الأولى من المخطوط الشرقي (الجزء الأخير من كتاب المدينة الأعظم) . أكَّد لي مراراً الملياني وهو يزورني في دار الحجز أنه قتلها بيديه . وعندما صحت في وجهه بأعلى صوتي : ولماذا تسألني إذن ؟ صمت قليلاً ثم واصل ، أنت رجل نادر . ولهذا يجب أن يكون موتك نادراً . أرأيت ؟ الدنيا هكذا ، يوم لك وأيام عليك . من كان يقول إن قلعة بتلك القوة تباد بسهولة . لا أحد يواجه قيامة الأقوياء يا بنَ أمّي . أكلت رأس نوح ثم أنجبته من صلبي ليرثني ولن تزعجني كثيراً بتخريفاتك . القلعة هدمت . الأنفاق ردمت . البيوتات البحرية أغرقت . مريومتك انتهت عند مدخل الأنفاق . علماؤك سيموتون ميتة الساموراي . ولم يبق لك يا عبد الرحمن سند تتكئ عليه . ظهرك سقط ، والعالم الجديد ضدكم . وإذا كنت تريد أن تحافظ على حياتك وحياة زوجتك . قل أين هي الآن ؟ أنا متأكد أن المخطوط لم يُلقَ في البحر وهو معها بكل تأكيد .

كل كلامه أثلج قلبي ، وأكد لي أحاسيسي ، أن مريوما (ماريوشا) لا تزال مختبئة في الضباب وفي البيوتات الواطئة . لا تزال في هذه الدنيا التي لم أفقد الأمل مطلقاً في ضرورة عيشها بعمق وعلوّ وصوفية وجنون . أكّد لي الملياني أن العلماء بكل غواصاتهم النووية لم يجدوا

مطلقاً هذا النصّ المنحوس وأن الرجل الوحيد في الدنيا الذي يعرف مكانه هو أنا . في الحقيقة كان ممتلئاً بالأحقاد والأوهام والنيّات السيئة المفرطة . أصبحت متأكداً يوماً بعد يوم أن الموت كان يزحف بخطى حثيثة تجاهي ، لكن نوراً ما ، كان يخترق الظلمة المفرطة التي كانت تملأ قلبي . ليكن . مريوما (ماريوشا) بعيدة عن الأنظار والكتاب محمي داخل الملح والزرقة والماء وابني يكبر داخل العاصفة والخوف . المهمّ هو أنّهم كلهم أحياء . لقد كانت حياتي صعبة ولكنها ممتعة ، أمضَيتُها بين الدواة والقلم وبياض الورق ورعشة الكتابة ولذة الإحساس . نشوات النهايات واحدة . الموت الآن أو بعد عشر سنوات ، لا يهمّ ، المقتلة هي ، هي ، ولكن الرأس العالي يجب أن يخترقها بجرأته اليائسة . لا نملك في هذه الحالة سوى أحاسيسنا و ثباتنا أمام الفواجع الداهمة .

كل الأيام التي تلت تهديدات الملياني ، قضيتها داخل البوكس الحديدي ، مكبلاً ، مسلسلاً عن آخري كقرد متوحش . لم يعد بإمكان رجليّ تحمّلي . عندما أُخْرِجْنَا للساحة اختاروا لنا يوماً مشمساً يثقب الرأس . تمنيت في لحظة اليأس الكبير والعزلة أن يعدموني بسرعة . لم أعد قادراً على التحمّل أبداً . التليفزيون الوطني لم يتوقف عن البث مطلقاً . كان يعيد من حين لآخر بالتصوير البطيء ، صُوَر الآليات وهي تكبُّ الإسمنت المسلح على الحفرة التي ردم فيها العمال والعلماء ثم الآلية الضخمة وهي تطحن الجثث والدبابة T.U4 من ورائهم تحوّل الكل إلى كتل سوداء بدون ملامح ، بعد أن تعجنها بقوة .

اقْتَرَبَتْ من البوكس الذي كنْتُ فيه كالحيوان المفترس ، إحدى الكتائب التي كان لباسها أسود مثل القطران . يسمونها في المدينة "كتيبة الظلام" . كتائب شبه عسكرية ، كوّنها الملياني للقيام بأدوار عديدة وكشف أنصار العمّال والعلماء في المرفأ أو مرتفعات القلعة وتوصيل كل المعلومات عن وضعية الأنفاق الرابطة بين العمّال والعلماء . وعلى الرّغم من الرقابة الصارمة ، فقد استطاع الملياني تسريب عملائه ، وتحصّل على الكثير من المعلومات المهمة عن خطط القلعة .

عندما كان يجهّز نفسه لتدمير كل شيء خصوصاً أن العلماء كانوا قد رَفضوا عَلَناً الانضمام إلى الجيش الجملكي الذي حلّ محلّ الجيش الجمهوري الذي بدأ نوح في تأسيسه . وعرف بشكل واضح كلّ إمكانات المناورة عند العلماء . لقد كانت كتائب الظلام قادرة على حساب تنفس الناس بدقّة وهي لا تتردد في القتل أو التدمير إذا استدعى الأمر ذلك . أغلب وجوه أعضائها متنكرة ، يضعون على رؤوسهم أغطية سوداء . كانت الكتيبة تقترب ، بينما تبعها المليانى ، بعد أن نزل من المنصّة الشرفية التي كان يراقب من خلالها عمليات إعدام ودفن العمّال والعلماء . عندما اقترب منّي ، وسع قليلاً "كتيبة الظلام" ، واختلقَ لنفسه طريقاً بينها ، ثم اقترب منّي أكثر حتى صار وجهاً لوجه قبالتي . رفع عصاه قليلاً باتجاهي ، ثم لكزني بها كمن يخاف داء معدياً ، ليتحسس قدرتي على الوقوف على أقدامي وعلى المقاومة . شعرت بألم وخز العصا في قلبي وصدري وحجري . . . قال وهو يتمتم مثل المنتصر ، ويقهقه .

ـ هاه يا السي عبد الرحمن! ؟ العالم الكبير وذاكرة المدينة! ؟ ها أنتَ مثل القرد أمامي يا سيد قلب مريوما . لقد صرت حيواناً أجرب لا يُلمس إلاّ بالعصا خوف العدوى .

ـ . . . .

ثم دفعني بقوة نحو الجانب المحاذي للزاوية بعصاه الخشنة مرة أخرى .

ـ هاه! هَلْ جفت الكلمات في حلقك يا سيد العلماء الذي كاد أن يكون نبياً ؟ كه . . . كه . . . أم الخوف جمد كل شيء فيك ؟ أرأيت كيف انتهى علماؤك الكبار ؟ وعمّالك ؟

ـ يا سيدي! أنت سميتَ نفسك أمير المؤمنين ، ودِيننا عَلّمَنا كيف نحترم جثة الميت ، وأنت الآن تقف على مئات الجثث التي دفنتها حيّة . أي ملك يا سيدي ؟! أية جمهورية ؟! أيّة جملكية حتى ؟! عندما تبنى

الأمجاد على العظام ، مآلها الموت يا سيدي . الأموات يضحكون من ضعفك يا سيدي . ستخسر حتى أصدقاءَك الذين وضعوك في هذا المكان لأنهم لا يحبّون الكائن المهزوم . وأنت مهزوم يا سيدي . مهزوم حتى القلب . عيناك تفضحانك .

ـ وإذا قلتُ لك أنت كذلك ستموت ميتة بطيئة ومؤلمة ماذا ستَفْعَلْ ؟ أريد أن تعرف أنك ستموت مثل الجَرْو ، وتنتهي لحظة ، لحظة . . .

ـ الموت عندما يكون ضرورة ، أهلاً به . ولكن هذا كله لا يمحو هزيمتك الداخلية ولن ينشف عرق الخوف الذي يملأ جبهتك وقلبك . تظن أنك تتجاوز الليلة السابعة بعد الألف ولكنك لا تدري أنك كُلَّما مططتها ازدَدْتَ غرقاً فيها . فالظلام القادم سيأكلك ويأكل معك الأخضر واليابس . أما أنا ، فسعيد أن أموت من أجل هذه التربة .

ـ ستموت من أجل الفراغ . لا تربة لك . فأنت الآن رجل بدون وطن . لقد أسقطت عنك الجنسية بمرسوم جملكي خاص ، أذيع في التليفزيون الوطني والإذاعات الدولية . ستموت كأيّة دابة لا قيمة لها يا عبد الرحمن . رجل معزول ، لا ناس له ولا وَطَنَ .

ـ ناسي في قلبي يا سيدي . وتربتي جسدي . وعندما تبيدني فلن أندثر إلاّ داخل جسدي . وحدتك تمنعك من رؤية شموخ الدنيا . الوطن أيها الرجل البعيد والوحيد ليس سوى تربةٍ وحنينٍ ولغةٍ وهذه كلها تجري في دمي . يصعب عليك أن تكون إنساناً حتى عندما تنزع روحي . الوطن أيها الرجل الصغير ليس لباساً نخلعه على من نشاء وعلى من لا نشاء . الحاكم عندما يقتل رعاياه ظلماً هذا يعني أنه قد أصيب بأقصى درجات العزلة والضعف والانهيارات .

ـ ستموت أيها النحس الأخير وبالطريقة التي أشاء .

ـ كلنا سنموت يا سيدي ، لكن الفظاعة والصغارة يتذكرها الناس طويلاً .

اصفرّ وجهه الذي كان أصلاً كليمونة معصورة ، أو كوجه ميت فقد كل دمه . ثم رفع عصاه وصرخ بأعلى صوته .

عندما فتح فمه عن آخره كفرس البحر ، رأيت أضراسه الخلفية الصفراء المسوسة وسواد حلقه .

ـ خذوا ربّه من هنا . خلصوني من عزرينه! ؟ نِيكوا لَهُ أمّه . قلعوا له الرحمة ديالو . طيْحوا له ضُروسَه . . خوزقُوه ، حتى يشوف النجمة السَّابْعة في ظلمة السماء .

اصطفت كتيبة الظلام التي انغمس داخلها ، ثم انطفأ فجأة ، بينما فتح أحدهم البوكس الذي كنتُ فيه . تحركت الكتيبة الأولى وأنا ثم الكتيبة الثانية التي كانت تغطّي ظهري . كنت أعلم أن موتي سيكون شنيعاً ولهذا لم أتساءل كثيراً عن الاتجاه وعن شكل الموت . كنّت محاطا بمجموعة من السيارات العسكرية المدججة حتى الفم بالأسلحة الأوتوماتيكية الفتّاكة و أسلحة تقليدية ، غازات حارقة ، راجمات ، قاذفات متطورة لأشعة اللّايزر . كان الناس في الطريق العريض يتفادون الاقتراب منّي . بل إن بعضهم كان يحاول أن يهرب بهدوء . بعض العيون رأيتها ، أقسم إني رأيتها ، وهي ترفرف حزناً وأسى ولكن صمتها كان مطبقاً ونورها ميتاً . تمتمات أعضاء كتيبات الظلام لم تكن واحدة . كانت لُغَاتهم مختلفة . عربية . انجليزية . فرنسية . ألمانية . يابانية . من الطريق الذي كنت أعبره حزينا ، بدأت أعرف شيئاً فشيئاً الاتجاه الذي كنا نقصده ، ونوع الموت البطيء الذي كان ينتظرني ، إذ لم يكن لِلطريق مؤدى آخر سوى المصفاة القديمة التي أنجزت بجانب أهمّ بئر نفطي قديم . ومع الزمن ، بعدما امتصت أعماقها أصبحت لا تنتج إلا الأدخنة السوداء الخانقة . بعد تعرجات كثيرة ، وصلنا إلى المصفاة القديمة . كانت عبارة عن كتل حديدية تتآكل داخلها النيران الغازية والصدأ البحري ، وقد سودت جنباتها الأدخنة المنبعثة منها هنا وهناك . لقد كان الموت يقترب كلما تقلصت المسافة بيننا وبين المصفاة

ومحيطها . لم أكن أعرف جيداً ماذا كان ينتظرني ، لكن الموت كان قد بدأ يدخل عيني . بدأت أشمّ رائحتَهُ بكثافة وهي تختلط برائحة النفط والأتربة والمطر وبحنين غامض نحو الكتابة ، شعرت به يجتاحني فجأة ونحو مريوما (ماريوشا) ، إذ لا قيمة لنص صوفي يُنشأ خارج عيون امرأة وقلبها . النص العظيم نص الدهشة والرعشة والكبرياء ليس إلاّ النص الذي يُنشأ داخل العزلة والمرأة والمعصيات الكبرى والموت والحدة وبياض الورقة المهرب من أعماق الذاكرة . تكسر حلمي فجأةً ، عندما غزاني صوت أحد أفراد كتيبة الظلام .

- المصفاة قديمة ولم تعد صالحةً إلاّ للأدخنة الملوثة .

- Boof! elle pourra au moins servir à autre chose?

- I don't understand?

- . . . .

ثم علت بينهم قهقهات عالية لم تستقر في أي مكان سوى في دماغي المنهك . طُلِبَ منّي أن أكون أوّل من ينحدر نحو الأنفاق محاطاً بمجموعة من العسكريين .

(أشهد أنا الأمير نوح ولد الملياني أن الكثير من الروايات تقول ، إن بعض ما ورد في المخطوط الشرقي أضيف بعد رميه في الأنفاق ، إمّا من طرف صياد أتمّ كل المشاهدات وإمّا من طرف مريوما التي كانت متنكرةً بين الناس الذين تأملوا مشاهد الموت عن قرب ، ثم خرجت ليلاً في سفينة ورمته في أعماق البحر بعدما خطت منه نُسخاً متعددة . لأن الكثير مما وردني من المخطوط ، يتداوله الصيادون ككلام يومي وهم لم يقرؤوا المخطوط ولم يعيشوا المشاهدات عن قرب . هذا يعني أن فرضية سقوط النص بين أيدي أناسٍ آخرين أمر حقيقي وثابتٌ . أوف)

لا يجب أن نستبق الزمن ، للشيخ ما يقوله . لنترك الحكاية لأصحاب الحكاية ، تبحث عن امتداداتها وأصدائها . فهذا الشيخ غامض

جداً . بين يديه هذا الصياد المقطّع الذي نجا بأعجوبة من الموت المؤكد بعد الانزلاق في أعماق البئر ؟! ما العلاقة بينه وبين عبد الرحمن أو هذا الشيخ العالم و الغريب ؟ كيف غير ألبسته ؟ هل يعرف المكان قبل أن نعرفه نحن ؟ شيء ما يبدو لي أنه يسير باتجاهات معاكسة وغير واضحة . ربّ هذه الليلة السابعة بعد الألف ، لَمْ أَعُدْ أعرف ما إذا انتهت ، أم أنها لا تزال قائمةً . لم أعد قادرا على تحملها و لا تحمل بقاياها و لا تبعاتها . أشعر بها تسد الحلق بقوة ، وكأنها لم تنته ، وأنا لم أحكم بعد ولا يوماً واحداً ؟! يا سيدي . لنستمع إلى فك هذه الطلاسم أوّلاً وبعدها نقرر .

صمت أوسكار لم يكن سهلاً و حقد سقراط كان يزداد بريقاً في عينيه .

- واصل يا الشيخ ، فريقي كله آذان مصغية لما تقوله .

واصل الرجل بدون أن يعير انتباها لكلام أوسكار .

عندما انحدرنا قليلاً فكّوا بسرعة كبيرة قيودي الثقيلة عن آخرها ودفعوا بي نحو الفراغات السوداء وقالوا واصل موتك وحدك . قبل أن أتهاوى مثل الكتْلة اليابسة . تنفست عن آخري رائحة فيها شيء من ورد الكاسي على رأس ماريوشا مثل تلك التي كانت ماريانا غجرية الموريسكي تضعها على شعرها المزرورق ، ونباتات البحر الذي لم يكن بعيداً عن المصفاة القديمة ذات الأدخنة السوداء الكثيفة ورائحة الحرائق التي كانت أقوى من كل رائحة . وقبل أن أسترجع الخلوة المعطّرة والرعشة الهاربة وقبل أن يدفعوني على حين غفلة أكثر نحو أعماق الفراغ المظلم ، أتذكر أن طائراً بدا لي ملوناً بألف لون ، حطّ على كتفي اليسرى لحظة ، تأملني بعينيه الصغيرتين ثم بدأ يزقزق في أذني . كان يكلمني بلغة لم يكن أحد يفهمها إلاّ أنا . عادة أتشاءم من هذه الحالات النادرة ، ولكن هذه المرة شعرت وأنا أودّع الدنيا بحزنٍ كبير ، بسعادة غامرة ، بعد أن امتلأت عيناي بالألوان النادرة . قبلته على منقاره الذي

فتحه عن آخره . زقزق من جديد ، ثم طار بعيداً عن الأنفاق الصدئة . قيل إن الطائر هدهدٌ ملون بمليون لون ناري ، وألف صورة غير مرئية . جَاءَنِي من سليمان ليرفع قلبي وروحي إليه . قيل إني كلمته وحمّلتُه كل الوصايا النبيلة للعلماء وما تبقى من العمّال الميامين الذين سرقت منهم الزرقة والألبسة البحرية وقادهم وَهْمُ الحقيقة الكبيرة في البلاد ، نحو الغياب والانهيار والتَّفَتُّتِ تحت عجلات الآليات الضخمة التي لا ترحم لاَ إنساً ولا فكراً ولا حرفاً . كنت أذوي داخل الأنفاق كشيء بدون فائدة يردم في الفراغ . عندما غاب الطائر ، كانت رائحة النفط قد ملأت قلبي ، وأنفي وفمي ، وصارت المواد اللزجة تكسوني مثل اللباس الثقيل . شعرت في لحظة من اللحظات بطعم الملوحة . الارتطام كان قاسيا ، ومع ذلك لم أفقد وعيي في أية لحظة من اللحظات . بدأت أزحف وسط الظلمة على ركبتي ، وعندما شعرت بالإنهاك يثقلني ، اتكأت على حائط قديم ، عرفته من رائحته ورائحة الأتربة الغاملة التي كانت تحيط به . بدأت أبحث عن منفذ . أصبحت متأكداً أنهم اختاروا لي على عكس غيري ، موتاً بطيئاً مثلما أمر بذلك الملياني وهو يتآكل غيظاً وحقداً . بعد مدّة من الزحف والمشقّة وجدت نفسي في ساحة كبيرة . مبنية بشكل جيد ، بها بعض الإضاءات المتسربة من هنا وهناك . تحسَّسْتُها . كانت بعض الخزانات وبعض الكتب القديمة وبعض الروايات البوليسية وبعض المجلات البرنوغرافية وقناني البيرة والكُوكَاكولا والسيفَان-آب ، والدخان ، بل و حتى بعض قطع مخدرات الكنابيس المعالج . المؤكد أن الناس الذين كانوا يعملون هنا ، كانت تحكمهم أهواء وأشواق متعددة . ومع ذلك بدا لي بعض التناقض في ترتيب الأشياء ، شيء ما لم يكن طبيعياً . اتضح لي فيما بعد أن خيطاً من النور كان يتسرب من نقطة عالية جداً . ربّما كانت هذه المصفاة القديمة بعد أن نشفت ، حولت إلى مهجع للعابرين أو لغيرهم من التجار المبادلين للماء و الأواني البلاستيكية بالملح ، أو الذين يحملون الشاي والسكّر والكبريت والشمع باتجاه القرى النائية . الطاولات وأواني الطبخ

والفتائل المغمّسة بزيت النفط تؤكد على ذلك . كان من الصعب عليَّ التفكير بشكل جيد ، لكن إنهاك الانتظار كان يعذبني والأسئلة المعقدة التي تصطدم بإجاباتها تتعبني . رغم خيط الضوء ، الدنيا في الأنفاق كانت باردة ومظلمة جداً . كتيبة الظلام الرابضة عند مدخل النفق ، كنت أتحسسها وأشعر بوجودها من خلال أنفاسها الكريهة . وقبل أن أنتهي من تأملاتي ، فجأة سمعت صوتاً جافاً رَدَمَ جزءاً من المكان الذي كنت فيه . لكن النور المتقطع ظل موجوداً . بينما ظلت الكتل الحديدية تتهاوى الواحدة تلو الأخرى من كل مكان . تأكدت من أنهم فجروا المصفاة نهائياً على رأسي . فهي لم تعد صالحة إلاّ لقطاع الطرق والعابرين ، بعد أن امتصت من عمقها . فجأة لمعت فكرة بذهني . الكبريت موجود والشمع موجود والزيت النفطي موجود . لماذا لا أجرب ؟! أشعلت الشمعة . اشتعلت . صفا ذهني فجأة ولكن إلى أي حد ستقاوم الشموع . جربت الفتائل . اشتعلت بدورها . وبدأت أرتب المكان وقلبي في يدي مُتَمَنّياً أن تظل الفجوة الهوائية التي يتسرب منها خيط النور قائمة ولا تسد . وعلّقت حياتي بخيط من النور . قلتُ والحرف المقتول يقاوم موته في فمي : ليكن! ولكن لن أموت بالسهولة التي يفترضها الملياني . سحبت القلم الذي لم يغادرني طوال حياتي وبعض الأوراق الموجودة على رفوف المكتبة . كانت صفراء ولكنها كانت صحيحة وجيدة . وبدأت أدوّن ما تبقّى من كتاب المدينة وبعض وقائع المخطوط الشرقي . كانت البلاد بكاملها تموت ، وكان عليَّ ألاّ أموت بسهولة ، بدون وضع الحقيقة أمام السكان الأحياء القائمين والقادمين كيفما كانوا . قد يأتي يوم واستيقظ مع الموريسكي ، مملوءاً بالجنون والنور . على التاريخ المسروق أن يُستعاد وأن يأخذ حقه في الحديث بدون الوسائط الميتة وأقلام الرياء .

في أي شيء يمكن للإنسان أن يفكر وهو يودّع الحياة ؟ في أعماله الجليلة ؟ في حماقاته ؟ في وطنه عندما لا يصبح وطناً ؟ كل هذه الهواجس مرت داخل ذهني دفعةً واحدةً مثل السراب . لكن الذي ظل

يملؤني عن آخري ويحتلُ دمي ودخان قلبي ، وجه مريوما . أعتقد أن المرء و هو يواجه الموت لا يمكن أن يفكر إلا في الله و في امرأة عشقها بصدق . كنتُ أراها وهي تجوب خلجان الموت وأنفاق الظلمة لتستقر داخل خيط النور المتسرب من فوق . من مكان مجهول تماماً . ثم وهي تصرخ عند نخلة معزولة من آلام الولادة . هل يستطيع هذا الشعاع المتسرِّب عبر الشقوق والفلوحات أن يقول أشياءه الدفينة ؟ أن يحدثني عن الدنيا وعن مريوما الصغيرة المولعة بالحرف المقدس والنور والجنون ؟ هل يحدثني الشعاع عن ابني أو ابنتي ؟ أين هذه الأشياء والحالات النادرة داخل هذا الخليط المخيف الذي ضيّع كل معنى تَحْتَ رُدَم الموت ؟ تحت شَظَايا قنبلة لم يصلني إلاّ صداها وهي تأتي نهائياً علَى صدأ وحديد المِصفاة القديمة ؟ تحت غطاء سماء مجحفة ؟ في فراغ لا معنى له على الاطلاق ؟ أينك الآن يا بنةَ أمّي ونوري ؟ ماذا يمكن لمقتولٍ أن يتذكر وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ؟

ـ هل يُعقل أن يكون هذا الرجل هو عبد الرحمن! ؟ .

قالها الأمير نوح ولد الملياني ، وهو يتأمل عينيه الزاغدتين من وراء نظارتين صغيرتين .

هل هذا الرجل الذي يلبس لباس العلماء ، كما وصفته الكتب النادرة هو حقيقة عبد الرحمن لحماً ودماً ؟ بعد خمسين سنة! ؟ من أين يأتي هؤلاء الخلق ؟! يولدون ويتوالدون من تراب وحماقة . لا يموتون ، حتى حين يظنون أنهم ماتوا . من أين جاؤوا ؟ من الكتب والقواميس والمخطوطات العجيبة ؟ من الهزائم المفجعة ؟ من كلمات تهرب من عين السلطان ؟ من أين جاؤوا ؟ من عصير الكرم وشهد النحل والعسل واللوز المر وعظام القيامة ، ولا يموتون ؟ كيف يعودون وقد طُحِنُوا وكتب التاريخ المغلفة بالقطيفة أسقطتهم عن آخرهم ؟ لا يُعْقَل ؟! أخذتنا الحكاية حتى أننا لم نسأل كثيراً إذا كان هذا الرجل هو عبد الرحمن أم هو إنسان منتحل ؟

كانت الحكايات أكبر منّا . هذا المجنون يعيد تقاليد دنيازاد إلى الدنيا . كنّا جميعاً مشدوهين من الفاجعة التي كان يرويها . ولم نكن نعلم إذا كان يفك الرموز أم يقرأ من ذاكرته أم يروي من المصنف الكبير الذي فتحه بين يديه وقارنه مع الطلسم الذي سلمناه له . العلماء ، السادة الأنتروبولوجيون لم يحرّكوا ساكناً . كان بعضهم يسجّل الشاردة والواردة ، خصوصاً أوسكار . فقد أخرج آلته الكاتبة الصغيرة من الجراب الذي كان على ظهره وبدأ يسجّل ويكتب بسرعة فائقة . كان الزمن قصيراً ولم تكن لغة الرواية حاجزاً . كأنهم كانوا خائفين عليه من أن يتحلّل قبل أن يُنهي الرواية مثلما حدث مع الموريسكي المجنون الذي عندما انغلقت الدنيا في عينيه غادر كل الأماكن وانسحب باتجاه حفرته الأولى التي ظللته يوم الرعن ، يوم ضربته الشمس العمودية على رأسه ، أو الأمطار الغزيرة عندما كان يتجول على الشاطئ المكتئب . لا أحد يستطيع أن يصدّق أنه جاء من أندلس كانت تحترق تحت شهب محاكم التفتيش ؟! ولكن ها نفس المجنون يعود . من أين يأتون ويتوالدون كالدود الأزرق ؟ الرجل الذي أبادته كتائب الظلام التي أسسها الملياني من مريديه وحاشيته ومن داخل العمّال بعد أن أباد معظمهم لمحاربة الشيوعيين ؟ والوجوديين ؟ واللائكين ؟ والعقلانيين ؟ يعود محملاً بظلال العلماء والصوفيين الذين تركوا الدنيا ورَاحُوا يبحثون عن شيء آخر داخل الفراغ و البياض والأوهام المقلقة . شيء ما كان يدفعني باتجاه التصديق أن الموريسكي حقيقة وليس وهماً . هؤلاء المجانين يبحثون عن سبيل جديد للحياة ولو داخل المشقة والوهم . لم يكن فراغاً ولكنه كان علامةً ، علامةً تُوصل دلائلها إلى الناس حتى ولو كان هؤلاء من ورثة الملياني . يقول إنه يعرف أن عمر الأعداء قصير لكن الدنيا هي الدنيا . تضحك هنا . تسخر هنالك وتبكي هناك . فلماذا يحزن الناس عندما يهزمون في البدء وأوّل مرة وكأنهم يتصورون أن الدنيا ترمي نفسها بين أحضانهم بحسب ما يشتهون ؟ ما هذه الدردشة ؟ اللحظة ؟ الفوضى ؟ التي أدخلني فيها هذا المجنون ؟

ـ نريد أن نعرفك أكثر أيها السيد الكبير ، هل الكتاب لك ؟ من تكون ؟ أي عبد الرحمن أنت ؟ الكواكبي ؟ ابن خلدون ؟ المجدوب ؟ الجيلي ؟ الداخل ؟ منيف ؟ شَرْقُو ؟ فيك شيء من كل هؤلاء أيها السخي بتأويلاته وحكاياته .

نطق أوسكار وهو يستفسر بنوع من التردّد و التودّد . كدت أنسى أنه موجود تحت كثافة الحكاية التي بدأها هذا الشيخ المسن ولم يتوقف .

ـ هل الأمر مهم إلى هذه الدرجة ؟ أنتم علماء أو على الأقل معظمكم . تستفسرون عن سر هذه الرموز . وها هي ذي الرموز والشارات والطلاسم قد فكت في معظمها و تحولت إلى حكايات كاملة . قد أكون كل هؤلاء ولكنّي في نهاية المطاف لست إلاّ رجلاً بسيطاً . عبد الرحمن فقط . مجنون النساء كالمجدوب . مضّاد للوباء النفطي كالمنيف . أعتز بأمجادي كالداخل ومجنون التاريخ والحكاية والعمران كابن خلدون . مولع بسحر الكلمات والشعر والصوفية كالجيلي ، أعشق وطناً يقتلني كَشَرْقو . رافض لقهر السلطان وطغيانه مثل الكواكبي . تخيّلوني كما تَشَاؤون . وها ما زلت داخل هذا القفر أرفع يدي إلى السماء وأصرخ بأعلى صوتي على عكس المسيح : يا الله!! لماذا لم تتخَلَ عنّا قبل هذا الزمن ؟! كانت الفرصة بين أيدينا لصناعة عالمنا ، الآن جَمدوا أمخاخنا . قصُّوا أيادينا . أبادوا أحلامنا . ثم تخلّوْا عنا وكأننا لم نكن . ها هي ذي المدن الزرقاء تتهاوى الواحدة تلو الأخرى فمن يستطيع إنقاذها ؟ لقد صارت مدناً للريح والخلاء .

لنختصر الحكايةَ .

كنتم تريدون فكّ الرموز وها هي ذي تُفَكُّ . . الواحد تلو الآخر . المكاشفات تتوسع كلما شارفت على نهاياتها . اصبروا قليلاً . لم نفك حتى الآن سوى باب الأنفاق من المخطوط ويليه باب الأقواس .

* * *

- V -

لملم الشيخ عبد الرحمن كومة الأوراق التي تراكمت قرب عينيه على المكتب القديم . وضعها على جنب بعد أن نظمها بإتقان وضمَّها إلى المخطوط الكبير الذي أخْرجه من المكتبة . ثم أخرج البقية التي لم تقرأ وقربها من نظره . كم مرّ على هذه الأوراق من الأزمنة المتعاقبة . زمنٌ يأكل زمناً . ودنيا تأكل دنيا . وبشر يأكلون بشراً .

ظلّ صامتاً حتى بادره أوسكار من جديد .

- كان بإمكانك أن تحكم البلاد بقلمك ، فلماذا تركت نوحاً يموت ؟ هذا إذا كنْتَ أنت حقيقة عبد الرحمن ؟

- السلطان لا يهمّني مطلقاً . كنت مهتماً برضى قلمي ، والناس والبلاد . ليس هذا باب هذا الموضوع . خلّني أحدثُك عن باب الأقواس .

بدأ يفلي ما بين الكلمات ، داخل الأوراق التي كانت بين يديه . كانت مكتوبة ومدوّنة بخطّ مغربي رقيق ، مملوء بالسواد الذي كان

يغطّي بعض علامات الوقف . قربها من عينيه من جديد ثم فَتَحَ قلبُه على الكشف والقراءة .

تمتم . اسمعوا ، هذا هو باب الأقواس . كان اليوم رمادياً عندما بدأت المدينة تندثر وتأكل سكانها بتلذذ كبير . ومعها كانت تتهاوى الأحلام الصغيرة والكبيرة . حماقة تافهة يمكنها أن تحرق الدنيا وتجرّ الهلاك للمدينة وسكانها . عندما يتعلق الأمر بالدفاع عن الأناشيد والنور والكبرياء تصبح المكابدة أم العين ورأس التفسير وتنسحب النيّات الطيبة نحو الزوايا المظلمة . نوح كان ينوي بناء مدينة لا تلمسها عين الخراب . شوقه كان مذهلاً ونادراً تجاهها . لكنه في النهاية أنتج خلاء ، وأكل مدينة ، وصحّر ما تبقّى . النية الطيبة . تلد الكارثة الكبيرة . في ذلك اليوم الرمادي نفسه سُيّجت كل مداخل المدينة ومخارجها . نزلت الدبابات الكثيرة والعساكر والجندرمة والمليشيات المرتبطة بالقصر مباشرة ، ضمن جوّ من التَعبئة العامّة لمقاومة الهجوم المباغت في وقت كان فيه نوح يبحث وحيداً عن خطئه اليائس . هل يمكن للنار أن تنجب لهيبها بدون اشتعالها ؟ كان يتقلّب ويتضوّر مصروعاً بعد ما عرف أن كلبه عنترة قُتِل مسموماً وأن اليد التي وصلت إلي كلبه ، تكون قد جرحت سرّه . اقتنع أن موته وشيك ولم يبق أمامه إلاّ الانطفاء وقوفاً على قدميه وبكل كبرياء . عَضّ بكل قوة على ظاهر يده اليمنى حتى أدماها . كانت العضّة ذاتها مسمومة . وهل يضيرُ السُمَّ سمٌّ ؟ بينما الملياني كان وقتها منهمكاً حتى أذنيه في إصدار البيان تلو البيان ، بدون توقف ، بشكل أحرج به حتّى الدول المتقدّمة والجيران ، خصوصاً فيما يتعلق بحقوق الإنسان : يا أيها الشعب الكريم . عالي الهمّة والدين . صاحب الشأن العظيم والسرّ المكين ، الذي لا يلمسه إلاّ ذو البرّ والنّزاهة وتابع التابعين . لقد أعطيت أوامري . وأغلقت كل مسالك الظلم والقيامة وفتحت أبواب الرحمة والدين والجنة عن آخرها . فمن تخطّى عتبة الملياني ، فهو سالك آمن . منعتُ نهائياً الاعتقال . أعطيت أوامري بتحطيم كل السجون ، لينعم

المواطن براحتِه في وطنه . حتى المعتدون سيؤخذون لصالات إعادة التربية ، يتعلمون فيها فنون الحياة ويتدربون على معرفة أبواب الله والسلطان . . . لا يوجد في أمصار الدنيا قاطبة من أقدم على هذا . فشؤون السلطان من رضا الرعية ورضا الرعية من شؤون السلطان . . .

بالفعل ، لقد شرعت دبابات الملياني وآلياته الثقيلة في تحطيم القلاع القديمة و ما بقي واقفا منها حوِّل إلى سجون سرية . وعندما اقترب علماء الحفريات في المدينة والمنتظمون في جمعية الدفاع عن تراث المدينة من الملياني ، قالوا له : يا سيدنا الكبير . هناك قلاع قديمة جداً ، هي تاريخ المدينة ومجدها وكنزها الدفين ، يتم الآن تحطيمها عن آخرها بحجّة أنها كانت سجوناً ، والمفترض يا سيدنا الكبير أن تحوّل إلى متاحف كما كان قد وعد سيدنا الشهيد نوح . فردّ عليهم بسخرية وقبح :

- يا حمير! نُحطّم قلعة أو قلعتين أمام الرأي العام . أما البقية! أنتم مجانين ؟ فستبقى سجوناً كما كانت . سيأكلنا هؤلاء الهمج إذا لم نضبطهم .

وبتدميره لبعض القلاع ، كان قد فتح سرياً مجال التصفيات الجسدية السريعة والمباشرة لأن "كتائب الظلام" المكونة من مواطنين عمال وغير عمال وأجانب ، كانت تصفي الناس بحسب القوائم المتوفرة لديها ، والمقتول يدفن في مكان اغتياله ثم يسوّى المكان وكأنّ شيئاً لم يكن ، أو يقاد المتهم إلى حديقة الحيوانات وهناك يكتّف مثل خروف العيد و يقدم حيّاً للحيوانات الجائعة . أغلق بعض القلاع ودمّر بعضها لكن تحتها فتح الأنفاق النتنة التي يموت فيها الإنسان بالتقسيط إذا لم تبده مباشرة "كتائب الظلام" . كانت الأمنستي الدولية (منظمة العفو الدولية) تصدر القرار تلو القرار اعترافاً وتمجيداً بالخطوات الجبارة التي تجاوز فيها الملياني الدول المتقدمة التي تدّعي المدنية هاهي ذي المدنية تَنْشأ من العالم الثالث عندما يثق الحاكم في شعبه وفي نفسه ويبني

سلطانه على العدل ومناهضة الظلم والضغينة . . . كان الناس يخرجون زرافات ووحداناً إلى الشوارع لتأييد المراسيم الدولية والمحلية ويطالبون بوضعه نهائياً على رأس الدولة (لأنه كان يسير شؤون البلاد بالنيابة ، بعد وفاة نوح) . بعد نهاية الرجل الطيب نوح الذي فتح الطريق أمام الجمهورية الفتية التي يجب أن يستمر وجودها حتى لا تموت . لكن الملياني كان دائماً يقول في أعماقه ، لتمت الجمهورية . في ستين خراب . شهريار كان غبياً ، ولكنه أوجد نظامه الذي يحكم به أغبياءه ولا يزال إلى اليوم صالحاً . لنمثل مع الجميع وننتظر الضربة الكبيرة . وعندما تنزل ورقة التوت ، أكون وقتها قد انتهيت من كل الترتيبات . نظام الجمهورية يحتاج إلى ديمقراطية الليبرالية وإلى صراحة الملكية وحكمتها ونَبَاهتها .

في الخفاء السرّي كانت المدينة مسيّجَة و"كتائب الظّلام" تمشط الشوارع بيتاً بيتاً وزقاقاً زقاقاً وحجرة حجرة . لكن في الواجهة ، كانت برقيات المساندة تأتي من أمريكا ، الاتحاد السوفياتي ، إفريقيا ، البلدان العربية ، السلفادور ، المكسيك . . . تؤيد الخطوات الجبارة باتجاه استعادة حقوق الإنسان وتمجد النظام الجديد الذي يتزعمه الملياني والذي كان يَستَأصِلُ بقايا النظام الكُلّيَاني système totalitaire ويحل محله نظاماً تعددياً ، ديمقراطياً رغم المخاطر المحدقة التي قد تقود البلاد إلى الفوضى والصراعات الجانبية . كان الملياني ، كلما انتهى من خطاب متلفز ، حماسي واندفاعي ، ينزوي مساء ، منهكاً ، ويختبئ داخل المرحاض الرخامي القاشاني ويبدأ في تحسس غدد البواسير المنتفخة مثل حبات البصل ، يضع المراهم على إصبعه الوسط ، ثم يدخله عميقاً بنوع من الخجل واللذة ثم يحرّكه داخلياً ويتأوه مثل الذي يجلس على خازوق من خشب ، وعندما ينتهي ينام على ركبته في حالة استرخاء نادرة يتحول فيها الألم إلى لذّة . ثم يذهب لينكفئ على بطنه . يبحث عن أي مشهد يختبئ فيه خارج الدم والخوف ولكنه لا يجد إلاّ الدم والخوف . عيناه تمتلئان بسرعة ، بالرعب والهرب من الظلام .

"من قال إن الحكم سهل ؟" .

وفجأة يجدها . تأتيه ناعمة وهو يضغط على البواسير تفادياً للألم . هاه! الغرب ؟! مُضْحك جداً هذا العالم المقلوب! حضاريون! ؟ أقسم برأس الوالدِ المندثر ، إنهم لم يفهموا شيئاً في العقل الشرقي . لا شيء يشغلني سوى الحكم والجاه وبعدها طزّ في الدنيا بكاملها وطزّ فيما تحتها وفوقها . من أراد أن يضمن حياته ويطيل في عمره فليصمت ومن أراد أن ينتهي فليفتح فمه . هكذا الدنيا . عندما بدأ عبد الرحمن يحشر أنفه في ما لا يعنيه ويحاول أن يوقف مشروع تدمير العمّال والعلماء ، ونبه نوح الذي بدأت شكوكه تزداد . جاءني الأصدقاء سرياً . كنت أنسق معهم بكل جدٍّ ونباهة . العمق هو استعادة ملكي المسروق . قالوا لي ارحل باتجاه مدن الغرب . تظاهر بالتعفف عن السلطان والغضب ولا تعد إلاّ إذا دقّوا هم طبول العودة . وقُمْتُ بما أُمِرْتُ به . تركتُ كل شيء ، وفي قلبي شيء من الخوف . لكنهم كانوا يعرفون البقية . عانقتُ نوح وأنا أبكي (أتظاهر) . قلتُ له : سيدي نوح ، أتمنى أن تسعد بغيري . قدمتُ ما عليّ . لا تلمني . لك عبد الرحمن . يريد أن يتفرد بك . ليكن . لا أستطيع العمل داخل الشكوك .

كان حزيناً . أتذكر عينيه الطفوليتين . لم يوقفني ولكنّي شعرت أنّ السهم قد مسّه في داخله ورحلت باتجاه مدن الوضاءة والشوق والحنين وبدأت الرسائل تنزل عليّ الواحدة تلو الأخرى ، ترجوني أن أعود إلى أرض الوطن . البلاد كانت قد بدأت تدخل في الفوضى . أصدقائي كانوا محقين تماماً . لم يكن في نيتي قتله ولكن عزله بهدوء وتركه يموت مثل الدابة . لكنهم أصروا بعنف : للرجل قوة روحية وتاريخ مُؤذٍ ، عليك أن تمحوه قبل أن يكبر ويصير مستحيلاً . قلتُ :

ـ ما العمل إذن ؟ .

قالوا :

ـ أُقتلهُ . نوح خطير على دنياك وقيامة على دنيانا .

ـ لكنه شيخ . أبٌ للرعية وقد نحتاجه .

ـ السلطان هو السلطان . غلطة بسيطة تخلط أوراقك وأوراقنا .

ـ وهل من الضروري قتله ؟

ـ دبّر راسك . هل تريد أن تحكُمَ أو تُحكَمُ ؟ .

ـ طبعاً أريد أن أحْكُمَ .

ـ الحكم والسلطان صنوان للموت والقيامة .

ـ ومن يضمن لي البقية ؟ .

ـ كتائبنا وأجهزتنا فهي تحت أمرتك .

ـ مقابل ذلك ؟ .

ـ نفطك وغازك وموادك الأولية فقط . مدينة الزيت و لا شيء غير مدينة الزيت .

ـ حاكمها رأسه غليظة .

ـ أطلس الظواهري ، نحن سنتكفل به .

قلتُ في خَاطري ما قاله شهريار بن المقتدر وهو يحسب لياليه المتبقية : لأعِشْ أنا وبعدها ، طزّ في أولاد الكلبة . أوكلهم من لحمي وبعدها يَدُورون عليّ . لينشف الأصدقاء ريق هذه البلاد . أعيش فوق الريش وتحت السحاب وعندما ينعق بوم البين لاسترجاعي أكون قد عشت ما فيه الكفاية . ورثت كل حماقات وجنونيات شهريار بن المقتدر في السلطان لكنّي لم أرث مطلقاً سذاجته مع النساء . لم أكن في حاجة إلى امرأة تقصَ عليَ أحسن القصص أو قصص الأولين ، كما فعلت معه دنيازاد وقبل ذلك فعلت شهرزاد مع جدي النائم على خدّه الأيسر ينتظر عودتها للحكاية ، بينما تكون هي غارقة في شأنها مع حبيبها . قلتُ ونَفَذْتُ ما قلتُ . الزوجة للولادة وبعدها لتندثر . لم أكن في حاجة

إلى النوم على صدرها لأقتلها أو تقتلني . منذ اللحظة الأولى ، كانت النهايات محدّدة سلفاً . ظللت أنتظر منها ابناً . وافقتني بدون أن تعرف البقية ، وليس شرطاً أن تعرف البقية . قالت : نريد من يرث عرشك وليس من تورّثُه عرشك . قلتُ أنتِ تقرئين دائماً مَا في خاطري . بعد مجهود مضنٍ أنجبت بنتاً . كان وجهها أصفر مثل الليمونة . ولدتْ مريضة باليرقان . قلتُ ماذا نفعل . قالت . تصرّف حتى أنا لم يعجبني وجهها . كانت لا تزال في فراش النفاس . في المساء نفسه رميتُ البنت في مطحنة الكاشير . أكلتها أمها بتلذذ ، رغم تنبهها إلى أن الكاشير هذه المرة كان مالحاً قليلاً . فنحن نصنعه داخل القصر نفسه . كانت تتلذذ وتدوِّرُ عينها يمنة وشمالاً ، وتحاول أن تمصّ وتستمتع بالملوحة الزائدة التي تعود عليها فمها بسرعة . لم تكن تعرف أنها كانت تأكل لحم بنتها ، ولكنها لم تسأل كذلك عن سرّ الملوحة و لا عن ابنتها . في المرة الثانية ، فكرت أنا في قتلها لكنّي خفت من انفضاح الأسرار . أنجبت بنتاً جميلة . لكن أي جمال مع ثقب يورّث الغير ولا يرث شيئاً ، ينتظر قضيباً مختبئاً في مكان ما ، يغتصبه ويغتصب ملكه . كادت تموت . فقد ولدتها ولادة قيصرية . كانت ثقيلة ومُعَمَّرة . لكن الطفلة كانت تصرخ كثيراً منذ يومها الأول . كنت في لحظة الغفلة قد غرست إبرة في لحمةِ مؤخرتها حتى تورَمت . كانت تحبها ، لكن البكَاء كان يعذبها هي كذلك . وكان عليَ أن أسرع في قتلها قبل أن ترتبط بها وتضطرني لقتلها هي كذلك قبل الأوان . لكن الصراخ المتوالي للصبية جعلها هي نفسها مرة أخرى تترجاني أن أتصرف بسرعة قبل أن يعرف الناس والمربيات في القصر وقبل أن ترتبط بها نهائياً . لم أفكر كثيراً . في المساء البارد نفسه ، دفعت بها إلى المدفأة الآجورية القديمة ، ثم أغلقت زجاجها الغليظ ، وبدأت أتأمّل وجهها وهي تفتح فهما وتذوب مثل قطعة بلاستيكية . صرخاتها كلها كانت مكتومة ، تنتهي بسرعة داخل المدفأة . في البداية خرج الزبد من طرفي فمها ، لكن بعدها نشف ريقها وظلت تتفحَم وهي راشقة عينيها فيَ بقوة . لعنتها بعد أن

اضطررت إلى أن أبعد عيني عن عينيها ، ولعنت الشيطان الرجيم الذي يسكنها . لم تكن أمّها مبسوطة مما كان يحدث أمام عينيها ، لكنها كانت تذكر أن خياراتها قليلة أو ربما غير موجودة باستثناء هذا الاختيار الذي يبيد كل أثر .

في المرَّة الثالثة ، أَنْجَبَتْ ذكراً ، كانت فرحة وظلت تصرخ بأعلى صوتها . هوراه! هوراه! لقد أصبحت أُمّا . لقد أصبحت أُمّاً . لكن قبل أن تصل إليّ ، كنت قد أعطيت أوامري . أخذت إحدى المربيات منها الطفلَ ، رشقت عينيها فِيَّ وقبل أن تعرف سرّ الدهشة ، والجملة المقطوعة ، أخذها أحد عبيدي الأقوياء ، من رأسها الصغير ثم ضربها على الحائط الإسمنتي المشقق بكل قوة حتى انشق دماغها على اثنين وبدأ مخها يرتسم مشكلاً خطوطاً سوريالية متقاطعة و دوائر لزجة ، بيضاء ، ممْزوجة بحمرة مخثرة . ثم تهاوت مثل الكتلة الحديدية . لم تصرخ . لم تقل كلمة واحدة . واجهت مصيرها ببلاغة نادرة . الصمت والدهشة ، بينما انسحب العبد وهو يمسح يديه على سرواله الأزرق من مخها الذي التصق بأصابعه . هذا الفعل أراحَنِي كثيراً . وبدأ ابني يكبر في عزّي ضمن عالم الملوكية . وضعت له زنجية لترافقه وتربيه . تَكبره قليلاً حتى لا يكرهها ، ولا يحبها . دمه ليس دم الزنوج . وللسلطان حيثياته وخصوصياته . كانت الأجهزة العملاقة قد بدأت منذ مدة تمتصَ النفط والغاز والخيرات الباطنية . ومعها بدأ الخير يعمّ البلاد عن آخرها . الشركات التي حطت رحالها للاستثمار لم تكن تُحصَى . وظلت تعمل بدون توقف ٢٤/٢٤ وبفرق متعددة ومتناوبة من مهارات وطنية . كان هذا شرطي الأساسي لامتصاص اليد العاملة المحلية والتقليل من البطالة . وعمّ الخير النفطي أرجاء الجملكية التي عادت إلى نشاطها بعد أن جمدها نوح مدة من الزمن . كل شيء أصبح يُسيَّر بعقول الكترونية ، كان الملياني يملك بعض أسهمها وتحمل اسمه .Electronic Meliani and co وأغرقت البيوت بالأدوات الألكترونية المستوردة أو المصنوعة محلياً . وفجأة ظن الناس أنهم أصبحوا دولة متقدمة انتقلت مباشرة من الرمال

إلى إنتاج الألكترونيات الدّقيقة والأشعة الخضراء ، والجينات . فقد ناصر المولاني العلوم الطبيعية والطب . السيارات ، كان معظمها ينتج محلياً بسبب اليد العاملة الرخيصة . وجدت نوميدا-أمدوكال نفسها فجأة أمام الحداثة بعدما كانت تنام تحت ظلال الحيطان القديمة . الكهرباء أصبحت شائعة ، بعدما كانت خاصة ببعض المحظوظين . لا تنقطع إلاّ إذا مرّ المولاني بحي من الأحياء لضرورات أمنية . هذه الضرورات التي لم يفهمها نوح النيّة . فقد قُتل منذ أن وطئت رجلاه السلطان . إذا أردت أن تحكم أشعل الدنيا . أشعلها بدون تردد ، ثم أبْرزُ أنت كمنقذ . هي نظرية كيسنجر في الحقيقة و لصلاحها تبنيتها La mise à chaud. سأحسس أبناء الكلب بالعدوان الوشيك وأجندهم عن آخرهم باتجاه الوهم المطبق . ولهذا فالتليفزيون لم يتوقف طوال الأيام الموالية . فقد ظل يبثّ الأناشيد الوطنية ويكرّر بشكل دائم بأن البلاد تتعرض على كافة حدودها الغربية لعدوان خارجي مكثف من جهة غير معروفة مدعَمة بعملاء البلاد من العمّال والعلماء .

كانت هذه هي التهمة المناسبة التي أوجدتها عبقرية المولاني لتصفية عقل وجهد المدينة ، وتركها عارية من كل مقاومة . العمّال فتتهم من الداخل ، فقد كان يعرفهم ويعرف التفاصيل الخفية بينهم ولكنه لم يستطع اختراق حاجز العلماء ، فسخّر وسائله العصرية لإبادتهم طائرات . دبابات . شاحنات ، قنابل مخترقة للبطون المسلّح . أشعة اللاّيزر . كلها جُندت لليوم الموعود . كان هو شخصياً يشرف على عمليات الإبادة . أقسم . قال . والله لن تخرج منهم أذن سالمة . من استطاع أن يخرج من الدمار سيُلقى عليه القبض مثل الفأر . واللي مات الله لا يرده . في ستين داهية . الانتهاء من وباء العمّال والعلماء ضرورة تاريخية ودينية . الوهم المطلق الذي أرق شهريار بن المقتدر . هاأنذا أُتِمّ نعمته . تدمير تاريخ المدينة يجب أن يُغطّى ببعض الحريات الفردية والدعاية . العالم المعاصر تحكمه الدعاية لا غير . بإمكانك أن تحول صوفياً إلى طاغية والطاغية إلى صوفي والذئب إلى خروف ، والخروف

إلى ذئب والثعلب إلى أرنب والأرنب إلى ثعلب وهكذا الدنيا . ولهذا ، ضرب الحية يبدأ من رأسها . العلماء نصفهم شيوعي . العمّال متعاطفون معهم ، لا يقتلهم إلاّ أعداؤهم .

وبدأ ينشط "كتائب الظلام" التي لم تكن ترحم لا صغيراً ولا كبيراً وغطاها بكل الأغلفة الدينية . من يحكم الدين ، يحكم السلطان . وسنَ قوانين جديدة تسهل بناء المساجد في كل الأحياء لأداء الصلوات الخمس في أوقاتها . وتطبيق الشريعة كلما كان وراء الأمر ضرورة . تقطع اليد ؟! تحزّ الرقبة ؟! ترجَمُ السيدة والآنسة ؟! يطرد خارج الدنيا من لا دنيا له ؟! وهكذا . وبدأ في تنفيذ المحاولات الأولى للمشروع تحت تصفيقات العامّة وهم يصرخون ملءَ أصواتهم : هاهو ذا صلاح الدّين ، حامي الحِكمة ، والمِلّة والدين . قُطِعَتْ يَدُ رَجُل رَأَتْهُ كتائب الظلام وهو ينوي بعينيه سرقة قطعة خبز ، كان وراء زجاج المخبزة . تمَّ رجم امرأة ، أقسمت "كتائب الظلام" إنها رأتها تراود رجلاً . ثم أخذته إلى بيتها لتضاجعه وتتقلب على صدره كالشعلة . كانت لبوءة ملتهبة . وعندما اقتحموا عليها البيت ، تقول الكتائب ، وجدوها عارية . طلبوا منها بل هددوها لكي تبقى على وضعها الأول ، ومرروا خيط الشهادة بين الجسدين الملتصقين ، فلم يمر الخيط عند الحجر ، وكانت الحشفة منغرسة في الفرج مثل القلم في الدواة . ولهذا وجب رجمها هي بالذات ورجم مرافقها لاحقا . عندما وقفت أمام القاضي ، كانت متأكدة من ربح قضيتها . سألها : ماذا تعملين . قالت : أنا أستاذة الرياضة البدنية يا سيدي . مسد على لحيته ثم قال : تدربين الرجال أم النساء . قالت بثقة كبيرة وهي تمصمص شفتيها الممتلئين . أعمل أنا وخطيبي . ندرب الذكور والإناث مختلطين . قفز من كرسيه كاللعبة الرديئة . يا بنت الناس . الاختلاط حرام ويعاقب عليه القانون بدون رحمة . ثم التفت إلى المتهم ، وهذا الرجل ؟! ما علاقتك به حتى تنامين معه ؟! هو خطيبي يا سيدي ، الذي حدَّثْتُكم عنه . وبيننا دفتر عائلي . أنا زوجته إذن . أرأيت يا سيدي . لقد ورطوا أنفسهم وسأحاكمهم أنا بتهمة

الكشف عن المحارم . صمت القاضي لحظة من الزمن ثم قام من مكانه بعد أن اصفرّ وجهه ثم صرخ في وجهها بأعلى صوته : يا بنة الزنا . هل دقت الدفوف ، وأشيع زواجك ؟ أجابت بدهشة . لكن يا سيدي! قلبي وجسدي وروحي له . ما قيمة الدف والطبل والمزامير . ثم الدفتر العائلي ، وحياتك لسنا مقتنعين به . استخرجناه إرضاء لتقاليد الرداءة و قرأنا الفاتحة لتحليل العلاقة . ردّ عليها وهو يغلق ملفها . ليكن . بدل أن تعتذري تَرْكبينَ رأسك . مكانك قبر مفتوح عن آخره وستكونين غواية سكان الحارة وهم ينتقمون لشرفهم المداس . ثم أخرج النص القرآني وقرأ آية الرجم . قبل أن يصدر حكمه النهائي ، كان كل شيء قد صار مظلماً . انزلق لسانها داخل حلقها . لم تقل ولا كلمة واحدة . ولكنها ظلت تقهقه حتى النهاية . في لحظة من اللحظات فكر الملياني بعد أن علم بالقضية أن يقوم بما قام به الرسول عندما جاءته امرأة تصرح له أنها زنت وأنها حامل ، فأطلق سَبِيلها حتى تلد . لكن مع الزمن الذي نعيشه ، هذه المجنونة تنام مع عشيقها بدون أن تتعرض للحمل ؟ فبدا له الموقف غير مقنع . لتكن عبرة للقادمين الذين يكبّرون أجسادهم عن سيدهم الكبير . مع ذلك ظلّ يفكّر في جسدها الذي عُرِّي عن آخره ، بينما ظلت هي تُرْجَمُ ، وتتلقى الحجارة الحقودة حتى رُدِمَتْ عن آخرها ، وهي لا تزال مشدوهة فيما كان يحدث لها . في الصباح الباكر ، ملأت صورتها الجرائد الوطنية التي انفردت كلها بالعنوان المشترك الذي خُطّ باللون الأحمر : الديمقراطية والقصاص . "كتائب الظلام" التي تأسست بسرعة ، وفي الخفاء كانت هي التي تحتلّ الإدارات والسجون وأمكنة الشرطة ووزارة الداخلية والمساجد التي تحولوا داخلها إلى أئمة ملتحين برشاشات "البريتا" تحت فوقياتهم . كان الملياني في الحقيقة ينفذ بشكل محموم مقترحات أصدقائه الكثيرين الذين يتعامل معهم ، بل ويدخل معهم في شراكات كثيرة في الصناعات الخفيفة والثقيلة ، وفي مستشفى الملياني الأعظم الذي يمول بالأعضاء المستشفيات الكبرى ، وشركات النفط واليورانيوم والمخدرات التي بدأ أطلس الظواهري ينافسه في

طرقاتها الجبلية . قال له أحد أصدقائه المقربين ، إذا أردت دوام السلطان أضرب كل رأس تريد أن تكبر وإلاّ ستكون من الخاسرين . أَثِر النعرات الميتة واستعد أمجاد الدين وأقبض على خيوله بين يديك . وكلما وجدت فرصة لإدخالهم في أهوال القيامة والتخريف ، أدخلهم بدون تردد سيتركونك أنت ودنياك . أعصف بكل شيء ولا تتردد ، عندما يطمعون في رأسك .

- لكنهم طماعون كبار ؟

- ليكن . أنتَ لست أقلّ طمعاً منهم ، لكنك سيد الموقف . كلما رأيت رؤوساً أينع قطافها ، اقطفها . العلماء والعمال ، هم خطرك الكبير .

بدأت مسارات التوجهات الكبرى تَتضح ، وبدا الأمر شبه مؤكد ، أن البلاد مقدمة على مرحلة مضنية وأن اشتعالات كثيرة ستملأ الفراغات والبيوتات التي لم تعد تهمّه إلاّ كفضاءات للنهب والاستنزاف . مرت سنوات على الرفاه الوهمي . مما جعل الملياني على رأس كل لسان قبل أن تتراجع الأفراح بعد انكشاف بعض أسرار المستشفى في المجلات والجرائد الدولية ، وانهيار سوق النفط العالمية . بدأت المجاعة تهدّد أسوار نوميدا-أمدوكال ، وتقهر بيوتاتها الخلفية . كل شيء بدأ ينزف والقلوب تزداد ضيقاً . والآلام تزداد اتساعاً ، من مدن مفتوحة إلى مدن ضيقة ، من شوارع واسعة إلى أزقة مغلقة ، من العسس المنظم ، إلى "كتائب الظلام" المتمردة . لم يجد الملياني ما يقدمه للمدينة سوى المزيد من الابتئاس واليأس . حتى خطاباته اليومية بدأت تقل وتصبح نادرة وكلما أطل من شرفة القصر ، وجد الشوارع تتجشأ بالبشر المضادين له وهم يصفرون مع الأطفال ويرفعون الشعارات . الملياني Assassin ، الملياني Criminel ، الملياني Corrom-pu ، الملياني طحّان . . . يغلق النوافذ ثم يتراجع قليلاً . يتأمل محيطه الذي بدأ يفقده . يفقد ألقه وفرحه . يتذكر كلام أصدقائه الكبار :

أَشْعِلِ الحَرْبَ ضِدَّ أطلس الظواهري . لم يبق أمَامك سوى هذا الحلّ . وطن صغير ينام على بركة من الزيت .

مصمص شفتيه مثل القط الجائع . استرجع كل هذه التفاصيل ليصل إلى النتيجة التي كان الآخرون يريدونه أن يصل إليها . والله لقد صدق الأصدقاء ولو كذبوا . حتى فكرة تفكيك كتائب الظلام لم تعد واردة . أَصْبَحَتْ كثيرة و طاغية والسيطرة عليها تحتاج إلى حالة استقرار . بالهداوة و الذكاء . يجب توجيهها نحو الحرب الوطنية الكبرى التي ستقوم ضد الظواهري . رأس الخيط لا يزال في يدي .

بدأ يفكر من جديد في كل الأشياء الدفينة . ضَرْبُ الكتيبة . الصديق بالصديق . الرجل بالرجل . المرأة بالمرأة . الرجل بالمرأة . المرأة بالرجل . العرش بالعرش . الحي بالحي . الحل اتضح بسرعة و زكاه الأصدقاء . رفع بعض كتائب الظلام إلى السماء برتب عسكرية لم تكن تحلم بها أبدا ، وأنزل بعضها إلى الحضيض . يومياً كانت تصله الشكاوى وآلاف التشكرات من الكتائب . وأخلط ما يخلط وما لا يُخْلَطُ . ثم بدأ يفكر باتجاه إشعال المدينة دَاخِلَ صراعات جهوية ، عرقية ولغوية . قال له الأصدقاء بهذه الطريقة تضمن أمنك الداخلي و تدفع بأبناء الكلب نحو جهنم . وبالحرب الوطنية تَضْمَنُ أنْتَ نفسك وأمنك الخارجي وحياتك المهددة ورخاءك . وعَمّقَ فكرة الاعتداء الخارجي ؟ الذي كانت تتعرض له البلاد بالصور اليومية والفجائع التي كانتْ تَرْتَكِبُها كتائب الظلام ، ويلبسها لقوى غامضة موجودة على الحدود ، تريد استعمار البلاد وتركيعها . ثم بدأ فجأة يتحدث عن أطلس الظواهري الذي كان وقتها قد استقل بالقناة الثانية و قطع عليه كل الطرقات الموصلة إلى حقول المخدرات في المرتفعات . ركز الملياني في كل خطاباته اللاحقة على مدينة الزيت التي سُرقت من الوطن الأمّ و استفرد بها بعض الجشعين لتجويع البلاد . لكن كل هذه المحاولات التي جُنِّد حولها عدد كبير من السكان وجهازا الإذاعة و التليفزيون ، لم تمنع قيام بعض المظاهرات هنا وهناك ، التي كانت الكتائب لا تتوانى عن قمعها وإبادة

رؤوسها . تتدخل بعدها قوات الجيش النظامي ، فتدمر الجيوب الأخيرة من المظاهرات و تستغل الفرصة لمحو الكتائب المنهكة . كانت أسباب الحروب الصغيرة تبنى على خلافات دينية ، عرقية ولغوية و جهوية و أحيانا عنصرية وكلها كانت مدعمة من جهة ما داخل القصر . وعندما تتهاوى كل القوى الواحدة بعد الأخرى ، يخرج الملياني على الجميع كرجل الوحدة الوطنية . وفي المساء نفسه تعيد الأحياء المنتصرة والمنهزمة مبايعته من جديد . وعلى الرغم من الأمراض المعدية الكثيرة التي أعادت إلى نوميدا-أمدوكال ، فقد ازداد عدد الراضين على سياسته . حتى الأخطاء والمظالم ، كانوا يلصقونها بأتباعه وبحاشيته .

لكن في خفاء ما ، كانت تحضّر حرب مدينة الزيت . ومعها يُحضر مشروع إنهاك أطلس الظواهري وإخضاعه لنظام نوميدا-أمدوكال . لكن الملياني لم يكن يعلم أن جحيم الليلة السابعة بعد الألف كان يزحف بخُطا حثيثة وعمياء .

اعتدل عبد الرحمن للمرة الثانية في مكانه بعد أن شرب كأسا من الماء ، وضعه بجانبه الصياد الناجي من السقوط في هوة المصفاة القديمة . مسد على لحيته من جديد . لملم مرة أخرى ، كما فعل في المرات الماضية ، الأوراق المبعثرة أمامه و بدا على وجهه شيء من النّور والوضاءة . قال وهو يحاول أن يفتح عينيه من جديد ويعدّل من لباسه الفضفاض الأبيض ، ويسَوي من قعدته مرة أخرى :

- كان هذا مختصر باب الأقواس .

- إيه ، و من بعده ؟

لا أدري ما إذا كنت قد قلتها في خاطري أم تكلمت بصوت عال . الآن اتضحت الصورة بكاملها و لم يعد بالإمكان طمسها . أمي قتلت ، ومن قتلها ؟ عبد حبشي . يا للخيبة . كيف سمح لنفسه فعل ذلك ؟ ألم يكن أمامه حل غير هذا ؟ الملياني ولد الحرام ، كان دائماً يقول لي ، اسمع يا نوح يا أميري الصغير . أمك يرحمها الله (ويذرف دمعتين

صغيرتين) ماتت في ولادتك وهي تبتسم . عندما رأتك وعرفتك ولمستك ، فَرِحَتْ بموتها . آه يا بن الكلب . لا أدري كيف أسميك . لو فقط بقيت قَليلاً في الحكم لكنت استمتعت بقطع رأسك . ها هو ذا كتاب المدينة . المخطوط الشرقي ، يكشف في تفاصيله وأقواسه المضمرة عن اللغة والخوف الدفين . عبد يضربها على واجهة الجدار القديم ؟ ويلتصق مخها بالحائط المشنقر ؟ آه لو فقط يعود ذلك الزمن! ماذا سأفعل في كبول شهريار ؟ لو فقط يعود السلطان الهارب ، سأنتقم لأمّي من كل نساء الدنيا .

* * *

- VI -

ذو القرنين! ؟ أين أنت ؟ أنا هنا يا سيدي . الزمن تبدل كليا و لم يعد بالإمكان إهمال الليلة السابعة بعد الألف . إننا نعيشها بأقسى الأشكال و أكثرها بدائيةً و لا أحد استطاع زحزحتها . أهلاً بالفاجعة المختبئة داخل الدم والأحلام والكوابيس و بين الجلد و العظم . جدٌ حين ذهب محي في اليوم من الكتاب المدرسي و حطمت كل التماثيل المجسدة له في كل شوارع مدن الجملكية و لم يبكه إلا الذين لم يجدوا ممرا وسط الجموع الغفيرة لنزع لحمة من جسده يعلقونها في البيت كذكرى . و جد آخر أتَى ، كان يظن أن الليلة السابعة بعد الألف ، لعبة و لكنها أكلت رأسه في الليلة نفسها التي ظن فيها نفسه يتخطَى عتبات قهرها . وآخر سيأتي ، ورثت من جميعهم الحنين والهيام بالسلطان و دقة الملاحظة و رغبة استدراج الليلة السابعة بعد الألف بمزيد من الذكاء و الحيلة .

على الرغم من التمتمة ، كان صوت عبد الرحمن نقيا وواضحا :

- نواصل . هو ذا باب المدينة . فكل مغاليقه مسدودة و ظلماته لا تحد .

لم ينتظر جوابنا . كان قد فتح الكتاب و بدأ يقرأ و يفك الرموز المبهمة التي حواها المخطوط الشرقي .

الملياني وهو يتحسس قرني ابنه الأمير نوح اللذين بزغا فجأة كحمصتين تحت الجلد صرخ إعجابا و دهشة : هو ذا ابني الذي انتظرته طويلا . ابن الله . ابن الدنيا الذي أتَى في وقته سارقاً من جده شهريار ابن المقتدر صفة القرنين . الابن ولد في فترة الرخاء ، وظهر قرناه والبلاد تودّع نعيمها و تستقبل المجاعة التي بدأت تستشري كالمرض العضال . كان الناس البسطاء ، كل يوم ، كل شهر ، كل سنة ينزلون أكثر نحو أنفاق جهنّم الحتمية . بقايا "كتائب الظلام" تحلّل وتحرّم كما تشاء وتحول الدنيا إلى قيامة . أية قيامة عندما يموت الإنسان وهو يحلُمُ برغيف خبز وكأس ماء ؟ العمل صار موبقة من الموبقات لأنه ارتبط بالعمّال . والعِلْمُ صار بدعة و ضلالة ودجلا وبهتانا وإلحادا لأنه ارتبط بالعلماء الذين أسسوا أشواق قلعتهم على العلم والرواية والتدوين . وشَرَعَ الملياني في تزويد المكتبات الوطنية والبلدية والولائية بحصصها من كتب عذاب القبر ، ومشاهد القيامة والسّيدا والدين ، وابن تيمية ، وسيّد قطب ، ابن قيّم الجوزية ، تفسير الطبري ، رياض الصالحين و كتب النووي و الشيخ الغزالي و مؤلفات علماء بيشاور و فتاوى الطالبان . . . وأدْخلت هذه النصوص ضمن البرنامج المدرسي الوطني للمزيد من الأسلمة . ومُنعت كتب طه حسين ، وابن رشد ، وابن خلدون ، كتب الحكايات ، ألف ليلة وليلة ، المعرّي ، بشار بن برد ، المتصوفة بدون استثناء ، ابن المقفّع ، حسين مروة ، أدونيس . . . و كل الكتب الأجنبية وشاع تناول الكيف والزطلة . وامتلأت شوارع المدينة الخلفية بمعارض الكتب الدينية التي كانت تشرف عليها "كتائب الظلام" بالمساعدة الفعلية للديوان الجملكي . كلها مؤلفات ، ألغت الدنيا والعصر والحكمة وعوضتها بالخطب الملتهبة وحكايات الدّجال الذي ينتظر عند أبواب القيامة للنزول ، حتى صار الناس في الشوارع لا يتحدثون إلاّ عن الكرامات والمعجزات . الدولة لم تعد معنية باستيراد

الأدوية . جاؤوا بأحدهم في القناة الوطنية الوحيدة والمطلقة ، وبدأ يقدم وصفات الدواء من خلال نَبَاتٍ أساسي وهو الكْرُمْبِيطْ ، الذي تحول بقدرة قادر إلى نبتة شفاء الأمراض المستعصية . من مرض القلب ، إلى مرض الرئة ، إلى المعدة ، إلى الجنون ، إلى السيدا . ولا يتحدث المرتادون للأسواق الشعبية إلاّ عن اليوم الآخر والقيامة والخيط النَاعم ، الأحدّ من السيف والأرقّ من الشفرة الذي سيعبرونه . مع تضخيمات الكيف والزطلة ، أصبح الكثير من الناس يبكون قيامتهم ومصيرهم والعذاب المحتوم ، إذ لا شيء ينقذهم من بوابات جهنّم الحديدية وعذاب القبر سوى الاعتزال . اعتزال كل شيء . المرأة . الفراش . التليفزيون . الراديو . المائدة . الفرشاة . البراد . البيت . الكتب . العمل . والغرق في غمرة التربة ، والندب وتقطيع الجسد وإبادته ، قبل أن يبيده دود القبر . يتحدثون عن الجبل العالي الذي يجب أن يقطعوه زحفاً على الصدور والوجوه ، والأنوف ، وعن المرأة التي تحمل خطيئتها في جرح جسدها الأبدي وفي أنوثتها والمتسخة منذ ولادتها بنزفها الدائم ، التي ستعلَق من حلمتي ثدييْها عقابا لها . فهي لا يمكنها إلاّ أن تكون ناقصة عقل ودين وأمانة ، ولا يحق لها أن تضع الكتاب المقدس بين يديها . تسمع وتطيع وتخبّئ قدر ما تستطيع عورتها . جسدها كله عورة . وفجأة غيّرت المدينة هندامها ، وأصبحت "كتائب الظلام" ملتحية وكونت كتائب من الأخوات اللواتي اندفنّ داخل ألبسة رمادية ثقيلة . اللون مضاد للفضيلة والحشمة . يَجُبْن الشوارع ، وكلما رَأَيْنَ شابة سافرة ، اعترضن طريقها . يشبعنها ضرباً ، وأحياناً جلداً ، في الساحات العامة ثم عندما تَعْصَى أوامرهن ، يُرسلنها إلى التآلف والتدرّب على مركز التّحجيب وهناك ينجز لها حجاب ويسجّل اسمها بخط كبير ضمن قائمة التائبات ، الراجعات إلى طريق الله . وعندما تجد كتائب الأخوات امرأة بصحبة شاب تؤخذ إلى مركز التهذيب وهناك يُغسل مخُّها وترسل بعد ذلك طيعة إلى بيت أهلها . تكره العمل ، والرجل ، والدنيا ، والناس ، و لاَ تأكل مطلقاً من أيدي أهلها ، ولا تدخل فراش

زوجها حتى يغتسل بماء الجنة ويطوف على الصفا والمروى ثلاثين مرة ، أو يحمل أمّه على ظهره ويحج بها . وعندما تُؤْمَرُ و يقال لها اِنزعي من هذه الفاجرة قطعة لحم . تقترب منها ، وتلوي رأسها ثم تقطعه بسكين حادّة . أمّا المدارس التي تركت "لكتائب الظلام" ، فقد دمرت أنظمتها وعوضتها بأنظمة جديدة ، فَفَصَلَتْ بين البنات والذكور وأصبحت تفكر بفعل الشيء نفسه في الحافلات والطائرات والقطارات . كان الملياني يغسل يديه بالعسل فرحاً بالتحوّلات الجديدة الضامنة للهيمنة ، بينما كانت الدنيا تسير بخُطا حثيثة نحو حتفها النهائي . فقد أصبح التليفزيون الوطني ينقل كل الصلوات اليومية و الآذان مباشرة ، قاطعاً برامجه الأساسية ونشراته الإخبارية . وينقل الخطب الميمونة للملياني التي كانت قد قلّت قبل ذلك كثيراً . سمّى نفسه إماماً . يفتح التليفزيون فجراً ثم يأتي بعد ذلك ، خطاب الإمام ، ثم النشيد الوطني الذي نزع في الفترات الأخيرة وعوض بالدرس الديني الدائم ثم صلاة الصبح . الظهر . العصر . المغرب . العشاء ثم فلم السهرة . وبدأت "كتائب الظلام" تقوم بوظيفة جهاز أمني متقدّم ، أعطاها الملياني كل الصلاحيات ، خصوصاً فيما يتعلق بقمع التمردات . يوم اجتاحت مدينة بريزينا ، إحدى مدن الجملكية ، المظاهرات المطالبة بالحق في الحياة و ضرورة محاسبة القتلة أبادتها كتائب الظلام عن آخرها بحجة أنها تجاوزت أوامر الإمام الهمام . وعندما انتفضت مدينة قطامس ، أحرقوها ، قالوا لها حقك في السماء . وبدأت عملية حرق كل من سار في مسيرة كسالة السلمية . أمّا مدينة البريدة فقد أكل النطع من جماجم أهلها حتى صار الدم ودياناً تجري ووصل حتّى ركاب الخيل ملامسا بطونها . بينما مدينة كوفرا الصغيرة ، والمحروقة الحجارة ، أغرقوها بمياه الحمم ومياه المجاري و الزيت المغلي و سدوا كل أبوابها ، وتركوها هكذا مدّة سنّة حتى تعفنت الجثث و تفشّت فيها الأمراض والأوبئة الفتاكة . أمّا بيرين الصغيرة ، مدينة الخواء والرمل والصخر والنساء الجميلات والشعر ، فقد حاصرتها "كتائب الظلام" مدّة تجاوزت

السنة ، ولا أحد يعرف ماذا وقع لها حتى اليوم ولا أَحِدٌ يملِكُ حقائقها ، سوى أنّ الناس شاهدوا أَمَام أعينهم أعضاء "كتائب الظلام" وهم يدفنون الناس أحياءً أو يشنقونهم ، أو بكل بساطة يسقطون المنازل على رؤوس أصحابها ، ثم يفتشون عن الأحياء لإبادتهم ودفنهم ، ويمزقون النساء بين الأحصنة الهائجة فقط لأنهنّ جميلات ومذهلات ورائعات ويحرقون دواوين الشعر والرعشة التي تفخر بها المدينة ومتحف العظماء ومجسّم عبد الرحمن بن خلدون الذي كان يقف في مفترق شوارع المدينة شامخاً مثل بيت شعري مذهل ومثل وجه امرأة عاشقة ، واثقة من قضيتها . كانت المجاعة قد بدأت تترك آثارها على وجوه الناس والبنايات والشوارع . حتى المدينة التي كانت ممشوقة كالرمح في صحراء الربع الخالي لم يعد لها معنى يُذكر . بدأت الأجهزة الأساسية فيها تتعطل الواحد تلو الآخر بعد أن ماتت عفويتها وأصبحت مسيرة بالمتاريس والقوة والخديعة . الأشياء الجميلة بدأ تتفسخ بسرعة غريبة . لم تعد أجهزة التبريد العملاقة قادرةً على درء حرارة الربع الخالي أو التخفيف منها بعد أن بدأت تتصدأ بسبب نقص السيولة النقدية و الصيانة . الغاز الذي دخل في السنوات الماضية إلى كل البيوت ، لم يعد قادراً على المرور عبر القنوات ، بعد أن دمرت قواعد التخزين وتكسرت في الكثير من جوانبها مما أدّى بالمختصين إلى غلقها خوف التسرّب واشتعال المدينة . آبار النفط والغاز بدأت تجف . كانت تموت بهدوء وعزلة مثل الكائن البشري بعد أن تركتها كل الشركات الأجنبية . الدنيا تعجنت وبدأت صحراء الربع الخالي تعلن عن حضورها القاسي . حتى الناس الذين خرجوا أحياءً من بين أيدي "كتائب الظلام" نفيوا إلى عمق الرمال وهناك انتهوا تحت قسوة الرمل وصفرته التي لا ترحم . أمّا جياع القرى والمدن الكبيرة فكانوا قد بدؤوا يكونون حلقات صغيرة ثم مجموعات طويلة مثل الخط الذي لا بداية له ولا نهاية ، في رحلة الجوع التي لا تتوقّف وتَكْبُرُ باستمرار ، مملوئين بالخيبات واليأس ، هرباً من الحياة اليومية والذاكرة والمجاعة ، وبحثاً عن قطرة ماء . ترى الناس من بعيد ،

مثل قوافل العابرين ، على الحمير والبغال والجمال والإبل ، وعلى الأقدام المذبوحة . يبحثون داخل الكثبان العالية عن ظلٍ لا يهرب من صاحبه ، بعيداً عن حرائق نوميدا-أمدوكال . كانت الرمال الصحراوية الساخنة تمحو الأشواق والآثار وتغلق الطرقات الواسعة ، وتتلف الممرات ، بدون أن تتمكن أجهزة البلدية و"كتائب الظلام" من إعادتها إلى وضعها الطبيعي . . . حتى المدن الزجاجية التي شيدت في عهد الرخاء النفطي بدا حتفها الهادئ والمتسارع واضحاً للعيان ، وبدأ الناس يتقاتلون عند البقالين المجاورين ، في منخفض البناية من أجْل كيس حليب أو علبة زبدة أو قنينة زيت ، أو قطرة ماء . التصق الجراد الأصفر بزجاج البنايات العالية . فطاردوه وقتلوه ثم شَوَوْه تحت حرارة الرمال وأكلوه . بعضهم نزل إلى أعماق المجاري واصطاد الفئران والثّعابين و التهمها قبل أن يشويها . قتلوا كلاب الحارات الشعبية والقطط الكثيرة و خلَعوها و خبَّؤوا لحمها لأكثر الأيام سواداً . قال أحد الشيوخ وهو يحاول أن يسترجع أيام الشدّة الكبرى التي مضت : بعد أيام سيأكل الإنسان الميتة أو يأكل جثة إنسان آخر . وبدأ يفكر في استشارة علماء المدينة أو ما تبقى منهم لتحليل أكل الإنسان . قال شيخ آخر كان بجانبه . الإنسان محلَل أكله منذ زمن بعيد ، وليس في حاجة إلى فتوى منك أو من علماء ينامون في ظلال البنايات الميتة . الماء قَلَّ ، والحنفيَات الموجودة تصدأت وانْغَلَقَتْ . الكثير من الميسورين بدؤوا يفكرون في حفر آبار للماء أو إعادة حفر تلك الآبار القديمة التي ردمتها الحروب الفائتة قبل نشوء مدينة الزجاج والغوايات الكبرى . بدأت عمليات الحفر داخل المدينة وخارجها وحتى داخل الشوارع حيث توقفت الكثير من السيارات وأصبحت الطرقات المزدوجة التي كانت تقطع المدينة في وسطها ، مرتعاً لِمَا تَبَـقَّى من القطط والكلاب و الجرذان التي أخرجتها الحرارة إلى الخارج ، والدجاج وهو يبحث عن الظل ليبيض على هواه . الكثير من سكان المدن الكبيرة ، وفي غفلة من "كتائب الظلام" ، عادوا إلى مساقط رؤوسهم ، وقراهم . خيوط التليفزيون قطعت ، وقطَعت

الأخشاب التي كانت تملأ المدينة وأصبح الناس يتدفّؤون عليها . رحلات المجاعات ، كانت تزداد اتساعاً وأصبح من الصعب جداً السيطرة عليها خصوصاً في المناطق البعيدة التي وُضِعَ على رأسها حاكمٌ تابعٌ للنظام وللقبيلة ثم للملياني . يتقاتل الناس أحياناً في الطرقات والأماكن العامة من أجل أشياء تبدو صغيرة وتافهة . يُخْرِجُون أمعاء بعضهم بعضاً بالسكاكين المعقوفة ، بحثاً عن شيء تكون الضحية قد خبأته في عمق أعماقها تماماً مثلما حدث في زمن البشير الموريسكي ، في تلك الأيام التي أعقبت سقوط غرناطة نهائياً وفرار الناس في كل الاتجاهات ، برّاً وبحراً . ناس نوميدا-أمدوكال ، الأغنياء ، عندما استيقظوا من إغفاءاتهم النفطية وجدوا أنفسهم يقفون بجانب الجِمَالِ والدوابّ والأبقار والدجاج والرمال وقوافل العبور . وبدأ الريف يزحف بكل أدواته ليأتي على ما تبقّى من المدن . كل شيء اندثر بسرعة مذهلة .

كانت جماعة تأتي وعصر آخر يقع على هوامش الليلة السابعة بعد الألف ، أكثر من سابقه رعباً ، يعلن عن حضوره العلني ويتماهى في الدنيا الجديدة . كانت الجماعات في المدن والأطراف تتكتَّل في شكل قبائل ، وترحل جماعات ، جماعات ، بحثاً عن الحياة وبعض الكلأ وجذور النباتات ، تقرأ في عيون القادمين من بعيد رعباً كبيراً وحسرة في الحلق ، فتبدأ القوافل المقابلة تبتعد ، وتبتعد ، خوفاً من أن يكون الوافدون من قطاع الطرق أو من "كتائب الظلام" ، يريدون رأسَها وإبادتها . حتى العاصمة مستها هذه الحالات . فغُيِّرت أسماء شوارعها ، وطُحنَتْ لغات القوميات الصغيرة ، وطُورِدَتْ لتسكن على الأطراف وتتكتل في شَكل جماعات منفية ، مناهضة . وبدأت التمتمات تظهر هنا وهناك في الشوارع الخلفية للمدينة . ذات صباح من الأصباح غير العادية ، وُجِد واحد من جماعات "كتائب الظلام" ، معلقاً على أكبر جسر في المدينة . في اليوم نفسه و في الأماكن المظلمة نفسها ، سُمِعَتْ رشقات رصاص مكتومة ، فعثر على كتيبة بكاملها غارقة في دمها ، أوجهها متلفة وأعضاؤها ممزقة وأطرافها مختلطة . كانت العمليات تبدو

معزولةً . ولأوّل مرة يذكر التليفزيون أن ملثمين دخلوا البنك المركزي ونهبُوه عن آخره ، وأن عمليات التمشيط بحثاً عن الجناة جارية على قدم و ساق . في الحقيقة لم يتجاوز تمشيط الشوارع المعروفة داخلَ المدينة ، لأنه منذ حادثة الجسر الكبير ، أصبحت "كتائب الظلام" لا تتجرأ على الدخول إلى الأحياء القصديرية . كان الملياني يعرف كل هذه التفاصيل ، ويعرف مخاطرها ، ويدرك جيداً أن السطو على مدينة الزيت واسترجاعها أصبح مسألةً حيويةً . فهو سيحقق من هذه الضربة المفاجئة مطلبين ، أولاً : الاستيلاء على الأموال لإعادة تنشيط المؤسسات الكبيرة وتمويل "كتائب الظلام" لحماية النظام والبلاد . ثانياً : التقليل من الهمج الذين لا تأكلهم إلاّ الحروب بعد إشعال كل النزعات الوطنية العرقية في أعماقهم ، ودفعهم إلى التهلكة الكبرى . محطة التليفزيون ، هي الجهاز الوحيد الذي ظل يعمل بشكل شبه طبيعي ، عاد إلى الخطابات الحماسية القديمة التي دفنها منذ أكثر من خمس عشرة سنة وإلى التذكير بالحقوق التاريخية المسلوبة واستعادة الشريعة التي تسببت في إتْلافها الأنظمة الغربية المتوحشة .

قيل إن الملياني أسس من داخل الكتائب ، جماعات مضادة لتمرّدات "كتائب الظلام" التي كانت تنادي بضرورة رفع الأجور وهي تابعة مباشرة للقصر . عندما طلبت منه إبادة المتمرّدين بواسطة الغازات السامة و النابالم والطيران الحربي ، قال لبعض أعضائها المقربين : ويلكم! أنتم مجانين ؟! لقد هدمنا القلاع والسجون وبنينا غيرها تحت الأرض سرياً وأشعنا الديمقراطية وتريدونني أن نعود إلى الممارسات التي هلكت الزرع والضرع . يجب أن نحافظ على الهالة ، الواجهة La vitrine. هذا الأمر مهمّ جداً . فأصدقائي هم السبيل الوحيد للخروج من عنق الزجاجة ومن الخراب المحدق بنا جميعاً . لا خيار سوى قمع أطلس الظواهِري وإخضاعه لقانون البلاد ودفعه بالقوة إلى الدخول إلى حظيرة الوطن الأمّ والاستفادة جماعياً من مدينة الزيت . المدينة التي تعوم بكاملها على برك النفط . كامل الأصدقاء يدغدغونه بيد وباليد الأخرى

يساعدون على إشعال نيران الفتنة والحرب الأهلية وتقسيم البلاد عرقياً ولغوياً ودينياً وجهوياً ، حتى أصبح الكثير من الصحفيين المموّلين من طرف البنوك التابعة للأصدقاء ينظرون إلى تقسيم الأرض أخوياً و تفادياً لِلْحرب الأهلية ، مسألة طبيعية بل و ضرورية . وبدأت المقاطعات تتضح ملامحها وتنتفي نوميدا-أمدوكال ، لتحل محلها أمادرور الزرقاء (حضر موت) التي كانت أكبر هذه المقاطعات التي سبق أن وضع على رأس كل واحدة منها عسكريٌّ محترفٌ ، أو رئيس قبيلة أو مرابطٌ لإتمام السيطرة والهيمنة على البلاد بكاملها ، لكن الوضعية بدأت تسير نحو مسارات مخيفة لم تبق وسيلة لردعها سوى استعادة مدينة الزيت لإغراق البلاد من جديد في العملة الصعبة والكماليات . كل الحروب التي خاضها الملياني طوال العشرية الماضية ، كلّلت بالهزائم المتواترة لكن الصحافة الوطنية والتليفزيون وقاعات السينما حولتها إلى أعياد وطنية ، يحتفل بها سنوياً كانتصارات كبيرة على أعداء الوطن والقومية والدين . الحرب الوحيدة التي فكر نوح في خوضها على مضضٍ هي ضد تمردات مدينة الزيت ومحاولات انفصالها عن الوطن الأم ، لكنه تراجع رغم أنه أغضب الملياني كثيراً . قال له في ذلك اليوم المشهود :

ـ يا الملياني أنت قائد محنك ويجب ألاّ ترتكب خطأ قاتلاً مثل هذا . أطلس الظواهري منا و يجب إيجاد الوسائل الناجعة لإقناعه لا لدفعه نحو الانفصال . بهذا المسلك الذي تريد انتهاجه ، نعطيه كل مبررات الخروج عنا .

ـ يا سيدي البلاد الآن في عزّها ولا ينقصنا سوى رأس راعي الإبل هذا الذي يريد أن يصير حاكما و لو كان ذلك على حساب الوحدة الوطنية .

ـ الوطن العظيم ، يجب المحافظة على عظمته .

ـ لكن يا سيدي ، لِلأطلس الظواهري أطماع وأهواء مجنونة و غير محدودة .

ـ وإذا دخلت البلاد في حرب معه لا نأمن شر الآخرين . لنردعه بالتهديد . فمنصبه يهمه كثيراً . أعتقد أننا نمتلك الوسائل التي تجعله يتعقل .

وظل نوح طوال الأيام التي تلت ، يفكر جديّاً في حلّ للمعضلة . ثم صمّم أن يرسل لأطلس الظواهري مبعوثاً ، حمّله برسالة وطالبه إمّا بالتراجع وإمّا الفصل من منصبه وتعويضه بشخص آخر من الظواهرية المعادين له . وكان أطلس الظواهري يعرف جدياً أفكار نوح وصرامته . فهو لم يكن يملك شيئاً يخاف عليه . بل لم يدخل في أيّة مجموعة من المجموعات المكونة لمراكز قوى الجملكية . فردّ عليه أطلس الظواهري برسالة ودية فيها الكثير من الاعتراف .

«يا سيد المقام العالي . يا عزة هذا البلد وكبرياءه . ما سمعتموه عنّي لا يعدو أن يكون وشاية . مدينة الزيت لا تريد شيئاً سوى أن تعيش هي وناسها في أمان وطمأنينة . ونحن يا سيد المقام العالي من خدمة الجمهورية الفتية ما دامت الجمهورية في خدمة الأمة . (. . .) عائلة الظواهري و كل مشايخها الميامين يحيونكم متمنين لكم سداد الرأي والصلاح » .

كان نوح يعرف جيداً أطماع أطلس الظواهري وحساباته الصغيرة لكنه لم يكن مستعداً للدخول معه في حرب . فالزمن لم يكن يسمح بأكثر من الحفاظ عليه في المنصب . كان نوح في حاجة ماسة لمعرفة أصدقائه وأعدائه . وبفضل ذكائه ، تمّ تفادي الدخول في الحرب القاتلة التي ظل الملياني يحْلُمُ بإدارتها من إيعازات كثيرة . أصلاً كل شيء كان منظماً سلفاً ، لمعرفة قدرته وخبراته وصرامته . وظل الملياني لا يتردد مطلقاً في إشاعة خبر حرب سيخوضها ضد أعداء الأمة . عبد الرحمن (مسجل هذه الحروف) نفسه ، لأول مرة يقف مع الخيارات نفسها ، رغم اختلاف الأهداف والنوايا والأبعاد . لدرجة أن نوح فوجئ من توافق الرأيين بشكل فجائي .

ـ إنك تفاجئني يا عبد الرحمن . لأول مرة أراك تتفق مع الملياني . تتحدث عن ضَرورة الحرب المعلنة ضد أعداء الأمة ؟! من هم ؟! .

ـ أعداء الأمة يا صاحب المقام العالي ، هم الذين يعادون العصر والطفولة والملح .

ـ مع ذلك . لم أعرفهم جيداً بعد .

ـ هم الذين يأكلون معك في الإناء نفسه .

ـ أخشى أن يكون ظنك سيئاً بهذا الرجل .

ـ المولع بالسلطان يا سيدي النبيل لا يؤتمن . صديقك مَنْ تتكئ عليه لحظة الانهيار والحزن والوحدة ويركض دائماً وراء استقامتك . هذا الرجل يخرب كل علاقاتك مع المدينة والهواء والمطر والبحر والعمّال والعلماء والغيوم والجبال .

ـ أنت تقول شعراً . كلامك رائع ولكن مقام السياسة شيء آخر يا حبيبي عبد الرحمن .

ـ إنه يدفع بك نحو الانطفاء وعزلك عن محيطك الحقيقي . الظواهري ، لا أحبه ولكن محاربته الآن تعني حرق البلاد . الحرب التي أتحدث عنها هي ضد هذا الرجل والترسانة من البشر والمصالح التي يختبئ وراءها .

ـ على كلٍ . . لن أخُوض هذه الحرب . فأنا كذلك مقتنع بذلك ، لكنّي أتصور أنّ غيرته الوطنية هي التي تدفع به نحو هذا الحماس . على كل سأبحث في هذه التهمِ الخطيرة ، وأتمنّى أن تغيّر رأيك عندما يثبت عكس تصوراتك .

ـ يا سيدي إذا سألته لن تخسر شيئاً . وأنا لا أنطق عن الهوى مطلقاً ولا أجرَم غيري بدون دليل .

ـ سأسأله أمامك ولتتحمّل مسؤوليتك . فالمسألة خطيرة جداً . أنا

في وضع يضعفني باستمرار .

استدعاه فجاءه بدون تردد على غير عادته . عندما وجدني المليانـي عنده عرف جزءاً من الحقيقة أو على الأقل أحسّ بها . انكفأ على وجهه مثل رجل هزم بشكل غير منتظر ، كيف لا وهو يعتبر نفسه أقوى شخصية داخل دهاليز النظام . ثم بدأ نحيبه المعتاد الذي كنت أعرفه ولم يكن نوح يعرفه جيداً .

- وهل هذه التهم من عندك يا سيدي ؟

- أنا لا أعرفك جيداً ولكنّي أعرف نزاهة العمّال . وعبد الرحمن هو الذي يقول هذا .

اصفرّ وجهه . أحنى رأسه . كنت أتمّنى أن يقول ما هو دليل هذا الرجل ، ولكنه لم يقل شيئاً ، بل كان يتآكل داخلياً مثل الحائط القديم ثم نهض من مكانه . مسح وجهه من دموع مفتعلة ثم فتح ذراعيه عن وسعهما واقترب أكثر من نوح .

- سيدي الكبير . اسمح لي أن أعانقك للمرة الأخيرة . لقد تعبت . سأغادر هذا المنصب فوراً وربّما هذا الوطن بكامله . سامح الله عبد الرحمن . فقد خُلِقَ لِجَوِّ الكتابة وليس لإدارة السلطان . خيالاته كبيرة . أحدٌ منّا عليه أن يترك أرضه للآخر ، وهاأنذا أفعلها خوفاً من انسِحاق هذا البلد .

حاول معه نوح طويلاً . ولكنه ظل مصراً . ويبدو أن العملية كانت منظمة بشكل مُتْقِن ، إذ أني رأيت حزنا عميقا يرتسم في عيني نوحٍ .

بعد أيام ، عرفت أنه غادر البلد نهائياً ، بينما ترك وراءه نوح يتضور ألماً وحسرة . كان يشعر بذنب كبير وبالحماقة التي لا تداوى . حاول أن يتدارك حالة الإخفاق والندم التي كانت تقرأ في عينيه . أرسل له وفداً حكومياً واقترح عليّ أن أكوَن فيه اعترافاً بخطئي ولكن خيبته تعمقت أكثر عندما واجهته بأعصاب باردة وبيقين كبير .

ـ يا سيدي! ما زلت عند رأيي . هذا الرجل خطير على الجمهورية و كل ما يقوم به هو مسرحية متقنة الحبك .

ـ والله يا عبد الرحمن . احترامي لك كبير جداً ، ولكن هذه المرة أظن أنك تصرّ على الغرق في الحماقة والخطأ .

وحتى عندما حاول معه وأرسل له الوفد الكبير المكون من مثقفين وسياسيين معروفين ، صمّم على عدم العودة إلاّ بِشروط مسبقة . كنت أعرفها قبل أن يُسَرَّ لي بها . وعاد مثل رئيس جمهورية في طائرة خاصة . يقول الذين كانوا معه ، إنه طوال الرحلة لم يتكلم أبداً ، وعندما عانقه نوح في المطار بدأ يبكي بصوت عالٍ . كانت التلفزة الوطنية مُجنَّدة من صغيرها إلى كبيرها لنقل هذا الحدث الوطني الاستثنائي . عندما رأيت حرارة الشوق والبكاء على الشاشة لأني رفضت أن أكون من حاشية الاستقبال ، في الحقيقة نوح نفسه كان يتمنّى ذلك تفادياً للإحراج ، بدأت أشك في نفسي إذا لم أكن مخطئاً حقيقة في حق هذا الرجل . فقد كان ممثلاً مدهشاً . أتقن دوره بشكل عجيب . عندما دخل إلى دهاليز القصر الجمهوري ، كان كل شيء قد انتهى . وخططه صارت جاهزة . وما نقص منها أتمّه من وراء البحار مع أصدقائه الذين أخرجوه في الأول والذين أعادوه إلى مكانه وفق شروطه . فمشاريع نوح لتأميم ما تبقى من النفط ، والحديد واليورانيوم والمعادن الأخرى والبنوك ، كان يخيف كثيراً من الأصدقاء . عندما واجه نوح بعد هذه الغيبة التي لا أحد يعلم ماذا دار فيها ، كان خراب الليلة السابعة يكشف عن خفاياه . تخمينات الخطأ نادرة ، خُصوصاً عندما نعرف نوايا هذا الرجل الغريب الذي نبت فجأة من بين العمّال . العلماء لا يعرفون الشيء الكثير عنه وعن عائلته ، سوى أنه من أمٍّ اغتصبها شهريار بن المقتدر ذات زمن وأنه كان من الفُلول الأولى التي اقتحمت القصر بكل قوة .

هذه المرة ، كان الملياني مصمّماً بشكل واضح على الذهاب إلى النهاية .

ـ يا سيدي . رجعت من أجلك . شرطي الوحيد هو ألاّ أرى هذا الرجل في دائرتي . وأنا متنازل له عن كل التهم التي غطّاني بها .

كنت أنا وقتها قد حزمتُ كل أمتعتي وجهزت سبل عودتي بصمت إلى قلعة العلماء الذين أقنعتهم بوضعيتي . قبل أن أخرج ، أوصيت مسعودة خادمة القصر ، برعاية نوح ووضعه في عينيها . كانت أمّاً حنوناً ، تقطر طيبةً . قروية مليئة بالوفاء والحنين لعوالمها المسروقة . كان الملياني يعرف جيداً أن وجودي سيعكّر أشواقه وأحلامه ولذا منذ البداية عمل على عزلي وإبعادي من طريقه حتى جاءت السفرة التي اغتالت شاعرية نوح ، وخَدَعَتْهَا . وعندما حاولت أن أكلّمه ، كان منزعجا و مرتبكا و قلقا من ملاحظاتي .

ـ أرأيت يا عبد الرحمن أين وَصَلْنَا . البلاد تموت ونحن نتقاتل على شيء كان يفترض ألاّ نسقط فيه . لقد ورطتني بشكوكك .

ـ ليست شكوكاً يا سيدي ولكنها حقائق . لو كانت عندي بذرة شك ، ما فعلت الذي فعلته .

ـ يا أخي أنا كنت أنتظر منك تنازلاً وعودةً إلى الصواب وأنت ما زلت مصرّاً على الحماقة .

ـ يا سيدي . أنا جئتُ لأُودّعك فقط ، إذا كنت ترى أني مخطئ ، سأنسحب الآن . . .الآن . . .

ظللت أكـــرر الآن . . . الآن . . . الآن . . . ولكنه لم يقل ولا كلمة واحدة . عند الباب احتضنني . كانت بعض الدمعات تتكسر في عينيه وهو يحاول أن يكابرها . قال :

ـ عدني . إذا اكتشفت خَطَأَك أن تعود من تلقاء نفسك .

ـ سأفعل بدون تردد .

قدمت الاستقالة و خرجت . عندما احتضنته شعرت بخفة جسده و

هشاشته مثل جسد عصفور . حاولت أن أستشير العلماء من جديد . ولكنهم ظلّوا صامتين ، يتأملون حالة المدينة وهي تزداد انهياراً . الأحلام بدأت تفقد سبلها إلى الحياة . كل ما فعلته هو أنّي صمَّمْتُ وفعلتُ ، وتحملتُ مسؤولياتي . شيء واحد كان يملأ يقيني ، هو أني لم أكن مخطئاً مطلقاً . شعرت بعطف استثنائي وأنا أغادر نوح لأني أحسست أنّنا نسيناه في لحظة من اللحظات . جئنا به وتركناه وحيداً . كنت أشعر بشكل غريب أن الموت كان يحيط به من كل جانب وأنّ أيادينا صارت عاجزة عن إنقاذه . قدر ما كان ينهض من عراكاتنا لم نجد سبيلا لإيقافه . كانت الذئاب وقتها تستعدّ لنهشه . كان الملياني يخطط للقتل ويخطط لكل الحروب التي سيخوضها ، والناس الذين سيبيدهم بعد مخطط تدمير القلعة والعمّال والعلماء ، ويحضر الرعية التي سيحكمها بالحديد والنار لمقاومة عدوان وهمي ، قريب ومفاجئ وغادر .

وعندما استولى على الدنيا ونزع نوح عن طريقه ، ركب رأسه نهائياً وعقد مجلساً حربياً استثنائياً لقوات الجهات المختلفة وضباط الجيش وانقاد نحو التهلكة المدمرة . بدأت دباباته تقتحم مدينة الزيت ، وطائراته تقصف قصر أطلس الظواهري الذي اختبأ في زاوية ما داخل المدينة . الظواهري كان قد صَكّه مثلما تصك الدابة ضحيتها وتركه يتآكل ويهيئ لحربه الخاسرة . الكلمات التي قالها في خطابه الأخير على القناة الثانية ، مسته في الصميم : رجل لم يقنع زوجته ، وعاجز في فراشها ، ودفع بعبده إلى تفجير مخها على حائط مشنقر ، لا يمكنه أن يقنع أحداً ، حتى نفسه و لا يبني وطنا و يجعله يتخطى قسوة الليلة السابعة بعد الألف بأقل قدر ممكن من الخسارة .

الملياني منذ أن حطم قوةَ العمّال ، والعلماء وأدخل البلاد في أزمة حادة ، لم يبق أمامه إلاَ الغزو أو الموت . في الحقيقة كان ميتاً سلفاً . كنت وقتها أحاول رغم الحرائق أن أدوّن الشعلة التي كانت تأكل حيطان المدينة وأشواقها ، بينما العلماء والعمّال في حالة ذهول ، رغم اعترافهم

المسبق ، بأن الملياني أصبح داخل ريح ساخنة لا شيء يحكمه فيها . لكن مغامرة تدمير القلعة نهائياً كانت عملاً فوق التصور . انْسَحَبْتُ نحو الكتب القديمة وبدأت أراجع الأسماء الكبيرة ومريوما (ماريوشا) تقرّب منّي كل البوقالات ثم تدفعها باتجاه الأنفاق إلى من يهرّبها بعيداً عن الأنظار . راجعت من جديد تخطيطات الموريسكي التي رواها قبل أن يندثر داخل الكهف البارد ، عندما انغلقت الدنيا في عينيه ولم يعد يرى ألوان قوس قزح وأظلمت أشواقه في قلبه الذي امتلأ بالفراغ . بينما كانت القنابل قد بدأت تخترق الأسطح ، والكتل الإسمنتية والبنايات والذاكرة المحصّنة بلحظاتها المسروقة ، الهاربة .

كان زمن وانتهى .

هو ذا زمن آخر ، يأتي ممتلئاً بدمار الفاجعة .

الفاجعة . . ليست شيئاً آخر سوى الفاجعة .

لا شيء سوى الحرائق و تخلي الله عنا في تلك الليلة بالذات . الليلة السابعة بعد الألف .

اسمع يا رب الحق . انصت إلى صراخي . إصْغ إلى صلاتي من شفتين بلا غشّ . من قدامك يخرج قضائي . عيناك تنظران المستقيمات . جربتَ قلبي ، تعهدتُه ليلاً . محّصتني . لا تجد في ذَموماً . لا يتعدى فمي . (. . .) .

أنا دعوتك لأنك تستجيب لي يا الله . أَمِلْ أذنيك إليّ . اسمع كلامي . ميّز مراحمك يا مخلّص المتكلين عليك بيمينك من المقاومين . احفظني مثل حدَقة العين . بظل جناحيك استرني من وجه الأشرار (. . .) فأفواههم قد تكلموا بالكبرياء . في خطواتنا الآن قد أحاطوا بنا . نصبوا أعينهم لينزلونا إلى الأرض (. . .) لإمام المغنّين . لعبد الرب داود الذي كلّم الربَ بكلام هذا النشيد في اليوم الذي أنقذه فيه الربّ من أيدي كل أعدائه . . .

نحنح أوسكار فجأة في مكانه وهو يستمع إلى هذه المزامير التي ختم بها عبد الرحمن نشيده المحزن .

ـ يا سيدي عبد الرحمن . يقولون إنك كتبت مقدمةً كبيرةً لتاريخ المخطوط الشرقي ، ولم تتوقف عن الكتابة حتى وأنت مطارد داخل الأنفاق وخارجها وأصبحت مطلوباً للموت أنت وماريوشا وبقية العلماء .

ـ ما الذي تغيّر أيها الباحث الكبير . نؤرّخ فقط ، ونكتب ونرمّز عند الضرورة ، وننتظر متى يأتي أناس قادرون ، لقراءة الحرف الحزين في استقامته ، الحرف الذي يدرك غربتنا ولا يخبّئ هزائمنا .

ـ لكنك لا تدري ؟ قد يكون هذا المجهود كله قد غرق نهائياً في البحر .

ـ أيها الباحث الكبير . وظيفتنا أن نكتب وبعدها نتأمل مشاهد الحروف والقيامات التي تولدها الكتابة . الكلمة مثل الرصاصة عندما تخرج لا تعود . الكتاب لا يموت حتى وإن سكن النارَ والبحرَ . أخيار حفظوه . رجالٌ سحبوا منه نُسَخاً . آخرون صوروه . دوّنه المدوّنون الذين اشتغلوا عليه وعلى كتاب المدينة مدة من الزمن . أنا نفسي لا أعرف أين نامت هذه النسخ لكنّي متأكّد أن الكثير من الأيادي الأمينة تحفظه . والطغاة يقرؤونه ولو أنهم يكرهون القراءة لأنها تذكرهم بوجدانات ليست لهم وبوحدتهم المدقّعة . وما أصعب وحدة الحاكم . رغبة العلماء والعمّال تكون قد وصلت ويكون الملياني قد أخفق في قتل الفرحة والحرف ، ليصبح أغنيةً للسخرية تحت ألسنة النساء وهنّ يُعَلِقْنَ في الحارات الشعبية عن عجزه الجنسي .

ـ للملياني ورثاء قد يكونون محبين لوطنهم . ثم إنه من سلالة فاطمة المحمية ويُحَرَّمُ الحديث عنه بالسوء!

فجأة بدا على عبد الرحمن نوع من الانزعاج و الضيق و انسحب وقاره للحظة .

ـ أنت عالم يا هذا الرجل ولست درويشاً . من قال هذا ؟! كل من أراد أن يحكم رقاب الناس ينتسب للأتقياء ويدخل داخل شجرة النور التي ليست له . الذئب يظل ذئباً والخلاص لن يأتي على يديه . لقد أحرق كل المخطوطات بحثاً عن المخطوط الشرقي داخل كتاب المدينة الضخم ، ليمحو صورته التي قيل إنها كانت فاضحةً وقاسيةً . وأنا في الحقيقة لم أكتب إلاّ ما شاهدته ولمسته وأحسسته .

كان هذا باب المدينة أو بعضاً منه أيها الرجل السعيد والكتاب لا يزال مفتوحاً عن آخره . املؤوا قلوبكم بقليلٍ من النور ولنواصل تفكيك الطلاسم والمغالق ومتاهات هذا النص الذي يبدو مركباً وهو أبسط من قطرة ماءٍ .

* * *

- VII -

فتح عبد الرحمن الكتاب من جديد ، على فصول بدأ يتفحّصها ، وكأنه يكتشفها للمرة الأولى . تلمس عمق الكتاب ، مثل الذي يلمس شيئاً ثميناً يخاف كسره . قال بلغة هادئة بدأت الفرقة الأنتروبولوجية تألفها و تتعود عليها :

ـ هاه!! ها هو ذا باب الأقواس ثم باب المدينة . قد انتهيا ، وها نحن ندخل عمق سرّ آخر ، بعضاً من باب التخطيطات اليائسة أو باب البقايا من النيّات .

عندما كانت الكارثة تعبر البلاد مثل الريح الساخنة ، كنت قد بدأت أجفف القصب اليابس لتدوين ما تبقى من حريق الحيطان والألوان الآيِلَة نحو الزوال ، وتركت البقية للعيون الصغيرة التي ظلت زمناً تتأمل يأسي وفاجعتي . فالمخطوط الشرقي ليس ملكي ولكنه ملك الذين لم تبق منهم إلاّ الذاكرة وحرف الوهج والنار والنبض الذي لا يموت . الكتاب الوحيد الذي وقفت النار عند حدوده بيأس في زمن كان المليانى قد رفع كل الحصانات التي وضعها نوح لمنع مصادرة الكتب . قال المليانى في ذلك الزمن الذي صار رماداً ، وهو يعدّل نظارتيه السوداوين : لا

ترحَمُوا حروف الزّنى . احرقوا كل الكتب التي تشمّون فيها رائحة العمّال والعلماء ، ولتبدأ الشعلة وحرائق التطهّر من كتاب فاجعة الليلة السابعة بعد الألف ، أو أي مصنّف يشبهها . ألف ليلة وليلة ، تسبّبت في هلاك الزرع والضرع وقرّبت قيامات الأشياء . أبادت عروشاً وملوكاً ، وأتت على كل الأيام العربية الكبيرة ، لتصل الشعلة إلى أدراج السماءات العالية . استطاع الملياني في نهايات المطاف ، أن ينزع من العمّال وموظّفي الدواوين ، و"كتائب الظلام" وفقهاء المشيئة والأئمة ، الحق في مثل هذا الفعل . بل إن "كتائب الظلام" هي التي كانت تشرف على العمليات وتنفذها ، بعد اقتراحات كبير الأئمة ابن كيوان أحد فقهاء المدينة الذي ظل زمناً منكفئاً في تدوين فتواه التي سجلها في صدر كتاب الأمّة الذي أعاد بعثه الملياني و روجت له جريدة الكبائر :

في هذا اليوم المليء بالزهر استشارني مولاي في إحداث قيامة داخل كتب الخراب والزنى ، فَشَرَّعْتُ لسيد الدنيا وإمامها المبجّل ، الملياني بن شهريار ، بن المقتدر ، الحق في حرق كتب الزنى والفساد ، وأن إبادتها من مستحبات الدنيا والآخرة عند الله . فالورق يهزّ السلطان ، وزعزعة الملك في الأرض هي زعزعة لحكم الله على هذه الأرض . وقد ناصرت مولانا في مسعاه الديني المقدّس .

وعندما وزعت الفتوى في المساء نفسه ، كانت كل كتائب الظلام تدق طبول الحرب المقدّسة . فمثل هذه المعركة لا تربح إلاّ بتصفية أسباب الخراب العام . كان حفل الإبادة بهيجاً ونادراً في صفائه كما اشتهوه تماما . اصطفّت الحاشية في سلسلة بشرية على مرمى العين . الجميع كانوا يلبسون ألبسة وفساتين بلون النّار والجحيم . كلّما تحركوا ، يشعر المرء أنّه أمام مشهد من مشاهد القيامة . الزغاريد كانت تأتي من بعيد . من عمق الأرض . ومن أسطح البنايات ومن أعالي القصر . الغناء الريفي بصوته الحادّ وصفائه المعهود وبربريته التي تدخل القلب بدون استئذان ، يملأ الدنيا من جهاتها الأربع . الأبواق الكبيرة والصغيرة ، أصواتها تصمّ الآذان . أمام كومة الكتب

والمخطوطات النادرة و من بينها بعض الوثائق المصورة من كتاب المدينة ، وقف الناس ينتظرون مجيء الإمام الملياني وفقيهه الخاص و ذراعه الأيمن ابن كيوان .

عندما سُئِل أحدهم ، ماذا تنتظرون أيها الرجل السعيد . قال هذا الأخير ، ننتظر سيد الدنيا ، وشاملها بعطفه ، كرّم الله وجهه ووسع عليه يوم القيامة وأقرّ عينيه بوليَ عهده سيدي الإمام الهمام الفاطمي المرتجى الأمير نوح الصغير ، ليرمي الشعلة في أوراق جهنّم . كل الكتب العالية ، كان اسمها أوراق جهنّم . كان صوت الطبول يتصّاعد عالياً ، عالياً نحو السماء المجوفة مثل قصعة ريفية ، والناس يغوصون جماعات وفرادى في رقصات محمومة ، تشبه رقصات الطام طام الإفريقي . انضمت إلى العرس الفرق التي أحضِرتْ من بعيد بالعملة الصعبة لإحياء حفلات للشباب ، في وقت كانت فيه المجاعة و الأوبئة تأكل ما بقي واقفا من الناس و البهائم . فجأة بدأ شيء من الوجل والخوف يملأ عيونهم ، ويتباعدون شيئاً فشيئاً ، فاتحين الطريق ، و من بينهم يعلو صراخ البرّاح الذي لا يشتغل إلا في مثل هذه المناسبات : الطريق ؟! افتحوا الطريق يا كرام البلاد للكريم وخير أنبل البشر . تطهروا بخزرته ومسُّوا قلبه من بعيد . بدأت بعدها الممرات المنغلقة تنفتح هنا وهناك . كل الذين رأوه منذ اللحظة الأولى عرفوه . هو هو ، لم يتغيّر كثيراً . الملياني بلباسه الناري ، كان يركب حصاناً عربياً ملوّناً بألف لون ، أصفر وأحمر وأبيض وأزرق وتدرجاتها وتوالداتها . حصان غريب اختير لهذه المناسبة الخاصة التي كان يشرف عليها ابن كيوان شخصياً . وظل يطوف بين الجموع حتى وصل إلى المكان الذي كان يحوي كومة الكتب والمخطوطات الممنوعة التي كانت تحوّطها "كتائب الظلام" . وعلى الحاشية ، ظل ابن كيوان مُتَسَمّراً في مكانه في حركة انتشائية كانت تخرج من عينيه ، هو الكاتب والفيلسوف الفاشل في حياته ، يحرك في يده اليمنى المشعل الذي يشبه مشعل الألعاب الأولمبية وهو يقول في شكل يشبه التمتمة والخشوع :

ـ "سبحانك يا سيدي العالي علو هذه السماء والواسع سعة هذه الأرض . يا سيد المقام الفاضل و ابن السلالة الكريمة . أيها الفاطمي الأخير والمهدي العظيم . كل ما طلبته كرامتك موجود في هذا المكان ، وداخل هذه الكومة . ألف ليلة وليلة ، طوق الحمامة ، رسالة الغفران دواوين ابن الرومي وأبي نواس وبشار بن برد و عمر الخيام وغيرهم . . . الكتب المذهبية المناقضة لمذهب سيدي في الحياة ، كتب الفكر ، والفلسفة ، كتب الحداثة والعلمانية ، والوجودية ، والاشتراكية ، كتب الزينة ، مخطوطات العلماء ، الروايات ، الكتب المتواطئة مع العقلانية ومع الشيوعية ، كتب الاقتصاد و التاريخ و الطبخ و الدعاية ، زد عليهم تحفة العروس ، الفتوحات المكيّة ، فصوص الحكم ، الروض العاطر ، كتاب اللواطين (الأصغر والأكبر) ، نزهة الألباب ، بعض التفاسير المدخولة . . . يجب حرق الفتنة يا سيدي العظيم في مهدها الأوّل" .

صارت الكتب ، عندما كُومت فوق بعضها البعض مثل الجبل الأصفر . رائحة الموت كانت تشمّ في كل مكان . تقدم ابن كيوان من الملياني ، وضع في كفه ذراع المشعل . تأمله الملياني لحظة . حاول أن يقرأ ألوانه التي تعددت في الشعلة . لكن الزمن كان يضيق مثل دروب القيامة . إنّها اللحظة . إمّا أن نتواطأ معها وإمّا أن نخترقها . هذا هو التاريخ . ليكن! لقد كنت دائماً من القوم المخترقين لكل شيء . ثم رمى الشعلة في عمق جبل الكتب الذي كان قد رش بالبنزين لتسهيل عملية الاحتراق . بدأت الشعلة تتصاعد حتى حالت زرقة السماء تحت كثافة الأدخنة الحادة . هو ذا التاريخ . تاريخ القوي الذي يكتب ما يشاء . يجب إطفاء نار الفتنة وخبايا الحقد في المهد . فالخراب الذي خلفته ألف ليلة وليلة كان مريعاً . وأكل رؤوس الكثير من الأجداد . ليكن هذا الحريق ، حريقاً مقدساً . فالحالة لا تحدث إلا مرة واحدة في القرن .

غطّى عينيه بنظارتين سوداوين ، ثم وضع على أنفه قناعاً واقياً من

الأدخنة ، وظل يتأمل الحرائق المشتعلة بكل قوة ، حتى صار كل شيء في الساحة العامة المواجهة للقصر ، عبارة عن رماد رقيق ، تصاعد جزء كبير مِنْهُ في الفضاءات الواسعة .

قال الملياني وهو يتنفس بعمق المنتصر ، أمام الجموع المحتشدة :

- يا ناس!! لقد تمّ تدمير القلعة ، والمتواطئين معها ، كما تم حرق الفتنة . فتنة الحرف الغاوي . الحمد لله ، لقد أتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم حكمي بديلاً لكل الأوهام السابقة . لقد صرنا اليوم كباراً وقادرين على خوض الحرب المقدسة الكبرى ، لاسترجاع أمجادنا التي سرقها الزنادقة وكتب الزنى والخونة . يا ناس! يَا أيتها الرعية الفاضلة ، لقد أتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الجنة سبيلاً وحيداً . استعدوا من الآن للحرب المقدسة التي تعيد للبلاد حقها ، وللدين نوره . الحرب الكبرى التي توحّد البلاد والعباد .

ثم بدأ يعدّ كل أمجاده الماضية ويذكر بحماقات أجداده الذين تساهلوا مع حروف الغواية والتّمادي . كل المعارك الفاشلة التي خاضها ، وخاضها بعض أجداده في التاريخ ، حوّلها إلى انتصارات ، وأعياد وطنية يحتفل بها ، حتى صارت البلاد على مدار السنة ترفع صورا للملياني انتشاء بانتصار ما من الانتصارات .

كانت حركة الزمن ، في ذلك التمادي البعيد ، تسير بسرعة مذهلة . لم تكن محرقة الكتب إلا لحظة واحدة . ربما الأولى لاستعادة شيء آخر . طرقات مدينة الزيت ، نفطها ، جبالها الممتلئة بالأشياء الثمينة ، اليورانيوم ، الذهب ، وحقول المخدرات الواسعة ، خصوصاً بعد الإجراءات الصارمة التي اتخذها أطلس الظواهري عندما حوّل كل الأنهار الصغيرة باتّجاه إمارته ، فتوقف تدفق المياه باتجاه أمادرور ، ثم بنى بعد ذلك حاجزاً مائياً كبيراً حوّله بعد أقل من سنة إلى سدّ عميق جفف كل حقول أمادرور (حضر موت) . أصبح الملياني مثل المجنون الذي لم يعد شيء قادراً على إقناعه سوى الحرب . حتى المجلس الحربي الصوري الذي

عقده ، كان مسألة شكلية لأن الحرب كانت قد أعلنت على الجبهات القريبة من الحدود مع مدينة الزيت . وعندما بدأت النيران تشتعل في قصرأطلس الظواهري ، ثم في مدنه الكبيرة و قراه ، لم يأتِه أصدقاؤه الذين نصحوه بالحرب ، لأنهم كانوا قد اتخذوا مواقعهم نهائيا واتخذوا مواقفهم الواضحة مع التحالف الدولي المضاد لاعتداءات الملياني على بلد صغير . و نوميدا-أمدوكال تتحول إلى رماد تحت القصف المكثف . دول التحالف كانت تزحف باتجاه عمق المدن ، والبلاد تتفكك مثل اللعبة التركيبية . أحقاد القبائل كانت تخرج من الأعماق لتتحوّل إلي دويلات وبلدان لا يحكمها إلاّ عرق دموي صغير يمكن أن يقطع في أية لحظة . عندما أدرك الملياني الحماقة كان كل شيء قد انتهى . لكن حطّت الطائرة المروحية على سطح القصر ، وكانت تحمل ألوية الأمم المتحدة والخبراء ، شعر بفرحة ممزوجة بصرخة احتجاج .

- أوقفوا عنّا هذه النيران ، لقد أحرقتم كل المدن .

- لستَ في موقع الآمر أيها السيّد . بلادك ، طمعك أوصلها إلى هذا الموقع .

- لكنكم نصحتموني! ؟

- وعقلك ؟

- والنفط ؟

- أشربه إذا بقي شيء منه . بلادك جفت ومدنك ماتت .

- الظواهري ولد الحرام ؟ راعي الإبل ؟ عملها ؟ وأنا ماذا أفعل ؟

- قاوم قدرك . إنهم عند الأبواب .

- جيوش الظواهري أم جيوشكم ؟

- لا . شعبك أيّها الهمام . إنه عند عتبات قصرك العامر ألا تسمع أصواتهم .

- إنه هدير البحر . شعبي في جيبي .

- جيبك مثقوب . ليس البحر ، إنها أصواتهم الغامضة . إنها تقترب بخُطا حثيثة .

- خذوني معكم .

- المروحية ممتلئة . واجه مصيرك .

- الله يلعن بوكم . وبو والديكم . وبو اللي جابكم لهذا المكان . خدعتموني يا الطحانين ، الله يخدعكم . يا أولاد الحرام ، الله يحرّم عيشتكم وعيشة أمَّالكُمْ ؟ تعبثون بالبشر مثل اللي يتسلى . نهاركم جاي .

- لا يوجد نهار آخر يا طويل العمر .

ثم نزل إلى الجهة اليُمنى ، لم يكن يسمع إلاّ ضجيج القذائف ، وتكسرات الزجاج ، وأزيز الطائرة المروحية الرابضة على السطح . أطل من الباب ، كانت الوجوه صدئة مثل قطع الحديد الخشن ، مملوءة بالتصلب و الضغينة . ارتدى لباسه الحربي وشاشيته الحمراء . وامتطى سيفه القديم ، حتى صار مثل دون كيشوت وهو يتهيأ لحروبه الوهمية الكبيرة . كانت المفردات غائبة عندما صرخ في وجه ضباطه الذين تزربعوا فجأة . بعضهم هرب والقليل ممن ظل وفياً ، أصبح يفكر في مغادرة المكان بأقصى سرعة ممكنة ، بينما بقية الضباط العائدين من الجبهات المختلفة ، كانوا يوجهون الرصاص باتجاه صدور بعضهم بعضاً ، كانوا يتقاتلون داخل القصر وخارجه و لا أحد يعلم من أين كانت تأتي الأوامر . الانفجارات زادت اقتراباً من بوابات القصر . دماغ الملياني صار مشلولاً وعاجزاً عن أي تفكير . أصبح ثقيلاً مثل قطعة رصاص قديمة . الريح القادمة من عمق الصحاري المشتعلة زادت حرارتها على غير عادتها . في هذا الفصل بالذات ، يسمّي سكان المنطقة هذه الحالة "الطَهّاج" . بدت كل الأشياء عبثية في وجه الملياني الذي صعبت عليه

الحركة وهو بألبسته الحديدية . عندما سمع انفجاراً قريباً منه ، وانهيار الأبواب الحديدية ، بدأ بالفعل يصدق كلام الأصدقاء . صرخ بأعلى صوته في وجه الخدم الذين كانوا لا يزالون يحوّطونه .

ـ انزعوا عنّي هذا الخرا! ؟ حرروني من هذه الأثقال التي لا معنى لها . أتوني بابني والزنجية .

ـ حاضر يا أمير المؤمنين!!

ـ أي أمير يا أولاد القحبة ؟! حتى أنتم تتمسخرون بي ؟!

ـ ننفّذ يا سيدي ما أمرتنا به!

ـ يا الله بسرعة ، قبل أن آكل أعناقكم ؟!

عندما انتهوا من نزع كتل الحديد من على ظهره ، كان ابنه يقف من ورائه . كانت كتيبة الأمم المتحدة قد انسحبت ولم تبق إلا فرقة خاصّة من عسسه الشخصي المقرّب La garde rapprochée تتأمّل نوح الصغير الذي لم يكن يفهم الشيء الكثير مما كان يحدث سوى أنه شم رائحة الخطر من بعيد . عندما دخلت الفلول الأولى باتجاه طابقه ، كانت يد قد امتدت باتجاه نوح الصغير ، الذي لم يطلق أبداً لباس الزنجية ، وترك نفسه يتزحلق على الزليج الإسباني لأرضية القصر والساحات العامة . فجأة سمع صوت المروحية ، وهو يزداد قوة ، ثم انقطع كل شيء ولم يعد يسمع سوى الصرخات والأفواه التي كانت تفتح عن آخرها . أول المهاجمين كان فلاحاً ، وجهه مشقق مثل الأرض . أردي قتيلاً في الحين من طرف العسس المقرّب الذين بدؤوا يتراجعون شيئاً فشيئاً ليجد نفسه وجهاً لوجه مع مجموعة من الأفواه التي لم يعد يسمع إلاّ أصواتها المتقاتلة وعيونها و هديرها التي كانت تشبه عيون وفحيح أفعى تكبر وتتسع كلما اقتربت منه أكثر . مدّ يده إلى جانبه الأيمن ليسحب مسدسه الخاص ، لكنّ أيادي امتدت نحو يده ، فسحبتها من عمقها ونزعتها بكل عنف . كانت الصرخة جافة ، أكلها الهجوم

المسعور . ثم نُزعت جلدة وجهه بكاملها ، وهو يحاول ألاّ يصرخ ، و يغرق في دمه . رأى الرجل الذي نزع يده ، يأكلها مثل مسعور والدم يملأ فمه وأسنانه المذهبة تتلألأ على أضواء القصر الناصعة . كانت الفرحة تبرق في عينيه بقوة . يقسم الذين رأوا مشهد الموت أن الحالة كانت حقيقية بكل مواصفاتها ولم تكن من خيالات المؤرخين . ويقول آخرون إن القلم الذي كان يروي الغوايات ، وقف عاجزاً أمام مشاهد القيامة التي كانت تتحرّك بسرعة مذهلة أمام أعينهم الغائرة . بقية الجموع ، كانت تحاول جاهدة ، تخطّي الحواجز الحديدية ، المتراكمة عند البوابة إثر الانفجار ، وتعبر القصر باتجاه المعركة التي كانت تدور في الداخل . حوّطوه ، انطفأ حرسه نهائياً بشكل فجائي . تزايد صراخه الذي تحوّل إلى أنين متواتر ، وبدأ يتآكل بسرعة ، كان الحقد كبيراً . سرقتْ يده الثانية ولم تبق إلاّ أعصابها وعروقها متدلّية ، ثم نزعت رجله الأولى ، فالثانية . كانت عيناه تدوران بذهول كبير . تأمّل الستائر السمرقندية وهي تحترق الواحدة تلو الأخرى ، ولم يسمع إلاّ الخشخشة والموت الذي كان يزحف تجاهه من كل الجهات والدم الذي كون بركاً متعددة حوله . بالرغم من ذلك لم يفقد وعيه ، وفي أية لحظة من اللحظات . تقدم نحوه رجل أسود . بدت له أسنانه بيضاء على غير العادة ، وسكينه تلمع بتلونات مختلفة إثر انعكاسات الأضواء الجانبية . وقبل أن يتأمل عينيه الحمراوين انغرست السكين اللاّمعة في بطنه محدثة خيطاً نافراً من الدم الذي اسودّ بسرعة مثل القطران . ثم أدخل يده في عمق الجرح ، وبدأ يخرج الأمعاء ويلويها على قضيب حديدي مثل كرة خيط مبعثرة في حوش بيت واسع . وكلما تكاثرت خشخشة اللي ، شعر بالموت يقترب منه خطوة أخرى . لم يرد أن يتذكر شيئاً .همس لنفسه قبل أن يغمض عينيه :

أبناء الكلبة تخلّوا عنّي جميعاً ولا أحد فيهم يستحق أن نتذكره . في ستين داهية . . . من يتذكرني أنا ؟ ياه ؟ حتى نوح الصغير سرق منّي ، ربما ، أحسن له من مشاهد القيامة هذه . لكن وجه شهريار بن

الكلب ، لماذا ينغص علي ؟ من أين يأتي هكذا دفعة واحدة ؟

كانت عينا المليـاني تدوران في الفـراغ ، تكادان تسـقطان من المحجرين ، بعدما سحبت جلدة الرأس من فوقهما . كانت النيران التي التهمت الستائر السمرقندية تزحف نحوه ملتهمة في طريقها بعضاً من أطرافه المبعثرة . وقبل أن يترك نفسه لغيبوبة الموت ، فتح قليلا عينيه للمرة الأخيرة . رأى أحد الداخلين ، كان يبدو مثل الظل . لم يتفرس في وجهه جيداً لكنه سمع صراخه . كان الظل يطأ كلَّ الأشياء التي كانت تصادفه في طريقه . تمتم :

ـ لا بد أن يكون عزرائيل ؟

لكن الظل وقف عند رأسه و هو يواصل صراخه . تبين المليـاني بالكاد ما كان يقوله .

ـ اتركوني . اتركوني آخذ حقي من ولد القحبة لقد سرق ابنتي ، ونهب جسدها ، وباع كليتها لأسياده . رَاحْ نفرّجكم فيه . وين تروح مني يا ولد الحرام ؟

ثم مدّ يده إلى فتحة سروال المليـاني . تتركها تتوغل أكثر . امتلأت حفنة يده اليمنى الخشنة . ثم بدأ يسحب بكل ما أوتي من قوة ذكره و خصيتيه . كان المليـاني يكزّ أسنانه تفادياً للصرخة الأخيرة . لا يريد أن يبدو خائفا أمام رعاة الإبل كما كان يسميهم . و عندما سحبت اليد الخشنة الكل بعنف شديد ، خرجت صرخة مكتومة سرعان ما انطفأت . صرخ الرجل بشكل هستيري :

ـ ها . ها الحمد لله على نعمته الذي أعطاني ربي عمرا جديدا لأنتقم . قلعت له صوالحه . إني أول مالك لكنز الملك الهمام ، حاكم الدين والدنيا . يا ناس كنز المليـاني ومحظياته في جيبي من أراد أن يراه فليأت .

وغادر الفلاح دائرة الدم إلى الساحة العامة وهو يصرخ بأعلى

صوته و يردد الكلام نفسه ، بينما ظلت البقية ، منهمكة في تمزيق ما تبقّى من جثة الملياني . أقترب منه في الأخير أربعة أفراد من "كتائب الظلام" . كانوا يشبهون الزبانية . رفع أحدهم رأسه و حاول أن يتفرس الجثة التي فقدت ملامحها . ثم تمتم في أذني الملياني و كأنه كان يسمعه :

ـ هل تعرفنا أيها الملك الهمام ؟ أيها المهدي المنتظر ؟ يا أمير المؤمنين ؟

خيل إليه أن الملياني كان يسمع و يرد و يحاول أن يشتم لكن الموت الذي دخل محجري العينين لم يعد يسعفه : أبناء الكلبة لو تدرون ؟ أنا الذي اخترتكم ، والآن تبيعونني مثلما باعني الأصدقاء ، و باعوا جدي من قبلي ، وسيبيعون ابني من بعدي إذا لم يأكلوا بعضهم بعضاً . ذاكرة الملك قصيرة ، قصيرة جداً . ستأكلكم الطاحونة نفسها .

تمتم رجل كتائب الظلام :

ـ هكذا . الدنيا هي الدنيا . "كتائب الظلام" صنعتها وهي الآن تصنع قدرك أيها الفاطمي المنتحل! ؟

ثم مدّوا أكفّهم نحو وجهه . وضعوا رأسه بكامله داخل أيديهم . ثم ضغطوا على كتفيه بقوة ، ودوروه بعنف حتى استدار بشكل كامل ، مثل رأس البومة . سمعت عظام الرقبة وهي تتكسر . ثم سحب أحدهم سكين جزارة من خاصرته وحزّ الرأس التي لم تكن ملتصقة إلا بجلدة الرقبة . بدا لهم جميعا ، في لحظة من اللحظات ، كأنّ الرأس لا تزال فيها حياة ، انتزعَ الرجل الثاني من الكتائب شاقورا كان يتدلى من خاصرته مثل المسدس ، ثم ضربه بكل قوة ، فقسمه على اثنين ، أخذ بعدها كل قسم في يدٍ وطوّحهما داخل فضاء القصر وهو يقهقه بأعلى صوته :

ـ هو ذا الذي وصل متأخراً ليكون فاطمياً وهو متسخ من رأسه حتى

قدميه! نحتاج إلى غيرك يا همام . لم تعد صالحا .

خارج القصر ، كان الرصاص يندلع من كل الجهات و يحصد الناس بشكل أعمى . الكل يقتل الكل . كانت العلامات و مخاطر الفتنة الكبرى التي شوشت بصر البشير الموريسكي عندما سأله علماء القلعة ، قد بدأت تظهر . وزارة الدفاع ، مركز السيادة و القوة كانت تشتعل ، والبرلمان يتحوّل إلى رماد في دقائق معدودات ، والوزارات تنهب ، والناس يجرون في كل الاتجاهات كالعميان أو كالقطيع الجافل . الكل خائف من البعض أو من الكلّ . "كتائب الظلام" تخاف من كتائب الظلام . الجنود يخافون من الجنود ، البحر يخاف من البحر ، والسماء تخاف من السماء . كانت الحرب الأهلية قد بدأت و الفرحة انسحبت . الأجساد تزداد عفونة واللهب يصعد من كل مكان . كل شيء يذكر بذلك اليوم الذي صار بعيداً عندما كان سيدي عبد الرحمن المجدوب يعلن عن مشاهده الأخيرة و البشير الموريسكي يتذكر في عيني ماريوشا ، ماريانا الضائعة في عمق البحر الأندلسي و المطر والحنين . لكن في هذه المرة أشياء كثيرة انسحبت ، كانت التربة تتمزّق من تحت الأرجل ساحبة في طريقها كل الموجودات ، وتنشئ في دمها أشواقاً ، ورماداً ، ودولاً وناساً .

كان العلماء مشدوهين من دقة التفاصيل التي كان يقولها قارئ المخطوط الشرقي و ربما منشئه ، عبد الرحمن . قال وهو يلملم أوراقه ، ويجمعها إلى صدره ، ويضع قرطاسه في كفّه . هاأنذا . عفا الله عنّي وعنكم ، قد أتممت هذا الجزء الأوّل بالوضع والتأليف ، قبل التنقيح ، والتهذيب في مدة أيامٍ وليالٍ هي بعدد حبات المطر والنجوم . آخرها في منتصف سنة الرماد . عندما كانت القلعة تباد وعلماؤها يُشتتون في كل حدب وصوب ، ثم نقحته بعد ذلك عندما أطال الله في عمري ، ولم أردم حياً ، ببعض التواريخ المستجدة التي جاءتني من بعيد . وهاأنذا ، مرة أخرى ، قد رويت لكم جزءاً من ذاكرة الدم . بعضه تعرفونه ، والبعض الآخر مرّ عليكم في الأحاديث اليومية وبعضه اليسير سيظل

طُلسماً لا يمس جوهره إلاّ من تجاوزوا القوس الثاني . وتسألون ما هو القوس الثاني ؟! أقول لكم : اقضوا العمر في دهاليز الظلمة وداخل شوق الكلمة وغوايات الجملة . انبتوا داخل الشعرة المغمسة في الحنّاء وفي البؤبؤ الذي لا يرى إلاّ الزرقة وألم الحرقة ومحنة الفُرقة . موتوا مع الذين ماتوا في الوضاءة . ولا تموتوا في الوضاعة وستصلون إلى القوس الثاني الذي مسه الحلاج بطرف قلبه ودمه ثم ختمه بدمه .

تأمل عبد الرحمن أوراقه وقرطاسه من جديد ، بحزن بدا واضحاً داخل بؤبؤ عينيه الصافيتين . خزر الحاضرين بعمق وبحدّة شاب تملؤه الحياة ويملؤها . ثم قام . مشى قليلا داخل الصمت . لامس بيده اليمنى الكتب المرصوصة في المكتبة . قرأ بعض عناوينها . تفحصها من جديد . نظفها من الأتربة العالقة ، عليها ، ثم غطّاها بالباش الأخضر بمعية البحار الذي كان بجانبه . قال للصياد : اسبقني أيها الصياد الطيب . غاب داخل الأنفاق بسرعة كبيرة ، بدا كأنه يعرف المسالك المعقّدة . عندما اختفى . تأمّل عبد الرحمن الحضور ، ثم رفع يده اليمنى . نخلّيكم على خير . الدنيا هي الدنيا . لا شيء فيها تغير . لا نقرأ إلاّ لنزداد هياجاً ، وشوقاً وحنيناً ، للذين سبقونا في الشهادة . إذا رأيتم امرأة تشبه النار والغواية والحرف ، اعرفوا أنها مَرْيُوما . بلغوها سلاماتي وحبّي . قولوا لها ، أن صحابيّاً مولعاً بها ، يرفض أن يتحوّل إلى تربة أو صخرة ، قبل أن يراها أو يلمس قلبها ووجهها وبؤبؤ عينيها الذي لم يضيّع صفاءه حتى في أكثر اللحظات كآبة ووحشية وشوقاً . عندما تجدون كتاباً آخر ، مرمياً على أطراف البحر والسواحل المهجورة . ابحثوا عن ذاكرته خارج بيض الغولة . بيض الغولة ، لا ينجب إلاّ الغولة . أنا كذلك مثلكم ، قضّيت عمراً بكامله أنتظرها في هذا النفق الكريه ومع ذلك تحملته . لستم وحدكم في فظاعة الانتظارات المتوالية ، ولو كانت الأهداف تختلف ، لا يهم . كلنا ينتظر علامته .

ثم بدأ عبد الرحمن ينسحب شيئاً فشيئاً . أردت أنا الأمير نوح ولد الملياني ابن الكوارث والفواجع والآمال المستحيلة ، أن أصرخ بأعلى

صوتي لكن شيئا ما سدّ حلقي وأغلقه . الرموز التي نطق بها ، البعض منها وصلني . بيض الغولة ؟! لماذا لا أكون أنا الفرخ الذي خرج من بيض الغولة ؟ أردت أن أقول له هذا الكلام ، وأكثر منه . كتابك يا عبد الرحمن لم يعد كتابك . لقد صار ملكاً لنا بعد ما ملّح البحر حروفه ، لكن قلتُ في خاطري ، ما الفائدة من هذا الشعر الذي يمكن أن يودي بكل سهولة بصاحبه . الكتاب الآن في حوزة الساحل بكامله . والصيادون متواطئون مع هذا التاريخ الغريب . أهُو تاريخ الملياني وأهوال قيامته الهالكة وانتصاراته الوهمية ؟ أهو تاريخ شهريار بن المقتدر ، شجرة الموت التي لم ترتَوِ إلاّ بالدم والموت ثم استكانت بلذة إلى حروف كتاب الأمّة الذي دوّنه المؤرّخ الذي كان يسفد في كل غفلة دنيازاد قبل أن ينتزع من بطنها قمر الزمن الذي أكلته الأسود و الحيوانات التي كانت تعيش في الأنفاق ؟ بالرغم من كل المحارق ، لم يتغير شيء مهم في الدنيا . لقد صار الصيادون يعرفون الصغيرة والكبيرة ، ويبيعون على السواحل المهجورة ، كلمات عبد الرحمن وأوراقه المنزوعة من مصنف موجود عند أحدهم حتماً . لكن وحق دين محمّد ، لن ينتزع منّي أحد حقّي في السلطان . لقد قضيت نصف قرن أنتظر دَالّتي ولا أحد يملك حق تعكير صفائي ، لأني سأتوحّش وفي ستين تهلكة حروف القداسة وكتب الانتظار .

كان عبد الرحمن قد بدأ انسحابه بصمت وبنوع من الحذر ، وكلما ابتعد احتلت بقعة من الظلال مكانه داخل الفراغات ، وداخل هذه الروائح الكريهة التي اختلط فيها البنزين بالنفط الخام ، بالغاز المفحّم . شيء من الخوف انتابني احتل كامل جسدي التعب . كثرت أسئلتي . هل هذا الرجل هو حقيقة عبد الرحمن الذي تحدثت عنه المصنفات الكبرى أم مجرد رجل نصاب انتحل هذه الصفة ؟ المعتوه الذي ألّف هذا الكتاب ، كائنا من كان ، عظام جهنّم ، يعرف بالتفصيل كيف قتل الملياني . دون كل شيء في كتاب الغواية . لقد أضاف له اللاّحقون كثيراً . بعضهم سمّاه مخطوط الشرق ، آخرون تركوه كما هو ، غيرهم

سمّاه مخطوط النور . القيامة . الأشواق والمدافن . الأهوال والموج . مخطوط الشرق الحزين . لا يعقل . شيء ما يحدث ، غير معقول وغير طبيعي . عبد الرحمن ردم منذ أكثر من نصف قرن ، هو نفسه عمر انتظاري . قد يكون هذا الرجل مجرد نصاب محتال ، أو رجل افتراضي ، مولع بسحر البشير الموريسكي ، لكن أين نحن من عصر الموريسكي ؟!

وفجأة ، كمن استيقظ من حالة سهو مفزعة ، مفروضة عليه بالقوة ، أو من حالة تنويم مغناطيسي ، نهض سقراط من مكانه . سحب بسرعة رشاشه واستعد لإطلاق النار . نظر إلى أوسكار الذي لم يبد أية ملاحظة . أطلق عيارات عديدة . لم يسمع أي صوت آخر سوى صوت ضياعها داخل الفراغ والظلمة . بينما ظل عبد الرحمن يواصل اندثاره داخل الأنفاق بظلاله التي كانت تغطّي كل خطواته و تطمسها حتى غاب نهائياً ولم يعد يُسمع شيء آخر سوى تكسر قطرات المياه في مكان ما داخل النفق . وظل السؤال المستعصي معلقاً في عيون الحاضرين . من يكون هذا الرجل الذي لا يعرف سوى رواية الفاجعة وإعادة بعث الليلة الميتة ، الليلة السابعة بعد الألف ويصر أنها لم تمت أبداً . هل هو عبد الرحمن حقيقة ؟! أو ظلّ من ظلاله المتعددة داخل سواحل أمادرور المهجورة ؟ لماذا أخذ أوراق الكتاب معه ؟ وهل هو الكتاب كله أو جزء منه ؟ من أضاف إلى النص المسحور نصوصاً صغيرة وحكايات ، لم يرفضها ، وقبلها ، كأنه هو الذي دوّنها ؟ أسئلة كثيرة ، بقيت في الحلق مثل الغصة ، حارقة كالدهشة التي لا تفسير لها إلاّ الحيرة و الحيرة دائما .

ونحن نهمّ بمغادرة المكان ، باتجاه مكان آخر ، داخل هذه الأنفاق ، رفرفت مجموعة من الأوراق وهي تنزل من البقعة الضوئية لتصل حتى المكان الذي كنا فيه . حطّت عند أرجلنا . سحب سقراط ، نسخة منها . قرأها ثم مزقها ولملمها ، ورماها بعيداً باتجاه الفراغ و كأنه يطارد نورسا كان ينقر الماء . في الوقت نفسه ، كانت ورقة أخرى مشابهة ، تنزلق

فوق كفي . فتحتها . كانت مكتوبة بخط مغربي مكسور ، ومائل . عندما بدأت أتفحَصُها ، عرفت أنها آخر رسالة وجهها نوح إلى سكان القلعة قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة في ذلك اليوم البارد :

يا عبد الرحمن العالي . يا عبد الرحمن الرحيم . يا حبيبي في الدنيا وفي السماء . هي ذي الرسالة الأخيرة ، أبعثها لك مع الوفية مسعودة ، و لكم جميعاً في القلعة وخارجها . حافظوا على مسعودة ، في قلبها الكثير من أسرار القصر والمحيط . إذا عادت سيقتلونها . يا عبد الرحمن الرحيم . لقد قتلتك قبل أن أُقْتَل ، وخسرتُك قبل أن أُخْسَر . لقد ضيّعتك وضيعت معك الوطن الذي افتقدك بسببي . عِشْتُ وحيداً ، معزولاً ، وهاأنذا ، بشكل يكاد يكون قدرياً ، أموت وحيداً وسط قاعة ضيقة . حالتي تزداد سوءاً . الريق المرّ يخرج من فمي ، ودقات قلبي أصبحت ضعيفة . إني أشعر بأن السمَ قد وصل إلى الرأس . لقد تعبت كثيراً . كثيراً جداً . متعب بعد خطاب الأمّة الأخير ، الذي سجله التليفزيون الوطني ، وغالطني كلاب القصر بأنه كان يُبثّ مباشرة على الهواء بينما ، كل ذلك كان مجرد مغالطة بصرية ، تمّت ضمن دائرة مغلقة . كان التليفزيون وقتها يبث المسلسل المصري ، ودالاس Dallasولهذا كانت الشوارع خالية من الناس و أقنعوني بأن الجماهير متشوقة لسماع صوتي . لقد قلتُ يومها ، أشياء كثيرة في خطاب الأمّة ، ولكن الآن ، لا قيمة لكلامي ما دام لن يصل إلى آذان سكان نوميدا-أمدوكال ، ولكنّي متأكد ، من تسجيله عندهم . لقد صار خطاب الأمّة أرشيفاً يضحكون منه ، ويتنادرون به على غبائي الكبير . إني أراه الآن بكل ملامحه ، الملياني ، وهو يتأمل خطابي في التليفزيون ويضحك منّي ويضحك معه أصدقاؤه ، مِلْءَ أشداقهم . يقول لهم والزبد يخرج من أطراف شفتيه هاه! ؟ ألم أقل لكم إنه غبي . هل يمكن للشعراء أن يحكموا بلاداً بدون أن يحرقوها ويحرقوا أنفسهم . أنا قلتها لكم يا رجال البلاد وحكام رقاب العباد . الشعراء إخوان الشياطين . رجال الغواية . ألم ترهم في كل وادٍ يهيمون ، يقولون مالا يفعلون .

يا عبد الرحمن . . تعبي كبير ، ونهايتي وشيكة . إني أشعر بغوايات هذا الوطن تملأ دمي ، و لو كان القدر يتكرر لفعلت بكل إصرار ما فعلته . لكن الزمن يسير بسرعة ، سارقاً منّي فرصة التأمّل . لست نادماً يا بنَ أمّي . للموت لغته وللحياة فرصتها . لكنّي أشعر بغبن كبير وبكمَ لا يضاهى من الحزن . حزين عليكم جميعاً ، لأن عصراً منقرضاً يتمدد الآن في شكل عمرٍ طويل بسبب حماقة لم يكن من الممكن تجاوزها ، وكان يفترض أن أُعفي البلد منها ولكن الكارثة أعمق مما كنتُ أتصوّر . لا شيء ينفع الآن يا بنَ أمّي ، وأبي وروحي . أنت ذاكرة الأمّة وشعلتها الاستثنائية . دوّن كل شيء إذا بقي في عمرك شيء من وهج الحروف التي لا تموت أبداً . والله ، لا تبقى إلا الكتابات والحروف . كل شيء ينتهي بقسوة . ذاكرتنا المجروحة تعوّدت على السماع و لهذا فهي تنسى بسرعة . الحرف مثل نيران الشعلة ، إذا سجل ، يبقى محفوراً أبد الدهر . اسحب وراءك ، كل ما تملك من كتب ومخطوطات ثمينة . . خذ معك كتاب المدينة وامتداد المخطوط الشرقي وبوقالات العلماء وتخطيطات الموريسكي وخبّئها في عينيك ، فالريح الساخنة التي تهبّ الآن بدائية . قادمة من عصر قديم جداً . أكتب . قل إنهم قتلوني سمّموني بعدما سمّموا كلبي عنترَة ، ولتبق الذاكرة التي لا تندثر أبداً ، ولتبق أنتَ محملاً بالحنين والحقيقة التي تعذبك كأجدادك العظماء بالأحزان والأشواق وأحرف النّور والإصرار المدهش والغوايات المتمادية في غيّها . قل للعلماء في الختام إن جهنّم تحت أقدام أصحاب النيّات الحسنة وأنا كنت واحداً منهم . . .

دمْتَ للريح الساخنة التي لا تموت .

دمتَ للهواء الأزرق وللرطوبة الملونة بالرذاذ التي تأتي الآن من الساحل المجاور .

دمت لغوايات حروفك ، أوّلاً وأخيراً .

في لحظة من اللحظات ، شعرت بعطف كبير ، تجاه القلم واليد التي

خطّت هذه الحروف . ولكن عندما تذكرت ما حدث للملياني ، مزقتها ومضغتها وشعرت فجأة باللذة التي انتابت هند وهي تلوك كبد حمزة عمّ الرسول . ثم رميت كل شيء من فمي لأني شعرت بمغص الحروف التي تشبه المسامير وهي تبحث عن أماكنها داخل بطني .

ـ أوف ليكن! يومي قادم وسأمحو كل آثار اللعنة .

ثم التحقت بالعلماء الذين كانوا قد بدؤوا يتوغلون أكثر فأكثر باتجاه الممرات التي قطعها عبد الرحمن والبحار ، بدون جدوى .

* * *

- VIII -

وضع أوسكار رأسه بين يديه ، وبدأ يتأمّل الأرضية اللزجة ويضع قطنتين داخل مجاريه الأنفية التي التهبت بفعل الروائح الكريهة ، التي كانت تنبعث من كل زوايا الممرات المهدّمة .

ـ لا يعقل ؟ أين ذهب هذا الرجل ؟ كأن الأرض انشقت و ابتلعته ، أو تحلل بسرعة!

ـ لا يعقل! ؟

ـ كررها سقراط ، وهو يحاول أن يتلمس الأشكال المسودة لعلها كانت جزءاً من جسده الذي يكون رصاص الماط MAT 49 قد مزقه ولكن عبثاً .

Ce n'est pas possible! 49 balles sans qu'il soit dérangé. –

ـ قد يكون رجلاً مزيفاً لعب بنا مثلما يلعب بأدمغة الأطفال ؟

ـ هل يمكن لإنسان أن يعيش خمسين سنة داخل نفق نتن مثل هذا ؟! ومع ذلك لا أحد يصدق حكاية الموريسكي الذي قادته ضربة شمس قاسية إلى ظلال الكهف . ولكنهم في النهاية أدركوا أنه لم يكن

إلا بقايا النشيد الأندلسي الذي لم يمت فيهم وفيه . كان جنتهم الضائعة .

- حتى الصياد الذي يفترض أن يكون قد مات بفعل السقوط ، تواطأ معه بسهولة ؟ شيء ما غير طبيعي .

- يبدو لي أن الصياد بدوره لعب بنا . كان يعرف كل المداخل الأساسية . فمكان مثل هذا يمكن أن يكون ملجأ للعابرين .

قال سقراط وهو يحاول أن يقرب القنديل الزيتي من وجهه ، لتتقد عيناه الصغيرتان مثل عيني قطّ .

- كنا حمقى . كان يجب ألاّ نتركهما يخرجان هكذا ؟! كان يجب أن يقتلا .

- أوف . فهما لا يشكلان أكثر من ظلال لحقيقة أنتروبولوجية ربما كانت أعمق و أكثر تعقيدا مما سمعنا .

قال أوسكار وهو يحاول أن يخفف من الحادثة .

- هذا كله لا يمنع البحث عنه . قد يكون عبد الرحمن هذا شخصية منتحلة يجب أن نبحث عنه داخل هذا المكان . لن نخرج إلا به . أو يكون قد مات ههنا ، في زاوية ما من هذا العفن الذي لا يمكن لمخلوق أن يبقى فيه حيّاً أكثر من يوم واحد . هذه هي قناعتي الخاصة .

ثم أعطى أوسكار من جديد تعليماته الخاصة ، وبدأنا نبحث بكل دقة داخل الأنفاق المتداخلة عن عبد الرحمن ، أو عن بعض بقاياه ، متحملين القطرات الثقيلة ، الممتلئة بالزيوت المنبعثة من كل مكان ، إضافة إلى بعض الأتربة التي كانت من حين لآخر تسقط كتلاً كتلا ، أمامنا ، على ظهورنا ، أو على رؤوسنا . كان من حين لآخر ، ينتابني خوف مقلق . كنت مرعوباً من سقوط كتل كبيرة تسدّ في وجوهنا عمود النور المنبعث من فوق ، والطرقات و الهواء ، لنصبح في نهاية

المطاف ، الحقيقة الأنتروبولوجية التي تحتاج إلى دراسة وتفكيك . كانت الظلمة قاسية ، لولا القنديل الزيتي أو الخوذات المضيئة لكل من أوسكار وسقراط . الجو كان يزداد برودة كلما توغلنا في أعماق الأنفاق . قال سقراط من جديد ، وهو يحاول أن يسدّ أنفه بمنديله .

ـ يبدو ، وكأن تحت هذه الأتربة الثقيلة تنام آثار خطوات قديمة . ربما يكون الرجل الغريب قد مرّ من هنا! لكن الطرق المسدودة والأنفاق المغلقة كانت كثيرة . المتر الواحد ، كنا نقطعه . يخيّل إليّ كأننا ندور في المكان نفسه مثل الضائعين . نضيع داخل المعابر لنتذكر بعد ساعات ، أننا مررنا عليها قبل أن تقودنا هي بدورها إلى مجموعة من الانسدادات أو الفراغات . فجأة ، مدّ أوسكار يده باتجاه كتلة حديدية قديمة ، كانت مرمية هناك . مررنا عليها أو جانبناها العديد من المرّات بدون أن نتنبه جدياً لها . حاول أن يتفحّصها . جلس على ركبتيه ، ثم بدأ يزيل الأتربة من على ظهرها المصدأ . حوّطناها وقد شعرنا نفسياً كأننا أمام الحقيقة التي كنّا نبحث عنها .

ـ أعتقد أن هذه الكتل ناتجة عن تفجير المصفاة .

طلب منا أن نساعده في إزالة التربة عن جنبات القطعة الحديدية ، وفجأة ، برزت على الجهة اليمنى ، كتلة دائرية ، طلب أن نسلط عليها الأضواء . كانت عبارة عن شكل يشبه رأس إنسان ملتصق بالكتلة الحديدية . أزال أوسكار الأتربة العالقة به . وفجأة برز وجه إنسان . قربنا الأضواء منه أكثر . الدهشة كانت كبيرة . هو نفسه رأس عبد الرحمن الذي كان يحدثنا قبل قليل وقد يبس الجلد على العظم ، لكن الملامح ظلت هي ، هي ، حتى اللحية لم تسقط . كان مثل المومياء بابتسامته الساخرة . بقية الجسم كانت منغرسة في كتلة إسمنتية ثقيلة تشبه الصخرة . حاول أوسكار ، أن يكسرها بعناية ويحرر الجسم منها لكن الأمر بدا مستحيلاً . كل شيء كان يمر بسرعة فائقة . الأسئلة كانت كثيرة والإجابات عنها شبه مستحيلة ، ولهذا كان التصميم

الجماعي في النهاية هو إخراج هذه الكتلة أوّلاً ، و الخوض بعدها في الحديث و الأسئلة ، فأي نقاش سيكون كلاماً فارغاً بدون العمل على إخراج الجسم . كان الأمر يهمّني جداً . لا يمكن للمرء أن يحكم وذاكرته غائبة عن الفواجع التي تحيط به . عليّ أن أتخذ موقفاً صارماً من محيطي ، وبدون تردّد . ولهذا لم تكن لديّ خيارات كبيرة ، سوى خيار الصبر ، لكنْ للصبر حدود وإن كان هو الوسيلة الوحيدة المتبقية لمقاومة رداءة السنوات المتشابهة . الملياني ، لو لم يكن صبوراً ، لكان قد انتهى منذ زمن بعيد ، منذ اللحظات الأولى من حمله وسط محيط تتآكل داخله كل الأوبئة والأطماع .

عمل العلماء الأنتروبولوجيين و المساعدين ظل متواصلاً بدون توقف . انخرط الكل في عمليات الحفر الدقيقة . بينما ظل أوسكار يحرّك إزميله بهدوء كبير وبأناقة عالية على الرغم من كل الصعوبات . لقد اتفق الجميع على إخراج الجسد من هذه الكتلة ، ولكنه كان يجب أوّلاً حصر الكتلة وإخراجها ، قبل مباشرة عمليات التكسير . غريب منطق هذه الدنيا ، ومنطق هؤلاء الأصدقاء . البارحة دفعوا الملياني ، لردمه حيّاً . واليوم يفتشون عن ألد أعدائه ، لاسترجاعه . الحق . الحق . أنا معهم في هذه المهمّة . فهؤلاء الناس من الدقّة بحيث تبدو أعمالهم بدون معنى في أعين الذين لا يدركون عمق الأشياء . من المستحسن ألاّ أكثر من الأسئلة التي تحرج الأصدقاء وتضع السلطان على منقار عفريت ، خصوصاً أن كلّ شيء أصبح ناضجاً مثل تفاحة المجانين .

فجأة صار عبد الرحمن أهم منّي . ليكن إذا كان ذلك في مصلحة السلطان . عليّ أن أقبل بتفاصيل هذا التاريخ المقلوب وأن أعرفه بدقة . لا شيء يؤذي السلطان مثل الغفلة .

عندما استعصى أمر الحفر ، أحضر أوسكار منشارا صغيرا يشتغل بمحرك مازوتي أخرجه من جرابه . هو جزء من عدته . ثم سحب حبلاً ،

وضعه على البكرة وسحب بقوة وبسرعة ، فبدأ المحرك يدور بسرعة والمنشار يتحرك بشكل دائري . غرسه في قطعة الإسمنت اليابسة ، فقطعها بصعوبة في شكل مكعب يحيط بجسد عبد الرحمن ، حفاظاً عليه من التفتت .

- بالوسائل البدائية التي بين أيدينا ، أخشى ألاّ نصل إلى شيء مهم . نزع الإسمنت عن جسده معناه تدميره نهائياً . الطريقة الوحيدة ، أن نخرج الكتلة وبعدها نعمل عليها بهدوء في المخابر .

هزّ الجميع رؤوسهم موافقين أوسكار في مقترحه . حتى أنا ، و على الرغم من أني لم أكن معنياً من الناحية العلمية ، فالتفاصيل كانت تتجاوزني .

بعد لحظات ، كانت الصّخرة قد انفصلت عن بقية الكتلة الإسمنتية بعد أن حُررّتْ من الجوانب الأربعة ، وأصبح رأس عبد الرحمن واضحاً . كنت واقفاً من دهشة الأسئلة المستعصية التي كانت تتآكل داخل دماغي ، ومع ذلك لم أكن سلبياً في المساعدة . من حين لآخر كانت تُطلب منّي بعض الأعمال كتحضير الأجهزة اليدوية ، تقديم الكلابات و الأسلاك ، تقريب القنديل الزيتي أو البطاريات من مركز العمل ، وضع المازوت في محرّك المنشار . . . كنت أنفذها بسرعة و بدون أدنى تردد . مرّت بذهني في لحظة من اللحظات رغبة في العصيان ، قلتُ كيف يُطلب منّي هذا العمل القذر وأنا السلطان القادم ؟ كيف يعمل الهمام ، والإمام الفاطمي الجديد وسط هذا القفر و داخل العفن مع أناس هم في نهاية المطاف خدمي وحشمي و تحت إمرتي ؟ عندما أصعد إلى السدة سأخيّر كل هذه القافلة من العلماء بين العودة إلى أوطانهم ، أو البقاء في القصر كخدم مقربين . لكن هذا حديث آخر سيحين وقته .

كنت غائباً داخل الفراغ عندما صرخ سقراط في وجهي . لم أسمعه جيداً . ظل يصرخ ، ومات صوته بين ضجيج محرّك المنشار . كنت داخل أحلام زرقاء تتعلق بسير الدولة وظروف تكوينها . فجأة رنّتْ

الكلمة المزعجة في ذهني بعنف شديد ، مثل وخز إبرة .

- يا خرا ألا تسمع! ؟

- ؟!!! ؟!!! ؟!!! ؟!!!

أنا خرا ؟ من يكون هذا التافه حتى يقول لي مثل هذا الكلام ؟ كانت الكلمة باردة على القلب ، وحارّة كالموت . هل أنا مجرد خرا في عين سقراط الذي كان غارقاً في الوحل ؟ لم أتمالك أعصابي ، وصرخت بدون تردد .

- الخرا ، هو أنت .

- ؟ ؟ ؟

لم أشعر بالندم مطلقاً . خرجت الكلمات من فمي بسرعة كبيرة ، لم أتحكم في حواسي التي شعرت بها تقتل دفعة واحدة ، بعدها شعرت بنوع من الراحة أنه لم يفهم جيدا ما قلته على الرغم من أني رددت ما قاله .

- لم أفهم ؟

ردد سقراط و هو ينظر إلي بحقد شديد .

- لا شيء .

تمتمتُ .

اتقدت في عينيه أشياء غامضة تخيلته بعدها يأخذ سلاحه و يطلق النار علي . خرج من الحفرة بصعوبة وشطط ، وكاد أن يردم حيّاً لولا أحد أصدقائه الذي قدم له بعض القطع الخشبية لتوقيف الردم التي كانت تتهيّأ للسقوط عليه . كان يضغط على إصبعه الذي جرح جرحاً بليغاً . بدا ذلك واضحاً من خلال الدم الذي لم يتوقف سيلانه إلا بصعوبة . كان يكزّ على أسنانه وهو يحاول أن يلف يده بشاش أبيض . أسود

وجهه مثل القطران . فجأة سحب سلاحه الرشاش ووضعه في رأسي ، فوق أذني اليمنى قليلاً ، وكاد أن يضغط على الزناد وهو يصرخ ألما وحقدا .

- Je suis de la merde arabe de mon cul?

(أنا خرا ، يا عرب طيزي ؟)

بدأت أرتجف ، كنت مستعداً أن أدخل بين رجليه كالقط وأعتذر له ، الكلمة خرجت هكذا مني ، لولا تدخل أوسكار بسرعة في الوقت المناسب مؤنبا سقراط .

- مجنون ؟! ماذا أصابك . قُلتَ خرا ، وقال خرا . انتهى . لا تكبر المسألة و لا تعطها أكثر مما تستحقه .

لولا أوسكار لردمت في هذه الحفرة مثل عبد الرحمن ، ليأتي باحثون آخرون ، بعد زمن ميت ، يبحثون عن الملك الهمام الذي ظل نصف قرن ينتظر حقه في السلطان ، وعندما أتى هذا الحق قُتِل بغباوة .

سحبني أوسكار باتجاه الزاوية . اعتذر في مكان سقراط ، لأنه كان يعرف مسبقاً غلاظة صديقه وفجاجته وعنفه . قال و هو يحاول أن يخفف من الأمر :

- هذا الرجل ، رأسه خشنة مثل التركي ، ولكن قلبه أبيض ، لا يحقد ، أرجو أن تعذره .

لقد شعر أوسكار بخيبتي وبألمي العميقين . لقد اندفنت داخل نفسي ، بعد أن شعرت بحالة لا تضاهى من الحزن والخيبة . لقد صرت مجرد خرا في منظور هؤلاء . لست شيئاً مهمّاً . كتلة من اللحم المهمل ، مكدسة بجانب مزبلة نتنة . ومع ذلك ، فإصراري على النسيان كان كبيراً . قلتُ في خاطري . لِمَ الحزن ؟ علينا أن نتحمّل كل الفجاجات للوصول إلى منتهى المغامرة ، وإلاّ لا قيمة لما نفعله . ليكن!

كلمتي قلتها وانتهى كل شيء . في العمق ، كانت رغبتي كبيرة لوضع هذا الملعون تحت الصخرة وردمه حيّاً . ولكن ؟! واش يعمل الميت في يدين غساله ؟

عاد الجميع إلى العمل من جديد بعد هذه الحادثة التي اعتبرت بسيطة ، وليست ذات قيمة . ربط أوسكار ، بمساعدتنا جميعاً ، الصخرة ، وحوطها بالأسلاك والأحبال الغليظة ، بينما ، البقية ، كانوا يسحبونها باتجاه الخارج ، أين كانت الطائرة المروحية التي طلبها أوسكار بواسطة اللاّسلكي الذي لم يغادر فمه أبداً منذ أن غادرنا عبد الرحمن . حاول سقراط أن يتأكد بعينيه الزرقاوين الصغيرتين من متانة الروابط التي أحيطت بالصخرة الزرقاء ، التي كان ينام داخلها هذا الشبح الملتحي الذي يشبه عبد الرحمن ، وظل ، رغم التآكل يحافظ على وقاره .

وفجأة نبهنا أوسكار .

ـ احذروا قليلاً . الحوامة بدأت تسحب الحبل . نبههم يا سقراط أن يفعلوا ذلك بهدوء أكثر ، أرجوك حتى لا تتسبب في إتلاف هذه المومياء الصخرية .

وبدأت الكتلة الصخرية تخرج شيئاً فشيئاً ، محاطة بالجميع . كانت الطائرة المروحية موجهة من طرف أوسكار ، إذ كلما تقدمت الصخرة ، تقدمنا معها قليلاً ، وكلما صعدت صعدنا وراءها ، وأي خطأ صغير في الحسابات ، كان بإمكانه أن يؤدّي بكل شيء إلى الإفلاس والنهاية ، بما في ذلك نحن . استمرت المحاولة زمناً طويلاً لإخراج الصخرة الإسمنتية بأضرار أقلّ . عند المخرج ، رأيت الفراغ الكبير الذي كنا فيه ، ونحن نصعد رويداً ، رويداً من هذه الحفرة الباردة . كنّا نقبض على الصخرة وعلى السلّم بكل حواسنا . لو تسقط الصخرة ؟ سنطحن جميعاً في رمشة عين وينتهي الحلم الأزرق الذي طال أمده . خرج سقراط ، تبعه أوسكار ثم بقية الباحثين . في الأخير تزحلقت بدوري

إلى الخارج . حمدت الله أن الصخرة لم تسقط ، لأنه لو حدث ذلك لتغير كل شيء ، وماتت كل الحسابات . الإحساس بالنهايات يؤلمني ويغيظني كثيراً ، فقد انتظرت خمسين سنة من العبث تضييعُها داخل حماقة لا معنى لها .

عندما خرجنا ، حاولنا أن نستنشق هواء جديداً ، غير هواء الأنفاق . تكلم سقراط ، وهو يمسح جبهته التي اسودّت .

ـ هه . . يجب العودة إلى هذا المكان ، لا يزال به نفط كثيف ، ولكننا نحتاج إلى سلاح غير هذا السلاح ، وأدوات عمل أهمّ من هذه .

في لحظة من اللحظات ، شعرت بأن هؤلاء الناس غير معنيين بي مطلقاً . حتى أني بدأت أعيد النظر في وظيفتهم الأنتروبولوجية . قد يكونون جواسيس يشتغلون لمصلحة المحيط والسفينة العمياء الراسية في عمق البحر . يا أخي وهل هذا سؤال ؟ ماذا يهمني أنا ؟ كثرة الأسئلة مؤذية ، هكذا قال أوسكار ، ويبدو أني بدأت أؤذي نفسي كثيراً . منذ أن امتلأ المكان بالعابرين والمقيمين أصبحت دوراتهم بالمروحية لا تُحصى . لا أدري إذا كان الصيادون يشكّون في حقيقتهم الأصلية ، أم لا ، لكنّي أنا أعرف بكل حواسي أنهم شيء آخر . لا يمكن أن يكونوا أُناساً عاديين ، أو مجرّد علماء على الأقلّ . وجودهم هنا ، مرهون بأداء وظيفة محددة المعالم . كل شيء يدلّ على ذلك . علاقتهم بالمكان الخالي . بي أنا . بالبحر . بالصيّادين . بعبد الرحمن! ؟ هل كان من الضروري أن يطلقوا عليه النار ، أوسكار وقتها لم يحرّك ساكناً على الإطلاق . النظرات التي تبادلها الجميع وقتها كانت تدلّ على أشياء كثيرة ، مخفية . هذه أحاسيسي التي تأكلني من الداخل ، لتقفز في شكل أسئلة صعبة ، أفضل في النهاية ، ألاّ أتعمّق فيها ، وأسلك طريق نصائح أوسكار الكثيرة . فأنا ، مهما يكن ، جزء مهمّ ، من مهمّة هؤلاء الناس . فهم إلى حدّ ما ، في هذا المكان ، من أجلي أنا كذلك لاسترداد حقّي الذي سرقه منّي هؤلاء البدو الرُّحّل أو كما كان يسمّيهم المليانى

محقاً : رعاة الإبل . هل يعقل أن تكون بيرين الصغيرة مدينةً ؟ بريزينا ؟ و قطامس ؟ ومدينة الزيت إمارة ؟ وغيرها . . . لقد قرأت بسمارك ، وعرفت من هذا الرجل الاستثنائي في تاريخ الأوهام الكثيرة ، أن لا شيء يأتي بالودّ والورد . الحديد للحديد . والنار للنار . واللحم للَّحم . هؤلاء البدو يحتاجون إلى الدبّوس . لا يعترفون إلاّ بالقوة . الضعف لا يصنع مجداً . المجد قوة ، وحياة ونباهة ، وإذا انتُهِكَتْ هذه الشروط ، صار الرجل المعني ، لعبة في مهب الريح وداخل الأكفّ والألسن . نوح كان طيباً ، ونبياً . ولكن الطيبة تصنع الشعر ولا تصنع الحكم والسلطان . لقد ذهب المسكين ، وكان يجب أن يذهب ، في حافر الخيول المتصارعة ، ولم تبق إلاَّ أنشودة الدروب الخلفية المنسية التي لا تُغير شيئاً في التاريخ والمصائر .

لَعْبُوا بِكْ الْعَدْيَانْ يا فلان .

إِذَا تَبْغِي تَرْبَحْ وَتْنَالْ ،

لاَ تْخَالَطْشِ مَنْ وَالَى .

نوح لم يكن مؤسساً لهذه الدنيا التي لم تكن له ، النية الطيبة لا تصنع مجداً . الملياني ، كان سيد الحكم والسلطان وترويض الأفرسة والمحيطات . نصف قرن انتظار ، علمني كل الخطايا والرزايا وكل حِيَل الدنيا ومقالبها . الحفاظ على المسافة الضرورية شرط السلطان . مداخل الحكم قاسية . لقد قرأت الكثير من السِّير وامتلأت بها أوقات الفراغ مثل دون كيشوت ، أو الموريسكي الضائع . قرأت قصة حي بن يقظان وشعرتُ في لحظة من اللحظات أنه كان يشبهني سوى أن حياته ظلت فارغة من أي طموح و مملة على الرغم من أن سيرتي اختلطت ببعض وقائع سيرته . كلانا وُجِدَ في جزيرة صغيرة ، يبحث عن ذاكرته وقلبه ، فقط هو اختار الفلسفة ، واخترت أنَا نقيضها الحكم . وعندما دخلت دروب سيرة الملياني ، أحسست أن الدنيا تعيد إنتاج ذاتها ، مثله مثل السابقين . لا يقرأ ولا يكتب ويكتفي بالارتكان بالأمّية العظيمة ، أمّا

أنا ، فشيء آخر . أوّل حاكم من السلالة يدخل السلطان متأخراً ، مدججاً بالمعرفة والتجربة . انتظرت نصف قرن منذ أن خطفتني المروحية من مشاهد القيامة والدم . كان عمري عشر سنوات . الآن أصبح من حقّي أن أحكم هذه البادية الضائعة ، بادية الموت والظلمات . أنا أكثر الناس إحساساً بقبائلها البدائية التي تملأ كثبانها ورمالها . ذئب البراري . على هذه الدنيا أن تُغير مجراها وأن تعبر شعاع النور النائم في خفايا هذه الدنيا القصيرة .

لقد تعبت ، تعبت كثيراً . لكن من قال إن السلطان يأتي بدون تعب ؟ نوح المسكين وجده جاهزاً ولم يُهَيأ له . لم يُبْنَ له . هو منطق السلطان ، قد يبدو معوجّاً ، ولكن متى كان منطق السلطة والسياسة مستقيماً . علينا أن نغيّر الدنيا ومنطقها وإلاّ لِمَ مات ذلك الرجل الذي جاء من بعيد ليصير علاّمة هذا العصر بعد خمسين سنة انتظارا ؟ التاريخ لم يحوّل الملياني إلى علاّمة بل هزمه لأنه لم يملك سحر اللغة . كان الوجه الآخر لنوح . ها هو نمط جديد من الحكام يولد . له حساسية المثقف و قوة الهيمنة و محيط غير معادٍ . سيمنع ميلاد مجنون آخر بين صخور الزيت الأسود ، مثل عبد الرحمن ، يدوّن تاريخَ السواد والقلق والضغينة .

أرجعني أزيز المروحية إلى حالتي الأولى . عليّ أن أبقى هنا . فأنا هنا ، ولست هناك . أنا أمام هذا الرجل الذي غادرنا حيّا بعد أن قرأ مخطوطته المغربية وحين بحثنا عنه ، وجدناه صخرة يابسة . هل عبد الرحمن مجرد حكاية آسرة ؟ أم آدمي سحرنا بكلماته الراجفة ثم انطفأ ، لا هو عبد الرحمن ولا هو عابر من الهائمين .

كانت المروحية تحلّق فوق رؤوسنا على انخفاض مقلق ، أما المكعّب الصخري الذي قُصَّ من الأنفاق ، الذي يتكمش داخله عبد الرحمن ، كان يتدلّى في الهواء ، مقبوضاً بمقابض معدنية إلى المروحية ، بقوة . كان وجه عبد الرحمن بارداً مثل قطعة ثلج . بدا لي في لحظة من

اللحظات ، أنه كان يحرّك عينيه وحاجبيه اندهاشاً ممّا كان يحدث له .

اقتربت منه أكثر . تلمسته بيدي . شعرت برهبة ما في داخلي . شيء بارد استقر في قلبي . يا الله!! هل سنصير هكذا جميعاً ؟ مجرد أتربة ، أو أجزاء كلسية من صخور صلبة! هل هذا هو الرجل الذي أقام الدنيا وضيّعها بكتاباته وبياناته وصوفيته النادرة ؟ وهل سيكون لنا ذلك الحظ العظيم ويُبحث عنّا في المغاور الضائعة والحفر أو البحار التي نموتُ فيها أو نقتل داخلها ؟ هو هو لم يتغير إلاّ قليلاً . جزء من المخطوط الشرقي . لا تزال عيناه ، حاضرتين ، وهما تقرأان تاريخ الآفلين من الصادقين والمحتالين . متعب ، لا أعلم ماذا أكتب ، فألوان قوس قزح غير واضحة . كما قال الموريسكي في ذلك الزمن الذي صار بعيداً عندما طُلب منه أن يقرأ كتاب المدينة المناهض لكتاب الأمة .

الذي حدث أمام أعيننا ، يستوعب بصعوبة نادرة . عبد الرحمن ، من إنسان بلحمه و دمه إلى كتلة لحمية منغرسة في الإسمنت مرت على موتها عشرات السنين . رجل ممشوق ، بلحية بيضاء وبرنوس صوفي ، يحكي ثم ينطفئ فجأة داخل النور لنجده بعد لحظات مكوّماً داخل صخرة ؟ وصيّاد يُفترض أنه سقط في البئر ، داخل فراغ الموت ، يأتي فجأة ليصطف بجانب عبد الرحمن ؟! كيف جاء ؟ من أين ؟ كيف لم يَمُتْ أصلاً ؟ ثم من أين يعرف عبد الرحمن وهو يعتذر له عن تأخره ؟ هل هو متواطئ في النهاية مع عبد الرحمن ؟ ما الذي يجمع بينهما ؟ كلّنا يهمنا عبد الرحمن من مواقع ومصالح مختلفة ؛ يهمّ الصيّادين كعلامة لاستمرار الأمل والحياة ، يهمّني لأنهي أسطورته مرّة واحدة ونسمح لتاريخ آخر بأن يفتح عيونه داخل مخطوطاتي ودواويني وكتبي ، ويهمّ العلماء الأنتروبولوجيين كموضوع لدراسة الممارسات البدائية في مجتمعات وُلدتْ منقرضة منذ بدء الخليقة . كلنا يهمنا هذا الكائن البشري الذي تحول إلى مجرد حجارة باردة ، متآكلة . أسئلة كثيرة تَلفّ حالة هذا الرجل . غير مهمّ طرحها الآن ، ما دام القصد الكبير هو إرجاع حقّي المسروق منّي منذ أكثر من خمسين سنة .

عندما استوت المروحية جيداً في الفضاء الواسع ، وأصبحت الكتلة الصخرية ثابتة واطمأنّ الجميع على متانة الأسلاك وأحبال الربط الغليظة ، انطلقت مباشرة باتجاه البحر ، صوب السفينة الراسية على أطراف المتوسط داخل الغيمة المظلمة ، ليس بعيداً عن الأسطول الأميركي الذي دمّر المدينة في حرب الملياني الأخيرة التي سرقت أنوار الدروب والأزقة الشعبية .

انطلقت المروحية نحو فراغ البحر ، وعبد الرحمن يتدلّى تحت هيكلها الضخم . عبد الرحمن سيرة الذين لا يموتون وذاكرة المخدوعين ، لكنه كذلك وسيلة القادمين الذين يحلمون بحكمٍ وبمجدٍ لا يأكله الطيش ولا ترهقه الحماقات .

بدأت المروحية تبتعد باتجاه الزرقة الوهمية ، ساحبة تحتها رجلاً من صخر ورمل وبعض الزفت ، وعظَاماً ذابت داخل الصخور القديمة . هذا مآل الذين حركوا خليط الأشواق وأسرار السلطان . خليط من الأحاسيس ينتابني . أحياناً أقول ، كل ما حدث له قليل ، كان يجب أن يردم حيّاً تحت الأرض بمئات الكيلومترات حتى يصل إلى عمق الجحيم ، وفي أحيان أخرى أشعر برأفة ما تجاهه خصوصاً نهاية الرجل الطيب ، الذي أراد أن يحكم بشعر بدائي في مرحلة التوحش . آي يا سيدي نوح ، لو تعلم ؟! نُتَّهم بعدم فهم الوضع العام والناس . ولكن يبدو أنكم أنتم الذين لم تفهموا أناساً لا يرضون عنك إلاّ إذا كان الدبّوس على رؤوسهم . لأننا دائماً في نهاية المطاف ، نربَحُ الناس ، وتخسرونهم أنتُمْ . شعب التوحش تسيّره سبل التوحش . شيء من الحنين يدفعني نحوه . فأنا على الأقلّ أحمل اسمه وأحبّ شعره بالرغم منّي وقرأت كتاباته الملتهبة خفية عن والدي بفضل الزنجية . ديوان البهجة لا يزال عالقاً في ذاكرتي . بتواطؤ منها كنت أقرؤه وأنا في الحمام ، بين رجلي الزنجية ، وهي تلهث وتبحث عن أشيائي الضامرة وأحياناً داخل الفراش ، وفي أحيان أخرى ، عندما يُسمح لي بالخروج قليلاً من البيت بصحبة الزنجية التي كانت تكبرني قليلاً وتسهر على راحتي . تغلق باب

غرفتي الواسعة ، تدفّئني بين فخذيها ، تحكُّ على رأسي وعلى ظهري وهي تقرأ لي الشعر . بل أصبح نومي بين رجليها مشروطاً بفعل القراءة حتى تحوّل ذلك كلّه إلى عادة من عاداتي الحميمية التي تكاد تكون يومية . حتى رائحة عرقها وهي تشخر عند أنفي أتذكرها وأتحسسها كالهواء وهي تتسرب داخل مفاصلي ، وداخل فمي . أراها وهي تعض على شفتها السفلى ، الغليظة ، وهي تسحبني بقوة نحوها ، نحو فخذيها اللذين تفتحهما وتضيقهما . أنا مندهش من شوقها نحوي الذي تحوّل مع الزمن إلى واجب يومي .

اندفنت المروحية في عمق السماء نهائياً وابتلعت داخل الفضاءات الزرقاء وبياض السحب الرقيقة . وبدا كأن المهمّة انتهت ، بالرغم من أن شيئاً ما ظل عالقاً بالحلق ، بمرارة كبيرة .

بعدها ، تفرق الجمع وهم يتفادون طرح الأسئلة خوفاً من تَعمّق الخيبة . ركبنا سيارة لاندروفير وبدأنا عبور الصحراء من جديد راجعين إلى حفرة حمّام الشمس . مشاهد العابرين نفسها بألبستهم الزرقاء ، المحملين بالمواد الاستهلاكية والأملاح ، والماء ، والأسماك ، المجفّفة ، قادمين أو ذاهبين في صراع مع الرمال التي كانت تزحف بخوف ضامر نحو البحر ، الذي كان يتراجع بقوة .

كان هزّ السيارة مغرياً للنوم .

ليكن! لكن الذي ظل يشغلني في إغفاءتي المتقطّعة ليس المشهد المحزن الذي حول رجلاً في نهاية المطاف إلى كتلة صخرة بدون قيمة تُذكر ، ولكن الرجل . . . نعم الرجل المزعج . سقراط عليه اللعنة . سقراط المجنون الذي كان يريد رأسي .

سقراط . كلامه من حجر وإبر يؤلم الآذان .

يا خرا!! ؟! ألا تسمع ؟ ابن الكلب ألم يجد كلمة أكثر تحملا من هذه الوساخة ؟ لعلي كل حال ، حتى أنا ما خليتلوش .

كانت الإغفاءة قد دخلتني و استقرت داخل العينين وبدأت تثقل عليَّ المشاهد والألوان الصفراء و الناس العابرين و الهواء الساخن .

كان زمن آخر يُشيّد مشاهده خارج هذه القيامة ، من وراء البحر ، ليس بعيدا عن السفينة الراسية على أطراف المتوسط ، داخل الغيمة المظلمة ، بمحاذاة الأسطول الأميركي الذي دمّر المدينة في حرب المليانى الأخيرة التي سرقت أنوار الدروب والأزقة الشعبية .

* * *

القسم الثالث
الانتظار على الحافّة

- I -

وضع الأمير نوح الصغير ولد الملياني الحلوى الشباكية في عمق فمه ثم سحب نفساً طويلاً من لفافة الكيف التي صنعها بيده وغلقها برأس لسانه . كان قد بدأ يتدحرج داخل البحر والغيم والشعر وبعض الموت .

ـ هه!! شيء ما في هذه الدنيا يستحق أن يعاش بعمق كبير .

تحسس نوح الصغير قرنيْه من تحت شاشيته ثم تأمّل الشاطئ الممتدّ بزرقته اللاّمتناهية . كان شبه فارغ من كل حياة . العمر فيه يضمحل مثل الريح وبسرعة غير متناهية .

عمري الآن تجاوز الستين سنة . عشر منها قضيتها بين فخذي الزنجية وخمسون أخرى ، نصف قرن ، ماتت داخل هذا البحر وهذه القلعة وتكسرت كل مشاهد الصيادين المتكررة في انتظار ما يقذف به البحر . وعندما قذف بالسرّ ، زاد يأسي أكثر من دنو يوم العلامة . عبد الرحمن قتل الأحلام داخل الحكاية . خمسون سنة والموجات تطوي حقائبها وتمضي بسرعة مذهلة ، ولا شيء يعكّر صفو الروتين اليومي سوى بعض الحذر الذي علا عيون الصيادين ، كلما رأوني أمرَ على

أطراف الساحل وأنا أتظاهر بقراءة البيانات التي اختلطت حتى أصبحت لا أفرق بين ما أوزّعه وما يصور من كتاب المخطوط الشرقي ويرمى بكميّات هائلة على أطراف الساحل ليختطفه هؤلاء المقطّعون ويلتهمونه بأعينهم الصغيرة المتّقدة مهملين بياناتي التي زاد عدد سحب نسخها . أحياناً يطؤونها متقصدين وفي أحيان أخرى ، تحت انشدادهم ببيانات المخطوط الشرقي ، لا يعبؤون بها وهي تلتصق في حوافر أقدامهم .

لا شيء تغير سوى نظرات عيونهم الصغيرة . لقد أصبح فيها الكثير من الحذر .

واصلت عاداتي القديمة التي تقودني يومياً من صخرة الموريسكي (بعد وضع الخشيبات اليومية على سفينة الوداع التي تقودني خارج هذا البحر مثل نوح الأوّل) ، إلى موقع علماء الأنتروبُولوجيا الذين لا يظهرون ولكنّي أشُمّ رائحتهم . الصيّاد الذي صاحبنا وخرج قبلنا مع عبد الرحمن لم أرَهُ أبداً ، مع أني تعودتُ على الكثير من هذه الوجوه التي أتحمّلها ولا تتحمّلني مطلقاً . أشياء كثيرة غيّرت ملامحها وأشواقها وخزراتها وانسحبت نحو أنفاق الخوف والرغبة ، بالرغم من أنّ أوسكار وعدني بأحلام جديدة ولكنه لم يأت ولم يظهر منذ أن وَضَعُوني في هذا المكان بعد رحلة الخيبة وانسحبوا داخل صمتهم ، فبقيت في البحر أمارس أعمالي الاعتيادية . من الزنجية إلى سارة التي صارت الآن تملأ قلبي ، إلى مواصلة مهمة (Proxénétisme القوادة) وتهريب المخدرات . كان عليّ أن أعيش ، وأنا مصرّ على بقائي لاستعادة حق مسروق وضائع . هم كذلك قالوا لي منذ البداية لقد أنقذناك لتستعيد أملاك ذويك ولكن حياتك ، من هنا لذلك الزمن ، دبّر راسك فيها يا ولد الناس . ابحث عن حقك في العيش داخل هذا الفراغ . لا أحد يعرف الآخر . افعل أي شيء . أمامك الدنيا مادة خام . شكّلها وقلّل من أحلام الشعراء . فالشعر لا يسمعه إلاّ من امتلأ بطنه .

أَحُسُّ بأشياء كثيرة تتكسر في داخلي مثل الزجاج الرقيق . لا

أدري ما الذي تغير في دقيقة .

كلّما خلوت إلى نفسي دَهَمَني نوح بوجهه الطفولي ، وبموته وبشعره ، خصوصاً عندما تصير سارة قريبة من قلبي ومن عينيَ وتصبح في دمي وفيَّ . بدأت تنسيني في الزنجية . الزمن تغير و أشعر كأن القدر الذي بعثها نحوي هو نفسه الذي يقودني الآن نحو السلطان .

أراها من بعيد كالطيف ، تقطع البحر و مصاعب الغيمة المظلمة و السفينة و تأتي . تندفن الريح البحرية تحت ألبستها الفضفاضة ، وتتغامَزُ العصافير التي وجدت بعضها بعضاً في عمق عينيها ثم تندفع بقوة نحوي .

آه! سارة . يا بنةَ الفراغ الأزرق! ؟ أخرجيني من هذه الكآبة المفجعة ، فأنا لا أفكّر إلا أن أكون معك ، أن أعشقك أنت وحدك مثلما كان يفعل نوح الشاعر الممحون الذي أتوا به من بعيد ليقتلوه . معك وحدك ، أهفو إليك . لِلَيلة واحدة . لرمشة عين ، لرمشة عشق نادرة ، ممتلئة بلونك وجسدك . لا أطلب وسط هذه الفاجعة إلاّك . ربَما خبّأت اللّذة التي بصدرك شيئاً من هذه الرخاوة التي يمتلكها البحر . أصغي إلى قلبي وهو يقول لك . . . أعشقك يا بنةَ الزرقة والماء والطيش ، قلبي أن يمضي بحزن إلى شأنه اليومي . أخرجيني من هذه الوحدة الأزلية التي تشبه وحدة الله . أنا ناسوت ولست لاهوتاً أو كهنوتاً . لا أملك سوى حنينك وصوتك الوثني ، لأننا عندما نُقبل على الموت بشهية داخل الحب ، هذا يعني أننا بصدد صناعة فاجعة جديدة من الألم ، وفتح أبواب الصمت عن آخرها والدخول يومياً في دهاليز الخيبة والحماقات المتكررة . نوح النوّاح بولفراح ولجرام ، آح منه آح . إنه يدخل القلب بدون استئذان ، حتى أني عندما أتذكر سارة لا أعرف إذا كان الكلام لي أم له أم لكلينا . كارثة ما تحدق بقلبي . تخيلوا حاكماً مولعاً بشعر سابقه ؟! فداحة كبرى! الحمد للّه أن هذه الحالة لا تنتابني إلا وأنا أمام الشط المهجور ، أمارس طقوسي اليومية ، وإلاّ سيقع لي ما وقع له هو

القادم من الشّطط البعيد لإنقاذ وطن ليس له وهو لم يستطع إنقاذ حتى نفسه . أحياناً ألعنه من الأعماق ، لأنه عطل مسار الأشياء وهي في مسالكها الطبيعية وقطع مع حقّي الأوّل في وراثة ملك جدّي ، وأحياناً أعطف عليه ، عندما تكون قدماي داخل البحر وأقول لقد كان شاعراً عاشقاً مثلي . يجب أن يتوفر قدر كبير من الإنسانية ومن الحب ليترك الإنسان راحته ويأتي إلى شقوق هذه الأرض التي خططتها الزلازل المتواترة . هو شاعر وأنا حاكم ولا يمكنني أن أكون شاعراً إلاّ في حضرة سارة والبحر . سارة تأتيني دفعة واحدة من خلال كلماته وأشعاره التي قرأتها سرّاً في الطفولة ولا تزال عالقةً بقلبي . سمعتها من فم الزنجية التي كانت تحبه بدورها ولم تكن تصرّح . عيناها تقولان إنها كانت محونة بديوان البهجة .

قالوا : لا أحد غيره من ينقذ هذه التربة والألوان والعصافير والحيطان من التلف . وعندما ظهر كعلامة تتكئ عليها كل خرابات البلاد خوف سقوطها دفعة واحدة ، ضربوه للركاب حتى انحنى على قدميه فَانْهَارَ كل شيء من على ظهره وظل يشهق وهو لم يتخلّ عن شعره .

يا رجل ، هذا الزمن ميّتٌ وقاتلٌ ولا يحْييه الشعراء والغاوون! ؟ يحتاج إلى أيد حديدية لا تلين أمام الهمج الذين لا يعرفون إلاّ الطّمع في أموال أسيادهم وكراسيهم! ؟ سأوقف الشهقة في صدورهم . عن أيّ زمن تتحدث ؟! أتكذب علينا أم تكذب على نفسك ؟ الزمن الذي نحن فيه قاس و ما يسلك فيها سوى طويل العمر .

عندما كانت الحيطان المهترئة تبحث عنك ، لم تكن أنت في نهاية المطاف تبحث إلاّ عن نوارة لهبيلة بنت زينب ، التي لم يعد الناس يفرقون ما إذا كانت حبيبتك أم صديقتك أم أمك . عندما فاجَؤُوك بالسمّ لم تنقذك الكلمات وَلاَ حروف البهجة التي كنت تتعشَقها داخل هذا اليباس . حظّك في الدنيا قليل يا ولد الناس . Il faut faire la part

des choses.يجب أن نكون موضوعيين . الشعر لا يحكم البلاد ، وإذا حكمها أدخلها في فوضى النهايات الكبرى . أنت والملياني من طينة تكاد تكون واحدة من حيث الجوهر . أنت من علاقة اغتصابية كان منفذها شهريار بن المقتدر وأمّك نوارة لهبيلة بنت زينب في ذلك الزمن البعيد ، والملياني جاء من الدّروب نفسها القلقة ، ولهذا وجد كلاكما نفسه في الفيالق الانتحارية الأولى لإبادة شهريار وملكه وحرق ستائر قصره الآتية من سمرقند ، لكنكما لم تجدا شهريار . كان قد تحوّل إلى متعة للأسود والثعابين والحيوانات المفترسة التي كانت تنتظر في الأنفاق تحت القصر . من حقكما إذن أن تكونا حاكمين لهذه البلاد ، لكن الأمر لا يسير أبداً بإثنين ، وكان لا بدّ أن يترك أحدكما الطريق سالكاً للآخر . لم يكن صعباً على رجل ولد ليحكم مثل الملياني أن يضعك في متحفٍ ولم يكن مستحيلاً على شاعر أن يفتح قلبه لكلّ النبضات الوهمية والحقيقية . وحدث الذي كان يجب أن يحدث . الملياني انطفأ وبقي الشعر يملأ الناس بل يملؤني أنا كذلك ، على الرغم من أني أحاول أن أتفاداه . هو ذا يملأ الدنيا والأرصفة والأغاني المدرسية . كلامه استقر في جميع العيون التي ترف كل مساء عند الأبواب في انتظار عودته التي يؤكّدها البعض ، يقولها الكثير وتصدقها الأكثرية . قيل لي إنه حتى بعد موته لم يتجرأ أحد على نزع أغانيه من الكتاب المدرسي التي بُرْمَجَتْ عندما كان لا يزال في قريته يبحث عن أجمل الكلمات ليقدمها لنوارة لهبيلة بنت زينب . لقد سرق السلطان من الملياني وهو حي وسرق منه النور وهو ميت . لكن أليس ذلك كله جزءاً من العلامة التي نريد أن نُبصرها ؟ النمور تموت مبكراً والحمير تعيش طويلاً . في الحقيقة لست أخاف الموت لكنني لا أريد أن أنتهي وعلى رأس لساني حلاوة السلطان . أريد أن أذوقها ، أن أمضغها بكل عنفوان . الحكيم ليس من يروي حكمته وليس من يغضب من شوقه وأحزانه . الحكيم من يرضى الخروج من الجنة عندما تصير الجنة ملكاً للرعاة ، ويصير مجنوناً عندما يصبح العقل سيّد الأشواق ، ويصير أعمى ويحكم بالبصيرة عندما تصبح

العيون لا معنى لزرقتها أو سوادها أو وضاءتها . هو ذاك كله نوح الذي دخل بقوة وبعنف شديد داخل مخطوط عبد الرحمن .

آه يا سيدي ، البحر يغري وهو أكبر من كل الأوهام التي تَملَؤُني لحظات الضعف والخلوة . الأشياء التي تذهب لا تعود أبداً . عبد الرحمن تحوّل إلى مجرد قطعة حجر . أخذته طائرة مروحية باتجاه الفراغ الأزرق والمجهول . كان هنا ، معنا ، بصوته وحياته ، وحركاته ثم Hop là ، فجأة وكأن شيئاً لم يكن . لم نعد نسمع سوى وعود أوسكار بالإتيان بنتائج البحث العلمي من على ظهر السفينة المجهزة بوسائل الفحص الدقيقة ووسائل الحفر وتخليص الجسد من الكتل الإسمنتية بدون التسبب في ضرره أو إتلافه .

هل العلامة هذه المرة ستأتي كذلك من البحر ؟ الموجة تذهب وتعود . تأتي ، تتكسر ، تلم أشلاءها وترحل لتعود ثانيةً . البحر يومياً يغير مواقعه وألوانه . . والأرمادة ، هي هي . لا تزال هناك ترسو بعيداً داخل الغيمة الداكنة مختلطة بأفق البحر الرمادي . وأنا هو أنا لم يتغيّر شيء مهم فيَ . ما زلت أنتظر .

أذهب وأعود لأنتظر

ودائماً أنتظر .

أنتظر فقط .

واصل نوح الصغير تدحرجه على الشاطئ الضبابي . من جديد . بدأت الأشياء التي رآها ، تغيب شيئاً فشيئاً تحت البيانات الكثيرة وأسئلة البحارة المستعصية . لقد بدأ نوح داخل هذه الحفرة إنساناً بسيطاً . يختلط يومياً بالرمال والملوحة والبحر . وانتهى إلى أهمَ رجل يتحكّم في تجارة المرجان والمخدرات و القوادة مع سفن الماريكان . هذه التجارات المربحة التي تأخذها منه فلوكة مجهولة ، قد تكون تابعة للعلماء الأنتروبولوجيين ، لأنه لا أحد سواهم يملك إمكانية غزو تلك

الأماكن ليلاً ، لتتحرك بعدها ، باتجاه الأسطول الرابض في زاوية داخل الضباب . لم يغادرها منذ أكثر من خمسين سنة . يتساءل الصيادون عن نوح . بعضهم لا يهتم كثيراً ولا يعيره أي انتباه . يعتبره جزءاً من الديكور العام لهذا الفراغ الأزرق والبعض الآخر يقسم إنه رآه في مكان ما لم يعد يتذكّره جيداً . لكنهم كلّهم يشعرون في أعماقهم أن هذا الرجل ليس عادياً مطلقاً فهو إمّا عالم كبير وإمّا مجنون استثنائي ، يحلم يومياً بإنجاز سفينة كبيرة يغادر بواسطتها هذا الفراغ وسواحل أمادرور (حضر موت) ولهذا فهو لا ينسى أبداً وضع قطعته الخشبية في كل فجر ، في هيكل السفينة ويطليها بقليل بالقار ثم يمضي إلى ركعاته اليومية بعد أن يواجه البحر ، ثم يتدحرج نحو شؤونه اليومية ، السرية منها والمفضوحة . نوح يعرف جيداً فعل الزمن في الأشياء الحية والميتة .

هاه! يا بنَ أمّي يا نوح الصغير ويا ذا القرنين! ؟ الموجة تستعصي ، والبحر يستحيل . منذ خمسين سنة وأنا ههنا! لم أغادر هذه الزرقة المتكررة إلاَ مرةً واحدةً في حياتي لخدمة غيري أكثر من خدمة نفسي ، لم تغير فيَ الشيء الكثير سوى أنها أعادتني من جديد إلى حرائق الأسئلة . من قتل الشيخ المتعايش مع الذئبة ؟ وإذا كان القاتل قد أعلن عن فعله لماذا فعل ذلك ؟ هل كان السبب هو الخوف من ذاكرة ما صار وجودها مزعجاً ومخيفا أم ماذا ؟ لماذا دفع سقراط بالصيادين إلى قاع البئر ؟ وإذا افترضنا أنه فعل ذلك عمدا (وأنا متأكّد من أن رجل سقراط الخشنة كانت وراء الكارثة ، لماذا ؟) أي خطر كان يشكله هؤلاء المقطّعون ؟ من حقّي أن أعرف هذه الأسرار الكئيبة ثم . . .أين اندثر الصياد وعبد الرحمن ؟ وعبد الرحمن هل مات في الحال مرة أخرى عندما رشه سقراط ؟ وكيف دخل داخل أكوام الإسمنت الثقيلة . شيء ما يتحرّك بمنطق مخالف ؟ الأشياء المصاحبة لهذه الأسئلة لم تعد تسعفني بسهولة ، فأنا دائماً عندما تسدّ الأسئلة أبوابها أغرق في ذاتي المرهقة من كثرة الانتظار . ليكن! فهم يعرفون تفاصيل الدنيا أحسن مني . أنا أحتاج إليهم وهم يحتاجون إليّ ، فقد تربيت على أيديهم ، وانتظرت

وما زلت أنتظر حقّي في اعتلاء عرش السابقين الذي أصبح صغيراً وعليه أن يكبر ويتوسع إمّا بالقوة وإمّا بالحيلة وإلاّ فليذهب كل شيء مع الريح . الريح الباردة والساخنة التي تُسَخّفُ في طريقها كل شيء حتى بياناتي ومخطوطات عبد الرحمن الذي لا يُعرف له لقب هو وكتابه الغريب .

كان البحر لا يزال يتماوج كعادته ، وبدأت السحب الثقيلة تتفكك قليلاً في عمق البحر مبرزة بعض سواري السفينة العمياء الراسية في نفس المكان ، منذ أكثر من خمسين سنة . بشكل لا شعوري ملأ نوح الصغير ولد الملياني كفيه بالرمال الباردة ، تأملها جيداً ثم طَوَّحَ بها في الهواء بكل قواه .

ـ هكذا عندما تفقد الأشياء مبرر وجودها ، مثل الأيام تتبعثر ، وتنتهي . إيه . . . الدنيا بنت الكلب المكلوب .

على امتداد هذا الساحل المفجع كانت مدينة وكان ناس كثيرون وبلاد لا يحدّها سوى البحر والرمال ، فصار فجأة كل شيء فيها خالياً مثل المحارة المنخُورة . حتى هذه الوجوه الميّتة ليست ابنة هذه الأمواج . بعضهم قدموا من بعيد ليرتموا على شاطئ مهجور . وصيادون يبحثون عن حياتهم داخل رعشة بَحْرٍ لم يعد يأبه كثيراً بأشواق الناس ، وقبائل تتقاتل من أجل رغبة محمومة في حكم يائس ومُيْئِس ، وفي ظل وصاية أكثر ابتئاساً . عجيب! عندما يحكم الإنسان قبيلة ، أية لذة يشعر بها إذا لم تكن تحت إمرته بلاد لا يحدها سوى البحر والرمال ؟ جدّي العظيم أو التّافه ، لم أعد أهتمّ كثيراً للأوصاف و النعوت ، كان حاكماً عندما وضع نوميدا-أمدوكال كلها تحت وصايته . لا يهمّ كيف كان ، فمن يبحث عن العدالة في السلطان مجنون ولا يفهم مطلقاً في السياسة . أساس السلطان ، الغواية ، ومن يضيّع غواياته لا يستحق أن يكون من السلالة بل لا يستحق أن يعيش مطلقاً .

وها أنا ، ما زلت هنا ، مثلما البحر . رأسي ممتلئة بالأحلام

والهـواجس ، وصـدري مـثل الرابوز ينفث ريحـاً سـاخنة لعلّ الموجـة المسكونة بالأشواق تأتي بخير ، وبخبر جديد مع هذه الأصباح النادرة على سـواحل أمادرور الزرقـاء . لكن آه يا وخـذي! الموجـة تظـهـر هناك بعيداً وتشـرئـب ثم تعـود . لا تصل الشـاطئ مطلقـاً ، سـوى أنهـا من نهايات النهار تغطّي الشمس الغاربة التي تدفعني مجبراً إلى تأدية بقية طقوسي الذاتية والقيام بصلاتي الأخيرة على هذا الساحل المهجور الذي يشبه داخلي . من بين ملايين الموجات الآتية من بَعيـد ، واحدة فقط ستـصل مكتملة أركـبها ، قبل أن تغادر صخورها وسـواحلها ورمـالها ونباتاتها البحرية . لكنها ، منذ خمسين سنة وأنا أراها تتراقص بعيداً وكلمـا لَمحْتُـهـا قادمـة قلت في خاطري ، هذه مـوجتي ولكني قـبل أن أغمرها بابتساماتي تنفجر في وجهي ويكسوني زبدها الكثيف . وهاأنذا كما كنت ، ما زلت هكذا هنا ، انتظرها ولكنها صارت تتعزز ومع ذلك لا عمل لي سوى تكرار محاولاتي اليائسة وأقول مرة أخرى بعد أن أملأ قلبي باليقين : ليكن . هذه هي موجتي ، إني أراها . ستأخذني رغوتها إلى غـوايات الجنة ، ولكنـهـا مـرة أخـرى ترتـفع غـالقـة بيني وبين نور الشـمس الغاربة ، ومعلنة مرة أخرى عن صلاة وداع البحر . فأصلّي . وعندمـا أرفع رأسي ، أجدها قـد انكسـرت في الأفق والشمس احـمرّت وبدأت تنحدر باتجاه فراغ يقع في آخر البحـر . في الصـباح أقـوم من جديد وأنا أكثر إصراراً ، أتبرك بألواح سفينتي التي أغرسها في هيكلها ثم أنزل إلى البـحـر أبحث عن موجتي . وإذ تأتيني أقول هذه هي . . . ولكن . . . إلى أن يموت اليوم مثل سابقه . أقرأ أشواق عـبد الرحمن الحزينة لعلّها تفتح لي السبل المغلقة : يا الله!! أيها المخفي في قلبي . المتـخفّي عن عـيني وأنت فّي وأنا فـيك مـثل روحك أية عـلامـة تحملهـا الموجات القادمة ؟ هل أنتظر أم أمضي نحوك تغيثني بعزلتك و جبروتك ؟ أخبرني يا الله فقد زاد قلقي و عم يأسي و الغيمة ذابت و الجسد تضاءل و العلامة أكلتها العلامة .

لا أدري . لا شيء يبشـر بزوال المحنة سوى بياناتي . وزّعـتها في

الليالي السابقة وها هي تعلو كما هبت العاصفة وتتحرّك على الرمال كلما كان الجو هادئاً . إنّها تتكاثر مثل أطفال هذه السواحل .

منذ عودتنا من المصفاة القديمة ، بدأت بعض البيانات المضادة تحتل المكان . من قبل كانت مجرد وريقات صغيرة مهملة لا قيمة كبيرة لها ، الآن صارت شيئاً آخر . عندما أنذرت أوسكار بالموضوع ، قال نحن على بينة من الأمر ، وعيوننا تشتغل ٢٤/٢٤ ساعة على الشاطئ لكشف هذا السرّ وسنكشفه قريباً . عندما نقبض عليه متلبساً سنقليه حياً أو ننفيه داخل إحدى إمارات الرمال البعيدة التي خرج منها هارباً . سنعيده إلى جحيمه الأوّل . لدينا خيط صغير قد يوصلنا إلى الحقيقة . أترك كل الهموم الكبيرة لنا . خلّكَ ضمن الخطّ المرسوم وداخل تربيتَك التي تلقيتها وستأتيك موجتك الهاربة إلى بيتك وتوقظك . أحذر من الخديعة و الأوهام . أحذر من النساء ، فإنّهنّ لا يبتلعن السرّ . مثل الريح يفاجئنك داخل فراشك ومثل الريح يذهبن . عندما تبحث عنهنّ! بوف ؟ مجرد فقاعات صغيرة اندثرت داخل الفراغ .

يا سيدي! يا مولاي الذي يمتلك روحي مذ أنقذها من موت محتوم ، أي سرّ يمكن أن يكون مع امرأة ؟ وهل هناك معنى للسر عندما تنام عارياً على صدر عار . ومع ذلك ، علينا أن نحذر قدر ما نستطيع . الكثير من الأشواق هدّمتها لحظة حميمية واحدة . ولكن! ؟ كلما غزتني أشواق امرأة نادرة ، شعرت بنفسي ألبس جلد نوح المقتول ، وكلما تعلق الأمر بالسلطان وقف على رأسي شهريار بن المقتدر والملياني . لا أحد سواهما بعيونهما المدوّرة وقلقهما الكبير . بدايتي ونهايتي ومصيري وقدري في هذا الفراغ الأزرق ، أن أحلم .

وأحلم بشكلٍ دائمٍ حتى الجنون .

تخيّلوا رجلاً على شاطئ مهجور ، لا يزال يملك طاقة نادرة للحلم منذ خمسين سنة بدون أن يستهلك حلمه ، على الرغم من أنه كل صباح يتفرّس ملايين الموجات المكسورة ، مثل شريط سينمائي طويل

مبعثر على شاطئ مقفر ، يبحث فيه عن صورة واحدة مختبئة بين ملايين الصور ، يحتاجها بحميمية . تخيلوني! تخيلوا رجلاً مفجوعاً في وحدته . يحلم بأجمل امرأة وأحطّ امرأة وبأجنّ امرأة وبأنبل امرأة وبأعهر امرأة ، يستفرد بها لحظة ، وبعدها لا تهمّ مطلقاً البقية ، ليأت ذلك الشيء الصعب والنّادر الذي اسمه الموت . وتخيلوا إنساناً يحلم أن يكون مجنوناً وحكيماً وعاقلاً في الآن نفسه . تخيّلوا إنساناً يقع بين نوح النواح المجروح في قلبه وذاكرته والملياني المهزوم في أشواقه ، ويريد أن يحكم بما حكم به السابقون عدلاً وكرهاً وبهتاناً ، وتنكيلاً وحباً وقتلاً ، ووطنية ؟ واقعاً بين مدارات الشريعة الضيقة وعيون امرأة لا تُقَاوَمُ ، تخيلوه للحظة من يكون و كيف يكون ؟ أليس لغزاً ؟ هو هذا الرجل الذي نَهَكَتْهُ مسافة خمسين سنة ولم يستسلم على الإطلاق للرياح الفارغة والميتة ويستيقظ كل صباح داخل برودة الوحدة والقسوة والقفز على شاطئ لا تملؤه إلاّ العيون المدوّرة والأوراق وبعض أخشاب السفينة القادمة من فراغ الذاكرة التي تستحضر نوح الأوّل صاحب السفينة ، كلما حَلُمَتْ بالرحيل .

ـ ها هي ذي الشمس تغادر أحزانها و ها أشعتها تمتد إلى عيني . . دافئة وسائلة مثل مشروب ساخن ، كأس شاي في قفر خال .

تمدّد نوح الصغير ولد الملياني ، من جديد على الرمال أكثر . تكسّل . أحس بنفسه أطول من شكله الاعتيادي . كانت البرودة قد بدأت تصعد من ظهره ، بالرغم من الجوَ الساخن نسبياً . سمع هدير الموج يأتيه من تحت الأرض الباردة وهو يتكسر على الشَوَاطِئ الصخرية التي تخيلها ناتئة ومدبّبَة الرؤوس ، محدثة رغوة وفقاعات كثيرة . فجأة جاءته لحظة الذهول الأولى التي لم يحسسها منذ زمن بعيد . رجع إلى نفسه ، شعر ببعض الصمت . أغمض عينيه المتعبتين من لألأة الأشعة التي زاد بياضها .

يتدحرج الزمن البعيد في الذاكرة و يبدأ في السيلان قطرةً قطرةً .

كانت المدافع تدكّ المدينة . لم نعد نعلم من كان يضرب من ؟ و من كان يقتل من ؟ كما حكى أوسكار ذات يوم وربما كما رأت عيناي الصغيرتان . قوات الحلفاء كانت قد دمّرت كل شيء وانسحبت إلى الحدود الدولية باتجاه مدينة الزيت التي أعلنت استقلالها ، ووقّعت وثيقة الدّفاع المشترك مع الحلفاء . كانت الخلائق تزحف مثل الذباب على كل شيء . نحن لم نخرج ، عندما بدأت الرشقات الأولى تأتي من بعيد ومن أماكن مختلفة . والدي شعر بشيء ما في حلقه يشتعل ويزداد كلما شرب ماء بارداً . في لحظات هاربة أحَسَّ أن خديعة ما كانت تنشأ داخل قصره . قال ، سأستفسر ، الأمر غير طبيعي . أنا أنتظر حوّامة الأصدقاء و الوسطاء . لكن هذا الرصاص يوغوشني . فجأة بدأت الحجارة تكسر زجاج النوافذ الملونة . الخوف صار فينا . كنت أحتفل بعيد ميلادي العاشر . الطاولة كانت مفتوحة الشهية على كل الأطعمة . غادرنا والدي للتفاوض مع الأصدقاء ، قبل أن أتبعه بعد فترة ، ولم أر إلاّ قفاه وظهره وهو يَتراجع . كان قد لبس ألبسته الحديدية و استعد للمواجهة الأخيرة . أوف! قلت في خاطري ، ألم يكن ممكناً أن يتأخر هذا الزحف المشؤوم يوماً آخر فقط . لكن الحقد عندما يبدأ في الاجتياح ، تصبح كل الأشياء غامضة وعمياء . انتقل الرعب من القلوب إلى العيون . لم نعد نرى إلاّ ظلال الأشياء وهي تزداد ضخامة . كنّا مشدوهين أنا والملياني و الأصدقاء الذين خرج معظمهم وبعض محظياته اللواتي حَقَدْتُ عليهن وعليه عندما تذكرت أمّي التي لم أعرف وجهها مطلقاً وقيل إنها ماتت يوم ميلادي . استعدّت فرقة التدخّل السريع التي كانت تحرس القصر دخل أحد الحرس وهو يلهث من كثرة التعب ، لسانه يتدلّى عند ذقنه يردّد بشكل هستيري ، يا سيدي! ؟ الجموع الكبيرة مخيفة . إما أن نطلق النار وإمّا أن نموت .

أحد الضباط كان قد أعطى أوامره ولم ينتظر الملياني المدجج بالألبسة الثقيلة الذي وافق بعينيه فقط .

ـ أطلقوا النار على الكلاب .

لكن الرجل الذي دخل يلهث حاول أن يتكلم من جديد وبصعوبة أكثر .

ـ لكن يا سيدي بعض كتائب الظلام معهم وهم مسلحون كذلك .

ـ اقتلوهم جميعاً . الكتائب خانت البحر وسرّ السلطان .

ـ لكن أغلبهم معك ويواليك ويحاربون من أجلك .

ـ الآن كل من يوجد خارج القصر فهو ضدي .

ضحك الضابط الذي أعطى أوامر إطلاق النار .

ـ يا سيدنا العظيم هذه مجرد لعب أطفال ، سنبيدهم عن آخرهم . . . رصاصة واحدة سنفرقعهم .

لكن فجأة ارتسمت الحيرة على كل الوجوه المتعبة . ثقبت قذيفة ، الحائط الخلفي من القصر محدثة فجوة كبيرة فيه ومحطّمة في الوقت نفسه زجاج نافذة المطعم الملكي الكبير . لملم الملياني خوذته و عقاله من جديد ، قال : على الموت ألاّ يفاجئنا ولكن نحن الذين نفاجئه على حين غفلة . نأكل رأسه قبل أن يأكلنا .

لم يكن المسكين يتصور أن المأساة كانت أكبر منه وأنه كان مخدوعاً في طعامه وفي تقاريره التي كانت تصله علانية وخفية . قال .

ـ يجب أن أبقى ههنا على هذا الكرسي وسأقنعهم بأني سأكون أعدل الناس .

ثم أمر بإخراج كرسيه المفضل الذي تعوّد الجلوس عليه . استوى عليه جيداً ، ثم رفع شاهده نحو السماء ، والتفت نحو البقية المتبقية من حرسه ، ونحوي إذ كنت متكئاً على جسد الزنجية وأقبض على سرابينها بعد أن غادرنا المطعم الكبير الذي كنا نحضّر فيه لعيد ميلادي . .

ـ اللهم فاشهد يا الله . لقد كنت أعدل الناس وأحكم حكام هذا الزمن .

مدّ يده نحوي بينما ، كنت أنغرس بين فخذي الزنجية التي تخبئني بينهما كلما ذهبت إلى الحمام ، مقابل قراءات لديوان البهجة لنوح . عندها سمع طائرة الخبراء تحط على سطح القصر ، برقت عيناه فرحا ، وتوقف القصف نهائياً ، شعر بسعادة غامرة وبدفء يملأ عينيه المتورّمتين ، لكن الأشياء سارت بسرعة كبيرة لم يكن ممكناً التوقف عندما وفهمها . وجد نفسه بين أفواه الخلق الجائعين ، ووجدت أنا نفسي في قلعة ، هي منفاي الذي أنقذني من موت محتوم .

إحدى أوراق عبد الرحمن المرمية تقول في أحد أبوابها ، لم أعد أتذكر أصلاً أي باب ، أنه عندما تمّ الهجوم القاتل على القصر ، وبدأت المتفجرات والقنابل تملأ أصداؤها أدمغَتَنا والناس يأكلون الأبواب الحديدية و"كتائب الظلام" تأكل رؤوس بعضها البعض ، وضعوه بين أيديهم والتهموه مثل الخروف المشوي في رمشة عين ، مزّقوه ولم يتركوا إلاّ عظامه شاهدةً على بقاياه ، حتى أن أحدهم صرخ بأعلى صوته وهو يأكل ذراع الملياني الذي لم يغادر كرسيه .

ـ لحم هذا الخنزير مرّ ولكنه حلال .

يبدو حقيقة أن لحمه كان مرّاً . فالحاكم عندما يتفسخ على الكرسي يصير مرّاً ولو كان الحاكم نوح النوّاح نفسه أو عبد الرحمن الذي تعددت أسماؤه وهو واحد .

تعبت من هذا التاريخ . أشياء ثقيلة تملؤني . منذ أكثر من نصف قرن وأنا أعيش متنكراً في هذا الفضاء المقلق الذي بدأ يضيق على القلب والروح . قريباً! هكذا قال أوسكار وهو يسرق إغْفاءتي الحزينة . قريباً سنزيح عنك غمة الصمت وحيرة الانتظار و غيمة اللاّجدوى ، بعدها أمشِ منتشياً على الساحل حافي القدمين مخدراً بفرح لا يضاهى وأنْتَ تضحكَ من العيون المدوّرة . هاه يا الرعيان! هاأنذا قد صرت سيدكم . رجل وسيم ممتلئ بالحب والرغبة والسلطان! يحنون رؤوسهم ويبحثون عن كلماتهم للاعتذار ، لكن الكلمات لا تسعفهم . يوشوشون في آذان

بعضهم البعض ، ثم يتراكضون نحو حذائي لمسحه بشفاهِهم المحترقة بالشمس والمحملة برطوبة البحر القاسية و ملوحته . الآن بدأت أقتربُ من الزمن الذي سأنصبُ فيه خيمة على الساحل وأشعل ناراً عملاقة وأبدأ شيّ العظام التي سخرت منّي مدة طويلة . المرأة الوحيدة المقتنعة بموهبتي وقوتي هي الزنجية . قبل أن ألتقي على هذا الساحل المهجور المرأة التي سرقت فجأة كل غفوتي وقادتني من جديد نحو شاعرية نوح النوّاح المقتول . وحدها الزنجية ، في الزمن الفائت الذي بدأ ينقرض ، التي كانت تفهمني بعدما عودتني على عاداتها السيئة ، عندما تضعني بين فخذيها و تطلب مني أن أفعل ما يفعله الكبار مع نسائهم . عندما أنتهي من طقوسي معها ، ينتابني شيء من الغثيان ، فتتردد صرخاتي في كامل البحر والرمل والفضاء . يجب أن أصرخ كي لا أموت ، كي لا أيأس ثم أندم . أشعر بها كأنها أمّي . هي لم تكبر كثيراً وأقسم ألاّ أعود لها ثانية ، ولكن بعد يومين أجد نفسي غارقاً بين فخذيها . فيها شيء يشبه النار ، ورائحة جسدها قوية ، تدخل إلى الأنف بقوة وسرعة . أشمها من بعيد ، فأشعر بعروقي في غير أمكنتها . عادة من العادات السيئة . ورغم سنها المتقدم ، لم تفقد شيئاً من رخاوتها . أبسمل وأحوقل ثم أتدحرج بجانب القلعة وأداوي جروح النفس وأقول في خاطري يا نوح! يا بني! لماذا لا تكتفي بحكمة الأجداد : العادة السرية ؟ سرّية لأنها لا تُدْخل غريباً إلى سلطانك أو إلى بيت حكمك . في المرأة كيفما كانت ، شيء من رعشة الشياطين . في العادة السرّية شيئان ثمينان : السرية المطلقة والعادة المحمودة ، واللذة نفسها بل هي مِلْكُك وحدك . وحدك مثل الله وبشكل مطلق ، تستدرجها كما تشتهي . لقد حلّلها كبار الفقهاء والمنجمين ، وبهذا تكون خير وارث لأقدم مهنة ذاتية مارسها أجدادك الذين كانوا يتنافسون فيجتمعون في شكل فرقة ، ينزعون سراويلهم يحتضنون أعضاءهم المنتصبة بأكفّ أيديهم ويبدؤون الدّلكِ ، وعندما تخرج ألسنتهم من جرّاء اللذة يتنافسون حول من يرمي منيّه أبعد من الآخر ومن كانت رعشته أقوى

ورعدته أعمق . وأنت يا نوح ، يا ملك الوعود الصادقة وغير الصادقة ، عندما تأتيك الرعشة تموت وتنكفئ داخل قلبك لتستعيد صرخات الملياني وهو يموت بهدوء ، قطعة قطعة ، ولحظة لحظة فلا تملك سوى أن تصرخ بأعلى صوتك . أن تعوي مثل الذئب المجروح في رأسه ، حتى تَعَوَّدَتْ عليك الزنجية . عندما تراك صامتاً بعد المؤانسة ووجهك أزرق ، تقول لك ، أصرخ ، وتضربك على ظهرك بقوة ، أصرخ فتصرخ . . . عاووووو . . . لكن سارة شيء آخر . لا تزال بعيدة .

تأتيك إذ تأتيك وأنت بعيد حزين .

صارت تملؤك وتزحزح عادات الزنجية التي ترسخت في ذاكرتك . سارة تأتيك ، إذ تأتيك تتأملك من بعيد ثم تنسحب .

أية وحشيةٍ يا نوح الوعود الصادقة وغير الصادقة . أجدادك ذبحوا بعضهم بعضاً . الذرية انتهت أو كادَتْ . والدك أقسم ألاّ ينجب ابناً بعدك فقتل أمك . كل اللواتي سبقنك في الولادة ، أخواتك الصغيرات ، قتلن قبل أن يعلن عن وجودهن بصرختهن الأولى ، إمّا ذبحاً وإمّا حرقاً . الملك يا نوح يقود إلى الطغيان والحماقة . وهل الطغيان ليس في نهاية المطاف سوى دفاع عن النفس ؟ ، أو ليست الحماقة سوى صورة للاّجدوى واليأس ؟ لم يبق داخل هذا الفراغ الأزرق سوى أنْتَ ، لتكون خليفة على هذه الرمال ، وهذه البحار التي يعيش الجياع من أعماقها وتعيش السفن الكبيرة من خيرها .

لا أحد ينافسك في قيامتك سوى هذه البيانات ذات المصدر المجهول ، والتي تملأ هذا القفر الأزرق .

يا نوح يا بني وأخي وأبي وأمّي ، حبيبي وصديقي وعدوّي ، عليك أن تقوم وأن تجري على الساحل ، بدون توقف . امض الآن ، ولا تقل إنك رأيت شيئاً داخل هذا الموت ، ولا تفضح سرّك وندبك ، لأن هذا كله سيكلفك عمرك . وعندما يعلن لك الموج عن البداية ، أعلن نفسك حاكماً على الدين والدنيا ، وقل طزّ في البقية المتبقية .

الأيام الآن تمر بدون ذهول يذكر ، ولا دهشة . لا أدري كم مرّ من يوم أو من شهر منذ عودتنا من المصفاة القديمة ، لكن منذ تلك الفترة وأنا أشعر بتعب غريب لم أتعوده . أشعر بنوع من الإرهاق ولكنّي أرفض أن يكون ذلك إعلاناً عن بداية الشيخوخة . أرفضها أن تكون . صوت الغاوية التي توقوق فوق الرأس صار مزعجاً . لقد بدت متسخة بفعل الزيت الذي أصبح يملأ السواحل . تشبه في شكلها البُومة التي اصطدتها واحدة واحدة داخل هذا الخراب أنا والزنجية عندما حللت لأول مرة بهذا الفراغ الأزرق .

عندما بدأت الأمطار تتكسر على صفحة البحر الهادئة ، شعر الأمير نوح الصغير ولد الملياني بالغفوة تنسحب شيئاً فشيئاً لتحل محلها صحوة نادرة ، وبدأ مذاق الكيف المقطوع بالحلوة الشباكية يتحول إلى عسل في حلقه وعلى رأس لسانه .

ليكن! الكيف هذا سيّد الأدخنة . . .

حماقة أن نهربه ولا نذوقه! فهو يعيد الأمجاد الضائعة ويدخلنا في حالات الوجدان القصوى . القليل منه لا يضرّ مطلقاً . وهم جميل لا نستطيع مقاومة غواياته . حتى أوسكار لا يمانع بالقليل منه . هو كذلك يستهلكه مثل أجداده الأوائل خارج هذه الأحجار وهذه البحار الصخرية الباردة . ويُقَال إن علماء القلعة في ذلك الزمن الغابر ، عندما دخلوا على نوح وكان منكفئاً على الكتابة وفي فمه وحجره شيء من لفافات السحر هذا ، وفي قلبه شيء من إغفاءات الشوق و الشعر و نوارة لهبيلة بنت زينب ، التفت نحوهم ليعتذر . قال اعذروني فأنا شاعر ، وعندما انغمسوا في نفس الدخان قالوا ، نحن حروفك أيها الرجل الكبير . لكن السلطان إذا كان لحظة وجدان فهو ليس شعراً وليس حكمة . كل حاكم حتى في أقصى درجات عدله عليه أن يكون طاغية . العدل هو يوتوبيا المثقفين فقط والعاجزين الذين لا يعرفون إنباءات الحكم كما يقول صديقي أوسكار . قَدَرُ الحكم الضغينة ، وقدر الضغينة الإبادة . اسألوا

كتاب المدينة ومخطوط الشرق الحزين ومؤرّخ شهريار بن المقتدر الذي وَلَدَ دنيازاد ونحت من بطنها قمر الزمان . اسألوا ما كتبه الأولون . الإجابات في رحم الأسئلة دائماً . وأحياناً تُصاغُ مثل هذه الأسئلة انطلاقاً من أجوبة جاهزة سلفاً .

لفافات الدخان انتهت ، وصدري لا يزال مفتوحاً نحو ريح هذا البحر الصامت ، والأمطار لا تساعد على الإغفاءة الجميلة . حباتها بدأت تتكوّر وتصير ثقيلةً ، عندما تتفتت على الجبهة أو على الوجه ، تسرق مفعول الأدخنة واللفافات .

يا اللّه!

قام الأمير نوح الصغير بتثاقل من جديد . حاول أن يقف باستقامة . أن يمتشق كالرمح داخل هذه الرمال المندّاة . نفض نفسه . وضع منشفتَهُ الكبيرة على ظهره . التفت نحو السفينة ونحو هيكلها الذي بدأ يمتلئ ويتكون شيئاً فشيئاً . تحسس من جديد عصا البانبو الطويلة ثم بدأ عبور الشط باتجاه القلعة التي بدت له بعيدةً على غير عادتها .

لأول مرة يشعر أن المسافة تزداد اتساعاً . والبحر يزداد ضيقاً ، دون أن يغفل لحظة واحدة عن الموجة الكبيرة القادمة من بعيد ، وهي تحاول جَاهِدَةً أن تغطّي الشمس التي بدأت تنكسر و تميل نحو قبرها .

* * *

- II -

ـ هل أنت سعيد بهذا الخبر الجميل ؟

ـ جداً . على الأقل فقد وُضِعَ حدٌّ للانتحال .

ـ لقد عرفناه من خلال خيط رقيق أوصلنا إلى الحقيقة . الصياد الذي كان معنا في المصفاة القديمة ، ضبطناه باكِراً بالجرم المشهود . كان يوزّع نسخا من وريقات المخطوط الشرقي .

ـ وهل استَعَدْتُمْ المخطوط الأصلي ؟

ـ يقول إن عبد الرحمن أخذه معه .

ـ وأين هذا العبد الرحمن الذي يحكي عنه ؟

ـ لا يهمّ . ميت أو حيّ ، تلك قضية غير مهمّة . من اليوم ستصير سيد البحر ومولاه . لقد بعثنا الصياد في المروحية إلى مملكته . هناك سيشنق أو يباد . هذه هي الوسيلة الوحيدة للانتهاء من الخرافات .

ـ حقيقة صِرْتُ سيد البحر من جديد ؟

كنت وحيداً في قلعة حفرة حمّام الشمس ، أنتظر ضباباً وغيماً

يأتي من سماء بعيدة أو وهماً جميلاً ترميه موجة هاربة عند قدمي عندما دَخَلَ علي أوسكار فجأة ليملأني بالأخبار الجديدة السارة .

ـ ليس هذا فقط يا نوح ، معي ما هو أكثر أهميةً .

ـ أنت اليوم بشوش جداً يا أوسكار . قل بسرعة .

كنت أظن أنّ ما وراءه بشرى تتعلق بعودتي إلى السلطان بسرعة ولكن عندما أعلن ما يخفيه انتابتني خيبة أمل كبيرة . لم يكن كافياً ليملأ قلبي . قال أوسكار .

ـ أنظر! هو ذا الكتالوغ . جاءني من بعيد بعدما تمّ تفكيك الصخرة وإخراج عبد الرحمن منها بدون أن يتعرّض لأي تلف .

ثم فتح الكتالوغ وهو يضحك ملء أشداقه .

ـ أنظر لقد كان العمل متقناً .

ثم بدأت أُورقُ هذا الكتالوغ الذي سحر أوسكار . في الصفحة الأولى رأيت الكتلة الصخرية ونحن تحتها وقد كتب بخط أجنبي بارز : صورة فريق من الباحثين وهم يستخرجون التحفة من أعماق المصفاة القديمة ومعهم الدليل (والدليل في الحقيقة هو أنا) . ثم في صورة أخرى ، باحثون آخرون وهم يعملون على الصخرة الضخمة بأجهزتهم المعقّدة ، ويبدو رأس عبد الرحمن محرّراً كلياً هو وذراعه الأيمن . في الصفحات التالية يظهر عبد الرحمن بكامل طوله وبكامل لياقته ورونقه بعدما أزيلت الغشاوة من وجهه وعوّضت عيناه الذائبتان بعينين من زجاج كأنهما حقيقيتان . وأُلبس لباساً عمّالياً أزرق . عندما تأملت صورته جيداً ، شعرت به أصغر من قامته على غير العادة . لقد صغر قليلاً وهو داخل الكتلة الزجاجية الغليظة . كُتِبَ تحتَهُ بخط أحمر بارز : مؤرخ عربي يدعى عبد الرحمن ، كَان معادياً للنظام ، اكتُشِفَ في المصفاة القديمة مؤخَراً . وهو من القطع النادرة جداً في هذا العصر . وقد طلب متحف "الإنسان" بباريس شراءه ، ولكن هيئة الآثار التابعة للأسطول رفضت .

في القسم الثاني من الكتالوغ ، مفاصل متفرقة لجسد ممزّق وجمجمة مكسورة . ذراع نصفها موجود ونصفها مفقود . قفص صدري ، نصف ضلوعه مكسورة ومعوضة بقطع بلاستيكية . هيكل عظمي فيه نوع من الاعوجاج ، ثم مجموعة عظام بدون نظام ، مكومة في شكل فوضوي ، وضع الكلّ داخل زجاج سميك شفاف ونظيف جداً .

بدون وعي منّي قلت .

- من هو هذا الشكل الذي يشبه القرد ؟

قال أوسكار اقرأ . كنت قد بدأت أضحك وأقهقه بأعلى صوتي وأحاول أن أفك الكلمات التي كتبت بشكل صغير جداً . أمير عربي اسمه الملياني . قتل ببدائية من طرف قبائل متوحشة مجاورة للقصر . أعضاؤه جمعت من أماكن مختلفة ومعظمها له ، جُمِعَتْ بشهادة الكثير من الناس الذين كانوا يملكونها للذكرى .

شعرت بمغص في داخلي ومع ذلك سألت أوسكار إذا كان الأمر حقيقياً . ابتسم بنوع من الخبث . انتابتني رغبة في التقيّؤ والخوف . قال وهو يمسح شفتيه اليابستين برأس لسانه .

- هذه هي دنيا الحكم والحكّام . ثمن المغامرات . هذا ما تبقّى من والدك الملياني . هذه البقايا جمعتها إحدى فرقنا من أماكن مختلفة ، لأنه عندما مزّقوه كما تعرف ذلك ، كل واحد أخذ ذراعاً أو نصف ذراع أو رجلاً أو جلدة أو عيناً أو غيرها حتى اختلط الحابل بالنابل . فقد وجدنا أيدي وأرجلاً كثيرة وكل مالكيها يَدعون أنها لوالدك و كانوا ينوون بيعها لنا بأغلى الأثمان . قلنا لهم لا يمكن أن تكون للرجل عشرون يداً وعشرون رجلاً وعشرون رأساً . وبدأنا نركب المفاصل وندرس العظام حتى أعادت فرقنا تركيب هيكله نهائياً . أمّا بقية العظام فتركناها كما هي وكومناها عند حدود الهيكل ، فهي ، مهما يكن ، جزء من قصة هذا الرجل . تصور! حتى الأسْنَان نزعت بعدما حطّم الفم بالحجارة . فقد كان الرأس مشوهاً ومكسوراً في الكثير من الأماكن .

العقوبة كانت همجية وقاسية جداً .

ـ أنتم متأكدون من أنها عظامه .

ـ يا سيدي نوح ، فرقنا لم تنم ، فالاكتشاف أنتروبولوجي مهمّ جداً . عمل مثل هذا هو جزء من تاريخ المنطقة . حتى ولو كان هذا التاريخ مؤلماً ومدمّراً . بينك وبين ذلك الزمن أكثر من نصف قرن ، تستطيع الآن أن ترى من خلال المسالك الصعبة ، بكثير من الموضوعية وكثير من النقد ، كُلَّ ما حدث وما يمكن أنْ يحدثَ .

لا أدري لماذا كان أوسكار يريد إقناعي ، ولا أدري كذلك لماذا وجدت نفسي غير معني مطلقاً بما كان يقوله . لأوّل مرّة ينتابني السؤال المحرق . ماذا أفعل في هذا القفر مثل الوحش البرّي الضائع ؟ أموت وأحيا داخل عالم لا أفهم منه إلا القليل ، بل أحياناً لا أفهم منه شيئاً على الإطلاق ، وأكتفي بما يقال لي . كل هذا حدث للملياني ، ما الذي يمنع أن يلحقني المكروه نفسه . وهل أنا في منأى عن الأيدي الكريهة التي مزّقت والدي وتحاول الآن ، في خفاء ما أن تلحقني به أو هي على الأقل تستعدّ لفعل ذلك . عيون الناس مؤذية وعيون الصيادين فيها الكثير من القلق وحبّ الفتنة ، مع أني لا أستفزهم أبداً سوى أني أمارس طقوسي التي ربّيت عليها بانتظام يومياً وبدون كلل . حتى عندما تغمرني حالات اليأس والقلق ، أحاول أن أرميها ورائي ولا أنظر إلاّ باتجاه البحر لعلّ الموجة العالية تبزغ برأسها كنجمة الرعيان المنتظرة ، وسبيل الضائعين . وأتلهّى مساء بتهريب المخدرات أو ممارسة البروكسنتزم من حين لآخر باتجاه سفينة الماريكان ، وساره هي سندي الكبير في أداء هذه المهمّة التي تدرّ مالاً كثيراً وهدايا لا تقدّر بثمن . هذه المرأة نمرة شرسة ، لا تؤكل بسهولة كما يُتَصَوَّرُ لأوّل وهلة . أحياناً أخافها ، في أحيان أخرى أراها رقيقة مثل النسمة ، يَجْرحُها الرذاذ و تمزقات الموجات المكسورة عند الأقدام أو عند صخور الشط المهجور . أتساءل أحياناً وسط هذه الغمرة ، كيف ستكون سارة معي عندما أصير

كبيراً في أمادرور و يتمنّى الناس التصور بجانبي كنجم سينمائي مرة واحدة في عمرهم ؟ عندما أتعالى على سدة السلطان ، هل سيعرفني الناس القريبون منّي ؟ هل سيذكرني الشيوخ الذين عايشوا المليانى ؟ هل سيحبني الناس الذين سأحكمهم بالحب والعدل كما وعدت ؟ أمْ سيدورون عليّ ، لأنَّ ذاكرة الراعي عمياء ؟ كل شيء ممكن جداً ولهذا يجب على الإنسان أن يتخذ كل احتياطاته قبل التطفيرة . التطفيرة صعبة ، والأصعب منها المفاجأة الساحقة والمذهلة . لهذا فأنا مصمّم انطلاقاً من هذا البحر ، من هذه الحفرةُ ، من هذه العزلة القاتلة ، أن أوقف عودة الزمن إلى الوراء ، أو العقارب إلى طفولتِها الأولى . ليكن . الفاجعة حدثتْ في الليلة السابعة بعد الألف . انتهى . لنقرأ التاريخ ، كل من زاويته . ولكن الزمن هو الزمن ، وهذا الزمن الذي سيعاش متأخراً ، هولي و ليس للذين مضوا . سأمشي على رؤوس أصابعي داخل الأرقام والأجرام والدنيا وأقرأ في عيون البشر والمحيط كل نيّاتهم وانزلاقاتهم الخانقة وأوقف الخراب العظيم قبل أن يبدأ . لا يمكن أن أكون غبيّاً بهذه السهولة . منذ نصف قرن وأنا على هذه الحافة أنتظر ، والبحر هو البحر والدنيا هي الدنيا والخراب هو الخراب وأنا كل يوم أتآكل قليلاً مثل الحائط القديم ولكن داخل التآكل يتولّدُ إصرار عجيب على البقاء . أستعيد أمجاد الآفلين الذين في حلوقهم عسل النحل ورغبة العاشق المقدم على الموت العظيم .

أوسكار عندما جاءني كان يعرف جيداً أنها لحظة قيلولتي . هي اللحظة النادرة التي أخرج فيها من بين فخذي الزنجية لأنكفئ قليلاً على فمي ، ثم أنقلب على ظهري وأتأمّل الأشياء التي مرّت بسرعة مذهلة . أوسكار يعرف الصغيرة والكبيرة في حميمياتي . وهو نفسه الذي نصحني بتغيير جلدي . عندما قلت له كيف ؟! قال الزنجية ليست المرأة الوحيدة في الدنيا و أنت رجل مقدم على فتوحات جديدة .

ـ لكنها جزء من ذاكرتي المتْعَبة .

- أنت تعرف تقاليد الحكم . السلطان إذا اخْتُرِقَتْ أسراره ، ذهب مع الريح . و الزنجية تعرف حتى أنفاسك .

- ماذا أفعل لها ؟ عمرها الآن يزحف نحو السبعين ، وإن لم تتخلّ عن صنعتها لإرضائي مثل بِنْتِ العشرين . جسدها لم تلمسه الأيام إلاّ قليلاً . لا يزال صدرها عاشقاً ، وجموحاً مثل الخيول . كل يوم أجدها غارقة في مياه الأعشاب التي تأكلها وتستحمّ بها . تقول عنها إنّها أعشاب الجسد ، تحافظ على الجلد واللحم والشحم من الاندثار والموت السريع . في كل مرة عندما أدخل عليها ، أجدها عارية أو نصف عارية ، تطلي نفسها من وجهها حتى أخمص قدمها ، ثم تدخل يدها اليمنى تحت لباسها الشفّاف وتبدأ مسد ما بين فخذيها وتفتح ساقيها عن آخرهما . تقول وهي ترسم ابتسامة جميلة على وجهها : جسد المرأة مثل محرّك سيارة ، إذا لم يزيت ولم يشحّم يتصدّأ . كل شيء يمرّ ؟ ثم تنهمك من جديد في الدّلك حتى يصير جسدها الأسمر يضيء كقطعة نحاس نظّفت بجلد جمل .

- أعرف أنك ما زلت مرتبطاً بها ، لكنّ سارة تملؤك .

- سارة! صحيح ، لَبُوءَة . كمشة شعاع . سراب يشبه الفتنة . (كما كان يقول نوح المقتول في شعره عن المرأة) .

- أحياناً تصير شاعراً عجيباً . المهمّ دعنا من هذا الموضوع . سيأتي وقته لاَحِقاً .

- وهل هناك ما هو أهم من امرأة .

- نعم! السلطان .

- هاه! غلبتني بسرعة .

أوسكار لا يترك شيئاً للصدفَة مطلقاً . يعرف لحظة الحزن من عيني . أحياناً يداريني ، وفي أحيان أخرى يصدمني بالحقائق المرة التي

تحيط بي كالطحالب ، ويدخل في الأعماق كالشوكة .

ـ يا نوح أحذر! أحذر! أنت الآن تُعدُّ لمهامّ استثنائية . يجب ألاّ تقتلك أحاسيسك المرهفة ، وإلاّ صِرْتَ شاعراً ، وأنت تعرف مصير الشعراء . أعرف أنّ انتظارك طال وأن الحزن والخيبة واللاّجدوى أصبحوا يُقْرَؤُونَ في عينيك ، لكن الذي لا يعرف دهاليز السلطان ، لا يعرف تقاليد الحكم . يا صديقي ، تقول في نفسك ومن بعد ؟ ماذا سأحكم عندما أصل إلى نهاية المطاف . لا مال ، لا كهرباء ، لا رفاه ، لا نفط . الرمال فقط . سوى الرمل الأصفر . سأرث الصحراء والفراغ الكبير وبلاداً منهكة يقتلها التمزّق والتخلف . وهذا جزء من كراماتك وإدْهَاشَاتك! ؟

ـ هذه مبالغة! لست نبيّاً .

ـ لَسْتَ نبيّاً ولكنّك تستطيع أن تدخل قلوبهم وكأنك المهدي المنتظر . ستكون مثل مجنون الحكم والحاكم القادم من بعيد والذي ينجي كل شيء من التّلف . أي إنجاز تقوم به حتى ولو كان صغيراً فهو مفيد جداً . عليك أن تتعود أكثر فأكثر . تحمّل مشقة الانتظار . لن يكون انتظارك انتظار غودو ، لأنك في النهاية ستصل في الزمن والمكان بالضبط الذي انهزم فيه الآخرون . هناك سيناريوهات كثيرة معدّة لعودتك إلى عمق أمادرور الزرقاء أو ما تبقّى من مدن نوميدا-أمدوكال ، وستُحْمَل على الأكتاف عالياً . وهذا الأمر لا تهتمّ كثيراً به ، سنتكفّل به نحن .

نحن! ؟

من هذه ال"نحن" ؟ كلّما نسيت ، عاودتني شكوكي البائسة وضمرت أحلامي من جديد وخِلت نفسي إنساناً ضائعاً في برية ملونة ليست له وليس لها . أحتاج إلى عمر آخر وإلى امرأة أخرى وإلى ألوان أخرى لأعود إلى حماسي الأول واندفاعي .

عندما رأيت عيني أوسكار تبرقان فرحت ، لكنه عندما بدأ يحكي ، بدأت الأشياء الغامضة تتحرك فيَ ، وتمزقني مثل الشفرات .

نحن!؟

كلّما أنسى ، ينتابني السؤال المزعج ، هل هؤلاء الناس علماء أم عملاء ؟ أم شغالون مندغمون ضمن مشاريع C.I.A الكثيرة في المنطقة . لا بدّ أن يكونوا شيئاً من هذا القبيل . لنفترض أَنَّهُم كذلك ، فأنا لا علاقة لي بهذا الموضوع . هكذا اتفقنا . صحيح ، أني بيني وبين نفسي أشعر أن وظيفتهم الأساسية في هذا المكان ليست أنتروبُولوجية محضة بقدر ما هي سياسية اقتصادية ، أي البحث عن أفضل السبل لوضعي على رأس الحكم والحفاظ على مصالحهم . وأنا قادر على ضمانها . فقد أكلت ملحهم ، وعشت بعض أشواقهم ، ورقبتي أصلاً لهم . مالكوها . فقد أنقذوني من موت مؤكد وشنيع .

ـ أتعرف يا نوح أن كل شيء صار جاهزاً لا ننتظر الآن إلاّ الضوء الأخضر ، لتنقلك الحوامة إلى تلك السفينة البعيدة ، وبعدها إلى أرضك على متن سفينتك التي تنقذ بها من يمكن إنقاذهم من هؤلاء الأطفال المقطعين الذين تربيهم على يدك ، ويكونون من خيرة حماتك وحرّاسك .

ـ هذا يعني أن الرحيل صار قريباً .

ـ وهل في ذلك شك! Aucun Doute.

يا أخي لماذا لم تقلها من الأول ، وتتركني هكذا داخل غيمة مثقلة باليأس والخوف ؟! أما كان أفضل أن ترمي كل شيء عند قدمي ؟ فجأة شعرت بدمي يغير دورته ، وبأشيائي الضامرة تنهض دفعة واحدة . كنت أعرف أن في أعماق هؤلاء شيئاً من الوفاء ولا يتركونك إلا عندما تتركهم . الملياني ذهب وراء غروره وسقط بين أصدقاء كثيرين ، مثل جدي الأوّل شهريار بن المقتدر . من الماريكان إلى الألمان إلى

الفرنسيس إلى الأسبان . بزّاف يا خُويَا! أمّا أنا ، فأموري واضحة ومكشوفة . فلست إلاّ للأقوى . وهل هناك غير الماريكان ؟ لو كان هتلر حيّاً لن أسمّيه الحاج فقط كما كنا نسميه في الحرب العالمية الثانية ، ولكنّي سأسلم على رأسه وأعلنه جهراً أكبر خليفة على المسلمين ، حتى الموت ، لأنه كان الأقوى .

- عزيمتي لن تموت يا سيدي أوسكار ، أنا منارتكم في هذا القفر الذي سيصير جنتكم .

- نكون سعداء بقدر ما تكون قوياً وصلباً .

- تربية الخلاء تعلّم الحماقة والصبر والمقاومة .

- هكذا أنت ، رجل أحجار الوديان ، أزرق وجميل وصلب .

- أحاول أن أكون صالحاً وطيعاً . كلمة منكم تدّيني وكلمة تجيبني .

- لا نطلب منك إلا بعض التريّث والصبر ، فالأشياء صارت قريبة .

شعرت بمغص ولكنّي حاولت أن أتخطّاه بثقة وقوة . يا الله! ما بقاش قد ما فات! ؟

- لا أطلب إلاّ بعض التقدير ، سقراط لم يكن مؤدباً معي في ذلك اليوم .

- أوف! تلك طبيعة الرجل! فهو عالم كبير ، وله ثقة زائدة في نفسه . عليك أن تنسى نهائياً أنك شُتِمْتُ ، إذا أردت أن تصل إلى سدة السلطان والحكم . حتى هو من الذين يراهنون عليك . لا تخيّبه ولا تخيّبني ، وقد اعتذرت لك في مكانه . اعتبرها شطحة من الشّطحات ، واهتمّ أكثر بالضروريات التي تقربك من كرسيك المسروق ، وامح الأفكار التي تبعدك عنه . استغرق في صلواتك الفجرية على الشاطئ وطقوسك وعبورك الساحلي اليومي . دُقَّ الخشبات التي تضعها في كل فجر على هيكل سفينتك . هذه هي أشياؤك الأصلية التي ستنفعك ،

حينما يأتي اليوم الموعود . كل هذا سيجعلك في عيون الناس نبيّاً للدهشة ، وسيثقون في رسالتك التي لن تكون إلا البرنامج الذي سنقترحه عليك عندما تصل إلى عمق السفينة في ذلك اليوم الذي سيكون مشهوداً .

- يا سيدي أوسكار ، منذ خمسين سنة وأنا أمارس هذه الطقوس . تخيل نصف قرن من الممارسات المتشابهة و الكاذبة ؟ صارت جزءاً منّي ، من دمي ، من جسدي المنهك والمتعب والمقاوم . وهي كافية لتجعل منّي مؤمناً صالحاً ومجنوناً بالله والدنيا و البحر ، ومع كل هذا ، شيء من ذلك لم يحدث ، سوى بعض الضعف الذي ينتابني من حين لآخر كلما وقفت في مواجهة هذه الزرقة الكثيفة .

خمسون سنة في حفرة حمّام الشمس ، تعلمت كل شيء بدون ندم . من رجل تقيّ ، إلى مهرب للمخدرات ، إلى بروكسنييت باتجاه الأسطول الأمريكي ، وهي مهمّة ممتعة جداً . كل يوم سبت أختار عشر فنّانات (هكذا نسمّي القحبات المرسلات إلى السفينة) ، يأتينني إلى القلعة . ينتظرنَ ، طويلاً عند حدود السياج العريض ، الخارجي ، من كل الأعمار ، معظمهنّ جميلات . أختار عشراً منهنّ إلى قضاء نهاية الأسبوع Week-end على ظهر السفينة . وقبل أن أبعث بهن أدقق في وضعهن ، لأن التعليمات صارمة جداً . ألبس فوقيتي البيضاء بعد أن أنزع كل ألبستي التحتية . أشعر بخفة جسدي وروحي . يدخلن عليّ واحدة واحدة . أتحسس أجسادهن . أنغرس داخل ابتساماتهن المذهلة . أمدّ يدي ، لا يمانعن ، أترك يدي الأخرى تتزحلق أكثر إلى تحت لتستقر بين أفخاذهن الممتلئة . بعضهن يتململن ، ولكن عندما أرشق عيني في وجوههن يتذكرن فجأة بأنّ أيّة ممانعة قد تسرق منهنّ فرصة العمر ، فيصمتن ، ويمطّطن ابتساماتهن ، ويفتحن أرجلهن ، ليدخلنني في عمق العذوبة التي لا تحدّ . تدور أعينهن ، ثم فجأة لا أرى إلا الزرقة وبياض أعينهن الواسعات . تتمدد يداي أكثر ، تتوغلان داخل خلجان الصدر والظهر والتفاصيل الصغيرة . يندفعن شيئاً فشيئاً على ظهورهن ، فأبدأ

طقوسي معهن . لا توجد في الدنيا متعة تشبه متعة ، وامرأة تشبه امرأة ، وحالة تشبه حالة ، حتى ولو حدثت مع نفس الإنسان . وعندما ننتهي من لذة الغفوة الساحرة يسألنني الأسئلة نفسها التي تتكرر دائما :

ـ هل سأذهب إلى السفينة يا سيدي نوح ؟ .

أضحك ثم أطبع قبلة على جبهتها .

ـ وهل يوجد من هو أحسن منك ؟ .

تتمرول ، تتدلع ، تغمزني غمزة الانتصار ثم تخرج ، على وجهها ملامح مليئة بالنّور . . . وهكذا حتى أنتهي من اختيار "الفنانات" المرشحات . أنا دائماً أقول هذا ، يجب أن تكون البضاعة جيدة ونادرة مثل الحلوة الشباكية التي لا تمشي إلاّ مع الكيف وتلتصق بالحلق لحظة الهيام ، وهذا يوفر لنا الكثير من رضا رِجَالات السفينة العسكريين ، وعندما تأتي لحظة السفر ، يلتحقن بسرية إلى محيط القلعة أوّلاً ثم إلى ساحة القلعة لإجراء الفحوصات الطبية الأخيرة ، ثم ينزلن باتجاه الزورقين الصغيرين الراسِيَيْنِ عند حدود البحر ، ليؤخذن باتجاه السفينة الكبيرة فلا أسمع في الظلمة إلاّ محرّكي الزورقين وهمّا يشقان صمت الساحل المريب . يقضين الليل والنهار وفي المساء يعدن محمّلات بالهدايا النادرة . عندما يصلن إلى الساحل يتزربعن على طول الرمل وامتدادات الفراغ ، وكأنّ شيئاً لم يكن . وفي الصباح الباكر لا ينسين عاداتهن مطلقاً بالمرور عليّ وهن في قمة سعادتهن . يتركن بعض الدولارات وبعض الهدايا ثم يعدن إلى ذويهن . لديّ خمسون بالمائة من كل ما يربحنه من سخاء الماريكان . إنها إحدى وسائلي للحياة والبقاء . عندما رمتني مروحيتهم في هذا المكان قالوا لي : دبّر راسك يا ولد الناس . وهاأنذا أدبّر راسي وأنشئ سبلي للحياة والعيش . شرطي الوحيد لهن ، الجمال والنظافة . الماريكاني عنده فائض في بلده . لا ينام مع أية دابة . الكثير منهن جربن مرّة واحدة وتوقّفن ، ولكن الكثيرات كذلك ممّن

احترفن هذه الصنعة وكوّن صداقات على السفينة الراسية داخل السحابة السوداء ، يملكن وريقات تسمح لهن بالعودة في الأسبوع الموالي . في الكثير من الأحيان ، المسألة تتجاوزني وتتجاوز حتى أوسكار الذي يعرف التفاصيل ويتغاضى عنها . أنا قلت له ذات جلسة لم أعد أذكر تاريخها : ضعفي الكبير يا سيدي أوسكار امرأة . قال أعرف . ثم ضحك وخرج . الجميلات جداً يتمرولن ويستعرضن جمالهن أمامي داخل غرفة نصف مضاءة ، مليئة وفائضة بالعطور الطيبة ثم يتمتن قريبا من شفتي :

ـ عمي نوح . . كانش ماريكان اليوم ؟ .

ثم ترفع اللباس الشفاف عند نهدها الأيمن . تدخلني الرعشة من الرأس حتى القلب . أمدّ يدي نحوها . تقتلني الحرارة ورائحة جسدها والعطور المستوردة . أدخلها بدون تردد بكاملي . أقتحم زواياها الضيّقة . تتلوّى داخل الفراش . تساعدني مثل المحترفة ، وعندما تنهيني داخل الغيمة النادرة ، أسجلها في قائمة المسافرات في الرحلة القادمة وأنا أدغدغ سحرها النادر .

ـ سافري أنت قافزة ، مثلك يشرف أمادرور الزرقاء .

ـ الله يحفظ عمّي نوح . أنت رجل ونصّ في الفراش .

لا أدري إذا كنت أستطيع أن أكون رجلا و نصف في الفراش ؟ يركبني غرور الذكورة لحظتها ثم سرعان ما أنسى عندما أندفن في صدر غيرها . سارة دخلتني من هذا الجرح ومن هذه الرغبة المكسورة المعزولة داخل هذا القفر الأزرق . كانت مصرة أن تلتحق بالسفينة بدون ثمن ولكنها لم تفلح على الأقلّ في البداية . فقد وجدت أمامها حائطاً كبيراً مطلقاً في تصلبه . لقد نويتها . رأيتها في حلمي . كانت تجري في قلبي كالغزالة ، ولكنها ظلت تمانع وتمانع ربّما خوفاً من رسومات جسدها (هذا ما عرفته فيما بعد) فزادت من اشتعالاتي وحزني ولم يحدث ما كان يجب أن يحدث إلا بغمزة من أوسكار ، فأغمضت عيني وفتحت أمامها طريق المرور لتبقى على ظهر السفينة مدة سبع سنوات بالتمام

والكمال . كان عمرها عمر الطفولة عندما ذهبت . لا يزال جسدها رغوة مثل الجنين . وعندما عادت ، كانت وردة يانعة مشتعلة القلب والعينين . عندما غابت كدت أنساها وعندما عادت ، مرّغتني على هذا الساحل ، وبدأت أشرب البحر وأقضم الرمال تحت قدميها الرقيقتين الطفوليتين ، إرضاء لجنونها . فعلت ذلك أنا السلطان الذي سيكون سيد الدنيا والأكوان أو على الأقلّ هكذا خُيّل إليّ . أكبر كارثة نشعر بها هي أننا لم نعد نُرْغِبُ أحداً فينا . كنت دائماً أقول على هذه المجنونة أن تقلّل من تعنُّتِهَا . في عينيها أقرأ الرغبات المذبوحة إلى هذا المكان الخالي ؟ من أين خرجت ؟ أين كانت مختبئة هذه الغجرية المحوونة بجسدها والمجنونة بكل شيء ولا شيء ؟

حتى أوسكار كان يدفعني باتجاهها ، بعينيه ، بغمزاته ، بكلماته المقتضبة التي تحتمل كل شيء ، لكن انتظاري كان كبيراً وهذه المرأة مثل الانتظار ، استثنائية .

لتسقط الدنيا . . لتسقط الأخلاق .

ليسقط الشعر في السلطة .

والسلطة في الشعر .

لحييَ الشعر على حافة الكلمات والبحر .

أنا لست قريباً من نوح المقتول ، إلاّ عندما أكون على مقربة من الزرقة . وعندما أكون داخل قمرة السفينة ، لا أفكر في شيء آخر سوى حماية محيطي والكنوز التي خلقت لي وليس لغيري . أعرف مسبقاً أن أي تفريط صغير يقود الرأس نحو الحريق ويقود الحلم الكبير نحو الاندثار ليصير بعدها كل شيء صغيراً . في الحكم ، عندما تسمح بإحداث حفرة صغيرة في محيطك السرّي ، فالحفرة الصغيرة تصير بئراً والكلّ يصير باباً مشرعاً والباب يتحوّل إلى فراغ يدخله القاصي والداني ، من أصحاب الأطماع الكبير . يجب غلق الأفواه ولجمها قبل

أن تفتح . لحظات الجنون والزرقة والدهشة لها وقتها الضروري . آه ، يا عمّي نوح كم ظلمت الشعر عندما جرجرته باتجاه دهاليز السلطان!

عندما أواجهها بصرامتي تقول هل تكذب على نفسك أم عليَّ ؟ الرغبة تقرع في عينيك ولا تحتاج إلى عبقرية ، لكن أوسكار الذي ظل واقفاً عند رأسي ، سرق كل الألوان من ذاكرتي .

- هاه! يا نوح هل أعتبر أننا اتفقنا ؟

- اتفقنا . نحن دائماً نتفق يا صديقي .

ثم اِنْطفأ بسرعة عند عتبة الباب رغم ثقل السنين التي تملأ قلبه . كانت قامته فارعة مثل سلطان يوناني . داخل هذا الرجل محبة الشيخ وحكمته وفطنة الشاب وحماقة المحموق التي لا تقرأ إلاّ في عينيه . خَرَجَ وبقي ظلّه الذي لم يّمح إلاّ عندما دخلت الزنجية . هذه المرة شعرت بشيء من الاستثناء والدهشة في جسدها . لقد نسيتها في غمرة الخوف من الموت والمطاردة الوهمية لسارة . قالت وهي تدور داخل عينيها مثل الكذبة .

- هل يحتاج سيدي شيئاً محدداً .

- وماذا يمكن أن يحتاج سيدك غيرك .

في البداية قلتها مجاملة وتعويضاً عن حالة النسيان التي أصبحت تنتابني منذ أن عادت سارة من سفرتها الطويلة . لكنني عندما تأملتها من جديد ، شعرت بنوع من الشره نحوها وبنوع من الحنين . ارتسمت ابتسامة على شفتيها الرقيقتين . السؤال الوحيد الذي تساقط في داخلي ، لا أدري إذا كان الأصل الحقيقي لهذه المرأة زنجياً ؟ حتى هي تقول ملامحنا الرقيقة ورثناها من بعض القبائل الأثيوبية التي ننتمي إليها ، والتي تهجنت مع غزو البيض من العرب والأعاجم والمسلمين لغاباتنا العذراء . لم نأخذ من الزنوج إلاّ البشرة ومتانة الجسد وقدرته على الصبر والمقاومة .

تأملتها بعمق . قامتها تقريباً هي هي ، لم تتغيّر إلاّ قليلاً ، وإذا كانت سارة جميلة وممتلئة كتفاحة الجنة ، فالزنجية ساحرة بشكل مدهش ومجربة وتعرف دقائق حياتي بكاملها ، بل وتقرأ كل شيء في عينيّ .

نَظَرْتُ إلى وجهها بكثير من العطف رغم أن كلمة أوسكار ظلت ترنّ في ذاكرتي كناقوس الموت ، يجب التفكير في تغييرها . الناس عندما يعرفون حقائق كثيرة يصبحون خطيرين على الدنيا والسلطان . في تلك اللحظة بالذات لم أفكر لا في الكنوز و لا في الحكم أو في اهتزازات السلطان الذي لا يزال في حسابات الغائب ولكن في الزنجية التي كانت كلما تأملتها تزداد وضاءةً وإغراءً .

رنّت كلماتها من جديد في أذنيّ .

ـ هل يحتاج سيدي إلى شيءٍ ما ؟

ـ ماذا يمكن أن يحتاج سيدك غيرك ؟

هذه المرة شَعَرَتْ بوقع كلماتي وأني لم أتحدّث بفعل العادة المكرورة . ابتسمتْ قليلاً ثم طأطأت رأسها في نوع من الحياء وهي تجمع ذراعها عند صدرها وتبحث بعينيها على الأرضية عن أشياء مبهمة . خرجتْ . سَمِعْتُ دحرجتها في الساحة ثم سَمِعْتُ صوت الخزانات وهي تفتح ، غزغزتها كانت تزيد من شهوتي . خرجتْ وبسرعة عادت . كانت تلبس ألبستها الرقيقة لتظهر انثناءات جسدها وعمقها الكبير . مسدت قليلاً على سرتها ثم فخذيها الممتلئين . التصقت الخرقة الرقيقة على رأس أظافرها . بان تبانها الأزرق . تعرف جيداً أنه رغم كرهي للفراغات الزرقاء في أمادرور (حضر موت) ، فالزرقة تسحرني وتهرب بي نحو غوايات الجنة والإيهامات الكبيرة . شقت بكفها وسط فخذيها ثم عقفت أحد أصابعها وهي تتأوّه . مالت باتجاه الزاوية ، ورفعت رجلها اليمنى . كنت قد قمت من مكاني وتعرّيت عن آخري وبدأت ألحسها مثل الحلوى الشباكية من فمها إلى أصابع رجليها . كانت مثل الخرقة الزرقاء في مهب ريح بدون لون .

اشتعلت معي بقوة وجرأة .

عندما انتهينا ، لأول مرة منذ خمسين سنة ، مذ كنت طفلاً ينام بين فخذيها وداخل رائحة جسدها القوية ، أشعر بالرغبة الجامحة للمزيد . لا أدري ربما كان إحساساً غامضاً . قبضت فجأة على صدرها ، سحبت نهديها باتجاه فمي وبدأت أتلذذ بالرضاعة مثل صبيّ صغير لم يفطم حتى وهو كبير . ثم نزلت إلى سرتها الغميقة ثم إلى عانتها التي كان شعرها يدغدغ شفتي . وظللت أتمادى داخلها حتى شعرت من جديد بملوحة جسدها المصقول .

كنت أعبرها محيطاً بدون بداية ولا نهاية .

وكانت تفتح كل الأبواب الصامتة في داخلي .

وفجأة سمعت صوتاً يشبه عواء الذئب في الخارج ، عرفت أن الفلوكا قد وصلت . قمت بسرعة من فراش اللذة النادرة في صفائها ، حَمَلَتْ الزنجية معي الأكياس وخرجنا إلى ساحة القلعة وظللنا ننتظر كالعادة الشارة الضوئية من البحر . عندما رأيناها قرأناها ثم نزلنا باتجاه البحر ، داخل جزئه المسيّج الممنوع على الصيادين ، على ظهري أكياس المخدرات وعلى ظهر الزنجية كيس الكوراي (المرجان) . الزنجية تتحمّل كل الأثقال من أجلي . صبورٌ لدرجة مقلقة . أجمل ما فيها أنها تعمل بدون هوادة ، وبصمت كبير .

عندما وصلنا الساحل المظلم ، كانت الفلوكا تنتظرنا كالعادة . رمينا الأكياس داخلها . حسبها الرجل الغامض بأصابعه ثم مدّ لنا كيس النقود . كان مُلثّماً .

لم نره .

ولم يرنا .

لم يعرفنا ولم نعرفه .

هذه هي علاقاتنا دائما منذ أن بدأت هذه الصنعة .

وعدنا بخُطا حثيثة نحو القلعة من جديد وكأن شيئاً لم يكن ، كلنا داخل أشواقه الصغيرة .

في الطريق ، نسيت نفسي . نسيت أن أحسب النقود وأَتَحَسَّسُها برؤوس أصابع اليد كالعادة . فقد كنت ممتلئاً بحالة غامضة لم أعهدها في نفسي اسمها جسد الزنجية .

* * *

- III -

هو البحر ينسى شؤونه اليومية .

هو ذا ينفتح عن آخره .

قلب بقلب وذاكرة بذاكرة .

لا أدري . شيء ما يملؤني كلما قابلت البحر وكأني أقابله للمرة الأولى . وكلما رأيت امرأة تأسرني كأني أراها للمرة الأولى . ما هذا السحر العجيب داخل هذه الزرقة التي رأيتها حتى مللتها ولكنها هذه الأيام تدخلني بدون استئذان . ربّما كنت أحاول أن أنسى ما يحيط بي وما يؤلمني . اليوم مثلاً لم تصلني البيانات التي كان يفترض أن أزربعها على امتداد الساحل بعد وضع القطع الخشبية في الهيكل العلوي للسفينة وطليها بالقار . البيانات المعادية هي كذلك انقطعت نهائياً منذ أن ألقي القبض على الصياد النبيّ المنتحل . أشعر بالوحدة والحيرة والقلق ، لكن الحصان الأبيض الذي أهداه لي أوسكار عوضني عن الكثير من الوحدة . قال لي ، وجدناه ضائعاً ، هو لك ولحبيبتك سارة التي غيرت قلبك وسحرتك . في الحقيقة قرأ الكثير من التفاصيل في عيني ولهذا فغيابُ البيانات أراحني هذا الصباح من ممارسة السياسة ، فهي رغم ضرورتها القصوى للسلطان ، فعل لِلموت البطيء والكذب المقنع بالإغراءات .

يجب أن نتعلم النسيان . النسيان وحده يقربنا من الحياة بعناء أقل .

أن ندخل من حين لآخر غفوةَ الوهم .

أن نتخيل أنفسنا أننا حبلنا بالبحر وبكل الأشياء التي بغير وجود امرأة لا معنى لدورتها . وعدتني سارة البارحة . كانت مثل نجمة الرعيان الضائعة في فراغ بدون معنى . قالت إنها ستأتي اليوم صباحاً إلى البحر ، ولكن ها هي ذي الشمس تقوم من إغفاءاتها وتصعد بسرعة غير معتادة ، والرمل يصير دافئاً والنهار يختصر كل أشيائه الجميلة ، وهي هي ، لم تأت حتى الآن رغم وعدها ورغم الشوق الذي قرأته في عينيها .

الصبر! عليك أن تصبر يا بنَ أمي . لا خيار أمامك سوى ذلك ، وإلا ستموت . !merdeالصبر يدبر ؟ شهقة وتأخذك الريح التي لا ترحم نحو تربة باردة وحفرة مظلمة ، أنت ترفضها ، على الأقل في هذا الوقت وتحاول أن تقف ضد قدرك .

الناس الذين يحسدونك في هذا القفر الأزرق ، لا يحصون . أجتهد قدر ما تستطيع وما لا تستطيع .

"غَرّوا بكْ العَدْيَانْ .

تْغَامْزُوا عليكْ يَا فْلاَنُ .

لاَ خْبَرْ بِالأَمَانْ .

بَاعُوكْ فِي سُوقْ الدّلاَلَة .

إذا بْغَيْتْ تَرْبَحْ وَتْنَالْ .

لاَ تْخَالَطْشِ مَنْ وَالَى" .

من أين يأتي هذا الصوت الحزين! ؟ صوت عمي دحمان الحراشي ، الله يرحمه و يوسع عليه! ؟ دحمان تقيّأ الدم ومات في حادث سيارة .

إنه يأتي من بعيد ، من الطَرف الآخر من الشاطئ حتى عيسى الجرموني الذي كان يملأ المكان قد اندثر نهائياً . وُجِدَ على*أطراف الشاطئ يابساً ، فمه مفتوح ، داخله بقايا أغنية أخفق في إخراجها من حلقه المجروح . كان نائماً على ربابته حتى الموت . يبس عليها . عندما أراد الناس فصلهما ، لم يتمكنوا . كانت أصابعه قد اختلطت بخيوط الرَّبابة وجلدها وخشبها ، وكان يجب إمّا كسر الربابة وإمّا تقطيع اليد . وعندما بذلوا مجهوداً مضاعفاً لتمديده ، لم يستطيعوا ، فشلوا حتى في غلق عينيه اللتين امتلأتا بالزرقة . من بياض العين إلى لون البحر . كان دائماً يقول ، أنا لا أرى البحر ولكني أحسه . أشم رائحته . أتحسس كامل تفاصيله . يدخلني . إنه فيّ . ولهذا أتشوّق إذا لم يستيقظ البحر في داخلي . في النهاية دفن ليس بعيداً عن البحر هو وربابته . كان مصراً على ألاّ يتركها يتيمة وراءه . كل شيء في هذا الصوت لم يكن عادياً . حتى موته (قتله) كان استثنائياً . قيل إن الذين تعاهدوا على قتله منذ زمن بعيد وقالوا سنمحوه ولو يدخل في بطن أفعى ، وصلوا إليه ووجدوه فقتلوه . وهناك من يعرفون بعض الحقيقة فقط . يقولون إنه مات حزناً على المرأة التي ظلّ طوال حياته يسترجع وجهها بكآبة كبيرة ولهذا انكفأ على الربابة حتى اندغم معها وصارا كلاً واحداً . وعندما حُفِرتْ تربة الساحل بحزن لإدخاله في أعماق الحفرة ، جاء الجميع من كل الأماكن بمن في ذلك سكان السواحل البعيدة ، داخل امتدادات أمادرور ، حتى بعض الملثمين من الرجال العابرين ، الزرق ، كانوا ههنا يرقصون رقصة التندي Tinde الحربية والحزينة في الآن نفسه . وأصداء الطام طام التي كان البحر يرجعها من بعد سحيق ، كانت تعطي للجو الكثير من الرهبة والخوف والوحدة . لأوّل مرة أدرك بأن الساحل على فراغة الظاهري قد أصبح آهلاً بالكثير من الناس . حتى سارة كانت هناك مع بعض "فنانات" أسطول أيام السبت . رأينني ، عرفتهن من عيونهن ، لكن الملايات السوداء التي كنّ يرتدينها منعتني من رؤية وجوههنّ والاحساس بشفاههن التي ازرورقت قليلاً بفعل برد هذا الفجر

الذي نزل مبكراً وقاماتهن الممدودات مثل أعمدة النور . كان الناس يقفُون على قبره ، تحت الشجرة المعزولة التي يقال إن خليفة ما في الأزمنة الغابرة قد بويع تحتها ، يذرفون دمعات العزلة والافتقاد ثم يلقون ببعض الأملاح والسكريات على القبر أو بعض الكحل والسواك والماء البارد . يقولون إنها ستنفعه لمواجهة ربه مبتسماً مكتحلاً في يده قليل من الماء والحب لتجاوز المفازات الفاصلة بينه وبين الله ، في رحلة القيامة ، لأن الإنسان عندما يموت لا يجد نفسه فجأة في مواجهة الخالق ، عليه أوّلاً أن يتجاوز رحلة الفراغ بدون أسئلة وبدون نجدة . امتحان الصبر والقيامة ثم الغوص في دروس الجنة الجهنمية . غاظني كثيراً يومها أن يموت هذا الرجل (ولو أنه كان مثل البومة لا ينعق إلا داخل خراب آتٍ) . صوته كان متميزاً . الناس يحبونه لقصته كذلك . فهو عاشق ومغامر ، وضع حياته في كفة وامرأته في كفة أخرى ، وعندما قتلت أو هكذا سمع فيما بعد ، هجر البلاد من أجلها . وقتها كان القتلة من القبيلة وزوجها التاجر ، يقسمون أن ينزعوا رقبته ، وها هم يطاردونه ويقتلونه . كان سريع البديهة والعطب والشعر .

كلما واجهت البحر تغيرت تماماً وتنازلت عن حكمي لعرشه رغم أن بحر أمادرور (حضر موت) كان متوسطياً وأمواجه ليست كبيرة وليست عالية في هذا الشتاء الذي يفترض أن يكون دافئاً ، إلاّ أن حالة البرودة في هذا الصباح تجاوزت الحدود المعقولة . أشعر بها تغرز إبرها في جسدي بكل قوة . ربما كان السبب هو التوقف الفجائي لنشاطي الاعتيادي على الساحل . كان بمثابة الرياضة . كنت أعبر البحر بكامله بنشاط دائم .

فأنا متسمّر في مكاني ، منذ الفجر الأول أنتظر جديداً اسمه سارة . من أجلها غيرت كل شيء . كنت أكره الشنبات فصرت فجأة أستعير شاربي سالفادور دالي ، فقط لأن سارة تحبه و تشتهي أن تراني مثله .

سارة يا سارة . .

يا لالة ، يا ليلة الليالي .

وحدك تملئين البحر والقلب .

سارة يا هواء البحر و يا نجمة طالعة قبالي .

ها هي ذي مرة أخرى تملأ المكان بحنينها و أصدائها و خوفها و أشواقها التي تستعيد أفول من نحب .

"غَرّوا بكْ العَدْيَانْ .

تْغَامْزُوا عليكْ يَا فْلاَنُ .

لاَ خْبَرْ بِالأَمَانْ .

بَاعُوكْ فِي سُوقْ الدّلاَلَة .

إذا بْغَيْتْ تَرْبَحْ وَتْنَالْ .

لاَ تْخَالَطْشِ مَنْ وَالَى" .

و إذا أجبرتك الظروف أن تخالط من والى ، فماذا تفعل ؟ هذه الأغنية تحزنني كثيراً ، كلما سمعتها من فم عيسى الجرموني . من يرددها ؟ هاهي ذي الآن تنبعث من فم رقيق ، ومن صوت غير صوته ، ولكن من قلبه وذاكرته وحنانه . إنه يصل دافئاً إلى هذا البحر المهجور حتى الصيادون ، هذا الصباح ، لم يخرجوا بكثافة كعادتهم . لا يزالون في حداد ، على عادتهم . مقتل الجرموني مسهّم في العمق . هكذا يفعلون ، كلما كان المصاب قريباً منهم . كانوا يعتبرونه واحداً منهم ، بل أكثرهم عناية . في كل مرة كان يتغدّى ويتعشّى وأحياناً يبيت عند أحدهم . أشرطتُهُ في الزمن المنقرض كانت توزع وتباع مثل الخبز الممنوع ، ثم هرب مع الهاربين أو هرّبوه إلى هذا المكان المعزول خوفاً من إعدام محتوم . لا يؤذي أحدا ولا يتكلم مطلقاً سوى عند الغناء .

يقول ، صوتي عزيز عليّ ولا أريده أن يموت في الفراغ أو يتبدّد هباء . وكلما كان الإصرار على سؤاله كبيراً ، يقول : يا بنيّ ، كان زمن وانتهى . يحزنني نوح! لكن عرش البلاد واسع . نوح الله يرحمه في تلك الأرض البعيدة ، كان يحب وطنه و لم يطلب منه شيئا أبدا . القتلة ، اللي ما يحشموش ، جابُوه وقتلوه قدام ربي و عبده .

ثم يخرج ربابته وينكفئ عليها ، ويبدأ في نشيده القديم .

"خْلِيلَكْ يَا مَغْبُونْ" .

مَعَهُمْ كيفَاشْ تْكُونْ" .

من حين لآخر ، أحاول أن أنبهه . عمّي عيسى ؟ هذه أنغام دحمان الحرّاشي ، نسيت و اللى كيفاش ؟ عنده كل شيء يصير ملكه ، عندما يدخل قلبه ويصير جزءاً من أثاثه الثمين . له حنين عجيب تجاه نوح النواح ، المقتول . في البداية ، كنت أنزعج منه ، لكن مع الزمن تعوّدت على صوته وعلى غراباته . في هذا الخلاء لم امتلئ إلاّ به وبصوت البوم التي نظَمت لها مقتلة ذات يوم أنا والزنجية ، وأبدناها عن آخرها . أستمع له بكثير من الألم . لا أستطيع أن أتفاداه حتى في لحظات رفضه ، ومحاولة إقصائه من ذاكرتي . صوته كان مزيجاً من الحنين والبكاء والتمزّق والتردد والرغبة المطلقة في الضياع والتمادي داخل بلاغات الزرقة وأوجاع الربابة التي كانت زاده الوحيد الذي استطاع أن يهرّبه معه . كنزه الذي ينام وهي في أحضانه . يأكل وهي معه . ويكرّر باستمرار .

"هكذا أنا وهي . . إذا ماتَتْ انتهيْتُ وإذا متُّ ذهبتْ معي . . الوحشة ستقتلها ، والفراغ يؤذيها ."

وها هو ذا ينسحب نهائيّاً تاركاً وراءه خلاء موحشاً ودهشة مضمرة في عيون الصيادين .

هؤلاء المقطّعون الذين يكرهونني . أشعر بذلك من خزرتهم ،

خصوصاً بعدما رجعنا من المصفاة القديمة . الأكيد أن ذلك الرجل المجنون الذي هرب مع عبد الرحمن داخل خيط من الضوء أو وسط الظلمة ، يكون قد حكى الصغيرة والكبيرة ، ليصنع لنفسه مجداً استثنائياً .

كلما صعدت الشمس قليلاً ، انسحبتْ البرودة ، ليحُلّ محلّها دفءٌ لذيذٌ على الرمال ، التي أقف عليها ، وأتدحرج أحياناً حافي القدمين . الآن بدأت أقبية ومساكن حفرة حمّام الشمس بأمادرور تظهر بوضوح بعدما كانت مجرد كتل سوداء متداخلة . حتى الشجرة الوحيدة في الساحل التي ينامُ تحتها قبر عيسى الجرموني ، بدأت تهتز وتستيقظ بكثير من الوحدة والخجل . إنها تبدو عالية ، وواضحة داخل هذا القفر الذي يتمادى في الخرافة والخوف . منذ زمن بعيد لم تصفر أبداً . لا صيفاً ولا خريفاً ولا شتاءً ولا ربيعاً . تقاوم كل الظلال الثقيلة ، ولا يمكن أن يصدق سكان أمادرور (حضر موت) أن تصفرّ هذه الشجرة التي يسمّونها "البطمة" . أصلها نبتة مقدسة من الجنة نزلت في حافر آدم عندما دفعت به حواء نحو مهاوي الأرض .

"ياه!! حرام عليك . الآن فقط يا سارة ؟!" .

هاهي ذي تنحدر من وراء الرابية ، محاذية "البطمة" ، بملايتها المتداخلة اللونين الأحمر والأسود . من قال إن الأحمر والأسود لا يندغمان :

Le rouge et le noir, ne s'épouse-t-il pas? Que penses-tu mon cher – Stendal?

سأقولها لسارة بأعلى صوتي مثل الطفل المولع بلعبة مستحيلة . أنت في خاطري أيتها الهبيلة . . J'ai une envie folle de toi عادتي السيئة ، عندما أصير عاشقاً ، يستيقظ ولعي باللغة الأجنبية . قداسة العربية تخيفني . لغةٌ يخيفها الحب و الجسد . الفقيه يقف دائماً وراءها بلجامه وأدوات المنع والترهيب . الذين صنعوا التاريخ ، أدخلوا أوهامهم و وساوسهم حتى على اللغة . الله يسخطهم . بكّشونا! ؟ هذا اليوم على

الأقل أريد أن أكون إنساناً . أن أكون عاشقاً وفارساً صغيراً أمام سارة . فأنا عندما أحبّ ، تسكنني فضاءات نوح وأشواق ديوان البهجة .

عندما وصلتْ ، مددت لها وجهي بارتخاء وحنان كبيرين ، ولكنها وضعت رأسي بين يديها ثم قبّلتني بحرارة كبيرة على شفتي اليابستين من هذا الهواء الصبّاحي . شعرت بدوار لذيذ ، ولكنّي استطعت أن أتماسك من جديد .

ملأت يدها اليمنى بحفنة من رمل الشطّ ونظرت إليّ .

- هل انتظرتني كثيراً ؟!

- منذ الفجر الأوّل ، اللحظة التي تتداخل فيها كل الأشكال إلاّ شكلك فيظل صافيا .

- أنت اليوم شاعر . احذر ؟ الشعر قاتل .

- العكس!! أنا منذ هذا الصباح مُبَكَّشْ . لماذا تأخّرتِ ؟

- في مدينتنا ، هذه هي عادتنا . المحبّ عليه أن ينتظر حبيبته . وهذا هو دليله الذي يمنحه لها .

- إذن تعرفين أني مولع بك .

- أنت قلتَ لي هذا ، وها أنذي قد جئتُ من أجلك .

ثم فتحت كفها وقالت له احفر الرمال وكل الكنوز التي ستجدها فهي لي ؟

- ليكن . غالي و الطلب رخيص .

حفرت الرمال بأظافري . وجدتُ صدفة جميلة منقوشة على شكل قلب ، نحتتها البحر والرياح عبر القرون . لونها آجوري . بها بعض اللمعان .

نزعتها من الرمال ووضعتها داخل كفها الصغير . قُلْتُ :

ـ هذه إحدى منحوتات هذا البحر العظيم ، خذيها فهي لك . هذا هو الكنز الوحيد الذي عثرت عليه .

قالت سارة .

ـ سأضعها داخل قلبي . هي صدفة الصدفة . أنا هكذا دائماً أعمل على المصادفة مثل الحياة تماماً .

ثم فَتَحَتْ قفل فستانها عند الصدر وأدخلتْ الصدفة بين نهديها المضيئين كالشمع ، ونعومة بشرتها الطرية مثل صبية صغيرة لم تمسسها رياح الدنيا أبداً . كان يبدو عليها بعض الحذر وهي تسوي الصدفة بين نهديها النافرين .

سارة مذهلة . جمالها وجد ليكون داخل القُصور وليس داخل هذا الفراغ الأزرق والموحش كمدفنة واسعة . تقول دائماً إنها لا تشعر بندم كبير لوجودها في هذا المكان . فقد تربّت في بحر مدينة الزيت ، ولكن هذا كلّه لا يكفي . هي لا تعرف أنها عندما تشتم الملياني الذي داهم مدينتهم أنها تدين والدي! ؟ أو ربّما تعرف ولا تهتم كثيراً ، لأن الموضوع قد لا يَعْنِيها مطلقاً . وهل أنا يعنيني إلى هذا الحدّ ؟ مالي ومال ربّ الملياني! اللي دارها بيدّيه يفكها بسنيّه . أنا الآن أمام امرأة الدنيا ومجدها .

عندما جاءتني لأوّل مرة لم أكن قد رأيتها من قبل . كانت تُريد الذهاب إلى سفينة الماريكان . راودتها ولكنها رفضت وعادت إلى بيتها ، وفي الأسابيع الموالية وأنا أختبر "الفنانات" اللواتي زاد عددهن لترشيح عشر منهن ، جاءتني من جديد . رأيتها في الصفوف . كانت ملثّمة كعادتها ، لكني عرفتها من عينيها الواسعتين . قلت لها مثلك مكانه القصور وليس هذا القفر . ولكنها أصرّت . أريد سفينة الماريكان . تعبت لإقناعي بجدوى ذهابها ، وتعبت من جدوى إقناعها

بطقوسي وسنني الحميدة . لا يوجد شيء أقسى على رجل من شعوره بأنه لم يعد مرغوباً فيه . وكررتُ عليها بأن جزءاً من وظيفتي هو تفتيش الأجساد الغامضة خوفاً على سكان السفينة ، لكنها كانت ذئبة محترفة ، فقد أدركت منذ اللحظة الأولى أني تعلّقت بها نهائياً ، فرفضتْ وظلّت تكرّر محاولاتها وظللت أكرر حيلي . وذات يوم توسط لها أوسكار بشكل فيه بعض الأمر المبطّن . قال ، يا أخي المرأة قافزة . حوّلها إلى رئيسة للفنانات ، تخفف عليك شؤون المتاعب اليومية . في النهاية نصبّتها (نَصَّبَها هو) ولم أعد أسأل مطلقاً . وغابت داخل السفينة مدة من الزمن . سبع سنوات لم يرها هذا البحر . ونسيتها . لكنها عندما عادت زاد شططي مع الزنجية على الرغم من لطفها و تفهمها . كان من الصعب علي تخبئة ولعي و حبي لسارة .

اليوم ، صرت عندما أراها ، تأخذني رجفة مجنونة من شعرة الرأس إلى أخمص القدم ، وكلما تذكرتها ، أتَذكر معها نوح المقتول الذي يملؤني فجأة فأصير رقيقاً مثل النّسمة . عندما عادت من سفينة الماريكان ، كانت لينة على عكس عادتها السابقة . أمدّ لها يدي . تمدّ يدها . أمسد على وجهها ، لا تمانع ، وعندما تصل إلى غرفة النوم ، أمسح على شعرها الحريري ، تضحك ثم تقهقه .

ـ يا ملكي وحبيبي ، يا روحي . ألم تقل لي بأني لا أصلح إلاّ للقصور ؟ فأين هي القصور التي تمنحها لي ؟ .

ـ قلبي . . . ألا يكفيك ؟

وأفتح قميصي الأبيض عن آخره .

تتغنج و تحرك خاصرتها مثل راقصة تتألم :

ـ آآآه . . . ه . . . قلبك في صدرك وأنا ما زلت في قلعة عسكرية ؟! القلاع تخيفني و تتعبني . أريد مكانا لا يؤذيني فيه أحد و لا تمسسني يد غير أناملك . . .آآآه . . . ه . . . ه . . . ه . . .

في تلك اللحظة التي تنكسر فيها كل الأحلام النَيلية ، أتمنّى أن أخنقها . آه ، لو تركض ساعات السلطان إلى الأمام بأقصى سرعة ممكنة سأضعها نهائياً داخل فراش الملكية و أعريها عن آخرها و أسفدها مثنى و ثُلاث و رُباع و . . . و هل بقيت لي الصحة و الطاقة لفعل ذلك ؟ ثم أتراجع لأدرك متأخراً أن هناك نساء استثنائيات ، لا يمكن أن يستهلكن بسرعة . سارة إحداهن . أكبرها بنصف العمر تماماً . هذه الرياضة التي كرهتها ساعدتني منذ خمسين سنة على الحفاظ على استقامة جسدي . أكثر من ثلثي هذا العمر المنهك استهلكته وأنا أحاول إقناع البحر بحقي في الحياة والسلطان ، لكنه لا يزال أطرش كقطعة نحاس .

قلت لها في ذلك الصبّاح وأنا أحاول أن أبرم شلاغمي الجديدة التي تركتها تنبت من أجلها مثل سلفادور دالي .

- ما أجملك يا سارة . أنت خلقت للبحر والهواء والرمال .

- والقصور يا ملكي العزيز .

قالتها في شكل غمزة ساخرة .

- وَلِمَ لا يا قرة العين إذا كانت الدنيا لنا ؟

قلتها بثقة و أنا أبرم شلاغمي من جديد .

في الحقيقة تركت الشنبات تكبر إرضاءً لها . أرتْني ذات مرة صورة الرسام سلفادور دالي وقالت أريدك أن تكون مثله . إنه يسحرني . في البداية ضحكت من شكل الرجل بجدية . قلت لها وعلاه داير في روحو حاله ؟ شلاغم غريللو! في ذلك الزمن الذي صار اليوم بعيدا ، هكذا كنا نسمي في الجملكية كل من كان يترك شنباته تكبر . وبعدها قلت في خاطري ، سارة تحبّ هذا المجنون ، لِمَ لا يكون لها ، ما تريد . شلاغم طويلة وشبه معقوفة عند الرأس . من شابه فنّاناً عظيماً مثل سلفادور دالي ما ظلم ؟ جاءت مسكونة بهذه الحالة منذ أن عادت من سفينة الماريكان وهي محمّلة بهدايا لا تحصى ، التي تركتها عندي

كلها في القلعة مع أنّي لم أطلبها منها مطلقاً مثلما أفعل مع الأخريات سوى لوحة "غالا تقطف الفجر" لدالي لأتأمّل جيداً شنباته المتميّزة بهدف تقليدها . جاءت بها في الصباح الموالي وهي تصرّ على ضرورة تعليقها على حائط غرفة النوم ، هناك مكانها الطبيعي .

ـ عليك أن تحبّ الفن يا رجلي السعيد لتصل إلى قلبي . أنا مهبولة بالألوان ، مثلك .

وكلما تأملت اللوحة المعلقة مقابل سريري لا أرى شيئاً سوى جسد غالا الممتلىء بالفرح والنّور والألوان الشمسية المنكسرة على بشرتها اللاّمعة . صورتها كانت مدهشة بشعرها الذهبي وهي عارية أمام الصيادين المنهمكين في تصليح شباكهم . كانت تندفع بخزرتها إلى الأمام باتجاه أفق لا شيء فيه سوى البحر ، تقف باستقامة وهي تعطي ظهرها الجميل للدنيا مع اعوجاج خفيف في علياء ظهرها ، الذي يعطي لجسدها حركة غير اعتيادية . مع اللوحة ، تركت لي صورته التي صرت مع الزمن مولعاً بها حتى أصبحت شنباته جزءاً منّي واقتراحها في قلبي وفي دمي . وها هي ذي الشنبات قد أصبحت طويلة مثل أجدادها الأتراك ، معقوفة عند الرأسين . حتى الزنجية ، عندما رأتني أبرمُهما بالزيت ليحافظا على انكسارهما العلوي ، ضحكت طويلاً وهي تضرب على ركبتيْها وتصرخ :

ـ واش درت في روحك يا ولد الناس! ؟ هبلت و إلا واش بك ؟

ـ ما تعرفي والو في الفن . أنا أشبه هذا الرجل .

و أريتها صورة سالفادور دالي . لم تتوقف عن الضحك و لكن هستيريتها زادت أكثر . لكنها مع الزمن تعودت عليّ . انقلبت الأدوار . أصبحت سارة هي التي تقترح عليّ وتتوسط لي . معارفها صاروا لا يحصون . قالت واش رايك لو كان تسافر معي شي مرّة مع الفنانات ؟ ضحكت في أعماقي . امرأة صادرتها طويلاً في حقّها في السفر ، تضع أمامي الآن أشواقها وتفرش لي جنتها ؟!

الدنيا هكذا ، مزاجية جدا ، تلعب مع من تشتهي .

قلت .

ـ أنا ما ذَابِيَ . انتظري حتى يؤذن لي .

ـ مسألة أتركها عليّ ، أنا أعرف من أين أقنعهم .

معارفها كانت واسعة . تجاوزت هذا القفر الملعون . بدأت أشعر أنها وسيلتي القريبة في السلطان . وعندما أخبرت أوسكار بالمقترح قال :

ـ هذه من حقك يا نوح الصغير . فرصة لتتعرّف على السفينة وأجوائها . لا أحد يعرف جو السفينة مثل سارة .

وذات سبت من الأسبات ، إذ لا تسافر إلا في هذا اليوم ، قطعنا البحر نحن وعشر فنانات باتجاه سفينة الماريكان . كنت أشعر بفخر كبير وأنا مع سارة التي نست كل حماقاتي وأخذتني كما أنا لأرى الناس الذين يسمعون بي ولم يروني . كانت الرحلة شاقة بعض الشيء نظراً لصغر الزورق ، ولكن المهمّ هو أننا وصلنا بخير . في الحقيقة كل رحلة بحرية أو فضائية هي مغامرة ، وها هي ذي المغامرة تنتهي بسلام .

عند سَلم سفينة الماريكان ، تعلقت في ذراعي كزوجة ونحن نعبر بهو السفينة المركزي مع أحد المرافقين تحت رقابة عسكرية مشددة . قدّمتني لكبار الضباط على أساس أني أعزّ أحبابها . كانت جد نشيطة و كأنها سيدة الشأن . الجميع يعرفونها و الجميع يحاولون التقرب منها . تداعب هذا و تعتذر من ذاك و تستجيب لذاك الضابط الكبير بأن تأخذ لقمرته "فنانة" من "الفنانات" اللواتي جلبتهن معها ، ثم تعود وهي توزّع الابتسامات في كل الجهات ، وتحاول أن تدقّ على قمرة أخرى وهي تهمس :

" نسرين خلاص . . . قومَية . ما راحش تباتي عنده و إلا عليه أن يدفع أكثر . ما يعجبكش الحال ."

" علجية . . . يا الله يا لالّه . . إذا يحب يدْخُل معك مرة أخرى ، يخرج يخلّص ويدخل . ما تساعفيش ، العسكر واعرين . "

" عيشة! حنونتي . أحرزي تكوني طحت فيه ؟! . . . أنت صغيرة ودمك سخون . . " .

" فطومة أنت محترفة و لست هاوية . أنت هنا باش تشبعيه مش باش يشبعك . . . أخرجي رَاكِ مع شاوي ماريكاني ؟" .

وتظل من قمرة لقمرة تُدْخِلُ هذا وتخرج وتبتسم لهذا وتكشر لذاك . الإقامة في هذه السفينة مدة طويلة ساعدتها على معرفة الوجوه والتفاصيل . تتحرّك كأنها صاحبة الشأن والبيت . هم يعرفونها من صغيرهم لكبيرهم . يضحكون لها طويلاً ، بل يُدَلِلُونَها بشكل فاضح . بدأت أتأكّد شيئاً فشيئاً أنها كانت أهم مما كنت أتصور . لُغتها الإنجليزية التي تتكلّمها بشكل جيّد ، ساعدتها كثيراً على الوصول وتأدية مهامّها الترفيهية بسهولة . لأوّل مرة أكتشف طلاقتها في الحديث وقدرتها على التكلّم بثلاث لغات إضافة إلى اللغة العربية التي أفهمها . أدهشتني عندما تكلمت مع أحدهم على ظهر السفينة بلغة مرتبكة . سألتها : ما هذه اللغة ؟ ؟ عربية مهجنة ؟ ضحكتْ حتى انغمست عيناها في دمعات عديدة . قالت : يا السي نوح . . هذه يقولون لها العبرية . . لغة أبناء عمومتكم . ثم انسحبت ولم تكلّف نفسها المزيد من الشرح إذ أنها تركتني مع أحد البحارين . رَاحَتْ باتجاه أحد الضباط الذي مدّ يده نحوها . انقادت له بهدوء ، وَلم تمانع . راقصته مدة من الزمن على وقع سريع ثم بطيء تواطأ فيه الجسدان . يجب الاعتراف أنها راقصة وفنانة حقيقية . راقصت الفرنسيين التويست والطانغو ، راقصت الأمريكيين الروك ، والإنجليز الزوك ماشين وهي الآن تنام بشعرها الحريري على صدر الضابط الكبير ، اليد في اليد ، الجسدان ملتصقان بشكل محموم وقنينة الوسكي صارت فارغة مثل قشرة حلزونة . تدحرج الضابط قليلاً ثم وقف باستقامة . نظر إليها ، قرأت أشواقه .

هي هنا من أجل هذا . ثم دخلا القمرة . بقيتُ هناك أكثر من ساعة ، وعندما خرجت كانت محزّمة بحزام ذهبي ، تضع على عنقها كوفية من الفرو الأبيض . كانت جميلة . جنّة هاربة من جنتها . عندما انتهى حفل الرقص وتفرق الجمع ودّعتني ثم ذهبت لتنام لا أدري أين ؟ لم أكن أملك أي حقّ تجاهها سوى قلبي . فقد كانت سيدة الفولكا . قضّيت اليوم الموالي بكامله على ظهر السفينة الحربية ولم أرها إلاّ في المساء عندما غادرت إحدى القمرات وحدها .

وعندما عدنا إلى القلعة ، "الفنانات" ذهبن إلى بيوتهن محملات بالهدايا ، أمّا هي فقد كانت تحتضن يدي بكل حرارة لأول مرة . من حين لآخر تشرد نحو البحر أو نحو أفق مجهول . دخلنا القلعة . وضعت على السرير مكاسب الليلة الماضية . أكثر من ألفي دولار ، لوحات أخرى لدالي ، بعض الكتب والحلي الذهبية والفضية وألبسة وأغطية . حصاد العشق يا حنوني ، قالتها وهي تداعب شعري . عينا الزنجية ظلتا مشدوهتين . لم تكن تفهم ما كان يحدث ؟ رجوت سارة ، أن تبقى ولكنها رفضت وأحنتْ رأسها باكتئاب . استغربت لترددها . من امرأة لعوب إلى امرأة حزينة ، تنكسر في عينيها بعض الدّمعات الخجولة ولم أصرّ كثيراً . قبل أن تخرج قالت :

- اليوم نخليك مع الكحلوشة ديالك و غدوا ربي يجيب الخير . سأراك فجر الغد .

كانت الزنجية قد أخلت المكان .

لم أعد أفرق بين جديتها و سخريتها .

شعرت بالفجر يزداد بعدا . كل شيء كان يمر ثقيلا .

ولم تأت إلاّ عندما أشرقت الشمس . المهم أنها أتت . لم تكن حزينة مثلما كانت ليلة البارحة . منشرحة هادئة وجميلة مثل اللعبة . هي ذي سارة الحقيقية ، تتحول إلى نسمة دافئة مثل شمس صباحية نادرة .

يحدث معي أنا كذلك أن أصاب بحالة مغص وحزن . لكن هذه المرة أشعر بالرغبة الكبيرة لنسيان كل الأحزان وكل الخوف الذي يحيط بي بكثافة . صحيح أنّي من سلالة الملوك والأمراء والأخيار والمختارين . (أحياناً عندما يَدْهَمُني الخوف أقول طزَ في كل شيء ، ما معنى أن تكون من الأخيار وتنتظر نصف قرن حقّك في الحكم والسلطان) لكن عليّ أن أعمّر قلبي بالإيمان . إيمان الحصول على جسدها ذات يوم . القلق ليس جيداً . عليّ أن أبقى كبيراً واستثنائياً في وجهها . سأحكم هذه الدنيا ولو يوماً واحداً ، وبعدها لتأت كل القيامات دفعة واحدة ، فلست أهتمّ مطلقاً . هذه المرأة حارة وعليّ أن أكون في مستوى غراباتها . في الليلة الماضية اقتحمت عليّ أحلامي بشكل فُجائي . في الحقيقة ظلت في حلقي ، على رأس لساني مثل الطعم الحار . جاءتني حتى خلتها بلحمها ودمها . كانت مذهلة ومشرقة مثل خيط نور صباحي . مددت يدي نحوها ، كانت مثل الكرة الملتهبة . عندما انغمست في جسدها بدأت تتأوّه و تصرخ بأعلى صوتها . أقسم إنها كانت تتأوّه بدون حد و لا تتوقف أبدا عن الهز و الصعود و النزول . سواد عينيها يندفن داخل البياض . . .آ آآه . . . ه . . . واوووو . . . أرجوك لا تتوقف ، أنت سلطاني ، ملكي ، حبيبي ، أنت أحسنهم جميعا . أفضلهم . أبلغهم . أكثرهم سطوة وجاهاً . ألذّهم . أدفَؤُهم . أكثرهم قوة و صلابة و . . .

ثم . . . فجأة انطفأت .

وفي الصباح الباكر ؟! هذا الصباح الملعون والجميل وجدت نفسي ممتلئاً بالمني وثيابي غاطسة . حالة من الاحتلامات تراودني منذ أن رأيتها للمرة الأولى . الله عندما يحب عبيده ، يختبرهم في الحياة الدنيا . وعندما يصبرون بشكل كافٍ يوفّر لهم فرصة الاحتلام ويعيشون الحالة وكأنها حقيقة . ظللت أتساءل طوال الفجر والصباح إذا كانت هذه المرأة النادرة تتجاوب مع كل عشاقها بالطريقة نفسها ، إذ بمجرّد لمسها تتأوّه من شعرة رأسها إلى سرتها إلى أخمص قدمها .

كلما اقتربت منها أو تذكرتها على امتدادات هذا الساحل ، شعرت بديوان البهجة يملؤني ويقتحم علي بعنف ذاكرتي .

مشت قليلاً ثم رجعت مثل الذي يكتشف وجهاً عزيزاً فجأة . وضعت رأسي بين يديها مرة أخرى ثم قبلتني في جبهتي . شعرت بدفء شفتيها .

ـ أتعرف كم أحبك أيها الرجل الوحيد ؟

ـ ياه! بعد كلّ هذا الزمن وبعد وحدة نصف قرن قاتلة ، تأتين هكذا دفعة واحدة ؟ أين كُنْتِ قبل كل هذا الزمن ؟

ثم فجأة ركضت نحو البحر بسرعة . التفتت نحوي . نزعت ثيابها بسهولة كبيرة . بان جسدها مصقولاً بكلّ جماله وفرادته . اقتربت منها أكثر . لامستها . نهداها يفيضان على صدرها باستقامة . يبدوان كقمرين مضيئين . تعمّق لون بشرتها تحت ظل الغيمة التي مرت بسرعة . قامتها شعرت بها منغرسة في عمق البحر كشعاع ضائع داخل قفر مظلم . كان قلبي قد بدأ ينفتح على أشواق البحر . في لحظة الخلوة تساءلت ، هل سيأتي يوم أملك فيه هذه التفاصيل ؟ حركاتها داخل الماء كانت متناسقة بشكل يدعو البحر إلى الغيرة منها . كانت تغوص شيئاً فشيئاً داخل الزرقة حتى صارت جزءاً منها . كنت أريد أن أشق مسافات البحر كلها بحثاً عن اقتراب منها ، لكن الدنيا لم تكن هي الدنيا . عُمْرُهَا الفتي سرق مني الزرقة والبحر . أنا لا أحب كثيراً ماءه لكن زرقته تسحرني في لحظات القفر والوحدة .

هذا البحر سيد داخلي ومرمى عيوني .

هذا اللون يملأ قلبي ويديَّ . هكذا كان يقول الرجل المسكون به في ديوان البهجة ، أو ديوان الخطايا ، كما كان يسميه فقهاء المليانى ، الذين كان ينعتهم هو باسم : فقهاء الظلام والخرابات الكبيرة .

كان جسدها يَغيب ويَغيب حتى صار نقطة صغيرة في أفق مقوس

أزرق وبدون نهاية . قلت في خاطري ، ماذا لو تصرخ ، أنقذني يا نوح ؟! سأفعلها ، وحق ربي نديرها . سأرمي بنفسي في عمقه ، وإذا تعبت في وسط المسافة سأقاوم ، وعندما أعجز ليكن ، سأترك نفسي أنزل إلى الأعماق ، لتقول بعدها : هذاك رجل صح! كان يحبّني . ولكن هل ستحافظ في قلبها على ذكراي ؟ مع المرأة أشكّ كثيراً . السادة الأوائل قالوا عنها الكثير في مثل هذه الأمور وقالوا إن ذاكرتها بين يديها ، ترميها صوب البحر متى شاءت والرجل ذاكرته في قلبه إذا أراد أن يرميها فعليه أن يلقي بنفسه أولا .

يا أخي مالي ومال هذا الظلام المقرف ؟! ها هي ذي تأتي وتعود بسرعة باتجاه الشط . لا أسمع إلاّ تكسر الموج وتمزيق سارة لهدوء البحر بذراعيها وساقيها الممتلئين . كانت تقترب أكثر فأكثر . ركضت فجأة باتجاه الحصان الأبيض . سَحَبَتْ من على ظهره فوطتي الطويلة . عندما اقتربت ، وقفت أمامي ككائن من ماء ونور . تلألأت على جسدها المزيّت البلّوري قطرات من ماء ظلّت عالقة ولم تنكسر . وضعت رأس الفوطة على جانب من خِصْرها . شعرت بقشعريرة في جسدي . لم تقل شيئاً . قلت لها دوري . . دوري يا دوّارة . . دوري مثلما كان يقول نوح المقتول لمنسيته . .

دوري يا دوارة دوري .

وأغمسي الجسد في النور ،

صرت ضالا و ضائعا .

جسدي بارد ، لم يعد قادرا على الاحتماء بك . . .

وظلت تدور ونصفها السفلي يغرق داخل الفوطة الزرقاء حتى اندفن نهائياً . كنت أتأمّل جسدها وهو يغيب ويغيب . قالت وهي تمسح وجهها بيديها .

ـ كل هذا الشعر فيك يا نوح ؟

ـ أنت التي فيّ ، أنت التي في دمي وذاكرتي .

لا أدري إذا كنت أنا المتكلّم أم ديوان الخطايا كما سمّاه فقهاء والدي . شعرت بشجاعة نادرة لم آلفها من قبل ؟ أي قبل وأنا لم أعرف امرأة أخرى سوى الزنجية أو الأجساد التي كانت متعتها مشتراة ؟ لم أعرف جسداً آخر يُعطي بسخاء ، غير جسد الزنجية . لم أشم رائحة امرأة أخرى سوى رائحة عرقها .

مددت يدي نحو خصرها . لم تقل شيئاً . شعرت بها ترتَخِي بوضاءة وتنأى وتغيب داخل الفضاءات المطلقة . حملتها ووضعتها على الحصان الأبيض ، ثم بدأت أعبر امتدادات الساحل .

ابتسمت بإشراق لم آلفه من قبل .

ـ أتحبني إلى هذا الحدّ يا نوحي الصغير ؟

ـ سارة نادرة مثل النجمة . إذا سقطت ، انتفت معها الألوان ولغة البحر .

ـ كل هذا الكلام الجميل ، هل تقوله لجميع النساء أم لي فقط ؟

ـ منذ تعلّمته من ديوان الخطايا (البهجة) لم أقله . كنت مبكشا قبل مجيئك لا أكلم إلا نفسي كالمجنون .

ـ ديوان الخطايا ؟

ـ لرجل لا أعلم إذا كنت سأكرهه أم سأحبّه ، فقد فتح عيني على كل السحب الهاربة وحوّل بلمسته السحرية العادي إلى استثنائي . آه يا سارة لو تعلمين كم أريدك لي وحدي وكم أشتهيك .

ـ أنت أناني يا نوحي الصغير .

ـ الشعر هو الأناني . عندما أمتلئ بإنسان أريد أن أملكه عن آخره . أن يصير شعري ولغتي و لحمي .

- هل تستطيع أن تقبلني إذا كنت بالأنانية نفسها .

- . . . .

- أنا كذلك مثل الشعر ولست مثل زوجة جدّي إبراهيم .

- جدّك إبراهيم ؟

- هه . . . اسمع هذه الحكاية . سارة التي سمّيت عليها كانت تحب إبراهيم ، مَكَثَتْ معه دهراً لا ترزق ولداً . فلما رأت ذلك ، وهبت له (لإبراهيم) أَمَتَها القبطية هاجر فولدت له إسماعيل ، فغارت من ذلك سارة وعتبت على هاجر فحلفت لتقطعنّ عضواً من أعضائها ، فقال لها إبراهيم ، فهل لك أن تبري بيمينك ؟ قالت كيف أصنع ؟ قال أثقبي أذنيها وخصّفيها والخصف هو الخياطة . ففعلت ذلك بها فوضعت في أذني هاجر قرطين فازدادت حسناً فقالت سارة إني إنّما زدتها جمالاً ، ووجد إبراهيم وجدا فنقلها إلى مكّة وكان يزورها في كل وقت من الشام لشغفه بها وقلّة صبره عنها . . .

- الدرس من وراء هذه الحكاية ؟

- سؤالك أقلّ من نباهتك يا ولد الناس . أنا سارة ولست سارة إبراهيم . كل امرأة تفصل بيني وبين معشوقي أبيدها .

قالتها بعنف و بدون تردد .

- ما عاش من يفصل بيني وبينك .

- من قلبك!

- من كل ذرّة حية فيّ .

- أعتبره وعداً مفصولاً .

- أعتبريه كلاماً مقضيا .

أنت مثلي يا سارة . ومثلنا الشعر والكلمات والبحر والألوان النادرة .

الله يرحم نوح . ملأنا بالكلمات المضيئة والعاشقة ثم سافر . كلما شعرت بالمرأة والوحدة ، اعتقلتني لغته . هل هو فيّ وأنا لا أعلم . مثل القنبلة الموقوتة التي ستنفجر ذات حزن . الغريب أني منذ أكثر من خمسين سنة وأنا أقرأ ديوان الخطايا ، حتى في لحظات المنع ، بدون القدرة على التخلّص من سحره . الزنجية كانت طيبة ، شروطها لم تكن كبيرة . أختبئ بين فخذيها مقابل قراءتها لشعر نوح المقتول .

فجأة اندفعت الزنجية فيّ بقوة . تذكرت وعدي . قَرَأَتْ سارة كل شيء في عيني المنكسرتين .

- واش بك ؟ هل تذكرت الزنجية ؟

- هل تريدينني أن أكذب عليك ؟

لم تتكلّم . شعرت بالحرارة تصعد من جسدها وبقطرات البّلور تذوب وتنكسر في شكل خيوط مائية ممزوجة بالعرق . في لحظة من اللحظات عاودتني الحماقات الكبرى التي يمكن أن تعبر الإنسان في لحظات الإخفاق والتجلّي . وماذا كان يمكن أن أقول لها . عيونها تقرأ ما يوجد داخل الخفايا . هذه المرأة ليست عادية . هي الوحيدة التي تأخذني الرعشة في حضرتها . وطأتْنِي بعينيها وبجسدها ولم أستطع أن أفعل شيئاً مهمّاً معها .

فجأة قلت ليكن . لنغير هذا الإحساس المرتبك . سهل علينا أن نكون شعراء . اللغة تنصاع أمام الزرقة ، والصمت يتهاوى . قُلْتُ :

- خلّينا يا سارة من الحزن . اسمعي هذه الكلمات النادرة . كان الرجل المقتول ، صاحب ديوان الخطايا يقولها ويعشقها :

أيها العابرون نحو بلاد النسيان والقيامة ،

أعبروني قبل أن تموت الكلمات واللغة .

أيها العابرون نحو الأضواء والحنين ،

أضيئوا قلبي واذهبوا .

اتركوا لي ما تبقى من رذاذات المطر ،

وبعض الزرقة الهاربة .

أيها العابرون نحو بلاد عابرة ،

سلاماً لكم داخل ذاكرتي ،

سلاماً على بلاد صارت من حجر .

سلاماً جوهرة الروح والجسد .

سلاماً أيها البحر في وحدتك المهولة .

سلاماً . . سلاماً . . أيتها الهبيلة .

سلاماً أيتها الموجة الضّليلة .

سلاماً . . سلاماً . . سلاماً . .

كان شيء يشبه الانتشاء يفيضُ في عمق عينيها . شعرت بالدغدغة تملأ داخلها . في أعماق كل إنسان شيء من الضعف أمام الشعر ، حتى ولو كان أكبر طاغية .

كنا نعبر الشاطئ الممتدّ ، في هذا الصباح الذي كانت شمسه قد بدأت تصعد بسرعة غير اعتيادية ، حافي القدمين ، اسحب ورائي الحصان الأبيض وهي عليه كحفنة من نور . كان الرمل والبحر والسماء فارغين إلاّ منا ومن بعض الوجوه التي لم تكن تعمل أي شيء سوى تأمّل الزرقة ، إذ منذ أن مات عيسى الجرموني لم ينزل من الصيادين إلاّ القلّة القليلة . كنت أقرأ في عيون الحاضرين المتمددين على الساحل شيئاً من

الدهشة والحسد . كيف استطاع هذا المجنون الذي يسحب وراءه عصا البانبو وأشواقه أن يقنع هذه اللبوءة بمشروعه ؟ حصان أبيض وامرأة جميلة كأنها من عرائس البحر . لا بدّ أن يكون لهذا المجنون حَظٌ كبير!

عندما انتهيت من عبور الشاطئ بكامله شعرت ، بإغفاءتها الجميلة وبأشياء فيَّ تغير مواقعها وشؤونها . أردت أن أوقظها ولكنّي عدلت عن الفكرة الأولى . ولا شعورياً بدأت أصعد باتجاه القلعة المسيَّجة بالأسلاك الشائكة والمحروسة برجل لا يعرف سوى تفرّس الوجوه والحركات . أبكم أصمّ ثقيل مثل الصخرة وأطرش مثل النّحاس .

أنزلتها من على ظهر الحصان بعد أن أخذتها من جديد من خِصْرها الرقيق . كانت عيناها شبه مغمضتين . حاولت أن أفكك دهشتها وعنفوانها .

ـ أنت تعرفين . المكان لا يليق بملكة مثلك ولكنه الموجود . الله غالب .

ـ الله مغلوب على أمره دائما فكيف يكون غالبا ؟

ابتسمت ثم وَضَعَتْ أصابعها على فمي . كانت قد بدأت تتفرس المكان بعينيها اللتين كانتا تحاولان أن تتفتحا على بياض المكان . سحبتها من يدها ودخلنا أكثر في عمق القلعة باتجاه غرفة نومي . اتّجَهَتْ مباشرة نحو الربيعة . فَتَحَتْها . أَخَذَتْ غليون الكيف وكأنها صاحبة البيت ثم تركت الفوطة تنحدر بهدوء عند ركبتيها لتتخلّص منها نهائياً برجليها . كان الدخان قد بدأ يملأ عينيها وفمها . اقتربت مني أكثر . مددت يدي نحوها من جديد . لامست جسدها . شعرت بالأشياء تدور وتغير أشكالها وبالأشواق تنزلق دفعة واحدة من ذاكرتي . يالله! هل هناك شيء أكثر أَنانية من الشعر ؟ قبلتني . نفخت فيّ شيئاً من روحها . شعرت بدخان الغليون يدخل إلى القلب مباشرة . أردت أن أغلق الباب ، غمزتني بعينيها أن أتركه مشرعاً على هواء البحر .

كانت شفتاها القرمزيتان الممتلئتان بالورد ، تنفتحان وتنغلقان بهدوء على كمّ من دخان الكيف الذي كان يزداد كثافةً في كل مرّة . بدأت دوخة الكيف تأخذني . شعرت بنفسي أتشتّت وأتحوّل إلى ذرّات صغيرة صغيرة جداً ، لكن ذلك كله لم يمنعني من سماع صوت الزنجية وهي تستفهم كعادتها .

ـ هل يحتاج سيدي شيئاً ؟

ـ اسحبي الباب وراءك فقط .

انطفأت الزنجية فجأة بينما ارتسمت ابتسامة مرتخية في عيني سارة . اقتربت منّي بهدوء كبير أكثر فأكثر حتى التصقت بي ، بقوة جذبتني إليها باتجاه الزاوية ، شيء ما فيّ كان مثل القطن والضباب والفراغ . شعرت بقوة جديدة تأتيني من إحدى موجات البحر المتكسرة على الجزء السفلي من الشاطئ الصخري . رفعت سارة رجلها اليمنى ، طاوعتني أكثر فأكثر حتى وصلت إلى صدري . لَمَسْتُ استدارة ساقيها الممتلئتين الطويلتين . كان الموت يتهاوى داخل ما يحدث في عمق جسدي ، بعنف ولذّة . فجأة بدأ الدفء يملؤني وحرارة ما تغزوني وتدخلني الغيمة المذهلة . رأيتها وأنا أمسكها خوفاً من أن تهرب منّي . كل تلك القوة تحولت إلى نسمة منكسرة . تَأَوَّهَتْ باستدامة وهي تعضَ على شفتها السفلى التي احمرت أكثر فأكثر . بدأت اقتحمها وأدخلها مثل اللغة المستعصية ، مثل الأبجديات المستحيلة . كنت كمن كان يرتكب معصيات الدنيا كلّها وفوجئ في النهاية بالزبانية يقودونه نحو قيامات كانُوا يحسدونَه عليها . تأوّهت مرّة أخرى مثلما رأيتها لأول مرة في استخلاماتي . . .آآآه . . . ه . . . .واوووو . . .أرجوك لا تتوقف ، أنت سلطاني ، ملكي ، حبيبي ، أنت أحسنهم جميعا . أفضلهم . أبلغهم . أكثرهم سطوة وجاهاً . ألذّهم . أدفؤُهم . أكثرهم قوة و صلابة و . . .

ـ ما ألذّك يا أميري الضائع . . .هكذا . . . أكثر . . . أدخل . . .

يوووه . . . ه. . . . ه. . . .

واصلت اندفاعي نحوها ، ولأوّل مرّة أكتشف قدراً كبيراً من الحميمية في أعماقي . كانت تقبض عليَ برجليها بكل قوة . أحْسَسْت بامتدادات جسدها وبانصقالاته . سحبتها باتجاه صدري لتدخلني حتى الدّهشة والغيبوبة . في لحظة هاربة تأملت عينيها ، كانتا قد بدأتا تغرقان في زرقة الضباب الساحلي ، وبدأنا نتهاوى باتجاه عمق وردي حتى انكفأنا على ظهرينا ، فتمددت بجانبي وهي تتأمّل خطوط السقف وانشقاقات الحيطان بدون أن تنطق بكلمة واحدة ، بينما عادت إحدى يديها لتقبض على الغليون وتضعه مرة في فمها و أخرى في فمي . كنت أشعر بأصابعها وهي تدب على صدري وعلى جسدي ، وبظلال جسدها تملؤني ، ثم أغمضت عينيها وسحبتني باتجاهها بقوة خوف الضياع والافتقاد . بدأت الغيمة الزرقاء تجتاحني من جديد ، وبدأت أغفو وأغرق أغفو وأغرق أغفو وأغرق داخل الدّهشة واللّذة ، حتى أنّي لم أعد أرى سوى البحر والمويجات المتكسرة عند باب الغرفة المشرّع على النور ورائحة جسدها المعمّد بالرّغْوة البحرية والغيم ورائحة الصدف النادر وألوان الكوراي الآجورية .

كنت أنزل واندثر نحو أعماق العذوبة .

* * *

- IV -

"مَنْ عَلَّمني ، كيف أقطف حرف الجنة ،
مِنْ وهم الجسد العالق بالقلب ؟
مَنْ علّمني كيف أعشق ظلمة المحنة .
مَنْ علّمني كيف أدخل ريح الأنين ،
على شعاع منسي ،
في قلب لا يموت . . ." .
ـ من علّمني كل هذا الخراب الجميل! ؟ .

لا أدري ماذا حدث لي ؟ أشياء كثيرة تخربت في الأعماق ، وأخرى خرجت من عمق هذه الخرابات المتلفة . منذ أكثر من أسبوع وأنا مع "ديوان البهجة" أو "ديوان الخطايا" . أية خطايا سوى خطيئة الحب والدخول إلى القلب بدون استئذان . لا أدري ما الذي أرجعني إليه سوى هذا الحضور المبهم لسارة وللفراغات الزرقاء المحيطة بها . مع هذه المهبولة ، لم أجد مطلقاً أية راحة نفسية . فرضت عليّ نفسها حتى أصبحت لا أقوم إلاّ على وجهها ولا أستيقظ إلاّ عليه . كتاب نوح لا

يدخلني إلا إلى مزيد من الدَّهاليز الغميقة التي تؤذيني وتسحبني من عمق حلمي الأساسي . هل سأكون حاكماً ، حالماً ؟! هل سأدير شؤون البلاد بعينيها الواسعتين وبجسدها المصقول مثل تمثال يوناني ؟ هل سأصاب بداء "ديوان الخطايا" ؟! "ومخطوط الشرق" و"كتاب المدينة" ؟ أم سأمتلئ "بكتاب الأمة" الذي كتبه مؤرخ جدي الأوّل شهريار بن المقتدر ، قبل أن يلحس فرج دنيا زاد ويولدها قمر الزمان ، وكتاب السُّنَّةِ والشريعة والنصل المعقوف و "جريدة الكبائر" . أخاف أن أغرق داخل وَهْمٍ جديد أنا في غنى عنه على الأقل في هذه اللحظات الحرجة من أحلامي . المصيبة أني ، كلما اقتربت من هذه المرأة ، أشعر أني أزداد اقتراباً من الجنّة . تنغلق الدنيا في عيني وتنفتح من جديد داخل قلبها وذاكرتها . كنت دائماً وأنا أقرأ كتاب البهجة (ديوان الخطايا) وكتابات بسمارك ، وغاريبالدي ، وكفاحي لهتلر ، أتأكد ، أن العظمة وحدها تصنع مجداً ، لكنّي أحزن كثيراً عندما أستحضر تلاشيهم المؤذي . وكلما داخلني هوس عيون الصيادين التي تضطهدني أحياناً بسخريتها المملوءة بالرداءة والبذاءة والحقد . أوسكار أخبرته عن ذلك . قال لا يهمّ . أنت لن تخلد في هذا المكان . هي مرحلة ثم نرحل جميعاً من هذا الفراغ الذي بَنَاكَ وصنعك . تحمّلهم . فهم متشابهون ، لا يخيفون إلاّ أنفسهم . و عندما يعود لي صفائي ، أتساءل إذا كان يمكن لرجل ، هو وليد هذا الخليط من البهجة وكتاب المدينة ، وكتاب الأمّة والمؤرخين ، وكتاب الدّواوين وأحقاد المليانى ، وسذاجة نوح المقتول ، أن يُقْدِمَ على ارتكاب معصية القتل . هذه المرة أصبحت أفكر بجدية في القتل . من أجل سارة ، سأمسح الدنيا وملامح المدينة . أهدّ البنايات وأسرق الهواء اليومي . تملؤني ، وغيابها يمكن أن يحوّل الموت بين يديّ إلى شيء أكثر من الاعتيادي . قالت لي بعد لي بعد الرعشة الثالثة في القلعة .

ـ هل تحبني يا ملكي وتاجي ؟

ـ وأكثر .

ـ يعني ، هل تقتل من أجلي ؟

ـ أقتل خالقي ، إذا دعا الأمر إلى ذلك .

ـ أقتلها إذن . الزنجية . إنها تعرف أكثر من اللاّزم .

تناهت إلى ذاكرتي كلمات أوسكار . إنها تحكي بلغته نفسها . هو نفسه لَمّح إلى ذلك عندما قال ، إن الناس الذين نعاشرهمْ ويعرفون عنّا الكثير ، يجب تفاديهم .

ـ أنت عظيمة يا سارة وهي غير مهمة بالنسبة لي . صارت مثل أمي . علاقتنا لم تعد سرية .

ـ أنا نفسي كنت أريدها أن تعرف تفاصيلها ، لكن ذلك كله غير كافٍ . أريدك لي وحدي .

ـ أنا لك .

ـ لا . أنت لنا .

تذكّرت غمزتها ، بأن أترك الباب مشرعاً ، حتى ترانا الزنجية . إذن لم تكن غائبة عن وعيها . صحيح أنّ الزطلة غيبتها قليلاً وظلّت ممتلئة باللحظة ، لكنها لم تضيّع شيئاً من مشاهداتها .

" أقتلها إذن . الزنجية . إنها تعرف أكثر من اللاّزم " .

عندما سمعت لأول مرة هذا الكلام ، لم أصدق الأمر مطلقاً ، ظننتها مجرد نزوة امرأة عاشقة من رأسها حتى قدمها . لكنَّ إصرارها حوّله إلى حقيقة بدأت تأكلني من الداخل . لم أكن أعلم أن الموضوع مهم إلى هذه الدرجة . شعرت بإحساس خاص يشبه إحساسات الأمومة . كيف أقتل امرأة تحملت معي خمسين سنة سخافة وانتظارا بدون معنى ؟ بين أحضانها أصبت بحرقة الحياة والشعر ؟ قرأت نوح المجروح على يديها . كانت تأتيني بديوان البهجة الضخم وهي تقول :

ـ لو يحكمني سيدي سيمزّقني .

ـ يا بنت الناس (أكرر مفردات والدي) ، أنا كذلك سيدك . خلّينا من الكلام الفارغ .

ثم تقرأ لي حتى تأخذني غفوة النوم . ومن يومها ظلت بجانبي ، تثق في جنوني وسلطاني ، ولا تتركني لحظة واحدة . كانت تكبرني ببعض السنوات . تأتيني بالديوان حتى أصبحت كلمات نوح المجروح ، مرتبطة بها وتملؤني رغم أني كنت أرفضها لأنّي أحس أحياناً أنها تقف بيني وبين السلطان . أشعر عندما أقرؤه ببعض الحنين تجاهه . أوف . . هو على الأقل حكم زمناً قبل أن يُقْتَلَ ، أما أنا فمنذ نصف قرن وأنا أنتظر . ممتلئاً بالشوق والقلق . هذه المرأة السوداء ، العاشقة الوحيدة لي ، هي التي فتحت عيني عليه منذ أكثر من نصف قرن . يبدو أنها هي كذلك كانت تحبّه وتتخبأ وراء طلباتي ، قبل أن تمحى قصائده من الكتب المدرسية نهائيّاً ، قبل غزو مدينة الزيت التي أبادتْ الملياني ، بقليل .

ماذا أفعل في مستحيلة مثل هذه . بانت لي الزنجية دافئة مثل كلمات نوح المجروح . انتابتني رغبة مفاجئة في القبض على عنق سارة و رميها من أعلى طابق والتخلص منها نهائياً ، أو تكتيفها مثل خروف العيد ورميها في أقرب بحر من هنا . لكن الأشياء التي سمعتها تتكسر في داخلي مثل قطع الزجاج القديم ، أشعرتني بضعفي الكبير . الزنجية لم ترفض لي طلباً واحداً في حياتي ، حتى أشيائي السخيفة تحمّلتها بينما سارة عَزَّزَتْ نفسها ، حتى هبّلتني . شيء ما يقودني دائماً باتجاهها ، ويوفر لي المبررات لقتل الزنجية : مربّيتي ، أمّي ، رغبتي ، حبيبتي داخل هذا القفر الأزرق . تعرف عاداتي بالتفصيل . تلبس لباساً أزرق شفافاً ، وخفيفاً ، يُخَبِّئُ تجاعيد الجسد القليلة . ثم تتعطّر ، كلما رأت عيني تحمرّان والرعشة تصعد من قلبي وجسدي . أعركها بعنف وأحياناً بهمجية . الرائحة هي التي تقودني بعيداً عنها باتجاه الامتلاء بلون البحر ورائحة الملوحة والسمك . أول امرأة التصقت بها وعمري عشر سنوات ،

عندمـا اضطررت لمغـادرة قـصـر المليـاني ولا أعلم ، إذا كنت أنـا الذي أنقذَها أو هي التي فعلت ذلك . ومنذ ذلك الزمن وحتى اليوم وهي تقاوم السنوات ، واقـفـة في زاوية ، على رِجْلٍ واحـدة باسـتـمـاتـة ، تنتظر استحلاماتي ودخولي فيها ، ومع الزمن بدأت أشعر أن وقفتها تلك على رجل واحـدة ، تحـوّلت إلى عـقوبة كنا نمارسـهـا ، ونتلذّذ من خـلالهـا ، ولكنها تدفع ثمنها وحدها .

اليـوم ، شيء غـيـر طبـيـعي يملؤني ، ويعـبـرنـي بخـوف ، منذ أن وضعـتني سـارة أمام اخـتيارات الموت والحيـاة . في الأخيـر أخْـتَـصَرَتِ الحديث بعنف .

ـ شُوف أنتَ بَايَنْ خَايَفْ عليها ، لأنّك تحبها . لن تراني من اليوم ، حتى أسمع بنهايتها .

ـ يا سارة . هي أمي . وأنت حبيبتي .

ـ لا يا السي موح . أنا حبيبتك . أنا أمّك كذلك . أنا دنياك . أنا سلطانك . أنا النصف قرن القادمة من حكمك .

ـ أنت كل الأشواق الآتية .

ـ أَثْبِتْهَا بالفعل وإلاّ بيني وبينك هذا البحر .

مجنونة . وحق ربّي مجنونة . لا أملك حيالها سوى الانصياع . لكن المسألة هذه المرة كبيرة . كدت أصرخ : يا بنت الناس! هذا كثير عَلَيَّ ، لكنّي تراجعت ، لأنّي خفت ألاّ أراها مرة أخرى .

وعندما حاولت إقناعها بالسفر مع فرقة "الفنانات" كـالعادة رفضت الذهاب تماماً وقـالت : حقّ رَبّي مَـارَنِي رَايْحَـهْ حـتّى نَفْـرِيهَـا أنت وأنا . ورغم أنها صارت كل شيء في ذاكرتي ، بدأتُ أشعر أنَ افتقادها صار قريباً إذا بقيتْ الأمـور على ما هي عليه . هِيَاجُهَا لن يـنطفئ إلاّ داخل جسد الـزنجية التي أصيبت بحالة اكتئاب منذ ذلك اليوم عندما أغلقت

الباب علينا . إنها تحاول أن تقاوم الغيمات الثقيلة التي تعلو عينيها . تقف بجرأة في وجه التجاعيد ، بالأعشاب المغلية التي تدهن بها جسدها يومياً ، حتى يصبح مثل التمثال البرونزي . أنكفأت فجأة دَاخِلَ قلبها وذاكرتها . لم تقل شيئاً . لم تفصح عن غيرتها على الرغم من أني كنت أحسُّ بكل شيء من خلال عينيها وحركاتها . كانت صامتة ، وتغلي داخلياً ، مثل الجبل القريب من البحر الذي أصبح دخانه المنبعث يهدد كل يوم ببركان يأكل الأخضر واليابس في هذا القفر .

ـ يا سارة ، وحياتك ، قَتْلُهَا صعب . لنهملها مؤقتاً على الأقل في انتظار تطور الوضع ، ثم إن أيامي قليلة في هذا المكان . سنرحل و نتركها .

ـ يا صغيري نوح . الذي يَفْشَلُ في القتل . يخفق في الحكم . هذه هي القاعدة التي تعلمتها . هذا امتحانك الأول .

ـ كفاش ندير إذن ؟

ـ ننزل مع بعض للبحر ونغرّقها . يا أخي مجرّد زنجيّة . زايد ناقص ؟! أنت تعطي للمسألة قيمة أكثر مما تستحق .

ـ لنربطها في زاوية ونتركها هناك تموت بهدوء .

ـ يا ملكي ، أنت مخطئ ، أنا خائفة عليك . الملك عندما يفضح سرّه ، انتهى .

مرة أخرى لمعتْ أفكار أوسكار في ذهني . فكرت في أشياء سوداء ، سرعان ما حاولت تجاوزها . أيعقل أن يكونا متواطئين ضدّي ؟! لِمَ لا يكونان خائفين عليَ مثلاً ؟! لنأخذ الأشياء من ملامسها الإيجابية . عندما قلت لأوسكار ، عندما تنتهي الزنجية ، ستفرغ هذه القلعة . ستموت أمي الوحيدة في هذا القفر . قال وهو يسخر مني ، يا سيدي ، سنبحث لك عن أمّ أخرى . من يدري ؟! كل شيء ممكن . قد تكون سارة هي الأمّ التي أرسلوها لي . أليس أوسكار نفسه هو الذي

أقنعني بقبولها في الفلوكا مع "الفنانات" ؟ ثم أشار عليّ فيما بعد بوضعها على قِسْمِ الإشراف على مسافرات الفلوكات ؟! ثم غيّبها لمدة سَبْع سنوات في أسطول الماريكان ، لتصبح بعد ذلك واحدة من آل البيت (السفينة) . في لحظة من اللّحظات أصبت بحالة خوف غير محدودة ، لاَ على نفسي ، وَلاَ على سارة ، ولكن على خمسين سنة انتظاراً وحنيناً وفراغاً . أليست هي الطعم الأخير لتجريبي ؟ يمكن ؟ بل شبه مؤكّد . ما الذي حوّل هذه السيدة الجميلة من رافضة لي إلى امرأة عاشقة و مسحورة بي و تريد أن تراني شبيهها لفنانها سالفادور دالي ؟ معرفتها للناس أذهلتني . كبار وقعوا داخل جيبها ، بحارة ، صيادون ، ضباط كبار ، قوّاد سفن عسكرية ، علماء . . . لا بدّ أن تكونِ هي الطعم الجميل الذي لا يمكن تفاديه مطلقاً ولست مستعداً الآن لأن أتفاداه .

فجأة بدأ الخوف ينحدر نحو الأعماق ، والأخلاق تتضاءل ومقتل الزنجية يتحوّل إلى حالة عادية ، أو على الأقل مستساغة ، ومقبولة . بدأت أفكر بشكل آخر . طُزْ في كل شيء ومن بعد ؟ مجرد زنجية! يوجد منها الكثير ؟! أنا الذي أعطاها قيمة زائدة . هي التي عرّفتني بنوح ، وسجنتني داخل كلماته وأشعاره . اعتقلتني بطيبتها الوهمية . بنت الكلب ، كانت مدسوسة من المخابرات السرية التابعة لنوح النوّاح . بينما سارة ، شيء آخر . فقد فتحت عينيّ على الفنّ . على شنبات ، سلفادور دالي ، وأذاقتني حلاوة الفراش التي لم أذقها من قبل . لا تزال حرارة رأس لسانها المعطر ، بماء الزهر ، وعود النوار في فمي . طزّ فليكن! لن أضيّع حقي في الملك وفي الدنيا بسبب زنجية! ؟ هي ليست أمّي . مخطوط عبد الرحمن يقول إنّ أمّي ضُرب رأسها على حائط قديم ، ومشنقر ، حتى ارتسم مخها ودمها عليه ، مشكلاً رسومات سريالية . الزنجية أمّ مغلوطة ، وقنبلة موقوتة ضد السلطان . حبيبة منتحلة . مرافقة منتحلة . شاعرة منتحلة . . متواطئة مع قوى ربّما لا أعرفها . سيضحك الناس عندما يعرفون بأني كنتُ أضاجع زنجية . أين كنتُ ؟ بالمختصر المفيد ، فهذه السيدة تستحق القتل . ليكن! ما هي

هذه الخسارة الكبرى ؟! لا شيء . أبدا ، لا شيء .

صممت أن أخبّئ "ديوان البهجة" فترة من الزمن عن وجهي حتى لا أصاب بحالات الإخفاق والضعف أمام الكلمات ، على الأقلّ مؤقتاً . وجوده قد يقودني إلى تأجيل الأشياء الضرورية ، وبالتالي إلى التهلكة . سارة كانت تعرف ضعفي ، ولم تخبّئ أحاسيسها مثلما تفعل عادة الزنجية . الزنجية كذابة . كيف انطلت علي حيلها كل هذا الزمن ؟

ـ شوف يا خويا الشعر شعر ، والسلطان سلطان . لا تكن رومانسياً ، أحمق ، وإلاّ ستموت ميتة نوح . كن رجلاً شجاعاً وبطلاً وإلاّ دعك من فكرة الحكم ، وعش عادياً كبقية الصيادين ، وارم سنوات الانتظار في البحر ، و مت كأي إنسان و ما تروحش للحاجات البعيدة عليك .

ـ هكذا بسهولة ؟

ـ هل عندك شيء غير هذا ؟

أشعر بها تستفزّني في أعماق الأعماق . ولكن الآن ، بالضبط ، بدأت أدرك أن سارة كانت على حقٍ تماماً . صممت منذ تلك اللحظة أن أقوم بفعلتي الاستثنائية . تجربتي الأولى في ارتكاب الجريمة .

الزنجية كانت تتأمل عيني المتغيرتين ، بكثير من الدهشة والخوف ، وتنتظر أمرا من أوامري التقليدية ، بدون أن تنبس بكلمة واحدة . ناديتها . شعرت أن في صوتي نبرة آمرة ناهية لم تتعوّد عليها . قالت مرتبكة كعادتها .

ـ هل يريد سيدي شيئاً ؟

كلامها أربكني . كان دافئاً وحزيناً . دخلتني حيرة ما . حتى الأكياس التي ننزلها عادة من القلعة إلى الجزء المسيّج من الساحل باتجاه الفلوكا كنّا قد أنزلناها ، ولم أعد أعرف من أين أبدأها . لم أجد ما أقوله .

عمّقت ارتباكي أكثر .

ـ الأكياس يا سيدي أنزلناها نحو الفلوكا . هل بقي شيء آخر يجب القيام به ؟

ـ أحتاج إلى شيء آخر من البحر .

ـ لكن هذا خارج عادات سيدي ؟

ـ عادات سيدك يجب أن تتغيّر . هل يقضي العمر كلّه على طعم الكارثة نفسه ؟! تعبت . الملك يحتاج إلى شيء من التغيير وإلاّ أصبح مكلّساً .

ـ لكن الملك لا يزال بعيداً على ما يبدو يا سيدي . هذا ما قلته لي أنت بعظمة لسانك .

هاه!! قالتها سارة وأوسكار . أصبحتْ تعرف كل الأسرار . هذا خطير جداً جداً . قرأت في جملتها الأخيرة شيئاً من الحزن والعنف . يبدو أن لسانها صار طويلاً . الملك عندما يخترق ، عليه وعلى دنياه السّلام . يجب أن يباد المتسبّب حفاظاً على السرّ وعلى استقرار الأمّة . ها هي ذي الزنجية نفسها تصنع نهايتها الحتمية معي وتقودني في كل لحظة إلى تنفيذ أول جريمة في حياتي . شيءٌ من القساوة والرطوبة كان يجتاحني .

قرأت الزنجية تصميمي الغريب في عينيّ . تدحرجت في ذاكرتي كلماتها القديمة ومثالها الدائم الذي تذكره كلما تعلق الأمر بالظلم .

"هه . . . اللي يحب يقتل كلبه يقول عليه مكلوب" .

رأيت فجأة دمعتين ترتسمان في محقني عينيها . تأملتني جيداً ، كادت أن تهزمني لو لم أغرس رأسي في الأرض ، ثم انْسَحَبَتْ إلى القاعات الأخرى داخل القلعة وبدأت تلملم كسوتها . جمعت كل شيء في رزمة صغيرة . فاجأتها وهي جالسَة عليها .

كانت تحفر الأرض بخزرتها المنغرسة .

سبقتني لحظة الضعف ، قبل أن أتمكّن في اللحظة نفسها من السيطرة عليها .

ـ يالالّه سعدية (الزنجية) أنا لم أطلب منك هذا! ؟

ـ أشعر يا سيدي كأنّي لن أعودَ ثانية إلى هذا المكان .

ـ من قال لك هذا الكلام الفارغ ؟

ـ عاداتك يا سيدي تغيّرت فجأة .

ـ ولكن الدنيا تتغيّر يا بنت الناس .

في أعماقي شعرت حقيقة أني هُزمت ، واضطُررت لأن أؤجّل فكرة الموت إلى يوم لاحق . قلت في خاطري ، وهل ستتفهّم سارة هذه التجربة القاسية ؟ ليكن يجب أن تفهم مهما كان الأمر . أنا لست آلة .

أخذت من الزنجية الرزمة وزربعت على الأرض الألبسة التي كانت تحتويها . بدأت تقبّل يديَ بكل قوّة . يومها خرجت وحدي تجاه البحر حاملاً كيساً من الخيش لا معنى له مملوءاً بالكوراي ، رميته باتجاه أول موجة هاربة فقط لأقنعها بأني لم أكن أخبّئ شيئاً ضدها . كنت منفعلاً جداً لأني من حيث الجوهر افتقدت سارة يوماً آخر . بدأت أعبر الشاطىء . كانت الشمس قد انطفأت نهائياً من وراء البحر . فاجأتني كالجنّي المائي . عرفتها من صوتها . كانت سارة تتبعني . أردت أن ألمسها ولكنها ابتعدت قليلاً وهي تضحك وتقهقه مثل المجنونة .

ـ كنت أعرف ولكن يبدو لي أن هناك تحسناً في امتحانك الأوّل . أعرف أن القتل ليس سهلاً ، لكن المشاكل هو هذا .To be or not to be

ـ الأمر ليس هيّناً وليس من السهل تجاوزه .

ـ يا حبيبي أنت أمام أمرين لا ثالث لهما ، إمّا أن تكون رجلاً وإمّا

تكون أقلّ من امرأة . الملك ، يا أميري السعيد لا يستقيم إلاّ بالجريمة . هل نكذب على بعضنا مرة أخرى ؟

ـ ولكنّي يا سارة في الجوهر لست مجرماً . أنت تعرفين أن أشعار نوح شوهتني في العمق .

ـ الآخرون يسمونها جريمةً لكنها بالنسبة لك و لي و لأجدادنا هي دفاعٌ عن الذات . بدونها لن تكون حاكماً . هذا قانون الدنيا .

اقتربت منها أكثر . شعرت بشوق عظيم لعينيها ولجسدها . تذكرت ذلك اليوم الذي تضاءلت فيه في الفراش حتى صارت شفافة مثل الهواء . اليوم هي مثل خيط أزرق خرج من أعماق البحر . سارة! ؟ لا شيء سوى هذه المرأة الهبيلة التي جننت كل عشاقها .

لا أفهم شيئاً في هذا العمر . قدري أن أنتظر ، أنتظر كل شيء . السلطان ، الزنجية ، الموت ، أوسكار ، سارة . أكثر من نصف قرن انتظاراً للعلامة التي أرجعتني إلى الأسئلة الأولى . سقطت بعض أسناني الخلفية . ابيض شعري وحالت المرايا . مخطوط شرقي مشوه عذبني . وهاهي ذي سارة تأتي بدورها لتخلط كل الأوراق التي كنت أظنها مرتبة ، منظمة ومتحكَّم فيها بدقّة .

سألتني سارة وهي تحاول أن تعرف أكثر .

ـ هل رَمَيْتَ شيئاً في البحر ؟

ـ كذبة وحياتك . رميت كذبة . ضحّيت بكيس من الكوراي حتى أطمئنها . إني أحاول أن أوفّق بين أشياء لا توفيق بينها مطلقاً .

ـ تحاول أن تثبت للزنجية أنه كان لديك فعلاً عمل ؟! ألا تظنّ أنك عبثي أكثر من اللاّزم . ليست غبية إلى هذا الحدّ ، فهي تعرف كل شيء من عينيك . المرأة التي تعرف حميميتك تعرف حتماً سرّك .

ـ أعرف . ولكنها تجربتي الأولى مع القتل .

ـ يا الله . عندما تتجرَّأ ، ادعني ، ستجدني أمامك . الحكم والموت أخوان .

ـ أي حكم يا بنت الناس . خليه يزيد وسميه سعيد .

ـ لو كنت أشك لحظة واحدة في أنك لن تصير حاكماً ، لن أكون هنا معك .

ـ متفائلة أحسن منّي .

ـ هذا رأيي ، وهذه أنا ، وأنت دبّر راسك .

كانت الظلمة . كنت أرى خيالها وأتخيّل قسماتها وكان الساحل . كلما تركتني ، أو هددتني ، يزداد المحيط وحشة وفراغاً واتساعاً . اشتهيت أن أقبلها ، أن أحضنها ، أن أقسم أمام عينيها ، أن لا امرأة غيرها في قلبي ، ولكن لا شيء من هذا حدث ، فقد انسحبت من ذراعي بهدوء كبير ، بينما كان ماء البحر ، يتكسّر تحت رجليها وهي تندفن داخل الظلمة . عندما غابت نهائياً سمعت كلمتها الأخيرة وهي تصلني متقطّعةً ، مختلطة بأمواج البحر المتزاحمة نحو حتفها على الساحل .

ـ تصبح على خير يا حبيبي . تهلاً في روحك و ما تنساش واش قلت لك .

فكرت أن أصرخ ، أن ألعنها وألعن ربّ اللحظة التي لاقتني بها ، لكن الظلمة كانت قد ابتلعتها نهائياً . بدت لي وقتها بعيدة أكثر من أي زمن مضى وقريبة مثل أنفاسي التي كانت تتقطع بعنف وتسارع .

عندما عدت إلى القلعة ، قَرَأَتْ الزنجية كل شيء في عيني . قرأت خيبتي ، ودهشتي ربّما . اختفت . لبست لباسها البحري الرقيق وعادت ، ولكن هذه المرة لَم تنزو . لم ترفع ساقها اليمنى وتدعوني بعينيها ولكنها مدّدتني على ظهري ، وهي تحاول أن تدخل في عمق دهشتي بجسدها العاري عن آخره .

ـ ألم يقل سيدي أنه يجب تغيير العادات ؟

ثم بدأت تتزحلق ، وتتزحلق بشفتيها الساختين ، على جسدي ثم مدت يدها إلى عضوي المنتصب ووضعته في فمها ، ثم بين فخذيها ، وشيئاً فشيئاً ، بدأت الحرارة تصعد إلى عيني وهي تحاول أن تجلس بكل ثقلها ، ثم تقوم قليلاً ، وتنزل بهدوء في حالة لذة وانتشاء أشعر بها للمرة الأولى . مددت يدي نحو نهديها . ضغطت بقوة ، بينما كانت تتحرك في كل الاتجاهات . مسدت على شعري ، وعلى كل ذرة في جسدي ثم قبضت عليَّ من قرنيَّ بكل قوة وظلت تصعد وتنزل وتشهق ، حتى غابت عنّي نهائياً واختلط الشوق والمحنة والبكاء . ثم البحر ، والكوراي ، أمادرور الزرقاء ، و نوميدا-أمدوكال ، الملياني ، عبد الرحمن ، أوسكار ، حال الدنيا .

عندما انتهت ، ابتلعت اللذة كل دهشتي . انكفأت على صدري وهي لا تزال مرتشقة ، ثم انطفأت مثل الشمعة . باتَتْ بقية الليل بكامله على هذا الوضع حتى الفجر الأوّل . حين سألتني .

ـ هل هناك برنامج جديد يا سيدي ؟

ـ مساء هذا اليوم سننزل إلى البحر .

ـ لتوصيل البضاعة!

كمشت كل قواي بين يدي . وقلت في خاطري يجب أن أكون فوق العواطف واللذة الآنية التي قد تخدع السلطان في أية لحظة من اللحظات . الموت يرقص بين أرجلنا ، لا نَترك له الفرصة مهما كان الأمر .

ـ أوفْ يا سعدية! السفينة طالت والأخشاب صارت نادرة .

ـ ومع ذلك ، على سيدي ألاّ يفقد الأمل مهما كان الأمر ، هكذا علمتني .

لم أعلّق مطلقاً ، لكنّي كنت مندهشاً من طراوتها وجرأتها ، ممّا عقدني أكثر .

في المساء نفسه كنّا في عرض البحر .

لم تبدِ أيّ خوف ولم أُبْدِ أي شكّ .

جاءت الفلوكا ، كما كان متوقّعاً . ملأناها بأكياس الكوراي والمرجان والكيف المعالج . انتظرنا قليلاً حتى انسحبت الفلوكا أخذتُهَا من يدها لتركب معي الفلوكا الثانية التي حضّرتها خصيصاً لهذه الرحلة . كانت الأمواج تتكسّر بهدوء على السطح الخشبي القديم ولم نعد نسمع إلاّ صوت المجذاف وهو يمزّق المياه الزرقاء و نحن نتوغل عميقا . فجأة قطعت الزنجية علي حالة الصمت .

ـ ألم تقل بأن هناك من ينتظرنا داخل البحر ليسلّم لنا بضاعة نادرة .

ـ طبعاً علينا أن ننتظر الإشارة . أعطي إشارتك الضوئية أنت . الأمور تسير بشكل جد منظم في هذه الأمكنة و يجب ألاّ نترك أي شيء للصدفة الملعونة .

وبعد العديد من المحاولات ، بدأت الإشارات الضوئية تأتي من عمق البحر . سعدية هي نفسها التي نبّهتني .

ـ أنظر! أنظر! هاهي ذي الإشارة .

ـ سأتحقق بنفسي من الضوء ، قد يكونون قراصنة .

ـ ولكنك أكثر دراية بهذا الجزء من الشاطئ ، وهو محروس من أصدقائك ؟

ـ من يدري ؟! الصدفة خطيرة يا سعدية . كل شيء ممكن في هذا الزمن المخيف . سأغادر الفلوكا وأعود بسرعة .

ـ يا سيدي أنا خائفة ، أنت تعرف أني لم أدخل البحر ولا مرة واحدة في حياتي .

ـ لحظة وأعود .

ـ أخاف عليك يا سيدي .

ـ لا تخافي . السنّ متعبة ولكنّي ما زلت قادراً على إرهاق الموج والبحر معاً .

طمأنتها ، ثم ارتميت في الماء بدون أن أستمع إلى بقية كلامها . لا أدري حقيقة إذا تكلمت أم أنا الذي تخيّل ذلك .

في أعماقي كنت مثل الضفدعة ، ممتلئاً بالدخان والحزن والخوف والرهبة . أخاف أن أنفجر أو أتراجع عن قراري ، خصوصاً أني أعيش ، بكثير من الحساسية والقلق ، اللحظة الفاصلة بين الحياة والقيامة ، بين خلاء أزرق وأوهام السلطان والقصر .

وكلما امتلأ صدري بالماء ازدادت جرأتي أكثر واضمحلّ الشعر وأشواق ديوان الخطايا . بهدوء انزلقت تحت الفلوكا وبدأت أتحسّس برؤوس أصابعي الثقب الذي وضعته ثم أغلقتُه بالعجين . كان الأمر سهلاً إلى حدّ بعيد ، وتأكدت بأني لست قاتلها ولكن البحر هو القاتل الأول . وجدت العجينة فنزعتها . شعرت بالماء يتدفق بقوة داخل الزورق . بينما كانت فلوكة سارة تقترب ، ومن حين لآخر تعطي شاراتها الضوئية فترد عليها الزنجية بالطريقة نفسها منفّذة ما أوصيتها به . كانت انعكاسات الإشارات تصل حتى المكان الذي كنت فيه ، مخترقة سطح البحر الأسود ، ثم فجأة! بدأت الفلوكا تتأرجح بقوة .

سمعت الزنجية وهي تصرخ هلعاً .

ـ يا سيدي ؟! أين أنت ؟! الماء يملؤني والفلوكا تغرق ؟! أينك ؟ أينك يا سيدي ؟ أنت تعرف بللي ما نعرفش نعوم .

كان الأمر مقضياً . تزحلقتُ تحت الماء بهدوء باتجاه فلوكة سارة التي لم تتوقف إشاراتها ، بينما بدأ الضوء الذي كان في يد الزنجية يغيب ويرتعش حتى غاب نهائياً . سمعتها وهي تبقبق وتصرخ بشكل مكتوم وتضرب الماء ، كيفما اتفق ، ثم وهي تصرخ صرختها الأخيرة داخل الفراغ الأسود مثل الغول . كانت تتهاوى بهدوء وتنادي بيأس وبصوت صاف مثل المسيح .

ـ يا للّه! أنا أمّك . لماذا تتخلّى عنّي ؟

سلطت سارة ضوءها أكثر باتجاه سعدية التي كانت فلوكاتها المقلوبة قريبة منا . لم نعد نَسمع سوى خرخشة المياه وبعض البقبقات التي تشبه فقاقيع الصابون عندما تنفجر . ثم فجأة غاب كل شيء وعاد إلى هدوئه وتسطحه .

كانت أنفاسي قد بدأت تتقطّع وتعود شيئاً فشيئاً إلى وضعها الطبيعي . وتحوّل العرق الذي كان يتصبّب في داخلي إلى برودة قاتلة . وضعت سارة بطانية على ظهري ، ثم لَفَّتْنِي داخلها و قربتني من أنفاسها . شعرت بحالة دفءٍ نادرة ، مملوءة بالخوف ، والطمأنينة ، تصعد من أقدامي لتلمس شعري ، ثم تعود مثل التيار الكهربائي . بدأ اليقين يدخلني بأن الجريمة القادمة إذا حدثت ستكون أكثر سهولة من هذه بكل تأكيد .

هزَّتني سارة من كتفي بشيء من العنف .

ـ يا سيدي ، لماذا تحمّل نفسك وزراً لم ترتكبه . لم تقتلها ، البحر هو الذي ابتلعها .

كان الهدوء قد بدأ يملؤني . وحرارة يدي سارة التي كانت تطوق عنقي ، تعيد لي ثقتي . تمدّدت قليلاً على ظهرها ، على فراش وثير أعدّته هي نفسها خصّيصاً . نزعت ثيابها كاملة ، ثم تبانها الرقيق ورمته في البحر وهي تقهقه :

ـ اشتهني أيها البحر إذا شئت فأنا لست إلاّ لحبيبي .

شعرت فعلاً بالبحر يفقد عقله وهو يلمس بعينيه وشفتيه تبان سارة الغارق في رائحة جسدها المذهلة . كان القمر قد بدأ يخترق بصعوبة ، كثافة الغيوم . مدّدت رجليها أكثر ، بانت مصقولة كتحفة مرمرية نادرة . وضعت رأسها تحت يديها وقالت وهي تعبث بشلاغمي :

ـ عزيزي دالي! يا نوحي الصغير . أيها الفاطمي الأخير! يا ذا القرنين . ها أنذى سارة بنت مدينة الزيت أغرق البحر في حزنه ويأسه وأفضلك عليه . هيتَ لك يا أميري السّعيد ، يا يوسفي النّادر .

ثم بدأت تفتح رجليها شيئاً فشيئاً . أخَذَتْ بين يَدَيْهَا رأسي ودفنته بين فخذيها الممتلئين . حتى تلك اللحظة لم أكن أصدّق ما كان يحدث أمام عيني والمشهد المذهل الذي بدأ يملؤني . جسد مصقول وبحر يائس ، مستسلم لجمالها ، وقمر يقاوم بشكل استثنائي الظلمة ويحاول أن يقهرها . كان جسدها أزرق مثل البحر ، وأبيض كالموجة . أشدّ ما كنتُ أخشاه أن تموت هذه العذوبة بسرعة ويحترق هذا الحضور الممتلئ كأوراق خريفية معزولة .

نسيت نفسي . نسيت البحر . ونَسّتْنِي الأمواج المتكسّرة .

وعلقت هي بجسدي حتى صارت جسدي .

لم أعد أتذكر شيئاً حتى الفلوكة انزلقت إلى داخلي ولم تبق إلاّ كلمات عيسى الجرموني . خويَا الذي قتلته مِحْنَتُه ، وهي تأتي من بعيد . الصوت نفسه الذي كان يندفع منه ، لحظات الوحدة والهيام والخوف قبل أن تجمد أصابعه على خيوط ربابته التي رفضت أن تنفصل عنه ، فَدُفِنَتْ معه .

"يا أَوْلاَدْ النَّاسْ إِجْرِيوْا . .

أنا رِيتْ النّارْ

طَالْعَهْ شُعْلَهْ مَنْ بْحَرْ .
مَدّيْتْ يدّي لِلنَّارْ
تحَرْقَتْ في يَدَي النَّارْ وْفَاضْ لَبْحَرْ" .

* * *

- V -

للمرّة الثانية على التوالي ، يتهوّل البحر بشكل غير عادي . تحمرُّ سواحله ، تضمحل زرقته وتهبّ عاصفة الأوراق ، لتصعد عالياً مكونة خيوطاً من الرمال ، حاملة معها الأوراق القديمة وبياناتي الكثيرة والمكثفة ، التي لم تعد تُقرأ ، وآخر ورقة مصورة من المخطوط الشرقي ، التي تتحدّث عن بعض جرائم المليانى ، ومقاومة نوح وعبد الرحمن لهذه التجاوزات التي يقول البيان ، بأنها كانت تقوّض الدنيا والبلاد وترميها في أحضان أعداء الحياة والنّور . تساءل الأمير نوح ولد المليانى في البداية ، كيف أنّها غابت هذه البيانات المخطوطة ، منذ أن ألقي القبض على الصياد الذي كان يوزعها وأرسل إلى البراري والقفار ليُشنق هناك وكيف عادت فجأة بكثافة ؟ لا بدّ أن يكون هناك جهاز منظّم وليس أفراداً منفصلين . لا . ولكن كيف تمّ تنظيم هذا الجهاز وسط هذا القفر المراقب ؟

ثم ، سرعان ما حرر ذاكرته من هذه الأثقال و أزال مخاوفه و ترك الروح المثقلة بالأسئلة تتبدّد تحت لذّة استذكار وجه سارة الذي صار يملؤه ويملأ دمه مثل الخلايا . عليه الآن أن ينام قرير العين . أصدقاؤه يملؤون الدنيا . لا جهاز ولا قوة تستطيع أن تقاوم هذا الفراغ الأزرق

وهذا الخوف المبطّن وهذا الوحش الحديدي الأعمى الذي يتخبّأ وراء غيمة كبيرة ويرسو في مكانه ، بدون حركة ، يراقب كل الأنفاس الدائرة حولنا ، منذ أكثر من نصف قرن والذي زار إحدى سفنه الصغيرة عندما ذهب مع سارة لمرافقة "الفنانات" ، لا أحد غير الصبر و هذا الوعد الحق الذي لن يموت أبدا .

ثم أحنى رأسه و هو يحاول أن يستحضر قسماته القديمة التي بدأت العواصف المفاجئة تأكلها واحدة ، واحدة ، لولا الطقوس التي حافظ عليها كما هي ، فهي تعطيه الإحساس بالهيمنة على الزمن . كانت الأمواج تتمزّق عند بلغته الفاسية وهو يؤدّي ركعتي صلاة البحر الاعتيادية ، بعد القيام بمهمة تلصيق وتسمير أخشاب السفينة ، التي صار هيكلها ، وجزء من ساريتها المركزية ، واضحاً أكثر من أيّ وقت مضى ، حتى الخشب الذي كان نادراً ، أصبح يأتيه يومياً مع البيانات . فكلّ فجرٍ يجده مكوّماً مثل هدايا رأس السنة . ارتطمت الموجة الهاربة عند رجليه لتملأ البلغة الفاسية ماءً . شعر بالبرودة ، تصعد من أقدامه . استبشر خيراً . قال في خاطره هذا لا يحدث دائماً . يحدث عندما يكون قلب الإنسان ممتلئاً بالإيمان والأشواق الإلهية ، والإشارات النادرة التي تحدّث عنها أبو حيّان التوحيدي . وقبل أن ينحني من جديد ، لتأدية الركعة الثانية ، سمع صوتَ تكسُّر الأمواج ، التي كانت بعض تمزقاتها ، تركض باتجاهه . شعر بقلبه ممتلئاً بالزرقة التي حولتها العاصفة إلى صفرة كريهة ويائسة . إنّه يوم عاصف ، ولكن شيئاً ما يقودني إلى حالة من الاستكانة الداخلية ، لم أشعر بها طوال الأيام الماضية المملوءة باليأس أحياناً وعاصفة المساءلات . ربما كان السبب في ذلك رأس لسان سارة المعطّر بعود النوار والسواك وحلاوة الفلايو الحارة ذات اللون الأخضر . وقبل أن يضع نوح الصغير جبهته على الأرض ، قذف البحر فجأة ، النصف العلوي من جسد الزنجية . كاد أن يضع جبهته على وجهها وعلى عينيها الصافيتين الناصعتي البياض ، المفتوحتين عن آخرهما . أسنانها كانت بيضاء كالجير . الجزء الظاهر من جسدها كان مصْقولا ،

صار أجمل مما كان . نهداها ، اخترقا الثياب الممزقة ، وبدت الحلمتان مرتشقتين نحو فضاء فقد كل معنى للحياة . بسمل نوح الصغير ، وحوقل ولعن الشيطان الرجيم ، واستحضر مغفرة الرحمن الرحيم .

لا . لا ؟! لا يمكن أن يكون هذا حقيقة . ربما كان ما يحدث الآن هو مجرّد أوهام ، أو من بقايا اللّيلة التي أغرق فيها الزنجية وظلت تشتغل في عمقه حتى تجسدت في عينيه الآن . أغمض ذاكرته بقوة بحثاً عن وجه سارة ليلغي هذا المشهد ، لكن سارة استعصت على ذاكرته . فتح عينيه ، كانت لا تزال هناك بنصفها العلوي ، ببياضاتها واشتهاءاتها وارتشاقاتها فيه ، أو على الأقل هكذا بدا له . وقبل أن يمدّ يديه لغلق عينيها وفمها ، وردم بياضها المستفزّ ، كان الصيادون قد سحبوها باتجاه المرتفع البعيد عن البحر قليلاً وبدؤوا مباشرة يحفرون قبرها ، بسرعة كبيرة ، كما جرت العادة بالنسبة لكل الأجساد المنسية التي يقذف بها البحر إلى السواحل المرمية في فراغات الموت . لم يكن أحد يعرفها ، حتى الذين تراءى لهم أنّهم رأوها في مكان ما ، عدلوا عن الفكرة ، عندما استعصى عليهم الأمر وحفروا قسطهم من القبر وانسحبوا باتجاه بيوتهم ، أو باتجاه البحر . ورجع الكثير منهم إلى شباكهم ، وكأنّ شيئاً لم يكن . هم لا يتوقفون عن صيدهم ، إلا عندما يكون الميت منهم . فعلوا ذلك استثناء مع عمّي عيسى الجرموني ، لأنهم شعروا بأنه لم يكن يقول إلاّ أشواقهم وأحزانهم .

"يا لطيف! ؟ ديناصورات لم تعد تحسّ بأي شيء . انتهت أحاسيسهم وماتت منذ الزمن الأول" .

تمتم الأمير نوح و هو يلملم زربية صلاة البحر . كانت اللحظات تمرّ بسرعة . ظل صوتي طوال تلك المدّة مُغْلقاً . لم أجد فرصة لا للتأمل ولا للتذكر ولا حتى لاستحضار لسان سارة وهو يشقّ كامل جسدي حتى الصباح ، على متن فلوكه مفروشة بالأغطية الثقيلة . أذهلتني عينا الزنجية المفتوحتان عن آخرهما . استرجعت تفاصيل شريط ليلة غرقها ، بدون

أن أشعر بندم كبير . ليكن! المهم أن محاولة القتل الأولى جاءت متأخرة كثيرا و لكنها كانت ناجحة . لم أكن مستعداً لتضييع رصيد هذه التجربة في الفراغ . من قال إن السلطان يقوم على مائدة من رخام ؟

بعد صلاة البحر ، شعرت في أعماقي كأنّي أديت صلاة جنازة ومع ذلك لم أرد أن أقف كثيراً عند هذا الفراغ الذي أصبح لونه غير مرئي ولكنّي أقسم بكل الدنيا ، أنّي رأيت عينيْ الزنجية عالقتين في البلغة الفاسية ، تتأملانني ، وبدون أن أدخل في حسابات ، ما إذا كان ما رأيته صحيحاً أم مجرّد خيالات متعبة ، طوّحت عالياً بالبلغة داخل أعماق البحر ، لدفنها هناك نهائياً ولكن الموجة المتكسِّرة ، سرعان ما أعادتها ، لترتمي البلغة عند أقدامي وداخلها عينا الزنجية . فأعدتها وطوّحتها بكل قوة ، لم يكن لديَ الوقت الكافي للوقوف عند هذا الخوف وتأمّله . فجأة قطعت يدٌ حالة سَهْوِي ، وهي تغمض عيني . شعرت برقّة اليد ونعومتها ودفئها الأنثوي . سمعت بعدها غمغمة تشبه احتلامات الغفلة .

- هاه! من أنا يا أميري الحبيب ؟ قل و أمنحك كل ما تشتهيه .

لم أعد أحس بشيء إلا بملامس اليد المغلقة و الأصابع النحيفة و هي تنام على عيني . لا أدري ما إذا كان الخطّ البارد الذي شقّ ظهري من فوق إلى تحت ، عرقاً أم قطرة ماء مثقلة بالعرق . شعرت فعلاً ببرودة قاسية . صوتها أعادني مباشرة و بشكل لاشعوري إلى صوت الزنجية وإلى عينيها لكن سرعان ما تمالكت نفسي وبدأت أبحث عن حالات اتزاني المفقود .

- لمن هذا الصوت الجميل و هذه الأنفاس الطيبة ؟

مددت يدي إلى معصم يدها الذي كان يُغطّي وجهي . تمددت أكثر باتجاه وجهها . تلمست شعرها . صدرها . خصرها . عرفتها في الحقيقة من عطرها الخاص الذي يتسرسب كالثعبان داخل الحواس .

ـ أهذه أنت . سارة الدنيا والزرقة وجنونيات الحياة .

طَوَّقَتْ خصري ، دارت على جسدي ، ثم التصقت بي بكل قوة ، حتى صارت أنفاسها فِيَّ وَصار الفراغ الذي يفصل وجهينا ضيّقاً جداً .

قالت وهي تمسد على شعري .

ـ شفت! ألم أقل لك إنّ أيام السّطوة قريبة . أصعب المحاولات هي الأولى و بعدها يأتي كل شيء بشكل عادي . انتهى كل شيء حبيبي ، لقد رجعت هي إلى ذويها و تربتها و بقيت أنت و . . .أنا .

كانت سارة منداّة مثل زهرة ربيعية خرجت لتوها من حالات فجرية متخمة بالرذاذ . لكن الموجات التي كانت تتكسر بعنف عند قدمينا ، منعت كل حالات التأمّل والامتداد . كنت أتقاطر ماءً أوْ عرقاً .

شيئاً ، فشيئاً بدأتْ صورة الزنجية ، وعيناها والركعات الجنائزية تنسحب وتتوارى بهدوء وطمأنينة تاركة المجال أمام حضور نادر لسارة التي كانت تجتاحني كالغيمة العالية وقد التصقت على جسدها ، كل ألبستها الرقيقة ، في حالة استثنائية لم أعشها منذ خمسين سنة . كانت تملؤني . تحاول أن تمسح على وجهي مياه البحر المتكسّرة ورذاذات الموج التي كانت تجتاحنا مثل المطر . مدت يدها داخل شعري . لامسته بحنان . توغلت فيه أكثر حتى وصلت إلى القرنين ، فَتَحَسَّسَتْهُما بلذّة كبيرة . الغريب أنها كلما وضعت أصابعها الرقيقة على قرنيّ الصغيرين شعرت بحالة هياج ، تصعد من حجري لتستقرّ هناك في رأسي . تذكّرت صورة جدّي وهو يوضع في التابوت ، لكن سارة وأناملها قطعت عليّ تأملاتي .

ـ هاه يا أميري! قرناك يخرجان من الجلد . بدأت تتصلّب مثل عودك .

ضَحِكْتُ وقَهْقَهَتْ هي . وصلتني بسرعة مفرداتها . لم أعلّق كثيراً ، ولكنّي تأملت من جديد إشراقاتها وابتساماتها التي لا توحي

مطلقاً بأنها امرأة عادية .

سمعت من بعض "الفنانات" اللواتي أُرسلن في الرحلات الماضية باتجاه سفينة الماريكان ، أن عائلة سارة أصلها يهودي . سكنت مدينة الزيت في وقت متقدّم قبل أن تهاجر إلى أمادرور (حضر موت) وتأتي إلى هذا المكان . وسارة تتقن مثل الكثير من سكان مدينة الزيت ، اللغة العبرية . في الحقيقة لم أفاجأ بهذا الكلام لأني لم أكن مهتمّاً كثيراً سوى بحاضرها . لكن شيوع أصلها يحرج الحكم وسطوته . على كلٍّ يهودية شاطرة أفضل من عربية عاجزة ، والحكم لا ينام إلا في أحضان الشاطر .

قالت .

ـ امش . شوف للقدّام . لا شيء يستحق منّا أن نحزن عليه . ما تبقى من الدنيا ، فهو لنا و لن نسلم فيه لأي كان .

ـ أريد أن أسألك ولو أن البحر يمنع طرح مثل هذه الأسئلة السخيفة .

ـ قلها يا حبيبي . إرْمِ بَيَاضَكْ . تعرفني مجنونة وصريحة .

ـ أنا أعرف عنك كل شيء سوى أنّك من مدينة الزيت .

ـ يا سيدي هذا ما كان ؟! حبيت تقول يهودية! ؟ هاه! هذا هو الذي يشغلك! ؟ هذا ليس سرّاً . اسمي يفضحني . في الحقيقة أنا لا أعرف شيئاً سوى أني امرأة وجدت لتعيش بشكل غير عادي . لا أتذكر الشيء الكثير عن طفولتي . هربت من مدينة الزيت باتجاه نوميدا–أمدوكال ثم من نوميدا–أمدوكال إلى أمادرور . ثم إلى حفرة حمّام الشّمس ، و هناك تربّيت في أحد الأديرة . هرّبتني امرأة من الموت المؤكّد وتركت عنواناً عالقاً داخل تميمة صغيرة كانت على صدري ومجموعة من الأوشام تحت نهدي الأيسر . وقبل أن تنطفئ عن هذه الدنيا قالت : سارة يا بنتي . هذه الأوشام هي طريقك في هذه الدنيا

الظالمة . مـرّت قرابة الثلاثين سنة وأنا أتأمّل استـدارة جسـدي . كنت أكبر مثل جميع النساء داخل قفر اسمه البحر و في عزلة تامة . أبيت في الخلاء وفي أحيان أخرى على الشاطئ وأحياناً في الأديرة الخالية ، ولكن كـان هناك دائمـاً رجل هو نفسـه أجده في كل مـرة عندما تـنغلق الدنيـا في عـيني ، ولم يتـجـرّأ هذا الرجل في أي يوم من الأيام أن يلمـسني رغم أني أبديت لـه مـراراً أني أشتـهيه بقـوّة . كـان جـمـيلا كتفاحة . أحياناً كنت أتساءَلُ ما إذا كان هذا الرجل مسيحاً أو قدّيساً جديداً . أوف! بدت لي الدنيا مقرفة من قدّيس ، لقدّيس! ؟ كنت فقط أريد رجلاً يضعني داخل جسده الدافئ ، وليس قدّيساً يشبعني حناناً ودروساً في الوعظ والأخلاق ويتمنّع حين ألمس وجهه أو شفتيه . وعندما أخذني إلى زاوية مهملة ، بين صخرتين ، بعيدا عن الشـاطئ و لكنها مطلة عليه ، فـجأة ، وعلى غـير عـادته ، مدّ يده اليمنى إلى صدري ، أدخلهـا ، تـوغّل فِيّ بـعـمق . لأول مـرة أشعـر بـكل هذه اللذة . بدأت ركبتاي تنهاران وأصاب بحالة من الارتخاء . شعرت بكل الفجوات داخل جسدي يزداد عمقها أكثر ، وتزداد ضيقاً وتقلصاً . ثم أخذ وجهي بين يديه الدافئتين وقبّلني بقوة وبخجل كان يتراقص في عينيه . ظلّ يقبّلني ويمدّ يده إلى صدري بعناء ثم بمساعدة منّي أخرج نهدي من تحت لباسي الفضفاض وبدأ يمصّ الحلمة مثل قطعة حلوى حارة ، بينما كنت قد بدأت أحلّق وأضغط بقوة على رأسه المدفون في صدري . فجأة توقف . ابتعد قليلاً . كـانت أنفاسه تتقطّع بشكل ظاهر ، عرّى صدري عن آخره بعد أن مزّق جزءاً من لباسي ، وبدأ يقرأ الأوشام والخطوط العبرية القديمة ، ثم صرخ بأعلى صوته .

ـ آه يا سارة! يا بنت نوميدا-أمدوكال الحقيقية . ابنة مدينة الزيت المنفصلة عن عـرب البـداوة . كنت على يقين من أنك تلك القـدّيسـة الاستثنائيـة . عليك أن تخـرجي من هذه الحـفـرة . أن تسـافـري باتجاه أسطول الماريكـان ، داخل البـحـر . عليك أن تظهـري لهم صـدرك ليعرفوك . أنا لا أستطيع الذهاب معك ، وإلا كنت قد فعلت ذلك بدون

أدنى تردّد . ثم قال ، وهو يعرك أصابع يديه . هاه أنا أعرف من يقودك إلى هناك . وظللت أنتظر متى يتوقف عن الكلام ويداعبني من جديد ، فجسدي كان قد ضيع بلاغة الصمت ودخل حالة التداخل والفوضى بينما ظل هو مشدوهاً في الخطوط الغبية التي كانت تغطي نهدي الأيسر ويفكر في اسم كبير الأنتروبولجيين ليعرّفني به . وبعد يومين ، كنت أمام العالم الأنتروبولوجي أحكي له قصتي وأريه التفاصيل المخبّأة تحت نهدي الأيسر . قال بعد لحظات من التأمل . استشيري نوح الصغير ، فهو يرسل في كل مرة مجموعة من "الفنانات" إلى السفينة ، سَيُدْمِجُكِ معهن في إحدى الرحلات ، وهناك قصّي قصتك عليهم . سألته بعفوية ما إذا كان هذا نوح الصغير سيساعدني قال : حتماً . فهو إنسان طيب وصبور (في أعماقي عجبتني هذه الملاحظات وثقة العلماء فيّ . طمأنينتهم تجاهي ، تعني بالضرورة أن القصر أصبح على مرمى حجر أو زهرة ، حتى سارة شعرت بها تقرأ تلك الفرحة الظاهرة في عيني المتعبتين بدون عناء ظاهر) . وعندما رأيتك للمرة الأولى ، عرفت أن التاريخ الذي سيجمعنا لن يكون تاريخاً عادياً . جسدي كان غَضّاً مثل لَحْمِ سمكة ، وعيناك صنعتا للحكم والفضيلة والأشياء الكبيرة ، ولهذا صممت أن أكون عالية معك . ولكني كنت دائماً أشعر أنك فوق أن تظل أسير عاطفة الأمومة التي كانت تستنزفها منك الزنجية . أنت حاكم كبير ، وتحتاج إلى امرأة كبيرة ، تعشقها وتسندك . وعندما قبلت النوم في فراشك كنت مصممة على إخراجك من دائرة الاستنزاف اليومي ، وإلاّ أكون سهلة ، حتى لا تظنني بأني شرموطة من شرموطات السفينة ، أو انتهازية تريد رأسك أو ملكك . وقلت في خاطري ، قضيّتي كبيرة ، فأنا أمام حلم يجب أن أحققه أولاً ، مثلما أن هذا الأمير الضائع يعيش على حلم أو وهم ، لا يهم . كان الذهاب إلى السفينة ، هو مبتغاي الأول والأخير . عندما أختارك ، سأفعل ذلك ، لأنك أنت ولست شيئاً آخر . أنت لم تكن تراني ، ولكنّني كنت يومياً أتأملك على الشاطئ قبل أن أكلمك . أراقبك مثل طفلة مشدوهة في انتظام حركاتك

اليومية و أنت تشق الرمل في كل فجر و تلوح بعَصَا البانبو و ترفع من حين لآخر رايتك الكبيرة محترما طقوسك اليومية التي تبدأ من السفينة والخشبة وسائل القار الذي تطليها به ، إلى الصلوات البحرية ، إلى البيانات ، إلى العبور . ويوم التقت عينَاي بعينيك لأول مرة ، كنت مصممة أن أفعل معك ، ما فعلته مع الأسقف الذي قادني إليك عن طريق أوسكار . كنت ناوية على إغرائك ، لأنك لم تكن تشبه الآخرين ، مثل البحر كُنْتَ ، باندفاعك وبعض سذاجتك .

ـ لو فَعَلْتِ لكُنْتِ أفلحت ، لأنك سكنتني ، منذ رأيتك . الله غالب . الحب هكذا .

ـ لا . الحب ليس هكذا . هو لحظة يجب أن تحدث في أوانها و إلا لا معنى له و قد نخسره بسرعة . دَرَسْتُكَ من شعرة الرأس إلى أخمص القدم . كنت أعرف أنك عندما تواجه البحر في لحظة الوحدة والصمت تصير إلهاً أو ريشة لا وزن لها هائمة في رياح الزرقة . ما بالك إذا كانت امرأة هي التي تحضن يدك وتنزل بك في عمق هذا الشطط . وظللت أتبعك أو تتبعني ، أو نتبع بعضنا بعضاً ، لا أدري . وعندما عدت من السفينة ، بعد رحلة السبع سنوات ، كنت قد أصبحت لك عن آخري و كان عليك أن تثبت لي أنك ممحون بي و فعلتَ . كم كان جميلاً ذلك اليوم ، عندما جِئتَنِي بحصان أبيض وقُلتَ لي وأنا أخرج من البحر :

دوري يا دوارة دوري .

واغمسي الجسد في النور ،

صرت ضالا و ضائعا .

جسدي بارد ، لم يعد قادرا على الاحتماء بك . . .

دوري . . . وأنا أدور ، والفوطة التي أحضرتها لي تلفَ جسدي العاري . . . وشعري يدور مكوناً هالة كبيرة في الفضاء الواسع والنهدان يرتشقان باتجاه صدرك وذاكرتك المجروحة . كل شيء فِيَّ كان يدور . .

يدور . . رأسي . . قلبي . . جسدي . . وفجأة وجدت نفسي بين يديك مثل قماش شفاف ولم تكن لتكتشف الرموز . أصلاً لم تكن تهمك كثيرا و كنت سعيدةً . كنت مولعاً بالحالة أكثر من ولعك بالتفاصيل . كنت مصممة ألاّ أخبّئ عنك أي شيء ، وأن أحبك طويلاً . أحبك مثلما أحببت تلك السفرة الغريبة التي رهنت حياتي لها . السفرة التي قرأت من خلالها رفضك في عينيك . فقد وافقت على مضض ، لأنك كنت خائفاً ألاّ أعود . أو أني الوحيدة التي اخترقت كبرياءك . لو رضخت لك وقتها ، لكنت مثل بقية "الفنانات" اللواتي تفرشهن قبل سفرهن . لم آتيك مثلما كنّا يأتين وهن يَتَمَسْكَنَّ .

- عمي نوح!! الله يحفظك ، أَرْسِلْنَا لبابور الماريكان .

وكنت تجيب بهدوء أبوي فيه بعض الصراحة .

- يا بنات!! ما زلتنَّ صغيرات على المغامرة . أنتِ وأنتِ وأنتِ okأما البقية ، في المرات القادمة إن شاء الله .

وتبدأ بعدها ، في ضرب المواعيد . هنّ كنّ يعرفن ذلك من خلال غمزاتك ، فتواطأن معك في كل شيء . اللواتي لم توافق عليهن ، يحاولن من جديد .

- عمي نوح! أنت ترسل القحبات للماريكان اعتبرنا منهن وخلاص . حابين نعيش .

و ترد أنت باتزانك المعهود :

- أنتن جميلات وما زلتن صغيرات . أنا أبعث الفنانات . أنتظركن في المرات القادمة ، ولكن تعالين على نظافة مثل اليوم بعطركن وأشواقكن . ليس الماريكان وحده يستأهلكن .

يضحكن على هذا الأمل الجميل ، ثم يتزربعن في فراغات الشاطئ الواسع ، ويندفنَ من وراء الكثبان الرملية ، العالية وهنّ يقهقهن بأعلى

أصواتهن ، بينما أنت تتأمَّلُهُن بكثير من الشوق ، وتحاول أن تسترجع استدارات أجسادهن الشبقية . أنا يا أميري نوح كنت أريد أن أكون شيئاً آخر . لم يكنّ بالنسبة لك ، أكثر من نساء وجدن لمن يدفع أكثر . وأنا كنت مغلقة ، ولن أتهاوى إلا على من يكشف سري بعمق .

وكُنْتُ أحد الذين فعلوا ذلك بشيء من التأخر .

و عندما دخلت بابور الماريكان ، كانت تعبرني دهشة خاصة ، لم أتعود عليها مطلقاً ولكنك كنت حاضراً معي في كل مكان . كنت أتساءل ، كيف ستكون اليد يا ترى التي تكشف خباياي ؟ ربما سَأُرْمَى في البئر ؟! أو ربَّما أحرق ، أو أُدْفَن حيّةً داخل حمَّامات الغاز البولونية! ؟ و لكني كنت مصممة على الذهاب إلى أقصى حدود المغامرة . كنتُ أخاف أن أعامل مثلما تعامل بقية نساء أمادرور الزرقاء ذوات اللباس الملون والمزركش مثل الألعاب النارية . كان عليّ ، منذ اللّيلة الأولى ، أن أمارس المسرحية مثلهن جميعاً . أن أقهقه . أن أفتح رجلي على وجه كل من يضع أكثر قدر من الدولارات على جرحي الذي لم أختره . ولكن لا أحد أكتشف خطوط نهدي الأيسر ولهذا بدل التمثيل صمّمت أن أَرْقُصَ أمام الملأ ، بشكل جنوني ، عارية الصدر ، وهم في أقصى حالات سكرهم . فجأت تعرت جميع "الفنانات" مثلي في شكل هستيري غير معهود . شعرت وقتها أنني صرت سيدة الجميع والذين كانوا منذهلين في حركتي الاستثنائية ، وفي جسدي . وفي لحظات الذوبان داخل الموسيقى الصاخبة ، وداخل كؤوس الشامبانيا وسجائر الزطلة والكنابيس و٣٦/٦ ولا أدري ماذا ؟ وداخل الأدخنة المدوخة والكيف المعالج والمحروق داخل الصدور ، مددت يدي بعينين مغمضتين نحو أقرب مخلوق منّي . التصقتُ بأول رجل . كان ضخماً وعالياً مثل حائط قلعة من القلاع القديمة . تفرست وجهه بصعوبة وبعدها قلت ليكن هو أو غيره . المسألة ليست هنا . وعندما هممت بملامسة شفتيه ، تذكرت أن هذا الوجه لم يكن غريباً عليّ . فقد رأيته في زاوية ما من زوايا هذه البحر الميِتة . قلتُ بصوت أجشّ ومتكسّر ، ها . .

ها . . الآن عرفتك يا حنش! ؟ أوسكار ؟ كيفك يا أوسكار . كان الرجل يعرف تفاصيل المسرحية ، لهذا ضحك بطيبة ومسد على شعري ثم ضغط على لحمي واضعاً نهدي بين كفيه . ثم قال . أنتِ مخطئة يا جميلة . أنا كل شيء إلا أوسكار ثم جرّني إلى إحدى القمرات ودفعني بقوة باتجاه الخزانة المحاذية لسريره . قال أنا سيد هذه المدينة البحرية العائمة (السفينة) . ثم قبلني من رأسي حتى قدمي ، وظل يلحسني بعد أن اتكأ على ركبتيه حتى شعرت بكل النجوم تدخل إلى قلبي ، وبكل المتعة تملأ دمي . وعندما انتهى ظل يتأمل جسدي وهو نصف عار . ثم قام من مكانه وهو يتمتم ، بعدما اكتشف علامات النهد الأيسر : أنت لنا ومنا . سأعمل على إبقائك مدة على ظهر هذه السفينة . وها أنذي أعود من جديد ، لأحبك أكثر ، وأشرف على كل بعثاتك "الفنية" باتجاه بابور الماريكان . وها أنذي قد هيت لك ولأكبر فترة ممكنة يا سلفادوري العزيز . أسميك سالفادور دالي وأعشقك . وإذا أبقى الله في العمر بعض الشيء ، سنفعل ما فعله رُذْريغُو دِي أرغون وإيزابيلا ، ونوحد مدينتينا . أمادرور ومدينة الزيت وأشواقنا . أنا كذلك أحلم بالعودة إلى مدينتي ودخولها منتصرة ، مثلك و لكن عندما تخرج منها عائلة أطلس الظواهري المقيتة .

ـ يالاله سارة ، خليه يزيد وسميه سعيد . ما زلنا في تهلكة الفراغ الأزرق .

قلتها مع ضحكة طويلة ، ناشفة ، كانت في الحقيقة ضحكة اليائس .

ـ أنت يا سيدي ولدت لتكون حاكماً وليس شيئاً آخر .

أشياء كثيرة كانت تحترق في داخلي مثل التبن الغامل ، وكان بعض المغص قد اجتاح كل أجزائي البطنية السفلى . هذه السيدة ، تتحدث عن الرجال الذين شقوا جرحها ولحسوها ، مثل الذي يتحدث عن أي حدث عادي وعن حكاية تافهة لا تهمها ولا تعنيها . كدت أصرخ بأعلى

صوتي . أنا رجل غيور ، يكفي من هذا الخرا . لقد تعبت ؟ ؟ ولكن خفت أن أفقدها وأبدو تافهاً في عينيها . فأنا أشعر بالرغم من الألم الذي تورثه حكاياتها ، أن في قلبها شيئاً من الصدق والعنفوان ، وإلا ما الذي يدفعها إلى هذه الصراحة الجارحة ؟ شيء من الغرابة في قصتها وفي أشواقها . وتلك الرموز العبرية ؟ هل قرؤوها ؟ هل فكوا أسرارها ؟ لماذا بقيت كل هذه المدة هناك ؟ في أي شيء تَختلف عن غيرها في فراش الماريكان ؟ هم كذلك همج . رأيتهم ، لا يعرفون من "الفنانات" إلا سعادة السرير . ما الذي تتميز به سارة لكي تبقى هناك كل هذه المدة ؟ ماذا قالوا لها ، لتأتي إليّ وتتساهل في علاقتها معي ؟ أسئلة كثيرة أشعر باستعصاءاتها تملأ قلبي وذاكرتي . ومن بعد ؟! وأنا مالي ومالها في نهاية المطاف . الأمر يخصها . يهمني أن أركبها لأصل قمة الهرم . ويهمني أن أركبها لنسيان الأمومة الزنجية . فجسدها يغري حتى الحائط الميت . هي قريبة من رجالات السفينة . يهودية ولكن أليست هي كذلك من أهل الكتاب ؟! يوه . . . يوه . . . وكأني أنا رجل مؤمن وفقيه متصوّف . خَلِّنا من حكاية الدين . ورقة ، كل واحد منا يستعملها بطريقته عند الحاجة الماسة . الأفضل أن أكتم أنفاسي . أن أخرس نهائياً . أنا هنا في مهمة تاريخية ، وأعيش فرصة قد لا تعود مطلقاً ، يجب ألاّ أقتلها في آخر العمر ، وأنا على مشارف التتويج . لتكن من تكون . سارة جميلة والسلام ، ووسيلتي الكبيرة ، وسلاحي داخل هذا الفراغ للوصول والمقاومة .

أنا تعودت على هذا المنفى الأزرق وكل ما يحدث ، هو مجرد احتمال .

حتى هذه الكائنات ، وهذا البحر الذي أعبره ، هذه الوجوه وهذه الأوهام ، وهذه الذاكرة ، كلها احتمالات داخل هذا المنفى .

ولكن يجب أن يُستعاد المجد الغابر والمجد المسروق .

خلِّك من الفستي (الكذب) يا ولد الناس . قلتها في خاطري . لا

أمجاد ولا بطيخ . الزمن زمن المافيا . هم يلعبون بكل ما يملكون من طاقة وأنت تلعب بكل ما تملك من سخرية باطنية لا تدريها ولا تتملكها بقوة ، ولا تعلم حقيقةً ، إذا كنت ستتمكن من عبور الضفة الأخرى ذات يوم أم لا .

ينتابك الحنين ، يا نوح ، يا نويوح . يا أمير الفراغ والمنفى . تتمنى أن تعشق البلاد البعيدة ، ولكنها تتمنَّع بقوة ، وتتساءل في خَلواتك الكثيرة ، إذا كان سيُكتب لك ولعيونك أن ترى شيئاً آخر غير هذه الزرقة التي أكلت خمسين سنة متتالية من عمرك . شيء في خاطرك يدفعك نحو الصراخ بأعلى صوتك ، وبأعلى حضورك وغيابك ولكن عشقك لسارة ، جَعلك تؤجل كل شيء إلى أجل غير مسمّى . سارة مذهلة . ستسعد إذا قبلتها كما هي ، داخل جنونها وتقلباتها ، فالأسئلة حولها لا تدفع إلا إلى مزيد من الخراب والكآبة .

قضيت عمراً ههنا ، نصف قرن بالتمام والكمال ، وأنا أتفادى طرح الأسئلة المحرجة لي ولغيري . ما الذي يمنعني الآن من مواصلة الصمت نفسه والابتعاد عن كل ما يمكن أن يدفع بالأوراق المدفونة إلى الظهور والاختلاط . لم يبْق زمن أطول لتجاوز حالة الصمت هذه . فالسؤال يفسد رجال السلطان ومقاليد الحكم ويردَ المآزق إلى بداياتها الأولى . وإذا قيل لي الآن ، يجب تكرار ما قمت به من طقوس منذ خمسين سنة إلى الآن ، سأودع الدنيا بعيون مدورة ، وبدون ندم . أخلي ذاكرتي من كل تفاصيلها وأرمي بنفسي داخل شقوق البحر ، ليأتي بعد زَمن غير قصير ، باحث انطروبولوجي ، ويضع عظامي داخل زجاجات سميكة في أحد المتاحف الغربية ويكتب تحتها عظام الأمير العربي الحاكم . نوح ولد الملياني ، الذي اكْتَشَفَ مُتَأَخِّراً ، أنه طوال الخمسين سنة ، لم يعش إلاّ يوماً واحداً ، ظل يكرره مدة نصف قرن .

الصمت هو البلاغة القصوى أمام هذا البحر الكبير .

وسارة ، علامة هذه الزرقة ، وقد تتحوّل إلى علامة للسلطان

القادم . جمالها ، شدّ الرذاذ وغيمة الدهشة ومتعة الغريق بالنجاة ، وسحر هذا البحر المنسي لأحاول أنا الأمير الوحيد في هذا الفراغ الأزرق ، أن أتملك هذا الرذاذ وهو في الهواء ، قبل أن يتهاوى على الرمل الجاف ، وتبتلعه الشقوق والرمال والخريف . لا شيء في هذا القعر سوى الرماد وهذه الشعلة التي اسمها سارة .

* * *

القسم الرابع
رايات الفاطمي المنتظر

- I -

هذا اليوم استثنائي جداً ومُمْتَلِئٌ بالمفاجآت السارة ومثقل بالأشياء الغامضة .

يوم واحد وسط خمسين سنة مرتْ وكأنها خمسون قرناً ؟

يوم واحد ألغى الكثير من الأشياء وجاء بِأسئلته الحادة والحارة والمؤذية أحياناً . كان لهذا اليوم علاماته منذ الفجر الأول عندما قمت لأداء طقوسي الاعتيادية . العاصفة فجأة توقفت ، ألوان السماء تغيرت . البحر نزل قليلاً . الشيء الوحيد الذي زادت قوته وعنفه ، الجبل الذي يحتضن البحر ، فقد اسودّ دخّانه ، وبدأت أصوات انفجاراته تأتي من بعيد . الذي أدهشني ليس فقط هذا التحول العجيب الذي يوحي ، وكأن الدنيا تتهيأ لاستقبال حالة لم تعهدها ، وليس العلامة الخضراء التي نحتت اسمي داخل الألوان الزرقاء وملأت كل الساحل القديم الذي دفع الناس إلى الدهشة ، والنظر إليَّ بعيون مُنْذَهلة ومدورة ، ولكن الذي أدهشني هو حلمي .

حلمي الذي اشتقت إلى تفاصيله وألوانه .

فقدت علاقتي بالحلم منذ زمن بعيد ، منذ قرابة النصف قرن . لم

أحلم إلا مـرتين تقـريبـاً . في المرة الأولى ، عندمـا تركت القـصـر وفي حلقي ، ليس فـقط مقـتل والدي بـشكل بشع ولكن انكسـار السلطان الذي كـان قريباً منّي جداً . ليلتها رأيت في الحلم نورساً متسخاً مثل تلك التي رأيتـهـا لأول مـرة على هذا السـاحل ، كـان يعلو ، وظل يـعلو حتى اختنق ، وسقط مثل الحجرة اليابسـة ، و يتكسر بعدها على الأرض كـقطعـة رخـام . ظل قلبي منقـبضـا من هذا الحلم-الكابوس . تمنيت أن ألتقي بشخص أسأله ، ليخرجني من حالة الحيرة . لم أجد إلا أوسكار الذي ضحك مني كثيراً بدون أن يقدم لي أية أجوبة مقنعة . لكنه بعد يومين جاءني بضحكته المعتادة ، وقدم لي كتاباً ملفوفاً في ورق . عندما فتحته كـان عنوانه : تفسير الأحلام لسغموند فرويد . التهمته بسرعة ولكن تـأويلاته لم تـخـرجني من حيـرتي . تذكـرت مـرة أخـرى كلمـة أوسكار أول مرة عندما بادرته بالحلم ، قال :

- اسمع يا أميـر ، لو كنا نحزن للأحلام لقضينا العمـر كله داخل موت مؤجل . إنس هذه الأشياء ، فأمامك زمن طويل ومهمة استثنائية ، لن يقـوم بـهـا غـيـرك . إنْسَ كل شيء ، وفكر في حيـاتـك ، في قـوتك اليومي حتى لا تموت جوعاً ، في مستقبلك .

ثم انطفـأ ، وبعد مـدة أخرى رأيته من جديد . سألني إذا حلمت ثانية . فقلت له لاَ . ثم سألني إذا وجدت شيئاً في كتاب فرويد ، فقلت له لا . انسحب بعـدها ولم يضف شيئاً . عند البـاب قال لي وهو يرسم آخر ابتسامة في ذلك اليوم . . يبدو أنك بدأت تشفى من مرض الحلم .

وهاهو ذا المرض نفسه يعود بعد خمسين سنة محملاً بكل الأسئلة القديمة . حلم نادر في زمن نادر ، وأنا أتهيأ لمغادرة هذا المنفى الأزرق . فقد وقف عليّ أحد الأولياء الذين كدت أنسـاهم . سيدي علي برّمضان . يقـال إنه أحد أجدادي الذين لم يحملوا إلا رؤوسهم من الأندلس ، بعد أن تركـوا هناك أَفـراحـهم ومـدنهم وأشـعـتـهم وألوانهم ، صـراخـاتهم وحنينهم . جاءني وكنت قد سرقتُ من مقامه في طفولتي ، حجرتين في

زيارة خاصة مع والدي . . حجرتين بيضاوين أخذتهما من "حويطته" . كان يلبس الأخضر عندما وقف عَلَيَّ في الحلم . قال : لقد كسرت الوقار عليّ يا ولد الملياني . حاولت أن أتذكر ماذا فعلتُ له من سوء ، ولكنني أخفقت . فقلت له يا سيدي! أنا لم أفعل شيئاً يؤذيك . حتى الزيارات إليك ، فنحن نؤديها بشكل منتظم ، هموم القصر لم تمنع والدي من التصديق على روحك ، والأمر بذبح الخرفان والوكاريف (العجول) ، استرضاء لمحبتك . ولكنه ظل مثبتاً عينيه الحارقتين في رأسي وأعاد عليّ كلامه الأول . لقد كسرت الوقار عليّ . وفجأة ذكرني بياض وجهه ونصاعته بالحجرتين اللتين أخذتهما من حويطته . هززت رأسي وأحنيته ، وقبل أن أرفعه ثانية ، كان قد انسحب . وفي هذا الصباح الاستثنائي ، وقبل أن أقيم صلواتي وأرشق الخشبات في صدر السفينة الذي اتضح ، وأصبح يواجه البحر بكل تحدّ ، بَحَثْتُ على طول الساحل عن حَجْرَتَيْن بيضاوين . وجدتهما بصعوبة . تأملتهما جيداً . قلت في خاطري ، هذه هي حجارتك المسروقة ، ثم طوَّحتها بكل قوة باتجاه عمق البحر الهادئ على غير عادته ، وأنا أصرخ بأعلى صوتي :

"هاهي حجارتك يا وليّ الله . خذها ، فهي ليست لي ولكن أعد لي أرضي التي سرقوها منّي ، حجْرة واحدة ، لم تسخ بها ، فماذا أقول أنا الذي ضيّع بلاداً بكاملها ؟" .

لم أسمع شيئاً سوى الاختراقات التي أحدثتها الحجرتان داخل سطح الماء . وأنا أمشي على الساحل ، تعثّرت فسقطت على حجرة تشبه حجارته البيضاء ، كادت تشوه وجهي وكادت أسناني تسقط ، التفتُّ نحو البحر ، باتجاه مسقط الحجرتين وأنا أردد بانزعاج كبير .

"لعنة الله على حجارتك يا سيدي عليّ برمضان" .

لا أدري ، أين كان ينتظرني هذا القلق . قلت مرة أخرى في خاطري ، ربما كانت هذه علامات توكيدية للرحيل . سرقت حجارته البيضاء فنفاني ، وهاأنذا أعيدها له بعد خمسين سنة ، ليرجعني إلى

أرضي وتربتي . وأنا أسترجع أشواقي الصغيرة ، وأحلامي المدفونة في الأعماق ، شعرت ، كأن الدنيا ، صارت تركض بسرعة عجيبة . بعدما كانت ثقيلة كالرصاص . والأشياء المحيطة تتغير هي كذلك ، مخلّفة وراءها أسئلة غير اعتيادية . ونشاط الناس وخوفهم يزداد بتواتر ، بعدما دخلوا روتين المعاش اليومي . البحر اليابسة . اليابسة البحر . الرعب أحياناً ، ينشط الدورة الدموية ، إذ طوال هذا اليوم ، ظل حديث القاصي والداني ، يدور حول العلامة الجيدة التي ملأت السماء فجأة ، فسرقت زرقتها ، وعوضتها بخضرة لامعة . وهي ثاني علامة في ظرف وجيز ، بعد ظهور المخطوط الشرقي ، الذي عقّد التفاصيل ، أكثر مما فكّكها . صار الحديث لا يكاد يكتمل عن علامة ، حتى تأتي علامة أخرى ، بدهشتها وتفاصيلها . لكن هذه الخضرة حيرت أكثر من مجموعة .

فقد رأى الناس ، في الفضاء الأزرق الباهت ، كتابات خضراء مشعة ومضيئة . وأنا كذلك أشهد أني رأيت ما رأوه ، "لا يغيّر اللّه ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم" ، "الأمير نوح الصغير سلطان الدين والدنيا" ، "أطيعوا أولي الأمر منكم" . . . هذه العلامات نادرة ، وتعطي الانطباع وكأنها ثمرة من ثمرات القدرة الإلهية ، لكن بعض الفضوليين ، والحمد للّه أنهم قلّة ، يقولون إن وراء العلامة يداً بشرية متطورة ، ولا دخل للّه فيما يبدو أنه سحر ، وهو ليس كذلك . وأصبحوا يشيعون في الشاطئ وبين بقية الصيادين ، بأنها مجرد خطوط ضوئية كتبت بأشعة اللاّيزر لمزيد من الدهشة والتخويف . بينما الكثير من الصيادين ، ظلوا يجوبون الساحل ، تاركين عملهم وهم يقسمون إن كل ما رأوه كان حقيقة . حقيقة رأتها العين التي لا يأكلها دود ولا تمسسها نار . حتى أن أحد هؤلاء أوقفني ولسانه يتدلى مثل حبل صغير وأنفاسه تتقطع من كثرة جريه على امتداد الساحل ، وفي المرتفعات . لأول مرة ، منذ نصف قرن ، يتجرأ صياد أن يحدّثني في منتصف صلاتي ويقاطعني بجرأة وخوف يُقرأان في عينيه وسداد في حلقه .

ـ وحياتك يا سيدي ، نحن نراك ولاَ نراك . نعرفك ولاَ نعرفك جيداً ولكن قيل إنك نوح الصغير ، من بقايا السلالات المالكة ، والمهدي الذي يعيد إلينا ضائع الأمجاد ؟!

قلت وأنا أحاول أن أكتم فرحة داخلية وحقداً دفيناً بدأ يشرئب قليلاً . أولاد الحرام . المقطعون . الآن فقط عرفوا قيمتي . راح يشوفوا! نْوَريهَمْ الزَنْبَاعْ وِيْنْ يَنْبَاعْ . قلت وأنا أواصل اصطناع وقاري .

ـ أنا لا أكذبك ولكن أيها الصياد ، ألا ترى أنّي أصلّي!

ـ ولكن يا سيدي ، ما يحدث مرعب ومخيف . كيف لم نعرف كراماتك ، بعد كل هذا الزمن ؟ أين كنّا يا وليَّ اللّه ، وسلطان هذا الزمان ؟

ثم بدأ يَنْحَبُ ويبكي عينيه اللتين يأكلهما الدود ، لأنهما لم تفهما كل إشاراتي الصوفية وسماتي المنبئة بمعجزاتي . ثم استدار نحو البحر ونزع حذاءه وقميصه وغسل وجهه ورجليه وشعره بماء البحر وبدأ يصلّي عند قدمي ، ويجهش بأعلى صوته ، أن أقبله خادماً في حضرة مقامي .

بعد الصلاة طمأنته وضربت على كتفه .

ـ قم يا أخي . نحن أبناء آدم وحواء . ولا فرق بيننا .

ـ يا سيدي ، أهذه من كراماتك ؟ أنا لا أشركك ولكنّي أسأل عن سر الحقيقة .

ـ قد يكون ، وقد تكون من رضا اللّه عنّي . فقد اصطفاني لأكُونَ روحَهُ في الأرض .

ـ اللّه! اللّه! ما أحلى هذا الكلام . إذن يا سيدي هذه علامات السلطان وليْسَتْ علامات القيامة ؟ ؟

ـ أنت تسألني عن أشياء هي من علم الغيب ، ومن أسرار الله عز و جلّ .

ـ ولكن ، ما دام الله قد كلمك بالضوء الأخضر ورسم اسمك وشرح صدرك فأنت كذلك . . . استغفر الله الرحمن الرحيم .

ـ يا رجل لماذا تؤنّب نفسك يكفي أنّ نيّتك طيّبة .

في الحقيقة أنا نفسي لم أفهم جيّداً هذه التحوّلات النادرة . مقتنع من الناحية العلمية بأن أشعة اللاّيزر تستطيع فعل أكثر من ذلك . لقد هرب العالم علينا من هذه الناحية حتى صرنا لا نفهمه جيداً ، لكن الذي ظل يشغلني ، هذه الحالة التي ركبتني فجأة . هذا اللسان الذي صار رخواً بعدما كان متصلباً مثل الصخرة . هذه العلامات المشعة التي أصبح كلّ الناس يرونها ويلمسونها ، حتى ألدّ أعدائي في هذا الساحل . من وراء كل هذا ؟ طيب أنا على الأقل ، من غيّرني من داخلي ؟ من يملك القدرة على فعل كلّ هذه الأشياء بشكل مدروس ومتقن يشترك فيه العلم والطبيعة ؟ منطقياً لا أحد يملك ذلك سوى هم . هم وحدهم . الأسئلة تحرجني . نصحوني بعدم فعل ذلك ، لكنهم يُدْخِلُونَنِي في حالات لا أملك حيالها سوى هذه الوسيلة . الأسئلة . الأسئلة التي تُفْضِي أحياناً نحو قلب الفراغ ومزيد من الدهشة . ثم لِمَ لا يكون الأمر حقيقة ؟ لماذا لا يكون تشوُّقاً من اللّه ليورّثني أرضه ؟ أرضي المسروقة التي نهبت وأكلت . ولكن سرعان ما تتهاوى الحيرة في داخلي لتواجهني الحقيقة بفجائعيتها .

يا نوح الصغير! ؟ أيها الأمير المنفي . أنت تريد السلطان ، فخذه والسلام . لا يمكن أن يكون الله ساذجاً إلى هذه الدرجة ويسلم أرضه بكاملها لرجُل عجز حتى أن يحب ؟! خلّيك من الخرطي يا رجل . الأمر مدروس بدقّة من أصدقائك الذين يريدون إيصالك إلى السلطان ، فلا تكن غبياً . تفهم حبّهم لك وحفاظهم عليك . إنهم يخلقون لك شرعية إلهية بعدما فشلوا في خلق شرعية اجتماعية لك . فهذه الجزيرة المعزولة أمادرور (حضر موت) الزرقاء هي تحت عيونهم وعيون سفنهم وعساكرهم . أين إلهك يا رجل ؟ أخرجه للبسطاء . ولكن أنت ، أنت

الآن الأكبر . فلا تصغر . هم حمايتك وظهرك . البارجة الكبيرة التي تتخبّأ وراء كثافة الغيوم الداكنة ، داخل المتوسط ، لا تظهر إلاّ بعض جنباتها وأضوائها ليلاً عندما يكون الجوّ صحواً ، ها هي ذي تسندك بأصوات مدافعها ومتفجراتها وألعابها النارية . منذ خمسين سنة وهي هناك ، مثل الحيَة العمياء ، لم تحرّك ساكناً أبداً . مدينة زاهية . رقص وفرح . الدنيا حالتها حالة ، كلها في خدمة مشروعك القديم . حل عينيك يا صاحبي و بركة من التخلاط ؟ خلّ اللّه للّه وللمقطَعين ، أمّا أنت يا أمير نوح فقد صرت سلطان الدين والدنيا كما كان يشتهي والدك أن يسمي نفسه .

تَنَبهت فجأة لتهويماتي وأشواقي . شعرت بكل المكبوتات تخرج دفعة واحدة . سعدت أن البحار الذي كان يصلّي عند قدمي أخرجني من ذهولي .

ـ يا سيدي! ألا تدخل إلى بيتك . يقولون إن البركان سيقذف حممه قريباً وأن زلزالاً سيحدث .

ـ ليكن! إذا كتب لنا أن نحترق الآن على هذه الرمال فتلك مشيئته .

ـ قل يا سيدي . . .بعد هذه العلامات ، متى يرث الله أرضه . أرضك يا سيدي . متى تتحول كل هذه المحيطات إلى حمم متلاطمة ؟

ـ عندما يشاء .

ـ ومتى يشاء ؟

ـ إذ يشاء نشاء . نَسِيَ أن يقول لي بالضبط متى ، فقد كان منهمكاً بهول الفراغ والحِمَم .

بقي مندهشاً واضعاً سبابته في فمه ، يحاول عبثا أن يجد معنى لما كنت أقوله . في الحقيقة أنا نفسي لم أكن أصطنع ، فقد كنت أجيبه

بعفوية وبدون أدنى تفكير . كان بسيطاً مثل هذا الماء وفارغاً مثل هذا المنفى ، وعارياً مثل هذه الرمال . أنا على يقين أن لا أحد يستطيع فك لغز الزلزال وحدوثه الذي أكده كثير من الناس . قرأت بعض الكتب العلمية حول هذه المسألة ، وكلها أجمعت بدون استثناء أنه لا يمكن في الوقت الحالي التنبّؤ بالزلزال . ومن الصعب عليّ تقبل هذه الأوهام ، بأن زلزالاً سيحصد أمادرور (حضر موت) الزرقاء بكاملها ، وأنا في كل هذا الصفاء العقلي ، إذا قبلت بالحكاية فلأنّ أصدقائي الأنتروبُولوجيين يريدون ذلك . تربطنا أسرار ووعود كثيرة .

يقرأ الرعب في عيون الناس الذين يصدقون والذين لا يصدقون بسهولة والذين لا يصدقون مطلقاً . زاد طعم الفاجعة أكثر . ماتَ النشيد اليومي الذي كان يأتي من زاوية بعيدة ، من خراب ما ، أو من مرتفع ما ، أو من زرقة ما ، مثلما كان يفعل خويا عيسى الجرموني قبل أن يموت وصرت أتوهّم حضوره في كل مكان . ها هو ذا يتسلّلُ مثل الخيط داخل الرّوح .

يا بابور اللّوح

درتلي جمرة في الرّوح

وقليبي مجروح

كي ادّيت غزالي لبعيد .

نبّهني الصياد من جديد وهو يلملم قميصه الذي صلّى عليه ، وحذاءه و يبسمل و يحوقل و يلعن الذين لا يصدقون العلامات و الإشارات .

ـ ألا تسمع يا سيدي الكبير هذا الصوت المخيف . إنه نذير شؤم مثل البوم . يذكر بالفقدان و الخسارات التي لحقت بهذا المكان الذي يروى عنه أنه كان جنة الله على الأرض .

- إنه النشيد اليومي للبحر الذي تركه عيسى قبل أن يندثر و يصير رملا و ترابا .

- وحقّ ربي يا سيدي أنت علامة هذا البحر . اللّه يحفظك من كل مكروه . سأكون خادمك يا كبير الشأن وقاهر الظلمات .

وقبل أن التفت نحوه مرة أخرى كان قد انطفأ على الساحل ، ساحباً في طريقه الناس الذين كانوا قد بدؤوا يتجمعون على الساحل ويفكرون في الهجرة ويتساءلون بيأس كبير ، إلى أين ؟ الصيادون لم يدخلوا البحر رغم هدوئه . إنها لحظات الهدوء الخادع كما يسمّونها . ظلّ الرجل يجوب البحر ، حتى بدا لي كالمجنون ، وهو يصرخ بأعلى صوته :

"يا سامعين ، يا العميان و الطرشان و يا الزحافين ، ما تسمعون غير سماع الخير . العلامة جات ، تأخرت ولكنها ظهرت . كانت قدامكم بصح عماكم ربي عنها . سبحان اللّه ، والحمد للّه ، واللّه أكبر . يا سامعين . . ." .

في البداية بدا لي كالمجنون الذي يبحث عن مؤنس ولكن سرعان ما تركته مع خبله ، لأني عندما تأملت نفسي ، أحسست من حيث العمق بجنون يتجاوز جنونه ، وهباله وخبله .

البحر هادئ لكن شيئاً ما كان يتغيّر خفاء . لم نكن نملك له سبلاً كافية لفهمه . حتى الموجة العملاقة التي كانت كل مساء تخبّئ الشمس ، بدأت تتضاءل و تنسحب بهدوء ، بعيدا عن هذه الأمكنة التي عمّتها رائحة غير معهودة تشبه رائحة الخوف .

منذ أن أكل البحر الزنجية ، استأجرت أنا وسارة الكثير من الشخوص لمساعدتنا على تسيير الوضعية التجارية التي تعقّدت . قالت أنا ابنة المنطقة . ضعت كثيراً في البراري . واقترفت كل ما يقربني من اللّه وكل ما يبعدني عنه . كبرت داخل هذا الفراغ الأزرق كما تسمّيه .

وأعرف الوجوه جيداً . سأختار الجماعة التي تثوّر تجارتنا وتخدمنا ، لأننا أسياد والسيّد يجب أن يُخْدَمَ . بعد أيام ستعود إلى عليائك وسنوقف هذا التمثيل السيّئ الذي نجبر على ممارسته يوميا . أنت سلطان ومكانك القصر وليس الفراغ .

فكرت في استشارة أوسكار قبل الإقدام على هذه التجربة ، قالت عين الصواب . وعندما دققنا في قائمة الخدم وقدّمناها له لمزيد من الاطمئنان ، ضحك منا كعادته وقال :

- وهل يستطيع شيخ مثلي أن يعرف ما تعرفانه من داخل الناس ونزواتهم . كل ما توافقان عليه ، أبصم عليه بالعشرة .

عندما انسحبت نحو البحر ، التفت أوسكار نحوي وهو يفرك يديه كالمنتصر .

- شفت يا أمير! الفرق واضح بين امرأة تسحبك نحو الموت وأخرى تَجري بك بسرعة نحو الدنيا . سارة شجاعة ومبادرة .

لم أردّ . كانت الفرحة شاملة في داخلي . كنت قد بدأت أشعر بأن كل طرقات العودة صارت مختصرة وهذه المرأة صرت متأكداً من أنها جُزءٌ مهمٌّ من طريق العودة . كل الناس الذين اختارتهم بكاكيش ، لا يتكلّمون ، وعندما تحدثهم لا يجيبونك إلاّ برؤوسهم . يأخذون البضاعة باتجاه الساحل وهم لا يعرفون ماذا يحملون . يحطون البضاعة بمجرد رؤية الفلوكا أو الاشارات الضوئية ثم ينسحبون قبل وصولها بقليل . وعندما يصل الرجل الملثم ينزل من الفلوكة ، يعدّ الأكياس واحداً ، واحداً ثم يلوح لهم من بعيد ، فينسحبون ويدخل هو أعماق البحر . الرجل الملثم نفسه لا يفتح الأكياس . يتحسسها . يهزّها قليلاً ثم يرميها مباشرة في الفلوكة . حتى نحن لا نعرفه ولا يعرفنا . فهو غير الرجل الأول الذي تعامل معي و مع الزنجية . أوسكار هو الذي نظم تعارفنا به بالرغم من أن الرجل لم ينزع لثامه مطلقاً ، ولكنه كان باديا عليه أنه يعرفنا قبل هذا اللقاء . قال أوسكار ونحن معه في عرض

البحر ، هذا الرجل الجديد سيساعدكم في تجارتكم . آتوه بالبضاعة واتركوه يتصرف . وبعدها سارت الأمور بشكل طبيعي وآلي . يأتي ، ثم ينسحب . وفي رأس كل أسبوع مسيحي ، تأتي سارة ، تنتظره ، يأخذ بضاعته . ينسحب الحمّالون وتبقى هي وحدها مَعَهُ . يَضَعُ النقود في كفّها تُخَبِّئُها هي بدورها في صدرها بعد أن تحسب برؤوس أصابعها عدد الدولارات الخضراء . وعندما يغيب ، خصوصاً في المساءات القمرية ، تركض على الساحل بشكل طفولي وأسمعها وهي تقهقه .

- يا أميري نوح الليلة ليلة المطنزة . اجر وإذا لحقتني خذ دراهمك من صدري .

أركض وراءها ، ورغم تعبي لا أتعب . وعندما تريدني أن ألحق بها تتراخى في الطريق . تقلّل من سرعتها تفتح فمها وشفتيها الرقيقتين ، وتتنفس بصعوبة ثم تتمدّد على الرمال فاتحة يَدَيْها في شكل صليبي ورجليها ، وتقول ، كلني ، اخنقني يا أميري . العمر يمضي بسرعة . وأقبلها بقوة رغم أنفاسي المرتبكة من كثرة السرعة . أتمدد على صدرها . أشعر بقلبها الصغير وهو يدقّ بشكل غير اعتيادي وشفتيها الساخنتين واستدارة نهديها اللذين يفيضان بين أصابع اليد كلما ضغطت عليهما . أشتعل ، فتبدأ السنة النار واللّذة تخرجان من جسدينا .

تغطينا السماء والقمر .

تباركُنَا الزرقة والبحر .

وتفرشنا الرمال و ندى المساءات البحرية .

وبعد ساعات نعود إلى القلعة مثلما نفعل عادة . نَتَسكل ونغنّي ونُعاود وهي تلبس غلالتها الشفافة .

- هيت لك يا أميري ، أما زلت قادرا .

- أنت امرأة لا نلمسها إلا لنجوع ثانية .

يبدو أنه منذ أن وجدت سارة داخل قلبي وعثرت على ضياعها ، الدنيا تغيرت . أصبحت أرى أشياء لم تكن تثيرني سابقاً . مثلاً ، البنايات البيضاء الصغيرة التي بدأت تنبت في كل مكان ، كنباتات الفطر . تهريب الكيف و المرجان الذي نحتكره ، أخرج الكثير من الناس من بؤسهم اليومي ، وأصبحوا يفكرون في الخروج من الجحور وبناء بيوتات صالحة للسكن والعيش .

المال كله تمركز في يد سارة ، وهي التي تحدّد أسعار البضائع ، لأنها الوحيدة القادرة على إخراجها من هذا الفراغ . حتى مهنة صيد السمك ، بدأت تتوارى قليلاً ، وتحوّل الكثير من الصيادين إلى البحث عن الكُوراي الآجوري لبيعه لسارة أو سيدة القلعة كما صاروا يسمونها . والبقية يضربون النَّح على بناتهم ويتركونهن يذهبن إلى سفينة الماريكان ، لأنهن في اعتقادهم يذهبن لتنظيف السفينة وتحضير وجبة نهاية الأسبوع .

قالت سارة ، وهي تعدّ الورقات الخضراء التي دخلت هذا الشهر .

ـ أنت تعرف يا أميري أن السلطان لا يقوم بدون مال . غيابه يورث المذلّة .

ـ العلامات التي تقع في هذا الفراغ بدأت تغير من عادات الناس و تمنحنا ثقة كبيرة في مشروعنا .

ـ هذه بدايات السلطان الذي كدت تيأس منه .

ـ خمسون سنة تأكل اللحم وتنحت الحديد .

ـ ومع ذلك ، لا شيء أمامنا سوى انتظار لحظة الانفراج النهائي ، وها هي ذي العلامة .

ـ هي العلامة . . .الضوء الأخضر . . .لا يغير اللّه . . . نوح سلطان الدين والدنيا . . .هل تصدّقين ما يحدث أمام أعيننا ؟

- إذا كان في صالحنا عليّ أن أصدّقه ولو كان كذبة محبكة . لا يهم . على الغاشي الذي هنا أن يقتنع بجدواك .

- قصدك العلامة غير حقيقية ؟

- ومن بعد ؟ الناس صدّقوها وقد أُنْجِزَتْ لإقناعهم . فأنا مقتنعة أصلاً أنك سلطاني . البقية لا تهمني . الناس اليوم يفعلون العجب العجاب بأشعة اللايزر .

ياه ؟ ؟ امرأة ليست ككل النساء . فيها الكثير من السحر . تعرف مغادرة المآزق بدون تردّد ومع ذلك يجب الحذر من الردود السريعة . الرجل المهبول الذي أراد أن يكون خادمي ليس سهلاً . من يدري . لهذا البحر آذان ، ولهذا الصمت طقوسه . الناس ليسوا شَرْطاً بئيسين . أحياناً يريدون معرفة التفاصيل . يجب أن نتبالد ، عندما يكون التَبَلّد ضرورة ، وأن نتعلّم عندما يصير العلم وسيلتنا الوحيدة في الدنيا . ظهور علامة مثل هذه لا يمكن أن يقف الناس أمامها بحيادية . الذين يقرؤون والذين لا يقرؤون والذين يفقهون والذين لا يفقهون ، لكل أسئلته و انشغالاته ، لكن العلامة بالنسبة لي هي يقيني الكبير ، أن عبور البحر أصبح مسألة أيام معدودات . لا يمكن لهذا العلم أن يقف ضدّ نفسه . لا أحد وراء العلامة ، سوى العلماء الأنتروبولوجيين . لم يخبروني . هذا لا يهمّ . لكن المؤكد هو أن هذه الرعية الهوجاء في حاجة إلى من يوجهها ويقودها ويشغل جهلها ليحوله إلى طاقة لتدعيم السلطان وخدمته .

منذ ظهور العلامة ، تغير وقع الأيام . الناس لا شغل لهم سوى ما رأوه ويقسمون على ذلك ، بعيونهم التي سيأكلها الدود . وعندما أمرّ عليهم على أطراف الساحل ، بعضهم يستحي من نيّاته البغيضة ضدّي و من سخريته السابقة . والبعض الآخر يحاول أن يسلم على عصا البانبو أو البلغة أو يغلق عليّ الطريق ، ويسجد على قدميه ولا يتحرك إلاّ إذا حككت على رأسه ، فيقوم ينط مثل الطفل . لكن البعض القليل جداً من الصيادين لم يكونوا معنيين بما كان يدور أمامهم من أحداث . زاد

إهمالهم لي . العلامة ، الكتابات ، اسمي ، الآيات القرآنية ، لا شيء كان يعنيهم أبداً وكأنهم كانوا ينتظرون أمرا آخر أكثر أهمية . فهم في أغلب الأوقات يكونون منهمكين في قراءة البيانات المصورة من كتاب المخطوط الشرقي ، في وقت عافها كل سكان الساحل منذ بروز العلامة . وجود وريقات المخطوط الشرقي يزعج كثيرا أوسكار . ظل يتساءل ، عن ابن الكلب الذي لا يزال يملك القوة ليتحدّاه ويتحدّاهم ويوزع البيانات المضادة والتي تبشر بعودة مهدي ، وعبد الرحمن ممتلئاً بالحياة والعدل والوحدة وتفضح كل الخبايا ؟ في بعض هذه البيانات كتب في زاوية منها تعليق يقول إن العلامة هي مجرد خدعة بصرية لا أكثر . بعض الصيادين يقرأ و يفهم و يردد ما قرأه وبعضهم الآخر لا يقرأ ، يضع البيانات في جيبه ثم ينسحب على أطراف الساحل .

في الحقيقة أشدّ ما كنت أخشاه هو أن يظهر داعية في هذا الساحل الميّت الذي أعطيته أنا وسارة حياة جديدة ويدّعي النبوّة والملك وينافسني . الصياد الأوّل الذي ضبط يوزّعها نفي إلى الصحاري في إحدى مقاطعات أمادرور (حضر موت) ، لكن هذا الموزّع الجديد يمكن أن يكون من هذه الوجوه التي تعبر البحر يومياً وتستفزّني بعيونها المدوّرة . هَاهُمْ مثل الجوارح! ؟ أنظر إلى عيونهم جيداً ، لكنهم ينزلقون كالسراب . يخافون من صمت البحر ، ويضطرون إلى الدخول . لقد جاعوا وجاع أبناؤهم . يندفعون أكثر داخل الزرقة بفلوكاتهم البالية . لا يقفون لحظة واحدة لتفهم ما يقع ، بل يحتقرون حضوري الذي سحر جميع الخلائق والنّاس إلاّ هُمْ . منذ أن عدنا من المصفاة ، انسحبوا من طريقي ، قلّت نكاتهم وصار الحديث معهم صعباً إن لم أقل مستحيلاً . أتساءل ، هل وصلتهم كل حقائق المصفاة! يمكن . لا شيء مستحيلاً في هذا الفراغ . وحتى الرجل الصياد الذي خرج مع عبد الرحمن ، ماذا كان يعرف عنّي ؟ لا شيء . أُطَمْئِنُ نفسي وأنساهم . ملكي يشغلني أكثر من هؤلاء الرعاع . سيأتي زمن وينصاعون . لكن ابن الكلب هذا الذي يوزّع البيانات السرية يؤرّقني . من يَكُونُ ؟ أوسكار لا ينزعج من

فراغ ؟ قد يكون هذا الوجه السرّي واحداً من هؤلاء المقطعين ، يحضّر لثورة ضد ملكي وسلطاني . يجب أن نأخذ كلّ التفاصيل بعين الاعتبار قبل أن تصير حقائق وتفوّت علينا فرصة السلطان . مثل أوسكار ، كنت محزوناً في العمق . قلت له :

ـ أنا كذلك يا أوسكار هذه الوضعية تزعجني .

ولكنه حاول كعادته أن يخفّف عليَ ثقل التفكير .

ـ أوف حتى و لو ؟ أية قوة يملكون ؟ المهمّ أن العلامة ظهرت وهذا يعني أن القضيّة سائرة باتجاهاتها الصحيحة .

ـ تحيرني هذه العلامة يا أوسكار من أين جاءت . ولماذا انتظرت كل هذا الزمن ؟!

مدّ يده ثم وضعها على كتفي وسحبني باتجاه إحدى الزوايا وحكى لي حكايات كثيرة بعضها أساطير وبعضها الآخر يتعلق بالمجد ، بالوصايا العشر ، بالسلطان ، بناس السفينة الكبار ، بسفينة نوح ، سيدنا الخضر ، بالأنبياء ، بالأديان ثم سألني هل كل هذه الأشياء حقائق مثبتة ؟ طبعا لا . و مع ذلك ، الناس يسلمون بسهولة بوجودها . و حدثني عن العسكريين الذين سأزورهم على متن المروحية قبل أن أنتقل على ظهر سفينة نوح باتجاه مشيخة نوميدا–أمدوكال أو إمارة الأجداد . قال وهو يحكّ على رأسي ، كما تعود فعل ذلك دائماً :

ـ عليك أن تملأ قلبك بكل ما تراه وتسمعه . لقد أوصلتك إلى حافَة الحكم وعليك أن تُتِمَّ ما تبقّى وحدك .

قلت له ، وماذا أفعل يا سيدي ؟ قال تميّز عن غيرك . لقد صرْت قريباً من وطنك ، بلادك ، سلطانك . أحكم بالدين وحده ، يُعْلِيكَ على من لا سموّ لهم . إذا حكمت بالدنيا أكلوك . سمّ بلادك "مشيخة أمادرور الإسلامية" . قل إنّك الفاطمي المنتظر مثلما فعل الملياني من قبلك لتصبح أميراً وخليفة فوق حسابات البشر وسنقول معك ومع

النّاس ، إنّك من سلالة الأنبياء والتّابعين . من السهل أن نصنع لك شجرة عائلية . الناس مرضى ، لا يعرفون إلاّ حاضرهم وتفاصيل بيولوجيا عيشهم . سيأتيك الناس زرافات ووحداناً لتباركهم . باركهم و كن فوق كل شيء ولا تستسلم . الدنيا لا تحب المستسلمين .

فجأة شعرت بحالة من الصفاء لم أعهدها من قبل في نفسي . لم تبق في رأسي إلاّ العلامة الخضراء وكلام أوسكار .

هو تكلّم وأنا فهمت بدقّة قصده .

في الحقيقة لم أكن أنتظر مثل هذا الجواب . كنت أتصور أنه سيقول ، لي يا رجل! ؟ دَعْكَ من الخرافة . عندما نشاء ، فنحن نستطيع أن نغير الأبيض أسود . لا تشغل بالك . نبني الأسطورة كيفما نريد ونهدمها عند الضرورة . وراء كل ضرورة ضرورات قصوى . قال شيئاً آخر بيَّن لي فيه أنه مهتم بتفاصيل الدنيا القادمة أكثر منّي ولهذا لم أستطع كبت أشواقي الداخلية . كدت أصرخ بأعلى صوتي واووو . . . سارة كانت على حق . هو تكلّم وأنا سبقته إلى الحقيقة التي كان يريد إيصالها من خلال الإشارات والرموز .

ـ العلامة يا نوح ظهرت وقد تتبعها علامات أخرى . الأهمّ من كل ذلك أنك سرقت منهم شرعية جديدة ، وهذا يساعدك في الزمن القادم عندما تضطر هذه الفلول للزّحف باتجاه خيرك ، عندما يعمّ البلاد الخراب والموت . لم تبق إلاّ الخطوة الأخيرة لتعبر هذا الصمت والفراغ وهذا المنفى باتجاه مدنك الهاربة . وليبدأ رحيلك نحو أمجادك ، فاتحاً ، ووراءك نسبٌ لاَ يملكه أحد . عليك منذ الآن ، أن تفكر في كيفية إقناع العامّة والخاصّة بجدواك . فرصتك لِتَتَدَرَّبَ هنا لأنك عندما تدخل بلادك لن تجد من يحمي ظهرك في النهاية ، سوى مواهبك .

لم يكن لديّ ما أقوله ، فهذا الرجل بوسائله الإقناعية يقتلك وأنت ترى بعينيك . يدفعك إلى وضع كلماتك الحية داخل حلقك وابتلاعها بصمت .

ـ يا أمير العالم الجديد . مهمتك كبيرة . عليك أن تحوّل وجه الأشياء من السكونية إلى الدينامية . سنساعدك على إسماع الأصوات المنقرضة . شعوبكم تقدس ماضيها وتحارب حاضرها وتحلم بمستقبل هي تَعمل على قتله . السلطان الذكي ، هو من يأخذ هذه الشعوب من نيّاتها الأولى التي تكون دائماً دينية و مرتبكة و يعيد بناءها مثلما يشتهي .

سهوت في لحظة من اللحظات داخل كلماته . شعرت بحلاوات السلطان على رأس لساني ، ولكن فجأة عندما استيقظت ، وجدت نفسي ما زلتُ غارقاً داخل قفر بدون حدود وزرقة مللتها وملّتني . قلتُ في خاطري للمرة الألف ، مَاذَا سأحكم ؟ الخراب والرمال ؟ أية قبيلة سأضع يدي عليها ؟ من أين أبدأ هذا الوباء المستشري ؟ ولكن هذه الأسئلة لا توصل إلاّ للمآزق وحدها . حَاكِمٌ و ربي كبير و لو كان نهاراً واحداً و ما نطلقش . حَاكِمٌ ولو انقلبت الدنيا على رأسها . قد أكون علامة هذا العصر المستعصي على الفهم ، وقد لا أكون شيئاً مطلقاً ، لكن ملكي هو ملكي . أسترجعه لمدّة يوم واحد وأتَلاَشى بعدها دَاخِل التربة ، وعندما يأتي المؤرّخون وكتّاب الدواوين ، سيقولون : في زمن القحط ، في الألف الثالثة من السنة الضائعة ، كان رجل اسمه الأمير نوح الصغير ولد الملياني ، من سلالات فاطمة الزهراء . حكم البحر يوماً واحداً قبل أن ينتهي ويبيد حلمه بيديه المتعبتين ويسخر من كل القردة الذين حكموا مداشر سمّوها بلداناً ، فوضعهم في مواجهة حيطان الموت بأعلى صوته : الدنيا لا تستقيم لغير الأقوياء . إمّا أن نكون رِجَالاً وإمّا لن نكون .

حتى أصدقائي الأنتروبولوجيون موافقون بشكل مطلق على استرداد الملك . فالملك الضائع لا يخدمك ولا يخدمنا . هكذا قالوا . نريدك أن تُوَحِدَ الإمارات المركزية تحت سلطة واحدة ، يعود خراجها لك ، ولنا . جاؤوني بمؤلفات ميشال عفلق ، و غاريبالدي و بسمارك و ميكيافللي وكتاب عن ملوك الطوائف و كفاحي لهتلر وهم يقولون ، هذه

القبائل مريضة بالسلطان والحكم والفوضى والهمجية ، لن تقبل مشاريعك بسهولة .

"لكن ربَّ هذه البيانات التي يتخاطفها هؤلاء المقطّعون ، أفسدت عليَ راحتي" .

على كل هؤلاء أن يقفوا بجانبي . وحدي قادر على إنقاذهم من خراب مؤكّد . وَعَدْتُهُمْ في البيانات الأخيرة بالاسمنت للبناء والماء . حتى البيوت وربّما الكهرباء والغاز . لكن لا شيء سيكون قبل استلام قلوبهم وأصواتهم ووضعها بين يديّ . الكثير منهم لا يعرفون من أكون بدقّة . يقولون إني إنسان غير عادي ، ثم تلتصق الحشرجات والخوف في حلوقهم . أنا الوحيد الذي سيطفئ الشعلات المتقدة . الناس تعبوا كثيراً . فالقرى لا تزال حتى اليوم تتقاتل ، تقول تقارير العلماء ، ولا أمل في إيقاف المجزرة إلاّ بحضوري . الحرب الأهلية أكلت وتأْكُلُ الأخضر واليابس . الملياني لم يترك إلاّ الرماد ، وهم لم يرحموه . الناس القادمون هناك ، تقول سارة ، يتحدّثون عن كوارث وإبادات جماعية ، وعودة مَحْمُومَة إلى تقاليد القرون الوسطى .

أصدقائي يحكون الكلام نفسه .

قلت لأُوسْكَارْ .

- يبدو أن الدنيا تغيّرت كثيراً و أن الجرائم زادت في المناطق المعزولة!

- تغيّرت جداً . المدن صارت رمالاً . تبدل كل شيء . نَبَتَتْ تحت العمارات الكبيرة خيام كثيرة ، إذا رأيتها لن تعرفها . فعملك سيكون مُجْدِياً جداً . أي شيء تضيفه له قيمة . ستكون مؤسس البحر على قواعد جديدة .

- سأدفع بالمداشر والمدن إلى الاندماج والوحدة .

ـ لا تكن متسرّعاً . فقد تذهب ريحك مع الريح ويُنْسَى اسمك . حافظ على وجودها مثلما هي ولا تقحم نفسك في صراعات لا تؤدّي إلا إلى هلاكك الأخير ويحدث لك ما حدث لسابقيك . بسمارك قد لا يكون صالحاً لك إلاّ في مركزة السلطة العليا بين يديك . اتركهم يتقاتلون وأبدع أوضاعه . وغَاريبالدي لن يضع أمامك إلاّ السّبُلَ الصغيرة وكيف تضع كبار المداشر والمدن تحت يديك . مَرْكَزْ المال . واتركهم يتناهشون . كلما تَوَحَّدُوا ، انقلبوا ضدك . هذا هو طريق السلطان وهذا هو النهج . غواياته كبيرة وانزلاقاته لا تحدّ .

أوسكار في الحقيقة لم يكن يناقش كان يعطي أوامر ، ويخطّ أمامي طريق الحكم محدداً مسالكه الوعرة . شعرت بملوحة في كلامه الكبير ، وشعرت كذلك بثقة عالية تنشأ في أعماقي . هل دنت اللحظة الحاسمة ، بعد أكثر من نصف قرن انتظار . "قُودو" نفسه لم يفعل ما فعلته أو الذي انتظره و لا أيوب . جميل ومذهل ، أن تأتي الخاتمات رائعة بعد سنوات الصبر و القحط .

شيء ما بدأ يتحرّك في الأعماق ، مثل الشعلة الصغيرة داخل كومة حطب وهي تسرح بهدوء . شعرت بذلك الشيء النادر يأخذني من رأسي وينزلق باتجاه القلب ليورثني خوفاً ضامراً وعميقاً . أهي ظلال المدينة المنهكة التي سُرِقَتْ لحظة الغَفلة من بؤبؤ العين كما كان يقول نوح المجروح في ديوان الخطايا (البهجة) ؟ أم وَجْدُ سارة الذي يدخل الحواس والدم بدون استئذان ؟ إني أراها قريبة منّي .

هي في دمي .

هي فيّ .

هي أنا .

من الصعب على الصوفي أن يتخلص من إشاراته ومن ذاته . مثلها مثل البحر وتفاصيل السلطان ، الذي يأتي الآن بقوة مثل الموجة العالية

التي تعوّدت أن تغطّي الشمس عن وجهي ، لأَعُودَ قافلاً إلى القلعة الفارغة من كل شيء إلاّ من الأصداء القديمة .

أوف! أيها البحر! كيف أنت ؟ هل تعرفني ؟ أما زلت تتذكرني ، حلتُ و بقيتَ مثلما رأيتك لأول مرة أزرق . ما أقربك إلى القلب وأنا استرجع وجهك داخل هذه الخلوة النّادرة ، ساعة نزول الدم إلى القاع ، والبدء في حالة الصفاء والطمأنينة . وأنت يا سارة ، بي رغبة قصوى لفتح باطن الأرض بقوة بسكين حادّة وأسحبك من يديك ، وأنا أصرخ مثل المجنون الممحون : تعالي أيتها النّادرة ، الزمن لا يرحم ، إنه ينسحب بسرعة مقلقة ، اختبئي ريثما تمر العاصفة .

سارة . . .أنت في دمي ، وعطرك مثل الحلاوة على رأس لساني . ريقك في فمي يعمق من شهوتي للحياة . لا مساحة سرية أمامك . كل الأسرار أشَعْتِهَا في حضرتك . الحلاوة ومرارة السواك الصحراوي وعود النوار والفليو والطراوات المدهشة التي تقذف بصاحبها نحو فراغات الرغبة والشّبق والجنّة ، تملَؤُك عَنْ آخرِك .

الصمت لفّ الساحل باكراً هذا المساء ، ولم تعد إلاّ وقوقات النَوارس واصطفاق أجنحتها تملأ المكان . كنت أحاول أن أعبره من جديد لكن مسافاته الطويلة كانت تزداد كلما ظننت أني أنهيت سيري وعبوري .

" إنه يشبهني . إذ رأى الشمس أفلت قال آن الأوان لأرتاح قليلا ، الغد سيكون مليئا و مثقلا ."

بعدما غاب الصيادون و الأصدقاء والأعداء ، يجب أن أرتاح . العلامة أنهكتني ، والأسئلة والهيامات ، سرقت روحي وراحتي . لا أدري إذا كانت سارة نعمة أم لعنة أم الاثنتين معا و لكنها في كل الأحوال سرقت غفوتي و أنستني في طعم البحر المر . ألم تقل لي في لحظة الشوق و الرعشة : يا أميري أنا امرأتك التي تسعدك وحائطك الذي تتّكِئُ عليه عند الحصلة والوحدة والخوف . يا نوحي! يا فاطميَ

المنتظر! هل تسمعني ؟

" أسمعك من قلبي ومن دمي وصمتي وشعلتي الذي لم يقتلها الانتظار . أسمعك بكل شجني و حواسي"

كانت الموجة العالية قد غطت الشمس المثقلة بالمشاهد اليومية . و أنا أنعطف باتجاه المرتفع المؤدي إلى القلعة ، تاركا البحر ورائي ، سمعت فجأة صوتاً راعداً ارتعشت له الأرض التي كانت تحت قدمي . خرج الناس واشرأبت الرؤوس الصغيرة من الشرفات البيضاء ومن بوابات الغيران ومخارج الخيام السميكة . ثم حلّ صمت مطبق غريب . السماء طوال هذا الأسبوع وهي صافية ، ما الذي غير نمطية هذه الدُّنيا الميتة ؟ هل هي القيامة تنذر بمجيئها ؟

ثم دوى انفجار ثانٍ دفع بالناس إلى تخبئة رؤوسهم وآذانهم بين أكتافهم . ارتسمت أضواء خضراء مستقيمة من كل الجهات داخل عواء يشبه عواء الذئاب ونحيب يقارب حالة النَّدب ، ظل يأتي من بعد سحيق ، مخنوقاً بغصّة . تكاثرت الخطوط الخضراء في السماء . ثم بدأت أصابع غير مرئية تكتب في الهواء الممتلئ بملوحة ورطوبة البحر ، خطوطاً كانت فوضوية في البداية ثم سرعان ما استقرت وصارت واضحة تماماً .

"اللّه ينصر الإمام الفاطمي نوح . الله ينصر الإمام الفاطمي نوح" .

Que Dieu bénisse l'iman fatimide Nouh. ""

فجأة دبّت حركة غير عادية بجانب البيوت ، وبدأ الناس يبسملون ويحوقلون بأعلى أصواتهم . الكثير ممن كانت عندهم شكوك ، اضمحَلت بفعل القوة الراعدة والأضواء والكتابات الأنيقة التي كانت تسطرها في خَفَاءٍ فارغ ، يد إله ماهرة . ظل الجميع يتأملونني وأنا متسمّر بعصا البانبو في مكاني . أنا والبحر والمرتفع وعصا البانبو التي لم تعوج ولم تنكسر منذ خمسين سنة . تأملت عيونهم الحائرة . من بعيد كنت أتمنَى

من قلبي أن أستطيع طمأنَتِهم ، ولـكنّي أنا نفسي كنت في حاجة إلى من يطمئنني . الدويّ كان قويا . فجأة انتابتني رغبة للجري باتجاه القلعة ، عندما سمعت الزغاريد تأتي من كلّ مكان حتى من البحر . وبالفعل كنت قد بدأت أجري . عيناي ممتلئتان بالغموض والرهبة والدهشة و بعض النور . أصرخ ملء ذاكرتي وحضوري .

"لقد جاء الحقَ وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقا" .

"واوووو . . . الله ينصر علماء الأنتروبولوجيا" .

"الله ينصرك يا ليفي ستروس! لقد عثرت عليَ وأنا أحتضر" .

كنت قد بدأت أهذي لم يكن الأمر مهمّاً جداً ولم يعد السنَ عائقاً بيني وبين الركض . كنت كالغزال ، أسابق الريح لأكون أوّل من يبشّر سارة باقتراب فك عقدة الخمسين سنة انتظاراً . عادت السنوات الماضية دفعة واحدة لتتوقف عند اليوم الذي دخلت فيه هذا البحر هارباً من الحرائق والموت .

ها قد صرت طفلاً .

ها قد تلاشيت .

ها قد صرت لا شيء تحت عذوبة الجري و عنف الدويّ ونسائم البحر وانتظار سارة التي لا تمل .

* * *

- II -

في البدء كان الماء واللون ثم كان الفضاء والضوء ، فكان الهواء ، ثم التربة .

كانت الأرض خربةً خاليةً وعلى وجه الغمر ظلمةٌ .

فكانت السماء والروح ثم كانت الدهشة .

تسابقت وريقات "الطوفان" ، آخر بياناتي ، في السماء ثم نزلت مبلّلة ، وتهاوت الواحدة تلو الأخرى مثل حمامات مقتولة ، عندما بدأت الأمطار تتكوّر كحبّات البّلور ، صافية وثقيلة . بيانات الأمير نوح بشرت منذ الفجر ببدء الطوفان .

الدهشة كانت مذهلة لا تشبهها إلاّ حالة الخلق المملوءة بالنّور الذي اخترق كثافة الظلمة . الضوء الأخضر الذي خطّ اسم نوح بوضوح داخل غيمة وردية مبلولة بالمطر وقصف الرعود والعواصف ، لم يكن حالة عادية مثلما كان الأمر في المرة الأولى . فقد تبعه زلزال عنيف غيّر كثيراً من وجه الساحل وأخرج الناس والحيوانات والكائنات الحية من جحورها وعاداتها الميتة . رغم الأمطار وتفلح الأرض وتشققها في أماكن متعدّدة وخروج دخان أسود منها مثل الدّخان الذي كان ينبعث بكثافة من رأس الجبل العالي ، الجبل الأسود ، لم يجرؤ السكان على مغادرة بحرهم

بالرغم من حالة الرعب والخوف والدهشة التي استقرت في قلوبهم وعيونهم . بعضهم استغفر الله وطلب العفو على تشكيكه في قدرته والبعض الآخر انحدر داخل جسده وتكور مثل الجنين وظل يبسمل ويحوقل وينتظر أن يكنسه البحر هو ومن معه ، والقليل القليل ممن ظل متعنتاً ويشكك في بعض تجليات هذه الدهشة لكنه بدا منشغلاً فيمن يكون قد هزّ الأرض بعنف شديد . بعض المشايخ ممن شغلوا الأرض والبحر والسماء وشغفوا بالنور وبقوا معزولين داخل المغاور ، قَالوا إن ما يحدث الآن هو من علامات "الطوفان" ، لكنهم لا يعرفون من التفاصيل سوى ما أوردته الكتب القديمة والمصنفات النادرة التي تحدثَتْ عن أمطار مثل الجبال وموجات تطول شهق السماء وجبال تخرج باطنها المحموم وناس تائهين يجرون في كل الاتجاهات بحثاً عن ملجأ أو تبن أو قشة يتشبثون بها ، أو شجرة ميّتة يلتصقون بعيدانها . يؤكدون ويصرون أن علامات الطوفان هذه هي . والكتب السماوية تحدثت عن مدينة يحضنها البحر من كل الجهات ، لا يسكنها إلاّ قوم هاربون من رجال طغاة ، وتنام هادئة تحت جبل عالٍ يدعى الجبل الأسود . علامات مطابقة لأمادرور (حضر موت) الزرقاء . كيف لم يعلموا بالكارثة المحدقة إلاّ الآن ؟ أين كانت عيونهم وذاكرتهم ؟ مدينة من مدن الربع الخالي ستصير ماء بعدما يمرّ الطوفان على غيرانها ومدافنها ومبانيها ، وها هي ذي أمادرور من بقايا الربع الخالي ، تحاول أن تغيّر من عاداتها اليومية لتموت على واجهة البحر والموجة العملاقة التي لا وظيفة لها سوى سرقة الشمس ووضعها في قبر الغروب .

أين كانت ؟! أين كنا ؟!

حتى نوح ولد الملياني يعرف تفاصيل الحكاية ويدرك أن وراء المسألة يداً كانت تنافس قدرة الله . لعبة اللآيزر لا تَخْفَى إلاّ على أصحاب النيات النادرة . حتى أوسكار لم ينكر ذلك في زيارته الأخيرة . قال لنوح ، يا نوح!! يا آخر أمراء السلالات الفاطمية المنتظرة . زمنك صار الآن بين يديك . مُدَّهَمَا ، ستعودان بالملك والسلطان وأشواق نصف

قرن من الانتظار . ثم قَدَّمَ له كتاباً ضخماً ، مجلداً ، كُتِبَ على ظهره "كتاب السلطان والمحنة ، ألفه فريد عصره وزمانه ، الفاطمي المنتظر ، قدوة العصر القادم ، الإمام ذو القرنين ، نوح الصغير ولد الملياني حفظه الله وحماه من عين كل حسود" : هو ذا كتابك ، كتاب المنفى الأزرق . قالها أوسكار وهو يورّقه أمام عيني نوح ورقة ورقة وبياناً بياناً . خمسون سنة من البيانات ، جمعها في مجلّد كبير يحتاج إلى طاقة استثنائية لحمله . البيانات التي كان يرسلها مخطوطة ، وفي الصباح الباكر ، تصبح مكومة عند مدخل بيته ، بعد أن تكتب بالآلة وتطبع ليوزعها . قال أوسكار ، أنت تعرف ، كنّا نحتاط خوفاً عليك . أكثر من أربعة أشخاص تداولوا على أخذ بياناتك المخطوطة باتجاه المطبعة والإتيان بها مسحوبة لتوضع بالقرب من بيتك . الأوّل مات بمرض السلّ . والثاني مات بمرض الربو . الثالث انتحر في وضع غامض . الرابع ما زال يروح ويجيء ، وأنت لا تعرفه . ضحك وقتها نوح وهو يضرب على جبهته .

- إلهي ؟ ما أقواكم و ما أذكاكم .

- وجودك يا صاحبي يهمّنا كثيراً قبل أيّ شيء آخر .

ومضت الأيام بسرعة ولكنها لم تفك اللّغز ولا الغموض . أصلاً ليست مطالبة بذلك أبداً . ليكن . ما دام الأمْرُ في صالحي في ستين داهية . هكذا حدّث نوح نفسه وهو يستعيد شريط الرعد القاصف ثم الكتابات الخضراء ثم وهو يبشّر سارة بالجديد الذي لم تكن غائبة عنه . انشقّت الأرض في أماكن كثيرة وبدأت الأبخرة تصعد من كل مكان ، قبل حتى أن يفاجئه أوسكار بمجلده الضخم ويفرحه ، لأن نوح المجروح لم يعد هو وحدهُ كاتب البهجة . ها أنذا كذلك أكتب ضد النسيان لتوهيج الأشياء الميّتة .

" و الذي وَلَّفَ الكتابة بالزلزال و الحبر بالرعشة والعاصفة بالرعد ، و البحر بالغيب ، لأغيرنّ هذا الفراغ و لأملأنّ هذه الدنيا الخالية بالحياة . "

السؤال والسلطان لا يتقابلان . هل هم الذين هزّوا الأرض وهيؤوا للطوفان الذي بدأ يعلن عن نفسه ، وصار مشايخ البحر الذين صمتوا دهراً ، يتحدثون عن اقترابه و عن ظهور علاماته التي يجب تقبُّلها كقدر من الأقدار .

بعدما بدأت غشاوات البحر والكيف تزول شيئاً فشيئاً تمتم الأمير نوح ولد الملياني في خاطره وهو يمسد على وجه سارة الذي يشبه وجه طفلة صغيرة . هه! ليكن . لماذا نقتل أنفسنا بالأسئلة ؟ الأرصاد قالت عن هذه العاصفة . مذياعي الصغير ، أكّد على تكونها على رأس الخليج ، وهي عاصفة كبيرة ومخيفة . لقد مسحت الكثير من المدن والساحات وفضاءات لا تحدّ . أهو العلم أم الصدفة ؟ أو ليس في العلم شيء من الصدفة وفي الصدفة شيء من العلم ؟ ليكن ، إذا كان كل ما حدث يقود هذا الغاشي المرمي على السواحل والأنقاض إلى الاعتراف بقوتي وجبروتي ، وقتها لا شيء يصبح صدفة لا الرعد ولا الزلزال ولا الطوفان ، ولا حتى الألواح التي أضطر يومياً إلى إلصاقها في جنبات السفينة التي بدأت تقوم وتظهر معالمها بسرعة غير اعتيادية . و لا حتّى كلام النصوص القديمة المقدّسة يصير صدفة ، ولا نومه داخل تلافيف الذاكرة مجرد صدفة طائشة ضائعة داخل خلايانا . ما قالته الأحرف المقدّسة يجد علاماته الآن وهي ترتشق بقوة على صفحات الغيم وعلى الزرقات الحائلة والمذهلة . قَوِّضَ بيتك وابْنِ سفينة ، أهْجُرْ ممتلكاتك وأنْجُ بنفسك واتْرُكُ متاعك وانقذ حيَاتَكْ واحْمِلْ فيها بذرة كل ذي حياة . حكايات القدماء ومشايخ البحر ، ها هي ذي تتحوّل إلى حقيقة . لا شيء كان من افتعال الرجل الغامض الذي وجد نفسه ذات فجر بارد على هذا البحر المعزول . قال الناس ، الرجل ذو النعلين المطّاطين ، والبلغة الفاسية التي اندفنتْ في مكان يدعى اليوم بلغة المهاجر الذي ارتعش وهو يصلّي . عندما رأى عيني الزنجية ترقصان داخل البلغة ، تماسك و رغم سَحْبِ الصيادين جسدها لدفنه ، إلاّ أنه استمر في رؤية عينيها داخل البلغة ، فتركها هناك وسمّى المكان باسم الحادثة : بلغة

المهاجر . الرجل المبهم الذي حلّ بالمكان صغيراً ، وعاش غريباً ، هاهو ذا يستعدّ لمغادرته غريباً . فهو لم يخلق لهذا الفراغ المجوّف .

اقتنع الناس تماماً بضرورة مساعدة هذا الرجل لينقذ ما يمكن إنقاذه داخل هذا البحر الذي حالت أمواجه بسبب طول الانتظار ، والعمل معه على إتمام السفينة في أقرب الآجال . فالعاصفة واحتمالات الانقراض صارت مؤكدة بعد الدوي العاصف و بدء الجبل في قصف أدخنته و حممه . معظم الصيادين تركوا عملهم وانضمّوا إلى الفرق المختصة التي كانت ترافق في الأيام الأخيرة أوسكار . واجتمع في المشروع كل ذي حرفة وصناعة . الحدادون الخشّابون الحبّالون ، الذين يصنعون قوارب الصيادين ويصلحونها عندما توضع على أطراف السواحل ويتسلون فيها في أوقات فراغاتهم . انقسم الجميع إلى فريقين يعملاَنِ ٢٤ ساعة في ٢٤ تحت الأضواء الكاشفة التي جاءت بها الحوامة السوداء التي أتت بالفرق الخاصة في تصليح السفن وصناعتها . صار الجميع في وقت وَجِيز ، يعيشون يقيناً ، مطلقاً وهو أن نوح النواح ليس رجلاً عادياً . فهو الفاطمي المنتظر الذي تقول عنه البيانات الصباحية ، إنه سيد كل هذا البحر مع العواصف ، وسيرحل مع هذه الزرقة وهو يحمل في عمقه سرّه الذي جاء به . وقد يعود به بدون أن يستطيع أحد لمسه . كبار السنّ يقسمون بجاه الرسول والأنبياء والصالحين وبمن رفع السماء وجعل لها أعمدة غامضة شفافة وأعلا موج البحر وبشر بالطوفان والدابة العمياء التي سيملأ نحيبها بحر أمادرور (حضر موت) ، إنهم منذ البداية كانوا يشعرون بغرابات هذا الرجل وأنه ليس إنْساً عادياً ولا جاناً استثنائياً . منذ خمسين سنة وهو يسير في المسار نفسه . ينزل صباحاً باكراً من القلعة المحوّطة بالأسلاك الشائكة ومعه قطع الأخشاب المقوّسة والمنجورة . يلصقها في الهيكل الكبير لسفينة قديمة موضوعة فوق صخرتين ، يفترض شيوخ الساحل و كبار السن أنها من بقايا سفينة نوح . عندما ينتهي ، يَطلِي الكلّ بالقار والزفت وينزل بعدها إلى ممارسة طقوسه . يغرس أمامه عصا البانبو الطويلة ثم يصلّي ركعات

البحر ويعبر الساحل كعادته جيئة وذهاباً متأملاً السماء والبحر ووجوه الناس ، ومنتظراً الموجة العارمة التي تدفن الشمس ليؤدّي صلاته الأخيرة ويعود إلى مواقعه بالقلعة بهدوء وطمأنينة ، بدون أن يكلّم أحداً ولا أن يتجرّأ أحد و يكلمه . الناس يهملون و لا ينسون . الجميع يتذكره في ذلك اليوم القائظ وهو يطارد البوم مع الزنجية ، كان الخلاء مقفراً والشاطئ لا أحد فيه . حتى الذين لا يحبونه كثيراً يقسمون إنه بفضله لم يعد هناك أي وجود للبومة المشؤومة . عندما حاولوا استرجاع كل تصرفاته وقراءَتِها في لحظات السمر والتسارّ والخلوة ، تأكّدوا من أن هذا الرجل إمّا مجنون يخبّئ جنونه بكل الوسائل ، وإمّا حكيم ، وإمّا نبيّ ضائع بين ناس لا يفهمونه ولا يفهمهم مطلقاً . وفي كل الأحوال يجب الوقوف بجانبه ومساعدته بقوة قبل فوات الأوان في الانتهاء من بناء السفينة التي قد تنقذ ما يمكن إنقاذه . فأمادرور (حضر موت) الزرقاء مهددة بالفناء ، قد تتحول بين اللحظة والأخرى إلى مزار للجحيم والعواصف . كانت عينه اليسرى التي ترف دائما ، ترى ما وراء الرتابة . لقد قرأ الغيوب قبل حدوثها والأنواء قبل نزولها والمصائب قبل مجيئها . بدأ العمل اليائس في بناء السفينة وَحْدَه ولَمْ يطلب مساعدة أحد منذ وطئت قدماه هذا القفر الخالي المليء بالزرقة الحائلة ، والجفاف والرياح الرطبة . الآن فقط والآن فقط بالضبط ، بدؤوا يَفْهَمُون لماذا كان يعبر الساحل يومياً قاطعاً عشرات الكيلومترات ، وعندما يقترب منهم يرفع رأسه نحو الغيمة الكبيرة التي ظلّت تَتَعَصّر مدة من الزمن بدون أن تنزل مطراً ، ثم يصوب عينيه الحارتين نحو البحر باتجاه السفينة العمياء التي تنام داخل الغيمة السوداء ولم تتحرّك منذ أكثر من نصف قرن ثم يصرخ بأعلى صوته .

ـ إذ يضحك الذين لا يعرفون ، أي بلاء ينتظرون ؟ ياناس ؟ ألا ترعوون ؟ إني أرى علامات الطوفان تأتي من هناك . . .

ثم يؤشر بإصبعه نحو زاوية غامضة .

خمسون سنة وهو يرددها على الأقل عشر مرات في اليوم . مائة وثمانون ألف مرة ، ولم يسمعه أحد إلاّ الآن ؟ غريب! تخيلوا فقط ضخامة الرقم . الناس الآن يعودون لأصدائهم القديمة ، ويعضّون على شِفَاهِهِم السفلى ويتمتمون بنوع من الرهبة : غريب! أين كنّا ؟ لماذا لم نسمعه عندما نادانا بقلبه ؟ ثم عندما صرخ ، وهو يُؤَشِّر بإصبعه إلى الطوفان القادم ؟ الارتباك وصل إلى أغلبية الصيادين . حتى الكثير ممن كان يشكك في جبروته وقوته ، تراجع ، وما كان يراه مجرد لعبة مراهقين وخرافة ، صار خوفاً ، أصبح يأخذ الأمور بجدية أكثر . منذ العلامة الأولى تغير بعضهم ، لكن بعد العلامة الثانية ، والعاصفة ، والرعد والبروق ، والزلزال واستيقاظ بركان الجبل الأسود ، صار واضحاً أن ما حدث على ساحل أمادرور (حضر موت) الزرقاء وعلى حافة الساحل المهجور ، لم يكن خدعة بصرية أبداً . فالضوء أعمى الأبصار ، والزلزال أعادهم إلى صوابهم وتقواهم ، والغيوم الورْدية كتبت اسمه بالأخضر ، والبحر زحف باتجاه المرتفعات على غير عادته . في هذه الحالة لا يوجد تفسير آخر سوى : إما أنّ الرّجل ليس ككل الرجال ، وإما أنه متواطئ مع الله . استغفر الله الغفور الرحيم ؟! قالوها ثم سحبوها ، لكن ما يحدث يجنّن ، وفي كل الأحوال ، المسألة تتجاوز القدرات البشرية كيفما كانت .

هذا الرجل ، منذ نزوله داخل هذا الفراغ ، انقسم الناس حوله ، بل قسّم حتى العائلات نفسها ، حتى جاءت العلامة الخضراء . بعضهم يقسم برأس امرأته إنه رأى في ذلك اليوم ثلوجاً زرقاء تسقط ولكن الأمر لم يدم طويلاً . فتوحدت أغلبية الآراء حوله واعتذر المخطئون لأصدقائهم وذويهم .

وعندما يتمادون في الحكاية ، يقسمون بكل الأنبياء والرسل ، ويستحضرون حتى الأسماء التي ابتلعتها كتب الديانات والتاريخ ، أنه في ذلك اليوم المشهود ، تلبدت السماء الصافية فجأة بغيوم بيضاء مثل القطن ، ثم بغيوم سوداء ثم عادت إلى بياضها الناصع وبدأت تتورّد

شيئاً فشيئاً بدون سابق إنذار ، بل إن الجو نفسه يومها كان صافياً ولم يكن يوحي بأي شيء من ذلك . كانت السماء كعادتها في أمادرور شبه فارغة . ثم . . .ثم . . .حدث ما كان يجب أن يحدث . تغير كل شيء . بعد الرعدة الأولى التي تشبه الانفجار القوي ، بَدَأَتْ يدٌ ، قيل إنها يد الله ، تخطّ في السماء ، الحروف الأولى من اسمه وبعضاً من القرآن ، وأصيب نوح برعشة الأنبياء . وعندما عاد إلى امرأته سارة ، قال لها دثريني فقد رأيت الله يكتبني ويخطّني داخل غيمة وردية ؟ دثريني يا بنةَ موسى و أطعميني جسدك . يقال إن كل الأغطية التي أنزلتها عليه لم تكن كافية لتدفئته فتعرت وكسته بجسدها فعادت له الروح . حتى عندما وقف الناس عند بابه ، لم تجبهم إلاّ سارة بأنه قد نام بعد أن خطّ آخر حرف في كتابه المجلّد . الناس عادوا بذاكرتهم إلى البيان الأخير الذي وزعه في البحر . استرجعوا كل كلماته المكتوبة بحروف حجرية قديمة . كان يحمل في طياته نبوءات مؤكدة في النصوص القديمة ، بابلية وتوراتية . بل إن العارفين قالوا إن جزءاً من نص البيان الموزع على الساحل كان توراتياً من الإصحاح السابع ، وبدؤوا يسترجعون أحرفه وكأنهم يقرؤون قرآناً :

ـ وقال الله في هذا الجبل .

ـ وخذ من جميع البهائم الطاهرة سبعة . سبعة ذكوراً وإناثاً ومن البهائم التي ليست طاهرة اثنين ذكراً وأنثى .

ـ وخذ أيضاً من طير السّماء سبعة ذكوراً وإناثاً ليحيا نسلها على وجه الأرض .

ـ فإنني بعد سبعة أيّام ممطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة . ومَاحٍ كل قائم مما صنعته على وجه الأرض .

ـ فعمل نوح بحسب كل ما أمره الربّ .

ـ وكـان نـوح ابن سـتّ مـائة سنة حين كـان مـاء الطوفـان على الأرض . . .

سبحـان الله ؟! نوح ست مائـة سنة ؟! ونوح ستّون سنة . هل هو فعل المصادفة كذلك ، هذه المرة ؟

أليس في الأمر دهشةٌ وعلامةٌ ويقين الصادقين ؟

نوح . . .الرجل الغامض لم ينطق عن الهوى ، ولا كان في نيته فعل ذلك . فقد كان ممتلئاً بالحقيقة التي لا يعرفها أحد من هؤلاء الصامتين القانعين بحكمته . صار الناس يحكون في غيابه ، بينما ظل هو منكفئاً في فراشه يبحث داخل الرسوم وداخل هواجس الحمّى عن سرّ ما تحدث عنه الأسبقون ، ويطلب من خالقه الذي أعطاه طاقة تهويل البحر وشقّ الأرض وتغطية الشمس بالموجة والغربال ، أن ينقذ البحر من التّيه وهذه الوجوه من الضياع والإبادة والتّلف الكبير . المؤكّد أن ما ينتظر هذا القفر الأزرق ، أقسى وأمرّ من الذي عاشوه ، والغائب أفْظع وأكثر تدميرا . إنه يواجه حالة الذّهول بالغفران والصلوات والهذيان ، مثل الأنبياء . كلماته تصل إلى البحر ، فيتوزعها الموج و الصيادون والمنكفئون على زرقة البحر . يقسمون إنهم رأوا عيسى الجرموني نفسه يقوم على رجل واحدة ويغنّي كلماته النادرة التي رددها كل الناس الذين صاروا من مريديه منذ بروز علامات الغيمة الوردية و التحقوا بهيكل السفينة ، سفينة نوح ، التي تتردد حولها الكثير من الحكايات من بينها أن هذا الرجل الغامض الذي تطابق اسمه وعمره مع اسم وعمر الآفلين و الذي أقسم للبحر والغيم والزلازل والجبل الأسود الذي استيقظ بركانه ، إن فتح الله عليه ، فسيأخذ في سفينته من كل عائلة زوجاً ، ذكراً وأنثى ، أعمارهم محصورة من خمس إلى سبع سنوات ، لينجيهم من الطوفان الداهم الذي كانت علاماته كل يوم تزداد ارتساماً داخل البحر وفي الفضاء وعلى رأس الجبل الأسود ، الأمر الذي شجع سكان أمادرور ، في مقاطعة حفرة حمام الشمس ، للتسابق مع الطبيعة والأنواء

والعلامات للانتهاء من بناء السفينة التي يشترك فيها مهندسون مختصون ، لم تغادر الأوراق والمخططات أياديهم منذ أن نزلوا مع العاصفة الأولى من على متن حوّامة سوداء يقولون ، إنها تخطيطات قديمة تستعيد شكل سفينة نوح القديمة ، كما وصفتها الألواح البابلية العتيقة والتوراة والقرآن . العمل في البداية كان منصباً على نشارة الخشب وطليه بالقار وتقويضه وربطه من جنباته حتى يعوج ثم يلصق بعد أيام معدودات . السفينة بَدَأَتْ تظهر بسرعة وبضخامة ، خصوصاً بعد عمليات تسمير الخشب ولحم القطع الحديدية وتثبيت الصخور التي يقف عليها الهيكل الأساسي بمجهود من الأمير نوح الذي لم يتوقف عن العمل منذ خمسين سنة بلياليها ونهاراتها . كلما برزت السفينة أكثر وتجاوزت شكلها الفائت ، زاد فرح الصيادين العمال وتأكدوا من أن صراعهم ضد الطوفان سيكلّل بالنجاح والفلاح وبذلك يكونون قد خفّفوا من ذنوبهم الكثيرة تجاه هذا الرجل الذي اسمه نوح ، وتجاه الزمن الذي كان يأكلهم وينحتهم يومياً كصخور الوديان الزرقاء . الكثير منهم أصبح يفكّر في أبنائه الذين سيبعثون في السفينة وينقذون من الخراب المعمّم .

أناشيدهم تملأ الأرجاء :

نوح ، يا كبير السادة ،

الذي شق السماء نصفين ،

و كتب حرف البعث على الغيمة الوردية .

قطع وعده و لم يخلف قسمه .

يا رجل البحر و القيامة ،

اشفع خطأ الذين لم يقرؤوا سرك .

كل بياناته الأخيرة التي كان يشيعها مريدوه ، تحمل جملة على

رأس الورقة كتبت بخطّ مسماري قديم ووضعت داخل مستطيل أحمر :

لقد اختبرني ربّي، فأحسن اختباري.

كل الناس صاروا متأكدين إنما يساعدونه على إتمام السفينة ، لكي يساعدهم هو بدوره على إنقاذ بعض الزرع والضرع وما تبقى من النسل المنحوس . فالأرض موات خراب و لا أحد يستطيع أن ينجز ما استطاعه نوح في نصف قرن من التأمل و اختبار الدنيا .

لم يكن يسمع في هذا الخلاء الأزرق الذي شهد لأول مرة في الدنيا سقوط ثلوج نيلية ، إلا نقرات المطر الذي لم يتوقف منذ أكثر من أسبوع وحركات الناس وأرجلهم وهي تغوص في الرمل وتكسر الأمواج التي زحفت نحو الصخور ممتدة نحو المرتفع العالي وصوت المطارق والمناشير والمسامير وهي تتناوب وتتجاذب باستماتاتها المعهودة وبدون توقف . وعندما تهدأ قليلاً يأتي صوت نبوي رقيق من بعيد ، يتصّاعد عاليا داخل هذا الفراغ المبلّل ، ينبعث من كل مكان ، ولا مكان ، في شكل إيقاع بابلي حزين . أهو عيسى الجرموني يقوم من دمه وخوفه ، ووحدته ، وهروبه الكبير ؟ يتساءل نوح داخل فراشه الوثير حيث انقطع تماما عن رؤية الناس الذين كانوا يفدون بالآلاف لسؤاله عما تخبئه الأيام القادمة .

"يا نوح النواح

يا يتيم الدنيا . . .

قوّضْ بيتك وابنِ سفينة .

أهجر مملكتك وانجُ بنفسك .

أترك متاعك وأنقذ حياتك .

واحمل بذرة ، كل ذي حياة . . ." .

الأمطار الكثيفة ، لم تكن عاملاً مساعداً على ما كان يحدث ، لكن

العمل ظلَّ متواصلاً ليس نهارا فقط بل ليلا كذلك ، طوال السبعة أيام الماضية ، والسفينة كل يوم تتحدى البحر بشموخها المتواتر و تخرج شيئاً فشيئاً من الهيكل الذي أفنى نوح عمره في ترميمه . بفضل المجهود الجماعي ، صار بناء السفينة متقدما جدا . الأشغال تشارف على سطح الطابق السادس . الأرضية قسمت إلى تسعة أقسام وَثُبِّتَتْ على جوانبها مصدّات المياه وزودت بالمؤن والذخيرة والأغطية و بمحركات كبيرة ركبت خصيصا ، جلبتها الحوامة السوداءً . دفق على الكل ست وزنات من القار ، وثلاث وزنات من الإسفلت ، وثلاث وزنات من الزيت أتت بها نساء الساحل وحاملات السلال .

في اليوم الأخير ، عندما انْتُهِيَ من تشييد السفينة ، غرست الراية الكبيرة في المكان الذي يدعى بلغة المهاجر و قد كتب عليها بخط كوفي غالب :

مشيخة أمادرور الإسلامية، وحاكمها الفاطمي المنتظر، الإمام نوح. سلطان الدين والدنيا. اختبرني ربّي فأحسن اختباري. " لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"

و ذُبحت للناس عجولٌ حمراء وسوداء وخرافٌ حولية ، ووُزِّعَ عصير العنب المخمر في طاسات الإينوكس ، واحتفل الجميع كما يُحْتَفَلُ عادة برأس السنة . كان الرقص والقرقابو ، يملؤون الدنيا بأصواتهم الزنجية ودمدماتهم ، الألوان والطام طام ، والأمطار الغزيرة وموجات البحر التي أصبحت رغوتها تمسح الأرجل النّسائية البيضاء . أطفال ، نساء ، شيوخ ، مرضى وأصحاء ، عميان ومبصرون ، راجلون وزحَافون ، ذوو الأهل والضائعون ، المكسُوُون والمقطعون ، المرابطون والمقطوعون من شجرة ، المعشوقون والعاشقون ، الفنانون والرديئون ، النَّشيطون والكسالى ، كلهم كونوا دائرة بشرية واسعة ، وحَوَّطُوا

السفينة ، وأشعَلُوا النيران حولها ، وبدؤوا في تأدية الرقصات الطقوسية المتنوعة مسترجعين أمجاد الكتب التي محيت في الماء أو أحرقت النيران أحرفها . اختلط الفرح بالندب ، بشعور النساء المفتوحة عن آخرها كشلالات سوداء وصفراء .

وعندما تعب الجميع ، تربّعوا على أرجلهم وبدؤوا يأكلون لحم الذبائح المشوية على نيران الحفر القريبة من مكان بناء السفينة .

نغنغ أحد الصيادين وهو يستمتع بمضغته التي ظل يلوكُها بهدوء وطمأنينة .

ـ والآن إلى أين ستذهب هذه السفينة الضخمة ؟

ـ إلى التهلكة أو إلى جهنم ، لا يهم أبداً . المهم أن يَنْجُوَ أبناؤنا من هذا الخراب . هل بقي ما يصلح داخل هذا الفراغ ؟ الجبل اسودّ دخانه ، شقوق الأرض زادت عمقاً ، والزلازل تتربص بحفرة حمام الشمس ، والبحر بعد أيام سيمسح هذه المغارات وهذه البيوتات البيضاء الصغيرة ، وما تبقّى ستهلكه العواصف التي تَحدثت عنها كتب الأقدمين . هل هناك جحيم أكثر من هذا ؟! خلّنا يرحم والديك . اقرأ آخر بيانات نوح ماذا تقول و تعرف الكارثة القادمة . . . ها أنا ذات آت بطوفان مياه على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء وكل من في الأرض يهلك .

ـ يا رجل أنت متشائم جداً وحزين جداً . خلِّها على ربّي . لنوح ما يقوله عندما تحين اللحظة . لن يتخلى عنا .

ـ شُوفْ يا عمار بوزوار خويا ، ستكون أنت سيد السفينة لقد كنت ريّس كل الفلائك الهالكة وأنقذتها . تعلمت الصغيرة والكبيرة ، وخبرت البحر حتى قبل أن تأتي إلى هذه الحفرة . تهَلا في الأولاد . ربّي يحفظك من كل مكروه .

ـ البحر في جيبي يا خويا رغم أني لم أتعود على هذه السفينة . هذا

الغول الغريب ، ولكن أنت تعرف ، لا شيء يعصاني .

وعندما انتهى الجميع من الأكل ، أخذوا الحبال ، ربطوا أطرافها على السفينة والأطراف الثانية وضعوها على ظهورهم وبدؤوا يسحبون ، والسفينة تتزحلق من على الصخرتين الكبيرتين ، على قطع خشبية ضخمة ، طليت بشحم الجمال والزيت . في البداية استعصى الأمر كثيراً ولم تحلّ العقدة إلاّ عندما ساعدتهم الحوامة . بدورها حاولت أن تسحب السفينة فتحركت وبعدها بدأت انزلاقاتها ، لتتحول إلى مجرد لعبة للأطفال . وعندما دخل أنفها المياه ، طُلِبَ من عمار بُوزْوَارْ أن يعتليها ، ففعل وهو يضحك مع مساعديه .

- لو كانت حصاناً لطلبت مِنْهَا أن تركض بسرعة على الحافة . فالرمال كانت تحسدها على عظمتها وندرتها .

بدأت تتزحلق وعمار بُوزوار الذي ذكرته الكتب البابلية القديمة بالتسمية القريبة من اسمه الآن (أمُورِي بُوزوِي) ، يتفحص سواريها مع مساعديه وقوتها ونوعية خشبها وقدرته على مقاومة الأمواج العالية التي تكسر الحجر . شغل محركاتها فلم يسمع إلا شخيرها وهو يندمج مع صوت الموج ، وانفجارات الجبل الأسود والمطر الغليظ ، ثم صعد إلى إحدى القمرات ومن شرفتها بدأ يلوح ، أن كل شيء على ما يرام . وعندما استقرت قليلاً وأنزل مرساتها ، أُلْصِقَتْ بها الممرات الخشبية الرابطة بينها وبين اليابسة ثم ضُبِّط كل شيء بالأوتاد والحبال الغليظة ، وبعد ذلك أعطَى أحد المسؤولين الذين جاؤوا على متن الحوامة السوداء ، الإشارة للبدء في عمليات الركوب . فصعد أوّلاً سبعون بحاراً من المريدين ، بعضلات قوية قادرة على قهر حالة اليأس ذاتها ، عُراة الصدور على الرغم من المطر وبرودة الثلج النيلي الميال نحو زرقة خفيفة . ثم صعدت "الفنانات" اللّواتي تمّ انتقاؤهن بموافقة أوسكار وسارة ونوح الذي لم يظهر والذي تقول عنه الروايات الصادقة إنه كان لا يزال تحت رعشة الزلزال والكتابات الخضراء التي ارتشقت في الغيمة

الوردية ، فقمن باحتلال الطوابق العليا المجاورة لمقصورة نوح ولد الملياني التي هُيئت بالقاطيفا والأفرشة النادرة . ثم دخل فوج الحرس الخاص الذي يتكوّن من سَبْعين نَفَراً مدججين بالأسلحة الحديثة والذين احتلوا الزوايا الأساسية في السفينة . بعدها بدأ الناس يأتون جماعات جماعات ، كل واحد يحمل بين يديه زوجاً من الأطفال تتراوح أعمارهم ما بين الخمس والسبع سنوات ، تحت وابل المطر وصوت البرّاح الذي لم يتوقف منذ أن انْتَهَى من إنجاز الطوابق الأخيرة من السفينة يا السامعين ما تسمعوا إلاّ سمع الخير . سفينة نوح منقذة الذريّة الصالحة ، ستقلع قبل الطوفان . من يريد إنقاذ أبنائه الصغار فليرسلهم إلى سفينة الأمان قبل فوات الأوان . نوح متعب ولكنه سينفّذ أمر الله الذي يتجاوز إرادته . "وقلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلاّ من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلاّ القليل . صدق الله العظيم" . يا السامعين ما تسمعوا إلاّ سمع الخير . . .

كانت السفينة تتدحرج بين قوة الموج و عنف المطر والأقدام التي كانت تشقها مسرعة عبر الطريق الخشبي الممتد من العلم المغروس في قلب المكان الذي سماه السكّان بلغة المهاجر أين عثر على البلغة التي رأى فيها نوح عيني الزنجية وهما تستفزانِه ، إلى صدر السفينة . يقال و العهدة على من روى ، إنه في ذلك المكان بالذات مسّه الحنين في القلب إلى أجداده القدماء وإلى شجرته الفاطمية ، فبكى ثم رمى بلغته باتجاه عمق البحر ومنذ ذلك اليوم وهو يمشي حافي القدمين ، ويعبر الشريط الساحلي بكامله . ويقال كذلك إنه منذ ذلك الزمن بدأ وحي الطوفان الذي كان مجرد قصّة فتحول إلى حقيقة قاسية تخبر عن هلاك الضرع والزرع والحيوان والبشر وتجعل الواطي عالياً والعالي واطياً .

كان التعب باديا على الوجوه و الحزن و الحماس و هم يمسحون العرق و الماء من على وجوههم بعدما سُدَّتْ أبواب السفينة ، وسُحِبَتْ الممرات الخشبية ، وبدأت هذه الأخيرة تزحف شيئاً فشيئاً وسط هدهدات عنيفة أحياناً ، بعيداً عن تكسرات الموج بعدما تأكد أنّ بقاءها طويلاً في ذلك المكان سيعرضها إلى التشقّق و ربما الضياع . الأمواج

بدأت ترتفع والأمطار لم تتوقف أبداً . وعندما ابْتعدت قليلاً ، توقفت من جديد وأخرج عمار بوزوار الذي كان يلوّح انتشاءً ، مرساة السفينة وبقي ينتظر تعليمات الحوامة من فوقه ، بينما اصطف الناس على شكل صفين مواجهين لبعضهما البعض يَنْطلقان من الشاطئ وينتهيان عند أبواب القلعة التي كان فيها نوح يقاوم حالات الحمّى النبوية التي أقعدته . إنه الطريق الوحيد الذي أَنْجِزَ وَعُبِّدَ في وقت قياسي والذي سيعبره الأمير نوح وسارة .

عَلَتْ الموجة العملاقة وغطت شمس الغروب ، ولم يظهر نوح . لأوّل مرّة يحدث هذا . كان لا يغادر البحر إلاّ إذا ودّع الشمس وودّع هذه الموجة وشهد تكسرها عند أقدامه . الناس قضوا الليل بكامله ينتظرون مجيئه وهم لا يعرفون جيداً ما إذا كان سيركب السفينة أم أنه سيركب الحوّامة التي كانت رابضة في مواجهة السفينة والراية العريضة التي كتب عليها شعار نوح بالخط الكوفي الغالب :

مشيخة أمادرور الإسلامية، وحاكمها الفاطمي المنتظر، الإمام نوح. سلطان الدين والدنيا. اختبرني ربّي فأحسن اختباري. " لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم "

وعندما لاحت تباشير الصباح الأولى ، كانوا لا يزالون في أماكنهم ، جامدين تحت البرد والمطر ، ينتظرون مرور الإمام نوح ، الذي صار إماماً منذ أن زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت أثقالها وقال سكان أمادرور مالها فقيل لهم إنّما نوح هو الذي أوحي لها ، وقُرِئت البيانات الصباحية ، لكن الإمام لم يأتِ حتى ظن البعض أنه مات .

ومع ذلك ، ظلت الأنظار مشدودة نحو القلعة ، في انتظار علامات الدهشة التي خطت حروفها الخضراء على الغيمة الوردية النادرة ، التي يقسم الجميع أنهم رأوها وأسقطت مطراً بحبات البُلور الصافي وعُمِّدَتْ الدنيا بثلج نيلي يميل نحو زرقة دافئة .

* * *

- III -

تأمل الإمام الفاطمي نوح كما صار يسمّى نهائيا منذ الأحداث الأخيرة التي غيّرت مجرى الدنيا والريح والبحر وحركة الأمواج والأفكار والنيّات كما يقول سكان أمادرور ، نفسه طويلاً في المرآة الكبيرة وهو يكتشف تفاصيل وجهه اللاّمعة والمضيئة . تنفس بعمق . شعر أخيراً بالانتصار يملأ ملامحه وبالأشياء الثقيلة كالرصاص تخرج من ذاكرته وقلبه وبالصفرة تتوارى .

" ياه ؟ خمسون سنة فقط ؟! نصف قرن بالتمام والكمال! ؟ أي أيوب هذا ؟"

ما أطولها وما أقصرها . أكلت اللحم والعظم ، وشربت الدم والبحر وسرقت صلابة الصخر ومحت كل الألوان القديمة ، لكن في لحظة التتويج تموت كل المتاعب والأشياء القديمة ولا تبقى إلاّ اللحظة المُسْكِرة التي لها طعم الذاكرة والشوق والحنين . هي لحظة صغيرة قادرة على الحياة وعلى مجابهة الفاجعة .

تدحرج الإمام الفاطمي نوح أكثر داخل الغيمة الوردية أو البنفسجية أو النيلية . لا يريد أن يفصل بين الألوان . كلها مشتهاة . الناس يقولون إن اسمه ارتشق بلون أخضر داخل غيمة رأوْها وردية

لكنها سرعان ما عادت إلى أصلها البنفسجي وآخرون يصرون على أنها وردية فقط والذي غيّر لونها الأصلي هو الثلج النيلي الميال إلى زرقة دافئة الذي سقط بعدها مباشرة . كانت الغيمة جميلة وهي تتدحرج فوق رأسه ، تظلّله بكل الألوان وهو يستنشق رائحة البحر .

أمام المرآة رأى الأشكال وهي تتداخل . رأى والده وأعضاءه المتناثرة ثم بعض عظامه داخل المتحف . رأى الذرية التي سينشئها على يديه على الطاعة و تقبيل الأرجل وحب السلطان . رأى سارة وهي تنجب ورثاء بعدد النمل يواصلون ما بدأه في الهناء و الطمأنينة . رأى نارا تشعل القبائل و تمس رأسه . . .ثم رفض أن يرى و اكتفى بالتلذذ بصوت البرّاح الذي أعجبه على غير العادة وهو يبدأ تبريحته بآية تمجد الهجرة :

" يا السامعين ما تسمعوا إلاّ سمع الخير . . ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغمَ كثيراً وسعة . . . الإمام الفاطمي نوح ولد الملياني سيهاجر ، استقبلوا هجرته بالدفوف وبدمع أقلّ فهو يعزّ ، لكن صوت الرسالة والواجب ينادي آخر السلالات الفاطمية التي تعيد إلى الإسلام مجده ونوره وصرامته . . .وإذا ضربتم في الأرض ، فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلوات . . ومع ذلك لم يتوقف الإمام يوماً واحداً عن الصلاة منذ أن أخذته رعشة الواجب وقال لسارة دثريني يا بنة الأخيار . . . كانت تعرف سرّه وحاجته للغفوة فأفرشت قلبها له . . . يا السامعين ما تسمعوا إلا سمع الخير . . . ومن يهاجر في سبيل الله . . "

كل شيء كان يوحي بأن الحدث جلل ولا يتكرر مرتين على ساحل أمادرور (حضر مَوت) الزرقاء التي حالت ألوانها ولم يحل يقينه في أن الحقّ آتٍ لا ريب فيه .

"هاأنذا آتٍ يا أبناء الزانية . آتٍ على براق من ريح وهواء وخوف . انتظروني" .

تمتم . الإمام نوح ولد الملياني آخر الأئمة الفاطميين (؟) بطلعته البهية التي تشبه طلعة فاطمة الزهراء النورانية بنت الرسول الأعظم الذي حكت عنه كتب الأولين ولم ينتبه له أحد . كل الكتب القديمة والجديدة وصحائف الأوّلين بدون استثناء أنبأت بالرجل ذي القرنين . و انتظر حتى شَقَّ رأسه قرنا العظمة والألوهية كما عند عظماء اليونان والرومان والفرس .

أحنى الأمير الفاطمي نوح ولد الملياني رأسه قليلاً أمام المرآة ، فرق الشعر قليلاً . أعْجَبَهُ قرناه الصغيران الحادّان . كانا قاطعين في الرأس كقرني جَدْيٍ صغير . فكر أن ينطح المرآة لاختبار قوتهما لكن المسألة بدت له عبثية كما كان يقول أوسكار . لا تشكك أبداً في قدراتك ، فأمامك مهمة لم تعط لأحد إمّا أن تكون وإمّا لا تكون مطلقاً . أوسكار نبي . يقرأ نيتي قبل حتى أن أفصح عنها . يستقبلها وهي طائرة . المرة الأخيرة التي أتذكر فيها أوسكار (لأنه بعدها لم أره مطلقاً فقد انطفأ داخل هذه الفراغات بشكل مفاجئ) عندما مرّ عليَ وكانت سارة تحتضنني ، كنت نائماً في حجرها ، وشعرها يَتَدَلَّى على وجهي ويغطيني مثل شلال من الظّلال . بعد أن انتهت من مكيجتي مثل الدمية الصينية قالت : وجه الأمير يجب أن يمتلئ بالنور . أتذكره وهو يقوّمني ويأخذني من حجرها ويضمّني إلى صدره وهو يقول في حشرجة : ها أيها الأمير الفاطمي ، لقد صِرْتَ الآن إماماً . ليس فقط على أمادرور ولكن على امتدادات كبيرة تنتظر فتوحاتك . لقد بدأ العمل جدياً على السفينة وستكون جاهزة بعد أيّام وربما لحظات . هي سفينة نوح . سفينتك ، سفينة الخلق وإعادة الخلق والنجاة من الموت . سفينة القرن ، المقاومة للطوفان الذي بدأت أولى عواصفه تضرب أجزاء كبيرة من الربع الخالي ، وسيصل إلى هذا المكان وسيمسح الكثير من ملامح أمادرور (حضر موت) . فأنتَ الإمام المنجي للذريّة التي تصنع منها كتائبك الأساسية ، لأنّها لن تخونك أبداً . ماذا تريد يا صديقي أنت عندك رسالة ونحن عندنا رسالة . تعوّدنا عليك كثيراً وعلى طقوسك وسط هذا الفراغ

الأزرق كما كنت تسميه . لكنها الدنيا بنت الكلب الأحمق . الواجب هو الواجب يا أميرَ المؤمنين وإمامَهم . أوصيك فقط ألاّ تركب رأسك عندما ترى خطراً مداهماً . ستجد دائماً من ينجدك من الأصدقاء . فاسمع لهم . واجبنا ينتهي هنا ، لكنَّ أيادي أكثر أمناً ستوضع تحت ودّها وإشرافها .

ودّعني ثم خرج بسرعة وهو ينظر إلى الساعة . كان الوحيد من الأنتروبولوجيين الذي رأيته . هذا الرجل من طينة خاصّة . سنه وحياته وتجاربه لم تعلّمه إلا الإصرار المستميت على الحياة .

امتلأت المرآة بِوَجه أوسكار . كان سمحاً بلحيته البيضاء وشعره الطويل وعيونه الصغيرة مثل عيني أرنب . سوادهما المحمر يكاد يغطي بياضهما الذي اضمحلّ تحت ضيق الحدقتين . ثم بدأ الوجه يضيق ليحل محله البحر الذي بدأ يستعيد زرقته الهاربة ، ثم السفينة بكل طوابقها و اتساعها كما وصفتها الألواح البابلية التي قرأها وأعاد قراءتها طويلاً .

أنا لا أدري الآن وأنا في اللحظات الأخيرة داخل هذه القلعة ما إذا كان الزمن يركض فيَّ أم أنا الذي كنت أركض فيه بحماقاتي وجنونياتي وأوهامي وأشواقي . لا أدري أيضاً كيف تسارعت الأحداث والوقائع ، وهل كان من حقّي الإغراق في الأسئلة المستعصية ؟ كنت أريد أن أخرج ؟ لكن الآن إلى أين ؟ مع من ؟ كيف الناس هناك ؟ أوسكار يقول دائماً ، ستجد من يساعدك في الوقت المناسب فلا تركب رأسك . لن أركب رأسي . رأسي هو السلطان . يوم واحد فقط أشعر بحلاوته على رأس لساني وبعدها ليرث الله أرضه إذا شاء . و إذ نشاء يشاء . ما عندي حاجة فيه . شغله ، ولا أدري أيضاً إذا كان من واجبي أن أفرح أو أحزن بمناسبة الانتهاء من إنجاز السفينة التي قضيت فيها أكثر من خمسين سنة وأنا أقاوم السوس بالقار والزيت وألصق أخشابها قطعة قطعة ، ألماً ألماً و انتظاراً انتظاراً ؟ فقد كانت السفينة مراهنتي الأساسية تجاه هذا الزمن الذي يُخرِّمُ الإنسان مثل رصاص الحيطان أو دودة

الأخشاب . فحياتي كانت رهينة بتلك القطعة الخشبية الضخمة التي رماها البحر ذات صباح على الحافة وكان عليّ ترميمها . حتى أوسكار أكد على ذلك في شكل مزحة فيها أكثر من معنى . إمّا أن تنتهي منها فتُبْحر ، وإمّا هنا يموت قاسي . أخترا ؟ ثم قهقه و مضى . و عندما عاد ، كان بصحبة رجل ملثم محمل بالقطع الخشبية و بالأوراق و البيانات و قال هذا وسيلتك مع الدنيا في كل صباح . وعندما انفتح باب السماء والأرض والجبل الأسود ، كان كل شيء قد انتهى أو في طريقه إلى النهاية بشكل متسارع ، بما في ذلك السفينة التي استلمها الصيادون والمهندسون الذين جاءت بهم الحوامة السوداء ، لتنداح الأرض فجأة من تحت قدمي وكأنَ شيئاً لم يحدث ، وكأنَ قيامة المكان مؤجّلة إلى ما بعد سفري باتجاه السفينة العمياء الرابضة في عمق البحر منذ أكثر من نصف قرن تحت ظلّ غيمة سوداء قاتمة . سآخُذُ التعليمات كما قال أوسكار و أكدت سارة على ذلك ، وأسهر ليلة أودّع فيها العسكريين الذين وفروا لي كل الحماية ، ثم أمتطي سفينتي وأعبر في سبع ليال من البحر باتجاه ما تبقى من نوميدا-أمدوكال التي لا أعرف منها إلاّ هذا القفر في حفرة حمّام الشمس . وربما أقل من ذلك ، قلعة صغيرة محاطة بالأسلاك الشائكة ومطلة على البحر وعلى الموجة العالية التي تغطي كل مساء شمس الغروب .

"هو ذا الإمام الفاطمي نوح ذو القرنين ولد الملياني ولد شهريار بن المقتدر بن شهريار المخدوع في فراشه ، بطلعته البهية وصرامته ولا تسامحه مع الذين سرقوا شوقه وأبادوا سلطانه وسخروا من حلمه" .

تلمس جسده من جديد بكثير من الأناقة ، ومدّ يديه إلى مؤخرته ، فمسد عليها كمن يريد أن يكون أملسَ مثل قطعة رخام . كان بألوانه النارية مثل المتادور المهيأ لمبارزة جهنمية وجميلة ضد ثور جموح هو على يقين من الانتصار عليه . لباس يملؤه البرودي وخيوط الذهب والفضة المعشقة بالكريستال اللماع . على ظهره برنوس عربي قديم ، مطرز بالياقوت والمرجان والذهب المسحوق . كانت سارة هي

التي طرزته وقامت بكل التفاصيل في الأيّام القليلة التي أعقبت ظهور العلامة الثانية التي دوّخت الناس والدنيا ورَكَّبَتْ حمّى الأنبياء لنوح . طرزته وهندسته بالكثير من الحماس . قالت لأصدقائها ، اتركوه لي ، فهذا اليوم هو لي بكامله من شعرة رأسه حتى أخمص قدمه . لا أريد أن ينافسني فيه أحد . ثم وضعت على وجهه كل الألوان الشفَّافة والأغبرة التي تجْعَلُ منه وجهاً صافياً ولامعاً . أعجبته الحالة عندما رأى قسماته في المرآة ، ثم نظفت له فمه وأسنانه بالسّانطول والكُحُول والمواد المعجونة الحارة ، وقد كانت قبل ذلك قد بخّرته في حمّام طوطت فيه كل مفاصله المتعبة . بعدها جاءته بمِقَصّ صغير وقالت له الآن سأظرف شنباتك يا سالفادري العزيز ، وسَأُبْقِي هيئتك هي هي ، هيئة فنان نادر . رجل وسيم قادر على مقاومة كل انكسارات الحياة والخروج من مآزقها . ثم قصّت بعض أطراف لحيَتِه التي تركها تنزل على وجهه منذ حالة الحمى القصوى ، حتى صارت مثل لحيَة الحاخامات وَوَضَعَتْ على رأسه شاشية حمراء تلمسانية غامقة ، تنسدل من قمّتها مجموعة من الخيوط السوداء ثم قالتْ له قف الآن وتأمل ذاتك يا أميري وحبيبي وإمام قلبي . المرآة بطولك . إقرأ تفاصيلك الجديدة .

دقّق في المرآة أكثر .

قهقهتْ سارة مع ابتسامة فيها الكثير من الدهشة .

ـ الله الله على ماتدور . هكذا عظام الكوريدا و السلطان وإلاّ ما يشقاش ؟!

ـ العظيم يجب أن يدخل أصيلاً وعظيماً .

ثم بدأ نوح يغرق في المرآة حتى غابت سارة وغاب هو نهائياً .

ياه! كيف الدنيا هناك ؟ كيف النّاس ؟ هل سيتذكرني الكبار و المشايخ الذين بقوا على قيد الحياة بعد عاصفة الصحراء و مدينة الزيت و قصف تحالف الأصدقاء ؟ هل سيعرفني الصغار ؟ هل سمعوا بوجودي

داخل هذا الموت الفارغ ، داخل هذا البرزخ الذي يهيّأ فيه الإنسان ليكون عظيماً ؟ هل بقي من الشيوخ والوجوه التي كنت أعرفها شيء ؟ هل تتذكرني المدارس الخاصة والعامّة ؟ أصدقائي ؟ نساء القصر الصغيرات ، هل البحر الذي هناك لا يزال كما تركته منذ خمسين سنة ؟ هل بقي شيء واقف في قصر الملياني الذي نسيت وجهه وبدأ يمّحي من ذ كرتي ، ربّما لأني في العمق أحقد عليه لتأخره عنّي في السلطان ولقتله لأمّي بضرب رأسها على الحائط المشنقر .

أوف . . كيف الدنيا في تلك البلاد ؟

من قال إن في الليلة السابعة تكبر الفاجعة . لا فاجعة مطلقاً . ها هي ذي الدنيا تغير كل مساراتها وتشق طرقاتها الصغيرة بعيداً عن الخراب والقتامة التي ملأتني مدة من الزمن . وها أنذا أقوم من قيامة اللون الأزرق والبيانات والكلمات والأصباح والصلوات وأستعد لمغادرة البحر إلى البحر . أحمل في سفينتي صبيان المجد و خدم المستقبل وحرسي وكتائب الرحمن التي أنوي تأسيسها بمجرد وصولي ، كنقيض لكتائب الظلام . وظيفتهم أن يردوا الناس إلى طريق الصواب بالتي هي أحسن (وكل مَنْ يَعْصي يَقْلْعُوا لُه دِينْ يَمّاه ، يَحَرْقُوه ، ويبخْروا بلَحْمُه دروبْ المدينهْ) ها هي ذي أمواج البحر البعيدة تأتيني عن آخرها . صباح الخير يا الناس! كيف أنتم ؟ هل عرفتموني ؟ لا لم نعرفك ؟ من تكون ؟ ملامحي لا تذكركم بشيء! ؟ أبداً يا سيدي! يلعن طيزْ أمّهاتكم يا أولاد القحبة! ؟ أنا ربّكم الأعلى . إمامكم الذي اختبأ داخل البحر . نزلت عليه آيات العودة . وهاأنذا أعود لكم . أنا نوح . . .نوح . . .هل تعرفون نوح . . .ترتسم على وجوههم فجأة علامات الرضا . نعم . . . نعم . . . نعرفه يا سيدي . وفجأة يسبقون كلامي . هاهْ! إذن أنت نوح يا سيدي وليد نوارهْ لهبيلهْ ؟ قيل لنا إنك متّ . وبعدها سمعنا في الشوارع الخلفية أنك قُتِلْت . الله يَخْلِيكُمْ ويلعنكم . لا تستحقّون إلاّ الإبادة . نوح ولد نواره لهبيلة بنت زينب سحركم ، امتصّ عقولكم يا أولاد الحرام . أنا نوح إمامكم ولد الملياني .

هلّلوا . من اليوم سأصيركم بني آدميين وليس مجرد رُعاع . رَاحْ عليكم النفط فأصبحتم رعاة إذ كنتم أسيادا .

تضع سارة يديها على كتفيه بهدوء حتى لا تفصله عن غفوته ، وهو غارق في تفاصيل المرآة .

ـ هاه! ماله مولاي هل سحرته المرايا أم ما تخبّئه وراءها ؟! أنا هنا يا سلطاني الكبير . هنا ، بجانبك .

يلتفت قليلا نحوها . يحاذي شفتيها .

ـ لا مرايا غيرك يا ملكتي سارة . كنت غارقاً في البحر البعيد و في عينيك .

ـ للمرآة شأنها يا سيدي الكبير وإمام قلبي . وللبلاد حنينها الذي ينتظرنا .

ـ وأنت يا سارة متى تلبسين ؟ حوّلتني إلى دمية جميلة وبقيت غجرية .

ـ ألا أعجبك هكذا .

ـ تقتلينني . لكنَّك الآن زوجة سلطان كبير .

ـ انتظر . لقد طرّزت لنفسي أشياء ملوكية جميلة .

كان اللباس الذي سحبته من الحقيبة الكبيرة لا يزال ملفوفاً في الورق . تقول إنها حضرته لهذه المناسبة منذ زمن بعيد ، لأنها كانت على يقين بمجيء هذا اليوم النَّادر . فتحته . كان ضيقاً . أدنى بقليل من قياس جسدها الذي يعشق نوح كل استداراته . أدخلته بالقوة وهي تعضّ على شفتها السفلى وتقول ، هكذا ، يجب ألاّ يكون فضفاضاً وأن يحكم تفاصيل الجسد بشكل جميل ورائع . كان اللباس زهرياً ، مرصعاً ببعض النجوم الزرقاء وآلاف النّجيمات السداسية ، ثم وضعت فوق الكلّ وهي تضحك ، حجاباً شفافاً . السترة يا ولد الناس . لقد صرت زوجة

إمام . حبيبة السلطان يجب أن تكون مُحَصَّنة ومعصومة من كل النظرات التي تغري السذّج وهي كثيرة .

- تتحصن ولا تظهر مفاتنها إلاّ لبعلها .

- سأكون معك وستكون سيدّ الدنيا وستستعيد أمجاد الآفلين المسروقة و ملكك .

وستعيد ترتيب كل التفاصيل ، ستلغي من نظامك كل الكلمات التي استهلكها التاريخ وصار سماعها يؤذي الناس . جمهورية . مملكة . جملكية . هذا العصر يا مولاي لم يعد نفطياً . هذا العصر رملي وإذا لم تنحت وجودك داخل الرمل فأنت من الآفلين . ستعود إلى أصولك القديمة التي جاء بها التاريخ ، تاريخ الأنظمة والقوانين والسلطان في هذا الربع الخالي . الذي أوجد لك كلمة "مشيخة" لم يكن مخطئاً . فهي منك وإليك . "مشيخة أمادرور الإسلامية" . فالأصالة من أخلاق الأتقياء والأئمة الفاطميين ، ثم إن الحاكم الذي لا يترك لمسته على الحياة فهو ميت ومن المنقرضين .

"مشيخة أمادرور الإسلامية . . .و حاكمها الفاطمي المنتظر ، الإمام نوح . " .

الله! وقع الكلمة كبير على قلبي . سيبدأ عصري بها . الحداثة والأصالة . سأحقق الذي لا يحقّق بسهولة . أوسكار قبل أن يندفن في رمال الساحل حدّثني عن شيء مثل هذا وقال أنجزنا لك راية من ألوانك المفضلة هي الآن ترفرف في عرض البحر تماما في المكان المسمى بلغة المهاجر . المشيخة تستدعي عودة الشريعة . لتكن هي سيدة نظام أمادرور . لتبعث كتائب الظلام في شكل كتائب الرحمن ، وليوضع الإمام خارج كل شريعة وقانون ووصاية . لينزّه من رأسه حتى قدمه . ستكون المادة الأولى من الدستور المستوحى من الشريعة الإسلامية : شخصية الإمام منزّهة ومقدّسة وعظيمة ، وليأكلوا أنفسهم بعد ذلك إذا شاؤوا . سأعدد الأحزاب وأبدّد الإرادات وأظلّ أنا فوق القوانين

والضوابط مثلما كان أسلافي . وكلّما تأزم الأمر ، أعطيت أوامري لكتائب الرحمن لتخفف من وطء الصراعات . ستكون هذه الكتائب من الأطفال الذين سينقذون من الطوفان . لا يهمّني سوى سلطاني . سأوقع معهم رسمياً المعاهدات التي يريدون حتى لردم مفاعلاتهم الفاسدة في هذا الخلاء الأزرق ، الذي سيُبيد منطقة هي أصلاً مبادة . يقال عن هذه العاصفة ، "عاصفة الصحراء" ، إنّها تهبّ مرّة كل مائة سنة ، وستهب هذه الأيام . وهي الآن تمسح أجزاء كبيرة من الربع الخالي ، وعندما تصل إلى هنا يكون كل شيء قد انتهى ، وأكون أنا في السفينة العمياء التي تنام داخل الغيمة السوداء أو داخل سفينتي الكبرى أعبر البحر . البحر والموج باتجاه مدني المسروقة منّي . لن أعيد نوميدا-أمدوكال إلى الحياة ولكنّي سأبني نظاماً من طراز جديد . مشيخة دستورية ، تعددية . يُمَسُّ فيها كل الناس إلا الإمام . مشيخة أمادرور التي لن تصير مدينة أو مقاطعة ولكنها ستصير وطناً .

وَاجَهَتْهُ سارة من جديد . وقفت بينه وبين المرآة . كانت جميلة ومذهلة على غير عادتها . بالعادة هي غَجرية وشعرها متروك للرياح التي تهب من كل جهات البحر ، لكنها الآن صارت شيئاً آخر . حالة! ضفرت شعرها ودخلت داخل لباس زهري ضيق مطرز بنجوم زرقاء صغيرة لتبرز كل الاستدارات في جسدها ، وكحّلت عينيها اللتين زاد سوادهما واستمالتهما وانحناؤهما نحو عالي الأنف .

قال نوح وهو يعرّيها من رأسها حتى أخْمص القدمين بعينيه الجاحظتين .

- آه لو لم نكن على أهبة الخروج لريّشتك وشنشفتك .

ضَحِكَتْ بأعلى صوتها مبرزة شفتين ممتلئتين .

- لقد صِرْتَ ملكاً ولحيتك الحادة في الرأس تعطيك وقار الحاخامات . وشنباك المنكسران عند الرأس يحوّلانك إلى فنان . لا يصح هذا الكلام يا أميري .

ـ أنت دائماً تبالغين . ليكن . إني أرى نفسي في هيئة حاكم تركي إسلامي من زمن الدّايات والباشوات .

ـ يا سيدي! الدّاي أو الباشا أو الحاخام أليسوا أبناء عمومة . المهم أن تسترجع سلطانك .

ـ الدنيا الآن تفتح طريقها واسعاً ، وعلينا أن نسلكه بجدية قصوى قبل فوات الأوان . فرصتنا التي أقسمت أمام ما تبقّى من لون البحر والغيم وشقوق الأرض وجسدي الذي تآكل بنصف قرن انتظارا ، لن أتركها للريح أبداً . حاخام . باشا . عزْرين . ربّي . لا يهمّني مطلقاً . الإنسان الذكي هو الذي يفهم عصره جدّياً في زمن صراعات القوميات والأديان والأعراق ، واللغات الصغيرة والكبيرة ، والمصالح العليا . على الإنسان أن يلبس ألبسة جديدة وإلاّ لن يصير دقيقاً في فهمه ويكون من الخاسرين . ليكن الدين وسيلتنا للدخول إلى قلوب الناس وحكمهم من رقابهم . فالهمجية لا تسيّرها إلاّ الأديان والأساطير واستعادة الماضي الذي يعشقون العيش فيه . عندما أسترجع وجه أوسكار ، أدرك جازماً أنّ ذهن هذا الرجل ليس ذهن فرد ولكن فكر مؤسسة بكاملها . "المشيخة" شيء جديد . قد يكون مذهلاً ، يستجيب لباطن يتخبّأ في أعماق هؤلاء الناس المهزومين الذين لا ينسون شيئاً على الإطلاق .

مدت سارة يدها نحو يده . وضعتها على صدرها في حركة هادئة .

ـ هاهو ذا الزمن الميّت قد انتهى . ليتقدّم حبيبي . جماهير البحر تنتظرنا في الخارج .

ـ ياه! هل يعقل . كم أشعر بالرغبة الآن في البقاء داخل هذا المكان . لكنها مهامّ الدنيا وشؤون السلطان .

ـ هل عدنا إلى الشعر .

ـ وهل هناك ما هو أثمن من الشعر .

ـ أنتَ والسلطان .

ـ أوف . من أين تأتين بهذه الإجابات الصارمة ؟ بكلمة ترمينني في الجنّة وبأخرى تحرقين قلبي .

ـ الآن انتهى كل شيء ليبدأ عصر آخر . منفاك هذا سنزوره عندما نريد ، بخدمنا وحشمنا إذا بقي فيه شيء بعد الطوفان .

عندما تذكّر ما سيحصل ، انتابته رعدة خوف ضامرة . لا . على الطوفان أن ينتظر وبعدها فليسبح على الأرض . فليُبِدِ الناس وليمْحُ القلعة إذا شاء . سأزورها وأبكي عليها قليلا ثم أنساها إلى الأبد . و سأقول لمرافقي ، ها هنا ، في هذا المكان الذي صار ماءً أو خراباً ، انتظرت خمسين سنة قبل أن يفتح الله أبوابه الموصدة و ينبئني بالخبر العظيم .

ـ هه . . .هل أنتَ جاهز ؟

ـ نَعَمْ . وأنْتِ . أُوف ما أحْلاك .

ـ هيّا ، نخطُو أولا بالرجل اليمنى . واحد ، اثنان ، ثلاثة .

ثم رَمَى كلُّ منهما رجله اليمنى ، باتجاه الخروج .

تعلّقت سارة في ذراعه الأيمن كذلك كسلّة ملوّنة من الزهور النّادرة . عطرها الأخير كان هدية من أوسكار إثر عودته من أمريكا . قال لها " Van Cleef"اتركيه لليوم الموعود ، إنه يورث بعض الدوخة والانصياع للأشياء الجميلة والسكر . وهاهي تشعر أن كل الدنيا لها . ببحرها الواسع وحتى بحشراتها الصّغيرة .

كانت سيارة "الجيب" La Jeepالخضراء تنتظر في الخارج ، مفروشة بالقطيفة الحمراء وبعجلات بيضاء ناصعة على غير عادة السيارات العسكرية .

أراد نوح أن يركب ، نظرت إليه بعينيها المائلتين اللتين تستفزّانه

بجمالهما . وقبل أن يصعد السيارة تذكَر .

أهاه! ثم مدّ رجله اليمنى ، فتبعته بالحركة نفسها .

لم يقل شيئاً ولكنه ظلّ يتحسّس شلاغمه ولحيته التي انكسرت عند الرأس مثل لحية الربّي ، تحت عاصفة من صراخات الناس وحبّات المطر الذي لم يتوقف أبداً :

"لقد خرج الإمام . . .لقد خرج الإمام هلّلوايا . . . لقد خرج الإمام . . . " .

كانت الدهشة كبيرة . اختلطت بالزغاريد وفضول الاكتشاف . الكثير منهم لعن نفسه وزوجته وأبناءه والدنيا والله . كيف لم يتفطّن لعبقرية هذا الرجل ؟! هذا الرجل الذي لا يتكرّر دائماً .

وعندما تحركت السيارة وسط الجموع المتراصّة ، كانت الصرخات النسائية قد زادت حدّة وقوة ، ممزوجة بشيء يشبه عويل الأعراس الدمشقية الصيفية :

" آويك خسرناك يا زين الشباب! آويك سرقتك منّا السماء! آويك يا من يَتَّمَنَا غيابه وفراقه! آويك يا أكبر من كلّ كبير! آويك نبكي على فراقك أم على أنفسنا! آويك . . . "

عندما استراح جيداً داخل السيارة وبدأت هذه الأخيرة حركتها تَيَقَّن أكثر بأن الدنيا مبنية على شيئين هما الشيء نفسه في الأصل . المرأة والصبر . في كليهما شيء من الآخر . في عمق المرأة شيء من الصبر وفي عمق الصبر الكثير من الأنوثة والمقاومة . لقد صدق الأوّلون . خمسون سنة مضت بدون أن تحرّك الدنيا ذاكرتها أو عينيها أو وجهها . وهاهي ذي تتغيّر بسرعة مذهلة منذ أن قذف البحر بالمخطوط الشرقي ومنذ ارتسام العلامات المخيفة على الأرض والجبال وعلى الغيم الوردي وعلى الوجوه وسقوط الثلج النيلي الميال نحو زرقة دافئة .

وحـــدّثه أوسكار عن كل ذلك ، لكنه لم يكن يدرك أن الناس سيكونون بكل هذه الضخامة ، ينتظرون مروره فقط ، وهم تحت المطر منذ أكثر من يوم بدون راحة ولا نوم . حبّاً فيه ؟ حبّاً في العلامة أو خوفاً منها ؟ أم فعل البيان الأخير الذي كان يلحّ على التآزر والتكاتف و الذي يحمل توقيعه بالشكل الصريح : من حاكمكم المبجّل الإمام الفاطمي المنتظر نوح ذي القرنين . يؤكد فيه على ضرورة عبادة الله تعالى وإقامة الصلوات وإيتاء الزكاة والتنبه جيداً لنواقض الوضوء ومغالطها وعدم التضحية بها مطلقاً لأن العصر القادم سيكون عصراً للدين والفضيلة . الجائع قبل أن يفكّر في جوعه ، عليه أن يفكّر في الفضيلة والخير وفي صلواته اليومية والتقرب من ربّه وإتقان وضوئه وسبغه والبقاء تحت ظلال البيوت على أمل لقاء الله تعالى واليوم الآخر ودار البقاء والخلود العظيم . فالله لا يضيّع أجر الخلق الطيبين المنتظرين . كان جوهر البيان ، وعظيّاً إرشاديّاً إلى الفضيلة ، رفعه إلى مصاف الأولياء والنصوحين . الناس لم يتساءلوا مطلقاً إذا كان هو نفسه الذي صاغ البيانات السابقة على الأقلّ . الرجل ملك كل الكرامات التي تغير الدنيا رأساً على عقب . فالبيان الأخير كتب بالخطّ المغربي نفسه وأخرج بالطريقة القديمة نفسها للنصوص الأندلسية . حتى نوح وهو يقرؤه ويتأمّل خطوطه ، كاد أن يصرخ ليقول إنه ليس هو الذي صاغه وليس الذي سلمه لآخر رسل أوسكار المكلفين بأخذ البيانات ونسخها وسحبها والعودة بها لتوزيعها على أطراف الساحل الواسع .

تأمّل البيان الذي كانت نُسخٌ منه في سيارة الجيب Jeepثم تمتم وهو يمسد على لحيته ويبرم شنبيه المعقوفين عند الرأس : والله ، لو لم أكن صائغه وأَعْـرَفُ الناس بكلماته ، لقلت إنه نص سرق من المخطوط الشرقي ، أو هو ورقة من أوراقه الضائعة التي احتضنها الرجل المجنون الذي ادّعى أنه هو عبد الرحمن بن خلدون أو المجدوب ، عبد الرحمن منيف ، عبد الرحمن الداخل ، عبد الرحمن الكواكبي ، عبد الرحمن جيلي ، عبد الرحمن شَرْقُو . . .هذا العبد الرحمن الذي تعدّدتْ أسماؤه

وأوجهه ، وهو في الجوهر واحد . كارثة واحدة لا تزال عالقة بهذه الذاكرة التي لا تغادرنا إلاّ إذا صفّت حسابها معنا ، وأعتقد جازماً أن هذه الذاكرة صفت بالفعل حساباتها معنا منذ زمنٍ قديم . سأدخل السلطان ممتلئ القلب ، فارغ الذاكرة سوى من الأشياء الكبيرة . مؤلم أن يغادر إنسان حسّاس وممتلئ بالمشاريع ، أرضاً قَضَى فيها أكثر من نصف قرن من عمره . نصف قرن ؟! لنقل قرناً! يجب أن نحسب مواقيت الليل والنهار ، فقد نَحَتَتْني مثل الصخرة الكبيرة أو الحائط القديم . عشت كل شيء داخل كل الأزمنة بحسابات غير محدودة ، وبكيت ملكاً ضائعاً حتى كادت عيناي أن ينشف ماؤهما في انتظار العودة إلي أرض هي أرض ميعادي لي أنا وحدي كما كانت تقول سارة والتي لم أبق فيها إلاّ عشر سنوات من عمري المسروق .

السعادة كانت تقرأ في وجوه الناس ، كبارا و صغارا . لقد انتظروه طويلا ، و ها هو يمر في موكبه السلطاني رغم الأمطار والعواصف ومياه البحر التي بدأت تتخطّى مساحة الرمال والأقدام وتَغْسِل الطريق المعبّد . اصطفّوا . وسوّوا الصفوف حتى يتلقوا رحمة الله وبركات الإمام الفاطمي نوح الذي كان يكره الفوضَى واللاّجدوى والخوف . بالرغم من كل الصعوبات ، الناس ظلّوا طوال اليوم والليل ثم النّهار وهم يقاومون النوم والانهيار بغية التبرّك به قبل الوداع . معظم الصيادين أغلقوا البحر ولم يدخلوه للصيد ، ونزلوا إلى مكان الاستقبال على الرصيف بأولادهم وأهاليهم . أقلية قليلة لم يكن المنظر يهمّها كثيراً ولم تدهشها لا خطوط الغيمة الوردية ، قالوا إنها بفعل أشعة اللاّيزر ، ولا انفتاحات الأرض ، قالوا الزلازل هي أمر طبيعي ولا يمكن التحكم فيها ولا يمكنها أن تكون من فعل إنسان إضافة إلى كون المكان مخزنا للنفايات المشعة ، و لا العواصف ، قالوا علوم اليوم تستطيع أن تتوقّع كل شيء قبل حدوثه والأرصاد الدولية تتحدث عن "تكوّن عاصفة الصحراء" فوق المناطق المجاورة وهي تزحف الآن نحو أمادرور ، في منطقة حفرة حمام الشمس . أين الغرابة ؟! أين الدهشة! ؟ هذا نصّاب و محتال . طاغية

ابن طاغية ، ابن طاغية . سلالات الموت والانقراض .

قال صياد مولع بطلعة الإمام الفاطمي نوح لصديقه الذي كان دمه يغلي .

ـ يا رجل واش بك هكذا! تعال ودّع ولي الله ، إمام الدِّين والدنيا . سيدنا نوح الله ينصره في خطواته .

ـ أنت نية و النية أخت البلادة . بركة من الخرطي . داعية مرتبط بالمخابرات الأمريكية والإسرائيلية و الأوروبية . يحرّكونه مثل اللعبة الرديئة . ربّوه على ذوقهم . ونزعوا من قاموسه لفظة "لا" . ما يحدث نكتة رديئة تماماً . خرجنا من خراب الملياني وأدركنا متأخرين أننا بدأنا ندخل خراباً جديداً وتافهاً اسمه " الأمير نوح" . الله يرحم نوح الحقيقي . لم يحكم البحر إلا بالقدر الذي يربي به قلوب الناس و حواسهم . والله يرحم البشير الموريسكي . جاء منقذاً وعندما شمّ رائحة الخيانة انطفأ داخل التربة و لم يقل شيئا يحسب عليه .

ـ أوف أنا طلبت منك أن تقف معي على الرصيف في انتظار الإمام وأنت تعطيني درساً في تاريخ أعرفه جيداً . قل إنك تبرّر دخولك إلى البحر رغم أنه مغلق .

ـ اسمع يا خويا ، البحر مثل الفضاء . لا يغلق إلاّ بموت الأخيار والطيبين . مستعدّ أن أموت جوعاً إذا قيل بأنّ عبد الرحمن مار من هنا أو خويا عيسى الجرموني المقتول أو الموريسكي أو نوح ، شاعر البهجة والحب و النورّ ، لكن أن أقف إجلالاً لطاغية يُصْنَعُ الآن ، يصعب عليَ أن أذهب . فأنت الطليق . الله يسهّل عليك .

ثم اندفن داخل الفلوكا مع صديقه بالرغم من علوّ الموج والمطر ، بينما انسحب الرجل الأول باتجاه الصف الطويل في انتظار مرور الإمام الفاطمي نوح .

كانت سيارة Jeepلتتحرّك مثل السلحفاة وتتوقف قليلاً لتتلقى تهاني

الحاضرين أو لنزع الحلوى التي كانت ترمى عليها من كل الأمكنة . بعض المنتظرين أغمي عليهم من كثرة الانتظار والتعب وقلّة النوم أو النوم وقوفاً ، على حافة البحر .

خلف هذا الستار البشري الطويل الذي لم تحرّكه لا العاصفة ولا التعب وخلف الزغاريد ، والحلوى ، والابتسامات الموزعة هنا وهناك ، كانت مجموعة من الصيادين يبكون أربعة من أصدقائهم الذين خرجوا في الفجر الأوّل محملين بالغضب والتحدّي فرمتهم موجة عملاقة منتفخين عند أقدام بعض الواقفين على الحافة ، الذين ينتظرون مرور الإمام . التفتوا وراءهم إثر ارتطام الأجساد الثقيلة بأرجلهم . تسمّروا في أماكنهم . بسملوا ، حوقلوا ، لعنوا ، ما رأوه ثم اقتنعوا مرّة أخرى ، أن سلطان الإمام يجب ألاَ يُتَجَاوَزَ . أدخلوا رؤوسهم بين أكتافهم . نظروا إلى السماء التي ملأت أعينهم ماء وطلبوا من الله أن ينجيهم من الصواعق المنتظرة . ظلوا واقفين ملتفتين نحو الطريق ، من حين لآخر تصدمهم الأجساد قبل أن تبعدهم موجات عالية باتجاه فراغ آخر ، في رؤوسهم أسئلة الرهبة والخوف . كيف يمكن أن يختبئ وراء هذا المجنون وهذا المصلّي وهذا التاجر الماهر والمحترف ، حاكم بطلعة بهيّة وإمام تنصاع له الجبال وتتشقّق الأرض لبركاته ؟ رجل من أتباع الرسل والأنبياء ، من سلالة فاطمة الزهراء بنت النبيّ الأعظم ، الفاطمي المنتظر الذي حكت عنه كتب الأوّلين . من أين جاء وكيف نزل داخل هذه الزرقة التي لم تكن شيئاً قبله ، مثل الناس النادرين ؟ أشياء كثيرة تستعصي داخل رؤوسهم . وكلما اقتربوا منها شعروا بأنفسهم بعيدين أكثر من المرّة الأولى ، يسبحون داخل غموض يشبه غموض هذا الانتظار الغريب وهذه الزرقة التي حالت .

كانت السيارة لا تزال تمارس اختراقها الصعب للجموع الغَفيرة التي كانت تملأ هذا الفراغ بأصدائها ونحيبها الكبير . البعض كان نادِماً على ما صدر منه طوال السنوات الماضية من السخرية ، من نوح وهو يضرب مساميره ويعلّق أخشابه ، أو وهو يعبر الساحل بعصا البانبو التي كان

يلوح بها في الفضاء من حين لآخر صوب البحر لشقه إلى اثنين . هذا كان حلمه المستحيل . ها هو ذا الآن يتحول إلى حقيقة . إنه يشق البحر . فالمياه التي تجاوزت الطريق المرتفع ، كونّت بحيرات صغيرة التأمت بينها حتى صارت السيارة وكأنها سفينة صغيرة تقطع بحراً . ندموا على فعلهم عندما أشّروا نحوه بأصابعهم الوسطى وهم يقهقهون عالياً ، بينما كان هو صافناً ينتظر الموجة الكبيرة التي تغطّي الشمس ليصلي بعدها صلاة المغرب قبل الانسحاب نحو القلعة . لقد صار فعلاً الرجل الغريب والوحيد في الدنيا الذي قال للموجة كوني فكانت ، وللأنواء صبّي فصبّت ، وللدنيا اسودّي فاسودّت ، وللغربال خبئ الشمس واخترق الشعاع ، ففعل . فكان الرجل الوحيد الذي غطّى الشمس بالغربال مدة نصف قرن بنهاراته ولياليه . من استطاع قبله أن يحمل الماء في الغربال ثم يفرغه على رأسه وبه يغطّي شمسه الصفراء ؟ من ؟ هو نفسه لا يعلم سرّه .

انهارت الكلمات في حلقه وتضاءلت وهو يتأمل الوجوه التي تغيرت بسرعة والبحر الذي أصبح مقطوعاً على اثنين والدنيا التي غيرت فجأة دورتها .

"ياه! أهذا أنت يا مولانا نوح الصغير . كل هذا الخير لك وحدك ؟" .

ما أصغر الدنيا وما أفظعها إذ تصير صغيرة . خمسون سنة انتظاراً يوماً يوماً . ليلة ليلة ، ساعة ساعة ، شهراً شهراً ، دقيقة دقيقة ، ثانية ثانية ، كنت أموت فيها بالتقسيط وأخاف أن أحترق قبل أن أضع لساني داخل عسل لذة السلطان . الحلوى الشّاكية يا ولد الناس . حلوى العشق والصبيات والطفولة . ها هي ذي الحياة تعود من بعيد ويتكسر كل شيء على حافة البحر لينحت طريقاً داخل المستحيل . أليست هذه هي معجزتي . تغطية الشمس بالغربال! ؟ شقّ البحر إلى اثنين بعصا البانبو! ؟ أليست هذه واحدة من كرامات الأنبياء ؟

كان الصراخ لا يزال متواصلاً والندب يختلط مع تكسر موج البحر الذي كان يزداد علوا .

"ويكْ!! غادرتنا يا سيد الرجال . ويِكْ يا من غطّى الشمس بالغربال . ويِكْ يا سيد الأنبياء والرسل والتابعين . ويِكْ يا الفاطمي الذي خُطَّ اسمه في الغيب . ويِكْ يا من زهّر التجارة والبحر والدنيا . ويِكْ يا من أخرج الفقير من غمته والغني من وحدته . ويِكْ يامَنْ حرّر الناس من عذابهم . ويِكْ يامَنْ أدخل المرأة في عمق البحر . ويِكْ يامَنْ زيّخها ليجعل منها فنانة شقّت سفن الغرباء . . ." .

لَكَزَ أحد الحضور صديقه .

ـ شفْت!!! بفضله صار هذا الربع الخالي مليئاً بالحياة والنّور . الله يطول عمره و ينصره على أعدائه و أصدقائه المدسوسين .

ـ يا رجل ؟ لمن تقول مثل هذا الكلام ؟ أنا هنا لأني لا أستطيع دخول البحر . يَاصَاحبي خلّك ، قلت نشوف هذه المسرحية الوسخة . العطاية والقوادة والمخدرات وتهريب كنوز البحر وتحويل هذا الساحل إلى مزبلة للنفايات المشعّة ، هذه هي المعجزة ؟

ـ يا ولد عمّي أخطني يرحم والديك . أنت تسيّس وأنا جيت نشوف فقط و نبارك الرجال الصالحين .

ثم خبأ رأسه بين كتفيه عندما حلّقت المروحية السوداء على رأسه . كانت قريبة ، بالكاميرات الحساسة جداً ، تلتقط أنفاس البحر والعباد ، ممتلئة بالأضواء مثل لعبة أطفال ، سوى أنها كانت تنقصها عفوية الذّرَارِي . تمتم الرجل الذي تجرّأ أن يقول ما لا يقال في مثل هذه الأجواء الاحتفالية .

ـ رحمة الله عليَ . تْطَفْرَتْ . زَبْلَتْ . اليوم يَاكْلُوا رَاسي .

بينما كان نوح مندهشاً في دقة حركة الحوامة التي ذهبت لتنزل عند الزاوية ، وفي تناسق هيكلها وفي قدرتها على المناورة . يا سيدي ،

هم كبار مثل هذه الأرض . قالها نوح في أعماقه بنوع من الزهو والفرح . من عاشر هؤلاء الخلق تنفتح له الدنيا . الحضارة هي الحضارة والقوّة هي القوّة والرجال هم الرّجال . والتخلّف الله غالب ، هو التخلّف . هكذاً الخلق . الذكي يحرث على الغبي حتى يرثَ الله الأرض ومن عليها . عندنا شيء مهمّ ، إن حافظنا عليه ربحنا الدين والدنيا . هذه الراية الكبيرة راية الفاطمي المنتظر ، هي لي أنا ابن هذه الفراغات المؤذية و الاستماتات التي جعلت من صبر أيوب مضحكة و من ذئب البراري هذا ، أميرا فاطميا .

" سبحانهم ، ما أقدرهم . "

تمتم الإمام الفاطمي نوح ثم مدّ يده نحو سارة التي قدمت له الراية وهي محمولة بين يديها وذراعيها مثل الشيء الثمين ، والسيارة تنحدر شيئاً فشيئاً نحو موقف الحوامة . كانت الأمطار قد خفت كثيراً . فتح السطح القماشي لسيارة الجيب La Jeep ثم قام بكل طوله . أدخل طرف الراية الأيمن في قضيب حديدي سميك صنع خصيصاً لذلك . ثم رفعها ، فانفتحت عن آخرها وبدأت ترفرف بقوة مبرزة الكتابات العريضة والملونة التي خطّت على أرضية كلها خضراء وحروف صفراء وبيضاء وألوان نارية أخرى . هذه الراية هي ثاني نسخة . الأولى نُصبت عند أدْراج الحوّامة ، تماما في نقطة بلغة المهاجر .

كان يفترض أن تخرج هذه الراية قبل هذا الزمن ، في كل الأعياد الوطنية والدينية و المناسبات التي كنت أحسّها ولم أحتفل بأيّ واحد منها : العيد الوطني لتحرير البحر من الإنجليز ، خوفا من إزعاج أوسكار ، فهو أنغلو ساكسوني ، عدلت عن الفكرة . عيد مقتل الملياني ، فهو والدي مهما يكن ، الذي يصادف يوم هجومه على مدينة الزيت لكن هذه التظاهرة الوطنية كذلك ستقلق سارة . هي تقول دائماً ، نحن جيل يجب أن يكون فوق الحزازات والاستفزازات ، نرفض تاريخ المقاتلة . هذا النوع من النقاش همجي وضعيف لنأخذ الحقيقة كما هي .

مدينة الزيت صارت مستقلة وأطلس الظاهري سلطانها . لا أحبه و لكنه هناك و سنرثه اليوم أو غدا . عيد ميلاد الطبري ، فقد استطاع هذا المعتوه أن يغطي كل سوءات السلطان وهو يلزمنا في هذا الزمن الرملي . عيد مقتل ابن تيمية ، يفيدني في دفن أبناء الكلبة من المخالفين أحياءً . . .ما أكثر الأعياد التي كان يفترض أن تتمّ تحت هذه الراية الكبيرة و لم تنجز . كم كان يمكن أن تكون لذة النشوة استثنائية ، لو حدث الذي كان يفترض أن يحدث وأنا أواجه الشمس الباردة وهي تنسحب نحو إغفاءاتها الأخيرة ، بعد الصلاة الأخيرة ، أغَطّي كامل جسدي بهذه الراية المقدّسة التي خطت عليها كلمات الله ، ولا أستيقظ أبدا إلاّ مع عاصفة الورق التي تفاجئ غفوتي . لا شيء من هذا استطاع أن يحدث . لكن الآن كل شيء تغير . Mais il n'est jamais trop tard pour bien faire.الإمامة صارت حقيقةً و لم تعد مجرّد لعبة .

- ياه!! ماذا بقي من الخراب الماضي ؟! لا شيء سوى خمسين سنة من الأسئلة والحيرة و١٨٣٠٠ يوم . و٣٦٦٠٠ يوم وليلة . و ١٨٣٠٠ بيان كتب ووزّع على امتدادات هذا الساحل المهجور قبل أن يجمع الكل في المصنف الذي أهداه لي أوسكار و الذي ذيله بشجرتي العائلية التي تمتدّ من الرسول مروراً بعلي وفاطمة وانتهاءً عند السلالات القريبة ، شهريار المغرور والملياني المقتول . لكنهم من أين أتوا بكل هؤلاء الصحابة والأنبياء والشياطين الذين ربطوني بهم ؟ من قال إنهم لا يعرفون ؟ بارك الله فيهم . يملكون قدرة تحويلك إلى نبي كما يمكنهم أن يحولوك إلى مجنون مطارد في الشوارع أو مجرم مطلوب من طرف العدالة الدولية .

كان الإمام نوح ولد الملياني من حين لآخر يسلّم مقبض الراية لسارة وينزل ليمسّ الرؤوس الصغيرة ويقبلها ثم يباركها ويركب من جديد . كان الناس يندفعون كالموج تجاهه بحثاً عن هذه اليد البيضاء التي لا تفنى ولا تموت ، مأخوذين به وبسلطانه العجيب على نيات

الناس . يأخذ طفلاً بهدوء وسكينة من بين ذراعي أمّه ، ينزع الثدي من فمه الصغير بعد ما يمسد على الحلمة ثم يضع إصبعه في فم الطفل وهو يتمتم في خاطره : من أين جاءت بكل هذا العنفوان ؟ هذا تفاحة وليس نهداً! ؟ . ثم يرفع الطفل عالياً باتجاه السماء وينظر إلى عينيّ أمّه المنذهلتين . يصرخ بصوت عال : سيكون إن شاء الله مثل الإمام الفاطمي نوح ولد المليانى . ثم يقبّله ويضعه من جديد بين يديها فتتمتم هي بنوع من حياء الخبيرة العارفة التي منحت جسدها مرارا لهذا المجنون لكي يتركها تمر نحو بابور الماريكان : إنه نوح يا سيدي . إنه من ذريتك . سمّيته باسمك لأنه من صلبك . فجأة يتأمل وجهها من جديد . يعرف صوتها . هاه! لهذا قلت لنفسي إنني رأيت هذا النهد في مكان ما . إنها "فنّانة" متنكّرة . كيف نسيت امرأة ملأت علي قسوة الوحدة و أكلت من خبزها و جسدها ؟

"نحن الملوك هكذا أينما ذهبنا نترك وراءنا الذرية التي تبني الأمجاد الضائعة" .

كان نوح يعني جدياً ما كان يقوله .

ثم عاد ليركب من جديد في سيارته التي صارت مكشوفةً . وقبل أن يأخذ مقبض الراية الكبيرة من يد سارة ، كانت يد أخرى خشنة تمتد إليه وتسلمه رسالة كانت مقتضبة . سيدي الفاطمي المنتظر ، الإمام نوح ، من سلالة بنت النبي ، لآلة فاطمة الزهراء زوجة علي . لا أريد شيئاً سوى أن تُنْجِيني من الخراب ، وتجعلني من خدمك إن شاء الله ، إنه سميع مجيب . ولد الحرام ، هاه! يريد أن يهفني ، هكذا ، بسرعة ، ينتهز فرصة وجوده بقربي ليصبح في لحظة واحدة أحد خَدَمي في البلاد البعيدة . هنا يموت قاسي ، يا ولد الحرام . عم بحرك كما عمته أنا لوحدي . واش من خير فيك ؟ واش راح تعطيني ؟

في حركة مسرحية تدرب عليها كثيرا مع سارة ، ألتفت نحو صاحب الرسالة بابتسامة محضرة لمثل هذه المناسبات .

- واش سماك الله ، يا عبد الله .

- احميدا القَلّيلْ يا صاحب المقام العالي .

- إن شاء الله ما يكون سوى خاطرك ، استحم بماء الله وتعمّق في اليمّ يتعمق حظك وبعدها تَعَالَ .

ابتسم أحميدا القلّيل بالكثير من النشوة والانتصار ، واندلع كالموجة نحو البحر ورمى بنفسه داخل أول موجة جبلية . كان فرحاً وسعيداً ولكنه لم يخرج أبداً ، حتى صرخاته المتتالية لم يسمعها أحد ، بينما ظل الموكب يواصل انحداراته بهدوء تحت راية ، كلما هبت الرياح ، زادت انفتاحاً واتساعاً ، وبرزت ألوانها وخطوطها أكثر . في لحظة من اللحظات ، كاد أن يلتفت إلى الوراء عندما سمع صوت امرأة وهي تصرخ ، عرفها من صوتها . لم يلتفت . هي الفنانة التي كانت تحمل بين ذراعيها طفلها : آه يا إمام الدنيا! لقد سميته باسمك ، ويا سيد المغفرة في الآخرة ، لا بد أنك تملك من يخبرك من الملائكة عن أسرارنا . سبحانك أنت والله ، سبحان الله على سرك وبهجتك ، سبحان الله فيك ، سُبْحَانَك . صوتها جعل الكثير من الناس يمدون رقابهم باتجاهها وهي تواصل صراخها الذي تحول إلى نحيب كبير . إنها كراماتك يا سيد المخلوقات . تأكد أنها هي ولكنه لم يلتفت أبداً نحوها ، بل ضغط على يد سارة التي كانت تقبض معه على قضيب الراية الكبيرة . ابتسم لها ، ابتسمت له ، رآها دافئة مثل فجر هذا الساحل ، شاهد في عينيها مويجات البحر التي صارت صغيرة ، صغيرة حتى انسحبتْ من البحر ، واستقرت في البؤبؤ .

منذ تلك اللحظة ، وقبلها بقليل ، تأكّد أكثر من أن الزمن السابق قد توقف . قد يكون من صلب الليلة السابعة بعد الألف ، لكنه زمن آخر بتفاصيله وأحلامه وأشواقه ورجاله ونسائه . زمن لا بحر له لا شعر له لا هواء له لا عمر له ولا هوى له ، سوى هوى السلطان و إرادة الإمام .

بدأت السيارة تقترب أكثر فأكثر نحو نهاية الشارع المزفّت الذي

يحوّطه الناس ، حيث الحوّامة التابعة للأسطول الأمريكي السادس الرابض في المتوسط . سوداء اللون مثل الخوف ، مزيّنة بالبالونات الملونة والأضواء الكثيرة . تنتظر وصول الركب . على جنباتها ستّة عسكريين مسلحين بأحدث الأسلحة وراية مفتوحة عن آخرها .

بعد لحظات طويلة توقفت السيارة المكشوفة عند سلّم الحوّامة السوداء . نزلت سارة بسرعة من Jeep بينما الإمام نوح التفت نحو الناس تأملهم جيداً ، أخرج منديلاً جديداً ومسح عينيه من المياه التي تكاثرت على جبهته العريضة ، معطياً الانطباع بأنه يبكي حزناً وألماً . ثم اقترب أكثر من الرمال ، حيث انسحاب الموجات الهاربة باتجاه عمق البحر ، و هناك وقف حيث انفتحت الراية المغروسة بجانب الحوامة بكل اتساعها و ظهرت كتاباتها التي يغلب عليها الخط الكوفي ، بكل وضوح :

مشيخة أمادرور الإسلامية، وحاكمها الفاطمي المنتظر، الإمام نوح. سلطان الدين والدنيا. اختبرني ربّي فأحسن اختباري. " لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم "

الرياح المحمّلة بمياه البحر كانت قد بدأت تعصف بقوة . لم يحرك نوح ساكنا و ظل ثابتا كالحجرة الصماء والناس في دهشة عارمة . ثبت الراية أكثر بمساعدة الحرس ، في المكان نفسه الذي يدعى "بلغة المهاجر" حيث أعطيت الأوامر للحوامة لكي تنزل . ثم أخرج كتيباً صغيراً من جيبه . "ديوان البهجة" ضحك قليلاً . تمتم . هذه نهايتك يا صديقي نوح المقتول . لقد انتهى مشوارنا المشترك آنستني وآنستك . هو ذا "ديوان الخطايا" أو "ديوان البهجة" أو "رباعيات الحاكم العاشق" . لك ما تشتهي و لي سلطاني . لم يعد أمرك يهمني . لقد أتعبتني مثل حجرة سيدي علي برَمضان الأندلسي . اذهب إلى أبعد جحيم ، لم أعد شاعراً لقد انتصر السلطان والإمام على صاحب الكلمات والأوهام اللذيذة .

ثم طوّح بالديوان الصغير ورماه في أقصى الفضاءات ، لترتطم كلماته بقسوة فوق موجات البحر المنهك تحت حيرة الحاضرين الذين لم يفهموا شيئاً مما كان يحدث أمام أعينهم . نفض يديه وأخذ عصا البانبو من جديد التي صاحبته مدّة نصف قرن ، وبدأ يحفر برأسها في مكان محدّد بصعوبة كبيرة . حتّى عرّى ما خفي من الأشياء ، ليخرج "بلغة المهاجر" تحت التصفيقات و الزغردات الكثيرة و العويل الذي بدأ يشبه عواء الذئاب . غسلها بماء البحر ثم قال : اذهبي أنت أيضا حيث لا رجعة . ثم رماها بكل قواه على أعلى موجة غطت أوجه جزء كبير من الحاضرين و سحبت الباقي نحوها .

وهو يضع رجله اليمنى على الأدراج الأُولى للمروحية السوداء ، سمع صوت النشيد البحري الذي كان يأتي من بعيد بصوت كأنه لعيسى الجرموني المقتول مع ربابته هناك . امرأة مخفية داخل هذا القفر ، كانت تتلو هذه الأحزان .

ليّام كيف الرّيح في البرّيمة .

غربي وشرقي مايَدُ مْشْ .

يا عيني كوني صابره عزّامه

والصّبر ثمّه والفرج قدّامه .

فجأة نزلت عليه كآبة غريبة ، وحنين يدخله كالبحر إلى أقصى عمق فيه . كان يشبه الخوف . نفض رأسه قليلا و لكنه لم يفلح في طرده .

"أوف ليس هذا وقت الشعر لقد تخلصنا منه نهائياً" .

على الحاكم أن يكون قوياً . هكذا تقول سارة دائماً . وأي خلل بسيط يودي بالسلطان إلى الهلاك . والله لن أترك لكم فجوة واحدة تحوّلونها إلى حفرة . جَايْكُمْ يا أولاد الكلبة ؟! انتظروني . بولوا في سراويلكم . الفاطمي المنتظر الذي حكى عنه عبد الرحمن في مصنفه

الضخم ، عن أخبار القوم الآفلين ، قادم بدون هوادة . أنا من سلالة فاطمة بالرغم من أنوفكم . لن أكون الرجل الذي خرج بالسوس من المتصوفة ويدعى التوربذي الذي عمد إلى مسجد ماسة بساحل البحر هناك ، وزعم أنه الفاطمي المنتظر . ومن المسجد كانت دعوته الأُولى ، قبل أن يدسَّ عليه كبير المصامدة عمر السكسيوي من قتله ، خوف الفتنة في البربر . هو ذا آخر السلالات الفاطمية يا أبناء القحبة انتظروني . سأخرج من عيونكم المرعوبة ، ومن صدوركم المشقوقة ، ومن هزائمكم . خمسون سنة انتظاراً ، رصيدي المنفى الكبير ، وجريمة موصوفة في البحر ضد زنجية استهلكتني ، وزرقة أصبحت ذابلة ، وديوان من شعر الخطايا والبهجة ورباعيات الحاكم العاشق يأخذني كلما عبرت الساحل وشعرت بالحنين والوحدة ، وقرنان خرجا من عظمة الرأس هما الإشارات الأسطورية للسلطان .

"أنا قادم بدون هوادة" .

تزحلق داخل الحوامة نهائياً . شعر بالحرارة ، تمنّى لو ركب سفينته التي صنعها بقلبه وعذابه وبحره الذي حال معه ، لكنها تعليمات أوسكار : تأخذك الحوامة إلى السفينة في عمق البحر وبعدها تلحق سفينتك ومعها تعبر باتجاه بلادك وحنينك . فهذا الغاشي والغاشي الذي هناك . لا يعرف قيمتك . فهو لا ينقاد إلاّ بالسحر والخرافة والأسطورة والدِّين . كل شيء منظم . والبحر لا يُلْعَبُ معه .

شدّ حزام التشبيت في مقعده داخل الحوامة وبدأ يتأمّل سحرها واتقانَها . منذ خمسين سنة لم يركب حوامة . الدنيا تغيّرت كثيراً . المضيفة صغيرة و جميلة . مضيفة في طائرة حربية ؟ جميل . تأمّلها من رأسها إلى قدمها ، لكن اللغة وقفت بينه وبينها . أحسّت به سارة فترجمت له كلمات المضيفة تحت ضجيج المحركات الذي كان يصمّ الآذان .

- إنها تقول لك إن شكلك جميل و يوحي بأنك من سلالات الملوك .

ضحك قليلاً في أعماقه . ولم يبرز على شفتيه إلاّ ابتسامات صغيرة كما علمته سارة . أوف أيّة سلالة ؟ قال في خاطره . ذئب البراري . لولا تدخّل أوسكار وصناعته لتلك الشجرة العائلية المقدّسة ؟ لَصِرْتُ مثل الحيوان البرّي و لبقيت داخل ذلك القفر حتى الموت .

العاصفة الآن تدمدم بعنف كالزلزال وازدادت قوة الرياح العاتية . رياح الجبل الأسود و الشمال المثلج .

لقد بدأت القيامة التي تحصد كل هذه المخلوقات الزائدة . إني أسمع نعيق سفينة نوح وهي تتحرّك محمّلة بالبشر . نوح لم يأخذ كل من هبّ ودبّ . من أين أوكّل هذه الهوايش التي تنسى فعل الخير بسهولة . عندما ما نبدأ رحلة العودة البحرية وأنتقل إلى السفينة ، سفينتي ، سأدقق كل شيء ولن أحتفظ إلاّ بمن أقرأ في عينيه أنه سيحفظ مجدي ، أما البقية فستكون شهوة البحر و الأمواج الجائعة . هكذا قالت سارة و هكذا أؤكد . لن ألعب بالنار التي أكلت شاعر الخطايا و الملياني ولد شهريار بن المقتدر .

ازدادت محركات الحوامة السوداء أكثر و زادت رعشة الإمام نوح التي سرعان ما تحولت إلى هدهدة و غفوة غابت معها كل الأصوات المزعجة . مسّد على لحُيَتِه التي قصّتها له سارة بشكل حاخامي ، فانسدلت بانتظام تحت ذقنه لتكوّن رأساً مثل الحربة و لم يسمع إلاّ تكسر الأمواج وهي ترتطم على جدار القلعة بقوة . ثم بدأت هذه الأصداء تتلاشى شيئا فشيئا ليستكين على وقع خَطوات المسلحين الذين التحقوا بداخل الحوامة وصرير الأبواب وهي تنزلق للانغلاق نهائياً ، لتبدأ بعدها عملية الصعود السريع بشكل عمودي مع ميلان خفيف على اليمين باتجاه عمق البحر حيث ترسو السفينة العمياء داخل الغيمة الكثيفة والتي لم تغير موقعها منذ خمسين سنة .

"ها هو ذا الفاطمي المنتظر يعود في الألف الثالث ليُغَيّر حال الدنيا التي نستْ نفسها" .

عندما ارتفعت الحوامة عالياً ، شعر بالبحر يصغر ، بالساحل يتمادى وينسحب ، بالبنايات الخشبية والقصبية والحجرية البيضاء تضمحل وتتحوّل إلى نِقاط صغيرة ، ثم رأى الجموع وهي تأتي من كل الجهات ، تتبعها بسرعة كثيفة الموجات الجبلية العالية التي كانت تمسح الطريق المعبّد وتمحو العلامات البريّة داخل هذا الساحل ، وتزحف بدون توقف نحو المرتفعات حتى شجرة عيسى الجرموني . شاهد الجبل الأسود وبراكينه و شهبه التي كان يقذفها في كل الجهات . بعض حممه كانت تزحف نحو البحر . الناس يركضون بدون توقف ، في كل الجهات ، ما بين الجبل و البحر ، تماما حيث الراية المغروسة في المكان الخرافي الذي يدعى "بلغة المهاجر" التي تقول الرواية الجديدة التي أصبحت متداولة ، أن حنيناً إلى الله أخذ الأمير الفاطمي نوح ولد الملياني فبكى كثيراً ودفن هناك بلغته ليتذكر حنين المكان ثم رماها نحو البحر ليصير بردا و سلاما على سكان أمادرور الذين لم يتوقفوا عن الزحف نحو الراية التي كانت ترفرف منفتحة على آخرها بألوانها الخضراء والمشتعلة وقد خطت عليها خطوط الدين و السلطان :

مشيخة أمادرور الإسلامية، وحاكمها الفاطمي المنتظر، الإمام نوح. سلطان الدين والدنيا. اختبرني ربّي فأحسن اختباري. " لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم "

انكفأ الأمير الفاطمي نوح ذو القرنين على نفسه ولم يتذكر شيئاً سوى كلمات أوسكار الأخيرة :

" الغاشي اللي هنا وهناك ، لا يعرف قيمتك . فهو لا ينقاد إلاّ

بالسحر والخرافة والأسطورة والدين . "

* * *

قلعة البحر

(بلاد الواق واق ، في الألف الثالث من سنة الطوفان الأولى) .

الفهرس